

مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ

عبد الله عبد العزيز بن إدريس

كلية الآداب - جامعة الملك سعود

الناشر: عمادة شؤون المكتبات - جامعة الملك سعود
ص . ب : ٢٤٥٤ الرياض - المملكة العربية السعودية

أصل هذا الكتاب رسالة مقدمة من المؤلف بعنوان :

مجتمع المدينة المنورة وتنظيم القبائل سياسيا واجتماعيا
في عصر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم (١ - ١١ هـ / ٦٢٢ - ٦٣٣ م)

للحصول على درجة الماجستير في التاريخ من جامعة الرياض (الملك سعود حاليا) .
وقد منح الدرجة من قبل مجلس الجامعة) في جلسة ٣٠ بتاريخ ١٣٩٩/٧/٧ هـ (١٩٧٩/٦/٢ م) .

© ١٩٨١ م جامعة الملك سعود

جميع حقوق الطبع محفوظة . وغير مسموح بطبع أي جزء من أجزاء هذا
الكتاب ، أو تخزينه في أي نظام لحزن المعلومات واسترجاعها ، أو نقله
على أية هيئة أو بآية وسيلة ، سواء كانت إلكترونية أو شرائط ممغنطة أو
ميكانيكية ، أو استنساخاً ، أو تسجيلاً ، أو غيرها إلا بإذن كتابي من
صاحب حق الطبع .

الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢ م) .



شكر وتقدير

أحمد الله وأشكره كثيرا، على توفيقه وامتنانه، الذي يسر لنا أمر الانتهاء من هذا البحث وقامه، في صورة نرجو أن تكون قريبا من الكمال. ثم يسعدني أن أتقدم بوافر الشكر وأجله، إلى أستاذي الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري، الذي كان، أثناء عملي معه، نعم الموجه الفاهم، والعالم المتواضع. وذلك قد مكنتني من الاستفادة كثيرا من علمه وخبرته. كما يسعدني كثيرا، أن أتقدم بالشكر الجزيل، لكافة جهاز جامعة الرياض - على ما وجدته - أثناء دراستي - من تشجيع أدبي ومعنوي، وحرص على تقديم جميع التسهيلات اللازمة، لخدمة هذا البحث. حيث كان لذلك أعظم الأثر، في توفير المناخ العلمي المتكامل. مما مكنتني من العمل براحة نفسية، وهدوء بال، وحرص على مواصلة البحث بهمة ونشاط. وأخص بالذكر معالي مدير الجامعة الاستاذ الدكتور عبد العزيز الفدا، وكذلك أصحاب السعادة وكلاء الجامعة الأجلاء، وسعادة عميد كلية الآداب الدكتور عزت خطاب ومن سبقه من عمداء الكلية وسعادة وكيل الكلية الدكتور عبد العزيز الهلابي. كما أخص بالذكر رئيس وأعضاء مجلس قسم التاريخ المحترمين بكلية الآداب، وسائر منسوبي الكلية، هيئة التدريس والموظفين، على تعاونهم المباشر وغير المباشر، أثناء تعاملتي معهم في مجال الدراسة. كما يطيب لي أن أشكر سعادة عميد شؤون المكتبات الدكتور أحمد الضبيب وجميع المسؤولين في مكتبة كلية الآداب والمكتبة المركزية وقسم المخطوطات بجامعة الرياض، وخصوصا الصديق الاستاذ صالح الحجى، رئيس قسم المخطوطات، على مالهته منهم من حسن التعامل والمساعدة، أثناء دراستي. كما أشكر جميع من تعاون معي من المسؤولين في المكتبات التي زرتها داخل المملكة وخارجها، وأخص بالذكر الاستاذ علاء الدين أحمد العاني، بالمتحف العراقي ببغداد. كما يطيب لي أن أشكر الرسام بقسم الجغرافيا السيد عثمان ساتي، على تعاونه معي في رسم خرائط البحث. وكذلك أشكر السكرتير بقسم الاجتماع، بكلية الآداب، سيد محمد رجب، الذي تولى طباعة هذا البحث، واجتهد في عمله.

والله المولى ونعم النصير. ، ، ،

المحتويات

الصفحة

شكر وتقدير هـ

المقدمة ١٢-١

الباب الاول

عناصر السكان في المدينة المنورة

خلال العصر النبوى

الفصل الأول : دراسات تمهيدية ٢٧-١٥

أولا - الجغرافية التاريخية للمدينة مع الاشارة لأسمائها ١٧

ثانيا - أهمية موقع المدينة الاقصادى بين الشمال والجنوب ٢٥

الفصل الثاني : عناصر السكان في المدينة قبيل الاسلام وبعده ٩٨-٢٩

١ - اليهود ٣١

٢ - الأوس والخزرج وحلفائهم من العرب ٥٥

٣ - الموالى والعبيد ٧٣

٤ - قريش وثقيف ٨٠

٥ - المهاجرون من قبائل وأفناء العرب ٩٠

الفصل الثالث : الأوضاع العامة للسكان في المدينة بعد الهجرة ١١٤-٩٩

أولا - النواحي الاجتماعية العامة ١٠١

- الدعوة إلى الهجرة ١٠١

- الاستعداد النفسى والسياسى لنشر الاسلام ١٠٢

- التكيف في المجتمع المدنى بالنسبة للمهاجرين ١٠٣

- الصعوبات الاجتماعية والاقتصادية الناجمة عن الهجرة ١٠٥

- تضافر الجهود في العمل ١٠٧

- الترابط والتعاون في المجتمع المدنى ومظاهر ذلك ١٠٨

ثانيا - العلاقات الاجتماعية بين السكان ١١٠

- علاقات المصاهرة بين قريش والأنصار ١١٠
- علاقات المصاهرة بين قريش والقبائل المهاجرة ١١٠
- العلاقات الاجتماعية بين الأنصار وسائر القبائل ١١٣
- المجالس والأندية العامة ١١٣

الباب الثاني

التنظيم السياسي والإداري والاجتماعي للقبائل

خلال العصر النبوي

- الفصل الأول: مراحل التنظيم ١١٧ - ١٤٧
- مقدمة عن مراحل التنظيم ١١٩
- ١ - التنظيم العشائري ١٢٢
- ٢ - التنظيم الجماعي ١٣٠
- ٣ - عصية الموطن أو الأرض ١٤٤
- الفصل الثاني: تخطيط المدينة ومنازل القبائل فيها خلال العصر النبوي ١٤٩ - ١٨١
- أولا - العمران في موضع المدينة وذكر خطط الأنصار قبيل الهجرة وبعدها ١٥١
- ثانيا - عوامل اختيار موضع المدينة وأصالة تخطيطها ١٦٦
- ثالثا - التطور في تخطيط المدينة وسكنى المهاجرين مع الإشارة لمساحة المدينة ١٦٩
- رابعا - لمحة عن أثر تخطيط المدينة على مدن الأمصار ١٧٧

الباب الثالث

الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية

في المجتمع المدني خلال العصر النبوي

- الفصل الأول: مظاهر الحياة الاجتماعية ١٨٥ - ١٩٩
- أولا - مستوى المعيشة مع إشارة موجزة إلى أهل الصفة ومنازل الوفود ١٨٧
- ثانيا - اعتماد الناس في المدينة على الخدم والموالي لقضاء أمورهم ١٩٦
- الفصل الثاني: الحالة الاقتصادية في المدينة المنورة خلال العصر النبوي ٢٠١ - ٢٢٥
- أولا - الزراعة ٢٠٣
- ثانيا - التجارة ٢٠٨
- ثالثا - المهن والحرف العامة ٢١٩
- الفصل الثالث: لمحات عن الطابع العام لمجتمع المدينة خلال ٢٢٧ - ٢٤٤
- العصر النبوي في النواحي العلمية والثقافية ٢٢٩
- ١ - التعليم ٢٢٩
- ٢ - دور الشعر في نشر الدعوة ٢٣٢

الموضوع	المحتويات	الصفحة
٣ - طابع الغناء في المدينة	٢٣٤
٤ - رياضة السبق والصيد	٢٣٥
٥ - اللباس	٢٣٦
٦ - المظهر العام للصحابة	٢٣٩
٧ - الأسرة والبيت	٢٤٠
٨ - الطعام والشراب	٢٤٣

مصادر ومراجع البحث

أولا - المخطوطة	٢٤٧
ثانيا - المطبوعة	٢٥٠
ثالثا - الرسائل الجامعية والدوريات والموسوعات ودواوين الشعر	٢٦٤
رابعا - الأجنبية	٢٦٦

الملاحق والخرائط

ملحق رقم (١) إحصائية تقريبية لعدد المشهورين من الصحابة من سائر القبائل في

المدينة خلال العصر النبوي	٢٦٩
ملحق رقم (٢) كتاب النبي (ص) بين المهاجرين والأنصار واليهود	٢٧٣
ملحق رقم (٣) نموذج لكتب النبي (ص) لملوك وعظماء العالم	٢٧٥
خريطة موقع المدينة من جزيرة العرب	٢٧٦
خريطة تقريبية لخطط القبائل الساكنة في المدينة خلال العصر النبوي	٢٧٧
خريطة تبين أسماء المواضع التاريخية في المدينة	٢٧٨
مسقط لمسجد المدينة أيام الرسول موضحا حوله عدد الحجرات	٢٧٩

مقدمة

ظل الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، بمكة - قرابة - ثلاث عشرة سنة - منذ أن بعثه الله تعالى بالنبوة، إلى الناس بشيرا ونذيرا - يدعو إلى دين الله، الإسلام. وكان خلال تلك الفترة، يتدرج بالناس في نشر الدعوة، ليكون ذلك أدعى لتفهمهم وعدم نفورهم من هذه الدعوة الجديدة.

وقد كانت أوضاع مكة الدينية والاقتصادية، غير مهيأة - حينذاك - لحمل سادتها على تقبل ما جاءت به دعوة محمد (ص)، من تعاليم ومبادئ، وقيم، كانت - جميعها - تتعارض مع ما كان سائدا، في محيطهم المحلي والخارجي، من نظم وأعراف واعتقاد. لهذا شعروا أن هذه الدعوة، سوف تسلبهم ما كان لهم من هيمنة دينية واقتصادية على معظم القبائل العربية، الذين كانوا - في معظمهم - يدينون لقريش - أهل الحرم وقطان مكة - بهذا النفوذ القوي، للمكانة الكبيرة التي تحتلها الكعبة، ومشاعر الحج في نفوسهم. بالإضافة إلى دور قريش المرموق، في الحفاظ على تجارة معظم قبائل جزيرة العرب، قائمة ومزدهرة. وذلك لسبقهم في أخذ الضمانات الدولية، باستمرار التبادل التجاري، بين جزيرة العرب والخارج. وذلك عن طريق حماية قوافلها - عند مرورها بين القبائل والدول المحيطة - بما عرف بالإلاف، ورحلات الشتاء والصيف.

ومع أن مشركي قريش، قد عرفوا، بأمر دعوة محمد - في أول الأمر - إلا أنهم لم يلقوا لها بالا، ولم يعيروها أهمية كبيرة. ثم إن سادتهم - فيما بعد - حين جهر الرسول محمد (ص)، بالدعوة، أدركوا أن دعوة الإسلام تحد لنفوذهم وسيادتهم بمكة، خصوصا، وأن من مبادئها الأساسية، إفراد الله بالعبادة، وتحقير ما كانوا يعبدون مع الله تعالى. هذا بالإضافة إلى ضمان الدعوة الإسلامية لحقوق الإنسان، وتحقيق المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات.

ولقد كان لانتشار هذه المبادئ - في مجتمع مكة - أعظم الأثر في دخول كثير من الموالي والعبيد والشبان الطموحين، في الإسلام، عن رغبة وإيمان واعتقاد. وقد زاد هذا من حنق سادة قريش وأنفئهم، فصبوا جام غضبهم على أتباع هذه الدعوة، وآذوهم إيذاء شديدا. ولم يستثنى إلا من كان له سند قوي فيهم - يؤازره ويحميه - فإنه يسلم

مجتمع المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

من بعض الأذى وليس كله . ولما رأى الرسول (ص)، اشتداد الأذى على أصحابه المضطهدين، أمرهم بالهجرة إلى الحبشة (وهي مملكة النجاشي، الذي كان على دين النصرانية).

ولقد أحدثت الهجرة إلى الحبشة، أصداء كبيرة في جزيرة العرب، وبلاد الحبشة . وبذلك اكتسبت أهمية وأبعادا عظيمة . حيث أنها مكنت من نشر دعاية حسنة للإسلام والمسلمين، في بعض أرجاء العالم النصراني، كما أضفت على موقف الرسول محمد (ص)، وأصحابه، أهمية سياسية، واعترافا دوليا بزعامته الجديدة على أمة الإسلام.

وكما سبق أن ألمحنا، فإن ظروف مكة الدينية والاقتصادية والاجتماعية، لم تكن مهية أو قادرة على احتضان الدعوة الإسلامية، مع بذاية انتشارها . ولذلك بدأ الرسول، صلى الله عليه وسلم، كصاحب دعوة للعالمين أجمع، يبحث عن مكان أفضل، يهيئ لدعوته الانتشار، ويضمن سهولة بناء دولة الإسلام الجديدة، على أسس قوية وثابتة . ولهذا عرض نفسه على القبائل في المواسم، طالبا منهم الدخول في الإسلام، ومؤازرته، ولهم خيرا الدنيا والآخرة . إلا أن الرسول (ص)، لم يلق منهم إلا الإعراض والاستهزاء . على الرغم من أن العرب - في طول جزيرتهم وعرضها - كانوا - قبيل البعثة - يبدون اهتماما كبيرا بالأمر المستهدفة تصحيح عقائدهم، وطريقة إيمانهم بالله . ونستنتج ذلك مما ذكر عن وجود اعتقاد بين العرب، بقرب ظهور نبي منتظر، اسمه محمد . ولهذا سمي كثير منهم أولاده بهذا الاسم في الجاهلية، تيمنا باسمه، ورغبة أن يكون هو النبي المنتظر . ولعلنا من هذا، نتلمس حقيقة الانقياد والتبعية لنفوذ قريش وتأثيرها على معظم القبائل . مما جعلهم يعطلون ملكة التفكير لديهم ويتخلون عن نصره محمد والايان بدعوته، لا لشيء، سوى أن قومه قريش لم يؤمنوا به . ولم يمكث الرسول (ص)، بمكة، كثيرا - على هذه الحال - فقد قبض الله تعالى له - في السنة العاشرة من البعثة، تقريبا - جماعة من أهل يثرب (الأوس والخزرج) حضروا الموسم، فعرض عليهم الرسول (ص)، الإسلام، فقبلوه . ثم رجعوا إلى يثرب، فتكلموا بالإسلام . فلاقى حديثهم قبولا لدى البعض من قومهم . ثم انتشر الإسلام، في يثرب، انتشارا سريعا جدا، حتى قيل : أنه لم يبق دار إلا وفيها ذكر لرسول الله، صلى الله عليه وسلم . وقد أرجع معظم المؤرخين المسلمين - كابن اسحاق - دواعي هذا الإقبال السريع، من قبل الأوس والخزرج، على الدخول في الإسلام، إلى عوامل اجتماعية، تمثلت في طبيعة تركيب السكان في يثرب، من العرب، المتنافسين على السلطة، واليهود، الذين لم يكن وضعهم حينذاك - مستقرا . فقد كانوا - على ضعف موقف الأوس والخزرج، النسبي - يخشون على مركزهم، وما بأيديهم من ثروات طائلة . هذا بالإضافة إلى ما ذكر عن إيمان الأوس والخزرج بظهور نبي منتظر، فكانت اليهود على اعتبار أنهم أهل كتاب وعلم، وأن الأوس والخزرج وثنيون - توعدهم به، كلما أحسوا بقوتهم، أنهم سيتبعونه ويقتلونهم به .

وقد ساعدت تلك الظروف في يثرب، على سرعة إقبال الأوس والخزرج في دخول الإسلام، حتى فشا فيهم، خلال مدة تقل عن ثلاث سنين. وكانوا خلال تلك الفترة، حريصين على تعلم القرآن والتفقه في الدين. ولذلك جاءت مسارعتهم - في السنة الثالثة عشرة للبعثة - لموافاة الرسول (ص)، في الموسم بمكة. وقد عقدوا العزم على مبايعته ودعوته إليهم، مع أصحابه، ينشر دعوة ربه في يثرب، أمنا مطاعا. وعرفت هذه البيعة باسم بيعة العقبة الكبرى، حيث ترتب عليها هجرة الرسول إلى يثرب (المدينة) مع أصحابه، فتكون، نتيجة لهذه الهجرة، أول مجتمع إسلامي متكامل، قائم على أسس الدين الجديد، وتعاليمه ونظمه السامية.

ولقد اتفقت - لحسن حظي - أراء أستاذي المشرف الاستاذ الدكتور عبد الرحمن الطيب الانصاري، مع ما كان يشغل تفكيري حول أهمية تناول موضوع مجتمع المدينة المنورة، منذ بدء الهجرة النبوية حتى وفاة الرسول (ص). وذلك نابع عن إيمان عميق، بأن هذا المجتمع الإسلامي - في نظمته وخطته - إنسا هو صورة أصيلة للمجتمعات الإسلامية، التي تشكلت بعد الفتوحات الإسلامية. وأن الاختلاف - إن حصل في بعضها - لا يعد وبعض التغييرات التزويقية، التي لا تمس جوهر الشيء. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا نرى، أن معرفة حقيقة التراكم الثقافي والحضاري لدى الشعوب، قد لا يتيسر الحصول عليها ما لم نلم بشيء عن كيفية وطبيعة حدوث هذا التراكم، وعلى وجه الخصوص، معرفة الأساس، وتتبع مراحل تكوينه. ومن هذا المنطلق - آخذين في الاعتبار، أن موضوع هذه الرسالة، من بواكير الرسائل المقدمة لقسم التاريخ بكلية الآداب - فقد عقدنا العزم، أن يكون موضوع البحث، لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، مختص بدراسة مجتمع المدينة المنورة - خلال العصر النبوي - في نظمته الادارية السياسية والاجتماعية والاقتصادية. راجين من الله تعالى، أن يكون في هذا الجهد المتواضع، مساهمة في طريق البحث العلمي الشاق، وأن يكون حلقة متينة مباركة، في سلسلة كتابة التاريخ الإسلامي، على أسس علمية وموضوعية.

أما عن الوسائل التي اتبعتها لكتابة هذا البحث، فقد مرت بمراحل ثلاث. الأولى، مرحلة القراءة العامة في نفس الموضوع أو حول ما يمسّه، من قريب أو بعيد. والمرحلة الثانية، اقتصرت قراءتي فيها على مواضيع محددة، تحدم صلب البحث وتقويم معلوماته. وكنت في هذه الأثناء، أجمع كل ما أرى أنه مفيد وصالح، مستخدما جزايات (أفياش)، عملت لهذا الغرض. ولم تكن المرحلة الأخيرة تختلف كثيرا عن سابقتها، اللهم إلا أن قراءتي في هذه الأثناء، كانت عبارة عن عملية نقدية للمعلومات المجمعة، مع حرص على المقارنة بين المصادر.

وكان تركيزي - في البداية - على قراءة كتب السيرة والتراجم والطبقات وأساء الصحابة. لما في مادتها من ثروة عظيمة، لمعرفة طبيعة المجتمع، من خلال سلوك أفرادهم وأعمالهم. هذا بالإضافة إلى مطالعتي كتب التاريخ العام،

وتواريخ المدن وجغرافية البلدان. كما أنى لم أغفل الرجوع إلى أهم وأصدق مصدر إسلامي في أمور العقيدة والحياه، وهو كتاب الله، القرآن الكريم. إلى جانب مراجعتي لكتب الفقه والحديث والتفسير، وغير ذلك من القراءات التي وجدت أنها تساعد على معرفة جوانب البحث والسير فيه على هدى وبصيرة.

ومما ساعد على تيسر هذه الكتب بين يدي، مراجعتي الدائبة لكثير من المكتبات مثل، مكتبة جامعة الرياض المركزية، وقسم المخطوطات فيها. إلى جانب ارتيادي لمكتبة كلية الآداب، وكذلك بعض المكتبات العامة في الرياض كالمكتبة السعودية والمكتبة الوطنية، بالإضافة إلى ما كانت تقدمه - في بعض الأحيان - مكتبتى المتواضعة من مراجع وبعض المصادر والدوريات. ثم إن مراجعتي للمكتبات، لم تقتصر على ما كان داخل الرياض وحدها. فقد كانت لى بعض الوقفات على ما كان في مكتبات المدينة ومكتبة الحرم المكي. إلى جانب الزيارات التي قمت بها خارج المملكة العربية السعودية، لمكتبات العراق ومصر وتركيا وبريطانيا. وكان قيامى بهذه الرحلات - خارج المملكة، قد تم - كما هو معلوم - على نفقة جامعة الرياض، التي كان لى الشرف الكبير أن أحظى برعاية المسؤولين فيها، بصفتى أحد معيديها، وأحد الطلاب الذين يتلقون دراستهم العليا بين جناباتها.

وقد خرجت من هذا الاطلاع الواسع - ولله الحمد - بحصيلة جيدة، ومعلومات مرضية، مكنتنى من العمل والشروع في الكتابة. حيث وضعت على هذا الأساس - إلى جانب ما اخترت في ذهني من آراء وتصورات للموضوع - الصورة النهائية للبحث، عنوانا وموضوعا ومنهجاً.

أما من ناحية العنوان، فهو: مجتمع المدينة المنورة وتنظيم القبائل سياسياً واجتماعياً في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم. أما الموضوع، فيتناول بالدراسة، إبراز نواحي الأصالة في التخطيط وتنظيم القبائل، في المجتمع المدني خلال العصر النبوى. كما يتعرض - ضمن تناول مجتمع المدينة بالدراسة - لذكر بعض العادات والتقاليد، إلى جانب ذكر طبيعة وتطور النشاط الاقتصادى والاجتماعى. وكما هو واضح - من خلال ما ذكرنا - فإن الموضوع يعالج أحوال مجتمع المدينة، خلال الفترة الواقعة بين بدء هجرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، مع أصحابه إلى يثرب سنة ٦٢٢م، إلى السنة التي انتقل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، عام ١١هـ/ ٦٣٢م. ومن الواضح أن هذه الفترة، التي تناهز العشر سنين، تعد فترة قصيرة جداً في عمر التنظيمات وبناء الدول. ولهذا برزت أمامنا - بادية الأمر - حقيقة صعوبة تناول هذا الموضوع، الذى يتطلب - ولا ريب - من الباحث، صبراً كبيراً، وعملاً دؤوباً، للملاحقة التطور السريع في تتابع الأحداث. وقد كان توفيق الله ثم الرغبة الصادقة للخدمة في هذا المجال المشرف، أعظم دافع لنا في المضى بهمة ونشاط، لإنجاز ما أقدمنا عليه.

أما بالنسبة للمصادر والمراجع، التي اعتمدنا عليها عند كتابة هذا البحث، فلقد وجدنا أن في كتب الطبقات والتراجم وأسماء الصحابة، مادة غنية جدا وذات فوائد كثيرة، لمن أراد أن يبحث في مجتمع تلك الفترة. سواء في النواحي السياسية أم الاجتماعية والاقتصادية. ولقد وجدنا، أن من المتعذر علينا، أن نستوعب - قراءة - كل الكتب التي صنف في علم الطبقات والتراجم وأسماء الصحابة. فكان الرأي، انتخاب أحدها، ليدرس بعمق وتمحيص، على أن تتوفر فيه شروط تميزه عن غيره من التصنيفات، التي عنت بذكر أسماء الصحابة، واضعين نصب أعيننا ما ذكره ابن الاثير من أن الناس، قد جمعوا في أسمائهم «كتبا كثيرا ومنهم من ذكر كثيرا من أسمائهم في كتب الانساب والمغازي وغير ذلك، وأختلفت مقاصدهم فيها، إلا أن الذي انتهى إليه جمع أسمائهم الحافظان أبو عبد الله ابن منده وأبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهانيان، والامام أبو عمر بن عبد البر. . . وقد أتى بعدهم الحافظ أبو موسى محمد بن أبي بكر بن أبي عيسى الأصفهاني، فاستدرك على ابن منده ما فاتته في كتابه، فجاء تصنيفه كثيرا نحو ثلثي كتاب ابن منده فرأيت أن أجمع بين هذه الكتب وأضيف إليها ما شذ عنها مما استدركه أبو علي الغساني على ابن أبي عمر بن عبد البر وكذلك أيضا، ما استدركه عليه آخرون»^(١).

ولقد رأينا أن أفضل تصنيف يمكن أن يكون العمود الفقري لدراسة كتب ما صنف في أسماء الصحابة، كتاب ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م)^(٢). المعروف باسم (الاصابة في تمييز الصحابة). فهو من الآثار القيمة في معرفة أحوال الصحابة ومجتمع المدينة المنورة على عهد الرسول (ص)، ولهذا «كان أجمع ما صنف في باب».

وقد شهد لابن حجر، بالحفظ والثقة والأمانة والمعرفة التامة والذهن الوقاد والذكاء المفرط وسعة العلم في فنون شتى، كما شهد له بأنه أعلم أصحابه بالحديث^(٣).

وكتابه، الذي رجعنا إليه: (الاصابة في تمييز الصحابة)، يقع في أربعة أجزاء^(٤). وكان منهجه في ترجمته للصحابة والنساء الصحابييات، يسير وفق نظام الترتيب على حروف المعجم. وأفرد الجزء الرابع للكنى والنساء. وبعد كتابه استيعابا لما في كتاب سلفه ابن الاثير (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م): (أسد الغابة في معرفة الصحابة) وقد أشار إلى أنه قد استدرك عليه، وزاد بنحو ١٣ ألف ترجمة.

وقد كانت استفادتي من كتاب الاصابة، كبيرة جدا، وعلى وجه الخصوص، في النواحي التنظيمية والاجتماعية، حيث أمدني بمعلومات، ربما أنها قد مرت علينا، أو مررنا بها، مر الكرام، بينما كانت تذخر بفوائد كثيرة في تصوير مجتمع المترجم لهم.

(١) أسد الغابة، ج ١، ص ٣ - ٤.

(٢) وابن حجر هو، أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد ويلقب بالاستاذ إمام الأئمة أبو الفضل الكتاني العسقلاني المصري ثم القاهري الشافعي ولد سنة ٧٧٣هـ بمصر ونشأ بها ودرس على كثير من الشيوخ في القراءات والحديث ومتعلقاته وحفظ المتن واللغة. (انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج ٢، ص ٣٦ - ٣٧).

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٢، ص ٤٠.

(٤) مطبعة السعادة، ط ١، القاهرة، ١٣٢٨هـ. وبهامشه كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م. وهناك طبعة، غير التي رجعنا إليها، تقع في ثمانية أجزاء، مطبعة السعادة، بمصر، ٢٣ - ١٣٢٥هـ. والجزء الثامن منها، خاص بتراجم النساء الصحابييات).

أما وقد ألمنا بشيء عن ابن حجر وكتابه الإصابة، كأحد المصنفات القيمة في أسماء الصحابة، فنرى أن نعرض بإيجاز للمصادر والمراجع الأخرى، التي اعتمدت عليها - بصفة عامة - في كتابة هذا البحث. وبالإمكان القول، إن هذه المصادر والمراجع - تسهلاً لعرضها - تنحصر في مجموعات، أولها، كتب السير والطبقات وأسماء الصحابة. ويأتي في مقدمة هذه المجموعة، كتاب (سيرة النبي، صلى الله عليه وسلم)، لابن اسحاق (ت ١٥١هـ/ ٧٦٢م)، وهي السيرة التي وصلتنا بتهذيب عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م)، وتعد، أقدم أثر وصل إلينا من آثار علماء الإسلام^(١). كما يعتبر ابن اسحاق من أوائل من جمع مغازي الرسول^(٢). وقالوا عنه: لا يزال في الناس علم ما عاش محمد بن اسحاق. وكان ثبتاً في الحديث عند أكثر العلماء. وأما في المغازي والسير فلا تجهل إمامته^(٣). وكان رجوعى إلى سيرة ابن اسحاق - عند كتابة هذا البحث - في الأمور التي تتعلق بإرهاصات الهجرة إلى المدينة، وتتبع خطوات البيعة الكبرى، التي عقدت بين الرسول (ص)، وبين أهل يثرب، الأوس والخزرج. وغير ذلك من الأمور، التي تعالج حركة البعث والغزوات والمعاهدات، خلال العصر النبوي. وقد رجعت أيضاً، إلى كتاب الواقدي (ت ٢٠٧هـ)، المعروف باسم (مغازي رسول الله). وقد شهد للواقدي بأنه كان صدوقاً^(٤) ثقة. وقد أفادني كتابه، فيما له علاقة بالتاريخ السياسي والحربي وبعض الأمور الاجتماعية، مثل طبيعة التكافل الاجتماعي ومستوى الحالة المعيشية في المدينة، خلال العصر النبوي. كما أن كتاب ابن سعد (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٥م)، (الطبقات الكبرى)، قد أمدني بمعلومات جيدة، فيما يختص بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية، وكذلك فيما يختص بالحالة الاجتماعية وطريقة العيش. خلال العصر النبوي. ويعد كتاب ابن سعد، من أوثق مادون في هذا العلم. كما أن كتاب ابن قدامة (ت ٦٢٠هـ)، (الاستبصار في نسب الصحابة من الانصار)، يعد من الكتب القيمة التي تعطي معلومات وافية عن قبيلتي الأوس والخزرج، وتذكر أنسابهم ودخولهم في الإسلام، ودورهم الكبير في احتضان الدعوة الإسلامية، وإقامة دولة الهجرة في المدينة. وقد اعتمدت على النسخة المخطوطة منه^(٥). رغبة مني في الاستفادة مما قد يدون على حواشيه من معلومات. هذا بالإضافة إلى رجوعي إلى كثير من الكتب في هذا الحقل مثل كتاب ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، (الاستيعاب في أسماء الاصحاب)، وكتاب ابن الاثير (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٨م)، (أسد الغابة في معرفة الصحابة)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م)، (السيرة النبوية)، والذهبي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م)، (سير أعلام النبلاء). وغيرها من الكتب التي سوف نثبت أسماءها آخر هذا البحث.

(١) انظر: ابن اسحاق: السيرة، ج ١، ص ١٠ - ١١ (مقدمة المحقق محمد محيي الدين عبد الحميد).

(٢) ابن اسحاق: نفس المصدر، ج ١، ص ٩ (مقدمة المحقق).

(٣) القنوجي: التاج المكلل، ص ١١١ - ١٢.

(٤) القنوجي: نفس المصدر، ص ١٢٣.

(٥) انظر النسخة المطبوعة، تحقيق علي نويض، بيروت، ١٩٧١م.

أما المجموعة الثانية من المصادر التي اعتمدت عليها واستفدت منها استفادة كبيرة، فهي كتب الفقه والحديث والتفسير، حيث أمدتني بمعلومات في غاية الدقة والفائدة. خاصة في معرفة أحوال المجتمع، الاقتصادية والاجتماعية، التي قد تصل إلى إلقاء الضوء على الأشياء الدقيقة والخصوصية، الجارية في المجتمع المدني، على عهد الرسول (ص). ويأتي على رأس هذه القائمة نخبة من أول ما دون في هذا المجال وأصحّه، مثل كتاب الامام مالك بن أنس «ت ١٧٩هـ/ ٧٩٥م». (الموطأ)، و(صحيح الامام البخاري) «ت ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م»، و(صحيح الامام مسلم) «ت ٢٦١هـ» وتفسير الطبري «ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م»، (جامع البيان عن تأويل آي القرآن). وغيرها من كتب السنن والحديث والفقه.

والمجموعة الثالثة، في مصادر ومراجع بحثنا، هي كتب التاريخ العام، مثل كتاب الطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م)، المعروف باسم (تاريخ الطبري). وكانت استفادتي من هذا الكتاب - على وجه الخصوص - فيما كتبه، في سيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، التي استوعبت المجلد الثاني من تاريخه، وتعد من أوثق ما دون في السيرة. هذا بالإضافة إلى كتاب ابن الاثير «ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٨م». (الكامل في التاريخ)، وكتاب ابن كثير «ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م»، (البداية والنهاية في التاريخ)، وابن خلدون «ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م»، المعروف باسم (تاريخ ابن خلدون)، وغيرها من الكتب، مما سوف نضيفه إلى ثبت المصادر والمراجع. وقد كانت استفادتي من تلك المجموعة - بصفة عامة - تتمثل في رجوعي إليها، إما للمقارنة بين النصوص ومعرفة تخريجها، أو لتفسير الغامض منها، أو شرح مجمله.

ولقد تطلبت طبيعة هذا البحث، الرجوع إلى كثير من الكتب التي تعالج شتى العلوم والفنون، وسنشير إليها في هذا التقسيم الرابع، باسم «العلوم العامة» مثل الأنساب واللغات والفنون والطب والآثار والوثائق والاحكام وغيرها. ولعل أبرز من يمثل هذه الفروع، البلاذري «ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م»، في كتابه (أنساب الأشراف)، وابن حزم «ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م»، في كتاب (جوهرة أنساب العرب)، وكذلك ابن دريد «ت ٣٢١هـ/ ٩٣٣م» في كتابه (الاشتقاق)، وابن منظور «ت ٧١١هـ/ ١٣١١م» في كتابه (لسان العرب المحيط)، وابن جليل (كان حيا سنة ٣٨٤هـ) في كتابه (طبقات الاطباء والحكماء). وسواهم ممن سيذكر في ثبت المراجع.

أما المجموعة الخامسة، في هذا التقسيم للمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها، فهي خاصة بالكتب التي تتحدث عن تواريخ المدن وتخطيطها وجغرافية البلدان. وقد حرصت كثيرا على قراءتها والاستفادة مما فيها من معلومات، وجدت أنها ذات مساس وصلة كبيرة بموضوع بحثنا. ومن هذه الكتب، المصنفات الخاصة بتاريخ المدينة المنورة نفسها، مثل كتاب ابن النجار (ت ٦٤٧هـ)، (أخبار مدينة الرسول المعروف بالدرة الثمينة في أخبار المدينة)، وكتاب المطري «ت ٧٤١هـ»، (التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة)، وكتاب المرجاني «توفي في سنة ٧٨١هـ»، (تاريخ هجرة المختار)، وكتاب السمهودي، «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى». كما حرصت على الرجوع إلى كتب الخطط، قديمها وحديثها، مثل كتاب المقرئ «ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م»، (المواظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار)،

وقد أفادني في عملية المقارنة بين خطط الأمصار. ويضاف إلى هذا بعض الكتب الحديثة في الخطط، مثل كتاب المستشرق لويس ماسنيون: (خطط الكوفة وشرح خريطتها). أما بالنسبة لكتب جغرافية البلدان، فيأتي على رأس هذه القائمة، الأصطخرى (توفي في منتصف القرن الرابع الهجري)، وكتابه، (المسالك والممالك)، وكذلك ياقوت الحموي «ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م» وكتابه (معجم البلدان). ففي مثل تلك الكتب تسنى لى معرفة معظم المواضع الجغرافية، في جزيرة العرب، التي وردت خلال البحث، مع محاولة للمقارنة بين أسائها في الوقت الحاضر. وسوف نطالع بقية هذه الكتب، سواء في تاريخ المدينة المنورة وخططها، أم في غيرها، مما له صلة بالموضوع - خططاً وجغرافية - في آخر البحث، في ثبت المصادر والمراجع.

هذا ولم يقتنى الرجوع إلى كتب الموسوعات والقواميس، ودواوين الشعر وبعض الدوريات العلمية المعتبرة. وهي المجموعة السادسة والأخيرة في هذه السلسلة من المصادر والمراجع، التي اعتمدت عليها عند كتابة هذا البحث.

أما بالنسبة للشكل المنهجي لهذا البحث، فنحب أن ننوه، بأننا بعد اختيار الموضوع، لم نضع أى مخطط مسبق للكتابة، إلا من واقع المادة التي جمعناها. ونحن بهذا، لم نحاول أن نضع أنفسنا في موضع اعتساف للحقيقة، حتى توافق رأينا أو فكرتنا المسبقة، وذلك فيما لو أننا قيدنا أنفسنا بمخطط للبحث، قبل أن نلم بالموضوع ونجمع مادته الكافية. وعلى هذا، فقد اقتضت طبيعة هذا البحث - من واقع المادة المجمعة - أن نقسمه إلى ثلاثة أبواب، كل باب يشتمل على عدة موضوعات، مدرجة في فصول بحسب منهجية الدراسة وارتباط موضوعها ببعض.

فبالنسبة للبواب الأول، فهو يختص بذكر عناصر السكان في المدينة المنورة، خلال العصر النبوي. ويضمن ثلاثة فصول، جاء الفصل الأول منها بعنوان «دراسات تمهيدية» ويشتمل على فقرتين، الأولى دراسة موجزة عن الجغرافية التاريخية للمدينة مع الإشارة لأسائها القديمة والإسلامية. والثانية تتناول موضوع أهمية موقع المدينة الاقتصادي بين الشمال والجنوب. وقد رأينا، أن من الأفضل، البدء بهذا الفصل، لتهيئة ذهن القارئ، ولكي تتجمع لديه بعض المعلومات عن النواحي الجغرافية والاقتصادية والطبغرافية في المدينة، ودور ذلك في عملية جذب أو طرد التجمعات السكانية فيها خلال العصور. وسيجد القارئ، أن الفقرة الأولى في هذا الفصل، تسلط الضوء على موقع المدينة الجغرافي من جزيرة العرب، كما تتعرض لذكر شىء عن مناخها وتضاريسها وطبيعة تربتها، التي تغلب عليها أشكال التربة البركانية أو الحرية. ولم يفتنا في هذه الفقرة، أن نخرج على ذكر أساء المدينة - قديماً وفي الإسلام - لما في ذلك من إشارة على أهمية - جغرافية وتاريخية واقتصادية - تؤكد حيوية منطقة المدينة. وذلك حين نجد، أن بعض أسائها، كان موغلا في القدم، وظل متداولاً إلى عصور متأخرة. أما في الفقرة الأخيرة، فقد حرصنا على التنويه بأهمية موقع المدينة الاقتصادي كمحطة تجارية، في الوسط الغربي لجزيرة العرب، على طريق القوافل التجارية. وهو الطريق الذي يربط - قبل الإسلام - بين الجنوب والشمال والشرق. كما أشير إلى مساهمة السكان - حينذاك - في النشاط الصناعي، الذي كان يقوم - في الغالب - على الزراعة، وخاصة النخيل، التي اشتهرت المدينة بزراعتها.

ويتناول الفصل الثاني، بالدراسة، عناصر السكان في المدينة، قبيل الإسلام وبعده. حيث يتعرض في الفقرة الأولى، لذكر قبائل اليهود، وحقيقة وجودهم في المنطقة، وطبيعة ذلك الوجود. وقد حاولنا التعرف على حقيقة، نسب بعض القبائل اليهودية. وناقشنا الفكرة التي تتعرض لذكر تهود بعض العرب. كما أننا، لم نغفل تقديم إحصاء تقريبي لأعداد اليهود. وكذلك تعرضنا لذكر وضعهم الاجتماعي والاقتصادي، قبيل الهجرة وبعدها. ولأنه كان معروفاً أن وجود اليهود في المدينة - بعد الهجرة - لم يدم طويلاً لأموالهم ونبوتهم. لهذا حاولنا، خلال البحث، أن نذكر طبيعة نواياهم تجاه الإسلام واتباعه في المدينة. كما أشارت الدراسة إلى مدى مكابرة وعناد معظمهم، في مسألة الايمان بمحمد رسول الله، مع أنهم كانوا على معرفة بعلامات نبوته، التي ذكرت في كتب أحبارهم. وختم الحديث عن اليهود، بإشارة إلى بعض العناصر الدينية غير اليهودية في المدينة بعد أن تم إجلاء معظم أفراد قبائل اليهود الكبرى عن المدينة. ثم وصل الحديث بعد ذلك في الفقرة الثانية، بذكر قبيلتي الأوس والخزرج وحلفائهم من العرب، حيث ذكر نسبهم وتفرعاتهم وزمن هجرتهم إلى المدينة من اليمن. كما تناولت هذه الفقرة، طبيعة العلاقات، التي قامت بينهم وبين اليهود إلى ما بعد الهجرة. وفي هذه الفقرة أيضاً، محاولة لإلقاء بعض الضوء على حقيقة صلة الأوس والخزرج بالقوى السياسية في الشام، ومدى استجابة ونجاح الأوس والخزرج للغزل السياسي الذي تعرضوا له، من قبل الروم، بغية استخدامهم ضد منافسيهم من الفرس وحلفائهم اليهود، كما أشير، في هذه الفقرة، إلى دور الأوس والخزرج وريادتهم في نصرته الإسلام، وكذلك دعوتهم رسول الله (ص)، وأصحابه، للهجرة إليهم معززين مكرمين. ولم يفتني أن أشير إلى وضع المنافقين، وهم فئة قليلة - معظمهم من الأوس والخزرج - رأوا أن استقرار الرسول ومعه المهاجرين في المدينة، يعد اغتصاباً لسيادتهم، وتعدياً على حقوقهم الوطنية، وكان على رأس هذه الفئة، عبدالله بن أبي بن سلول. وأخيراً تطرقت الدراسة إلى ذكر حلفاء الأنصار من العرب. حيث أشير إلى أسماء بعض القبائل التي كان لأفرادها حلف في بطون الأوس والخزرج، مع ذكر طبيعة وأسباب هذا الحلف. أما الفقرة الثالثة في هذا الفصل، فهي عرض لحالة الموالي والعبيد في المجتمع المدني، خلال العصر النبوي. كما تطرقت الدراسة إلى ذكر أهم مصادر هؤلاء. وكذلك ذكرت مهنتهم وحرفهم وشيئا عن تأثيرهم في المجتمع. وقد أفردت الفقرة الرابعة للحديث عن قبيلتي قريش وثقيف. حيث استهلكت بذكر الصلات القديمة بينهم. ثم تطرقت إلى تبيان طبيعة دخولهم الإسلام، ومن ثم طبيعة هجرتهم إلى المدينة. وقد أشير إلى منزلة قريش وثقيف في الإسلام، ودورهم الكبير في المشاركة، في معظم فعاليات المجتمع.

أما الفقرة الأخيرة في هذا الفصل، فهي مختصة بذكر سائر المهاجرين من قبائل العرب وأقنائهم. وقد حاولنا، إعطاء صورة تقريبية للإحصاء التقريبي العام لهؤلاء، وكذلك لعامة الصحابة في المدينة. مشيرين في هذا، لمعدل تدفقهم على المدينة. وكذلك ذكر أسباب ضالة أعداد المهاجرة لبعض القبائل، وتفضيلهم البقاء في بلدانهم.

ولما كان لعامة المهاجرين، كغيرهم، نشاط واسع في المجتمع المدني. لهذا أشير في هذه الفقرة، إلى هذا النشاط، في نواحيه العامة، الدينية والعلمية، والحربية وغير ذلك.

أما الفصل الثالث، فهو عن الأوضاع العامة للسكان في المدينة، بعد الهجرة. حيث تناولت الدراسة - في الفقرة الأولى - النواحي الاجتماعية العامة، مثل الدعوة إلى الهجرة، كعمل ضروري ولازم لخلق مجتمع متحضر ومتكامل، وقادر على حماية دينه وتبليغه للعالمين، حين يدعى إلى ذلك في الحال. ومثل التهيئة النفسية والسياسية بين المسلمين ليكونوا قادرين على حماية الإسلام ونشره. وكذلك تناولت الدراسة، المواضيع الاجتماعية الأخرى كمسألة التكيف في المجتمع المدني، سواء بالنسبة للتكيف مع المناخ أم بالنسبة للتكيف مع عادات وتقاليده المجتمع الجديد، بحكم تعدد قبائله واختلاف أجناسه. وكذلك مواجهة الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن الهجرة، مثل ضرورة توفر السكن اللائق وكسب مستوى معيشي لائق. أما الفقرة الثانية، فهي عن العلاقات الاجتماعية بين السكان. وقد تناولت علاقات المصاهرة بين قريش والانصار وبين قريش وسائر القبائل المهاجرة، كما تناولت العلاقات الاجتماعية بين الانصار وسائر المهاجرين. ثم تطرقت الدراسة، في الأخير، إلى ذكر المجالس والأندية العامة، كمراكز اجتماعية وسياسية، لتداول الرأي والمشورة، أو للترويح عن النفوس.

أما الباب الثاني، فهو مختص بذكر التنظيم السياسي الإداري والاجتماعي للقبائل. وقد واجهتنا، خلال دراستنا للتنظيم، صعوبات كبيرة. لعل من أهمها، الغموض الذي يكتنف طبيعة تطبيق بعض التنظيمات. وهو ما جعلنا نميل إلى الاعتقاد، أن هذه التنظيمات لم تكن تستهدف إجبار الناس على تطبيقها - قانونا - بقدر ما أريد بها تعويد القبائل وتصحيح مسارهم على الطرق المثلى للبيئة الإسلامية والسلوك السوي العام. كما أننا لم نجد نصوصا صريحة، يمكن اعتبارها، وثائق مكتوبة، تختص بالتنظيمات الإدارية السياسية والاجتماعية في المدينة، خلال العصر النبوي، ولذا كان معولنا، في عرض تلك التنظيمات، يعتمد على تحليل النصوص التاريخية، التي تناولت، بصفة عامة، مجتمع المدينة، خلال العصر النبوي، مع الحرص كثيرا على الرجوع إلى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، وكذلك كتب التفسير والفقه. وذلك بغرض تخريج المعلومات التي تجمعت لدينا في هذا المجال. ثم إن الباحث، كذلك، حرص على إيراد الشواهد والمواقف التاريخية - ما أمكن - حول موضوع الدراسة، كآدلة وبراهين. وهو في هذا كان يتحاشى تحميل النص أكثر مما يحتمله من معنى تاريخي أو لغوي.

وقد قسمنا هذا الباب، عن التنظيم، إلى فصلين. الفصل الأول مختص بذكر المراحل العامة لتنظيم القبائل. وهي ثلاث مراحل. وناقشنا، عند عرضنا، للمرحلة الأولى، وهي مرحلة التنظيم العشائري، أهمية اتباع هذا التنظيم - مع بداية تكوين المجتمع الإسلامي - وبيننا بعض أهدافه ومسؤولياته، التي اطلع بها، للمشاركة في البناء، مع رأس السلطة وجهازها الخاص، في جميع النواحي الاجتماعية والدينية والحربية وغير ذلك. كما ألمحنا إلى الإدارة الداخلية للتنظيم العشائري، وأهميتها في تقوية كيانه، مشيرين في هذا، إلى رئاسة التنظيم العشائري، وطبيعة عمل النقيب في المجتمع المدني بصفة عامة.

وتعد المرحلة الثانية، وهي التنظيم الجماعي، مرحلة تالية للمرحلة الأولى. غير أنها - في الواقع - مرحلة متداخلة مع التنظيم السابق، في المرحلة الأولى، أي التنظيم العشائري، ونفس الشيء مع المرحلة الأخيرة، أي تنظيم عصبية

الموطن أو الأرض - كما سنرى خلال البحث - بمعنى أن ظهور أي تنظيم من خلال أحداث المجتمع في المدينة، لا يعني بالضرورة - أنه الأفضل، وبالتالي إلغاء ما سبقه، بقدر ما يعني خلق أجواء ملائمة، لمعرفة مزايا هذه التنظيمات ولتعويد القبائل عليها، إلى أن تنتهي الظروف لتطبيقها. وهذا يعني، أننا ربما وجدنا تطبيقاً وعملاً بالتنظيم العشائري في الفترة التي يظن أنها مرحلة التنظيم الجماعي، والعكس كذلك، وقد تناولت الدراسة خلال الحديث عن التنظيم الجماعي، أهم وسائل هذا التنظيم ووظائفه، والتي منها، إقامة المسجد الجامع وسط المدينة. وتسميته باسم مسجد المدينة، متفرداً بهذا عن بقية المساجد في المدينة، التي تنسب إلى القبائل، أو البطون والعشائر. وكذلك أشير إلى الوسيلة الأخرى للتنظيم الجماعي، وهي المؤاخاة الخاصة بين المسلمين. حيث بين بدء ظهورها وكيفية عقدها واستمرارها، وأهم أهدافها. وكذلك أشير إلى الأسس التي قامت عليها المؤاخاة. كما أشير في هذه الدراسة، إلى تنظيم رابطة ذوي الأرحام. وهو تنظيم يعتمد على جمع عدد من البطون والعشائر - التي تنسب إلى قبيلة واحدة - تحت راية واحدة. أما الوسيلة الأخيرة، فهي الرابطة العامة بين المسلمين، وتهتم بتوحيد عامة القبائل في تنظيم حربي واجتماعي، تحت راية واحدة.

أما المرحلة الأخيرة في هذا الفصل، عن تنظيم القبائل السياسي الإداري والاجتماعي، فقد اختصت بعرض تنظيم عصبية الموطن أو الأرض، كمرحلة نهائية ومتكاملة في مراحل التنظيمات. وأكدت الدراسة هنا، على دور هذا التنظيم في تعويد القبائل على التخلي - بشكل تدريجي - عن العصبية القبلية. وذلك باتباع أسس قوية وحكيمة، مثل الحرص على نسبة القبائل إلى مواطنهم، والحد - ما أمكن - من الاستخلاف على القبيلة، بالاستخلاف على المدن والاقاليم، التي تجمع عدد من القبائل والعشائر المختلفة.

وبالنسبة للفصل الثاني، فقد أفرد لبحث موضوع خطط المدينة ومنازل القبائل فيها خلال العصر النبوي. وهو في أربع فقرات رئيسية. الأولى مختصة بتناول العمران في موضع المدينة قبل الهجرة، وذكر خطط الأنصار. حيث تستعرض الدراسة تاريخ التجمع السكاني في المدينة - قديماً إلى ظهور الإسلام - ثم تتطرق - تفصيلاً - لذكر خطط الأنصار، ومن سكن معهم من اليهود، حين قدم الرسول (ص)، المدينة مهاجراً. ثم تشير إلى ذكر العوامل التي دعت إلى تركيز بعض السكان في منطقة ما من المدينة، أكثر من غيرها. ثم تناول الفقرة التالية بالدراسة، عوامل اختيار موضع المدينة، وأصالة تخطيطها، مع الإشارة إلى العوامل الأخرى، التي دعت الرسول (ص)، والمسلمين معه إلى اختيار باطن المدينة أو وسطها لبناء مسجدهم، كنواة لخطط المهاجرين وبعض الأنصار. أما الفقرة الثالثة، فهي مختصة بتتبع دراسة التطور في تخطيط المدينة وسكنى المهاجرين، مع الإشارة لمساحة المدينة، خلال هذا التوسع في خطط المهاجرين. وبالنسبة للفقرة الأخيرة، فقد عنيت بذكر أثر تخطيط المدينة على مدن الأمصار. حيث ألفت بعض الضوء على أوجه الشبه والاختلاف بين تخطيط المدينة، وبعض مدن الأمصار الإسلامية، التي أسست بعد الفتوحات. وكذلك ألفت الضوء على مدى التأثير الذي أوجدته خطط وتنظيمات المدينة على تنظيمات وخطط تلك المدن.

وسنجد أن الباب الثالث، وهو الأخير في هذا البحث، قد اختص بتناول مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في المجتمع المدني، خلال العصر النبوي. وقسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول. أفرد الفصل الأول لدراسة مظاهر الحياة الاجتماعية. حيث تناول أولاً مستوى المعيشة مع إشارة موجزة إلى أهل الصفة (وهم فقراء المسلمين)

وكذلك إشارة أخرى، إلى منازل الوفود. وقد حاولنا إلقاء الضوء على المستوى الاقتصادي العام للسكان، مشيرين إلى مدى تذبذب هذا المستوى، في معظم السنين. إلى أن استقر الوضع - بعض الشيء - بعد فتح خيبر وتبوك ومن ثم فتح مكة. ومن ضمن ما تناولته هذه الدراسة، خلال هذا الفصل - كما أشرنا آنفاً - موضوع الصفة (وهي ظلة في مؤخر المسجد، يأوى إليها المساكين، غالباً)، لما للصفة من أهمية في الوظائف الاجتماعية، التي تستهدف الأخذ بأيدي المعسرین والمساكين وأبناء السبيل، بغية التخفيف عنهم مما هم فيه. وكذلك تناولت هذه الدراسة، الحديث عن منازل الوفود، أو ضيوف الرسول، النازلين عليه في المدينة. وأشير ثانياً، في هذا الفصل، إلى ظاهرة اعتماد الناس في المدينة على الخدم والموالي لقضاء معظم أمورهم. وهي ظاهرة، ربما كان من أهم أسبابها، انصراف معظم المسلمين للجهاد ونشر الإسلام. ولذلك أصبح وجود الخادم، ضرورة اجتماعية لازمة. وقد أشارت الدراسة إلى نوعية أولئك الخدم، وكذلك ذكرت الأعمال التي يقومون بها في المجتمع.

أما الفصل الثاني، فقد أفرد لدراسة الحالة الاقتصادية، المشتتة على، الزراعة والتجارة، والحرف والمهن العامة. وبالنسبة للزراعة، تناولنا بالدراسة، أهمية المدينة الزراعية، التي اكتسبتها نتيجة توفر تربة بركانية خصبة، إلى جانب وجود أيدي ماهرة في أمور الزراعة كما تناولنا عملية التوسع الزراعي بعد الهجرة. وذكر دور المهاجرين في هذا. ثم عرجت الدراسة على ذكر بعض الحاصلات الزراعية في المدينة، وبيان أهميتها في توفير الطعام للسكان، وتأثيرها في سائر حياتهم الاقتصادية والاجتماعية.

وبالنسبة للتجارة، فقد كان للمدينة نشاط تجاري مرموق، في الجاهلية والإسلام. وكان أبرز هذا النشاط التجاري - الذي اهتمت بتناوله هذه الدراسة - اشتغال المدينة على عدة أسواق تجارية، لتبادل أنواع البضائع والسلع فيها. وقد ذكرنا أهم هذه الأسواق، وما كانت عليه من تنظيم، وكذلك ذكرنا ما كان فيها، من بضائع وأنواع ما كان يأتيها من الخارج، وحجم هذا التبادل التجاري. كما أشر - أثناء الدراسة - إلى أسس التعامل التجاري بين السكان، وأنواع العملة والموازين والمكاييل المعروفة.

أما بالنسبة للمهن والحرف العامة - وهي الفقرة الأخيرة في هذا الفصل - فالملحوظ - كما تشير الدراسة - أنه على الرغم من انصراف معظم السكان للاشتغال بالزراعة والتجارة، إلا أن بعضهم - وخاصة الموالي - كانوا يمارسون أنواع الحرف والصناعات العامة، جنباً إلى جنب مع اهتمامهم بشئون الزراعة والتجارة.

أما الفصل الثالث، وهو الفصل الأخير، فلقد رأينا أن يكون إطاراً جامعاً، ومختصراً وافياً، للتعرف على الطابع العام لمجتمع المدينة - خلال العصر النبوي - في النواحي العلمية والثقافية - على وجه الخصوص - لما في ذلك الأمور من مساهمة، تساعد القارئ، على تكوين صورة واضحة وكاملة، عن مجتمع المدينة، موضوع الدراسة.

وختاماً، أرجو من الله تعالى، أن تكون هذه المساهمة المتواضعة، في كتابة التاريخ الإسلامي، فاتحة خير لتقدم أمثال هذه الدراسات وتطورها، على أيدي طلاب العلم وخدمته، في مؤسساتنا الأكاديمية العلمية.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل . . . ، ، ،

عبدالله عبد العزيز بن ادريس

الرياض : ربيع الأول ١٣٩٩هـ

الباب الأول

عناصر السكان في المدينة المنورة خلال العصر النبوي

- دراسات تمهيدية
- عناصر السكان في المدينة قبيل الإسلام وبعده
- الأوضاع العامة للسكان في المدينة بعد الهجرة

الفصل الأول

دراسات تمهيدية

- أولاً: الجغرافيا التاريخية للمدينة مع إشارة لأسمائها
- ثانياً: أهمية موقع المدينة الاقتصادي بين الشمال والجنوب

أولا : الجغرافية التاريخية للمدينة مع الإشارة لأسائها

حينما عزم الرسول (ص) على الهجرة إلى المدينة مع أصحابه، بعد تزايد أذى قريش ووقوفهم أمام نشر الإسلام في مكة قال لأصحابه: «قد أريت دار هجرتكم أريت سبخة ذات نخل بين لابتين^(١)»، أو كما قال: «أريت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب^(٢)».

ومقتضى ما ذكر أن المدينة كانت مشتهرة قديما بين العرب بحارها وكثرة نخيلها^(٣). وأنها كانت مؤهلة لأن تكون قاعدة الإسلام، ولذلك أدرج الرسول (ص) اسمها بين بعض المدن العربية الزراعية^(٤).

وكانت المدينة إحدى مدن الحجاز الجديرة بالذكر^(٥). وقد اعتبرها بعض الجغرافيين العرب، إحدى أقسام جزيرة

(١) ابن كثير: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٢١٣.

(٢) ابن كثير: نفس المكان،

الديار بكرى: تاريخ الخميس، ص ٣٢٠.

اليمامة: منطقة واسعة في نجد وسط الجزيرة العربية وتشمل منطقة حجر (الرياض حاليا)، والسهاء والسيح الكبير والخرج ونساح والعارض وأودية نعام وغيرها. واليمامة حصون متفرقة ونخل ورياض وزروع، وأشهر قبائلها بنى حنيفة وبنى تميم. وفي بلادهم النخيل والقرى والزروع والآبار. (انظر: الهمداني: صفة جزيرة العرب (تحقيق الأكوغ)، ص ٢٧٩ - ٢٨٥.

هجر: مدينة البحرين أى منطقة الساحل الشرقي للجزيرة العربية، وهى سوق بنى محارب من بنى عبد القيس. ومنازلها ماداربها من قرى البحرين، والقطيف من قراها وهى موضع نخل وقرية عظيمة الشأن وهى ساحل، ثم العقير من دونه وهو ساحل أيضا وقرية دون القطيف وبه نخل، والنباج بلاد كثيرة القرى ويقال له: نباج بنى عامر وهى عيون تنبع بالماء ونخيل وزروع. (انظر: الهمداني: نفس المصدر، ص ٢٧٩ - ٢٨٠).

(٣) العيني: عقد الجمان، ج ١، ورقة ٣٢ (مكتبة طبقبو، باستانبول)،

حتى: تاريخ العرب، ج ١، ص ١٤٦.

(٤) وروى عن طلحة بن عبيد الله التيمي أنه حين حضر سوق بصرى سمع من راهب في صومعته يبشر بظهور الرسول محمد (ص)

وأن مهاجرة إلى نخل وحره وسبخ (انظر: ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٢١٤ - ٢١٥).

(٥) حتى: تاريخ العرب، ج ١، ص ١٤٣.

الحجاز: بالكسر وآخره زاي وإنما سمي حجازا لأنه حجز بين تهامة، وهى السهول المنخفضة على ساحل البحر الأحمر، وبين مرتفعات نجد شرقا. (انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢١٨ - ٢٢٠، مادة حجاز، الهمداني: مختصر البلدان، ص ٢٦ - ٢٧، حتى: تاريخ العرب، ج ١، ص ١٤٢ - ١٤٣)، وقد اختلف الجغرافيون العرب اختلافا كبيرا في تعريف الحجاز وتحديدته، إلا أنهم مع ذلك، يجمعون - تقريبا - على أن الحجاز، هو جبل السراة، الذى يمتد من حدود اليمن إلى بادية الشام، فيحجز بين تهامة وبين نجد (انظر: الوهيبى، د. عبد الله: الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب، بحث نشر في مجلة كلية الآداب - جامعة الرياض، م ١، السنة الاولى، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م، ص ٥٣ - ٧٠).

العرب الرئيسية فقال: جزيرة العرب المدينة ومكة واليامة واليمن^(١). وكانت مأهولة منذ القدم بالقبائل العربية مثل العماليق^(٢). ثم نزحت إلى جوارهم بعض القبائل اليهودية والعربية، والذين عرف منهم يقينا، عند ظهور الاسلام، على شكل قبائل كبيرة، بنو قينقاع وبنو قريظة والنضير من اليهود، والأوس والخزرج، من العرب^(٣). وترينا الخريطة المرفقة، أن المدينة تقع من جزيرة العرب على الحافة الغربية المنحدرة من الجزء السهلي الرئيسي للجزيرة العربية^(٤). والمسافة بين المدينة وبين ينبع على ساحل البحر الأحمر نحو (٢٧٥) كيلا^(٥). وبينها وبين مكة جنوبا حوالي (٥٠٠) كيلا.

(١) البكري: معجم ما استعجم، ج ١، ص ٥.

(٢) العماليق: نسبة إلى عملاق بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وذكر أن العماليق كانوا أول من زرع بالمدينة، واتخذها النخل وعمرها الدور والأطام واتخذ الضياع. (انظر: السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٥٧). والأطام: واحدا أطم وهو بناء من الحجارة. (انظر: العدوي: أحوال مكة والمدينة، ج ٢، ص ١١٢). ويذكر أنها مأخوذة من انتظم، إذا ارتفع وعلا. بينما يرى ولفنسون، المؤرخ اليهودي، أن للفصل أطم معان شتى في العبرية: يقال أطم عينه: أغمضها. وأطم أذنيه سدها والأطم في الجدار والحيطان هي النوافذ المغلقة من الخارج والمفتوحة من الداخل (انظر: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام، ص ١١٧). وأحب أن أضيف إلى ما ذكر، أن في عامية أهل نجد، استعمال الفعل بمعنى سقف يسقف الدار في البناء، كما تعني تغطية البئر بالحجارة الكبيرة. ويستعمل في عاميتهم أيضا فعل الأمر من يطم فيقال: انطم بمعنى اسكت - بجفاء - ومن أمثالهم: «على طهام المرحوم». أي على عهده وأيامه. وفي أساس البلاغة: طم الوادي طموسا: علا وغلب وطم البئر: كبسها، وطم شعره: حلقه. (انظر: الزنجشري: أساس البلاغة ((طبعة دار صادر بيروت))، ص ٣٩٦). ويلاحظ أن لفظة أطم لم ترد في القرآن الكريم. (انظر: مدني، عبيد: أطوم المدينة، بحث نشر في مجلة كلية الآداب - جامعة الرياض، المجلد الثالث، السنة الثالثة، ١٣٩٣/ ١٣٩٤ هـ). وإنا أشير إليها بلفظة الحصون من قول الله تعالى في بني قريظة والنضير: «وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من لهر الله». الحشر: ٢. وأشير إليها أيضا بلفظة الصياصي من قوله تعالى: «وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم» الأحزاب: ٢٦. ويذكر أن المدينة لم تنفرد بوجود الأطام فيها بل كان باليامة وكان في خيبر وتيما والطائف وكان في صنعاء ونجران أطام، ولكن عهد ابتداء هذا النوع من البناء كان موغلا في القدم وقد يكون تطور أول ما تطور في المدينة (انظر: مدني، عبيد: المرجع السابق، ص ٢٢٣).

أما بالنسبة لحصون اليامة فأنها كانت تعرف باسم البتل الواحد بتيل: وهو من أوحصن مربع مثل الصومعة مستطيل في السماء من طين منها ما كان طوله مائتا ذراع في السماء. وقيل كان منها ما طوله خمسمائة ذراع على عهد طسم وجديس سكانها القدماء. (انظر: الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٢٨٤). وبما نستدل به على عروبة فكرة بناء الأطام ما أورده المؤرخون المسلمون من أن بني أنيف كانوا من بقية العماليق الغالبين على المدينة قبل اليهود، وكان معهم أحياء من بلى ومن اليمن فابتنوا الأطام والمنازل قبل اليهود. (انظر: العدوي: أحوال مكة والمدينة، ج ٢، ورقة ١١٢، ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٨٤، ابن خلدون: تاريخ «طبعة الحبابي بمصر، ١٣٥٥ هـ، ج ١، ص ٤٤).

(٣) البلاذري: أنساب الاشراف، ج ١، ص ٦.

السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٥٦ وما بعدها.

على (د. جواد): المفصل في تاريخ العرب، ج ١، ص ١٢٨-١٣٧.

(٤) Brita: Ency. vol. 15 (London, 1957) P. 206.

(٥) والاسم القديم للبحر الأحمر هو بحر القلزم. (انظر: الأصبخري: المسالك والممالك «تحقيق د. محمد جابر»، ص ٢٠).

ينبع: بالفتح ثم السكون، والباء الموحدة مضمومة وعين مهملة، بلفظ ينبع الماء وهي على يمين رضوى، (وهو جبل عند ينبع منها على مسيرة يوم، ومن المدينة على سبع مراحل) لمن كان منحدرا من المدينة إلى البحر الأحمر على ليلة من رضوى. وكان النبي (ص) قد أقطع ينبع عمر بن الخطاب. (انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٥١، مادة رضم، ج ٥، ص ٤٤٩ - ٤٥٠، مادة ينبع). وتبعد ينبع عن المدينة بمسافة تقرب من مائة وخمسين ميلا نحو الغرب. ويطلق اسم ينبع في العهد الحاضر وقبله بزمان، على ينبع الميناء، وإذا أريد ينبع النخل قيل: «ينبع النخل». إلا أن اسم ينبع عند إطلاقه في كتب المتقدمين يقصد به ينبع النخل، لأن ينبع الميناء أو «ينبع البحر» كما يسمى أيضا، كان أقل شهرة حينذاك. (انظر: الجاسر، حمد: بلاد ينبع «لمحات تاريخية جغرافية وانطباعات خاصة». ص ١٠-١٢، منشورات دار اليامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض).

وتقع المدينة تقريبا على الدرجتين (٤٠) طولاً شرقياً و(٢٥) عرضاً شمالياً. وارتفاعها عن سطح البحر يصل إلى ٦٣٩ متراً^(١).

ويجد الدارس لطبغرافية المدينة أنها في مستوى من الأرض برية وجبلية^(٢). والغالب على أرضها السباخ^(٣). والجزء الجنوبي من المدينة أكثر ارتفاعاً ويعرف بالعالية^(٤). بينما يعرف الجزء الشمالى بالسافلة^(٥). وتعد قرية قباء من أهم قرى العالية وهى على ميلين من المدينة ومتصلة بها^(٦) وبقباء كانت منازل الأوس والخزرج قبل الاسلام^(٧). وبها نزل الرسول (ص) والمهاجرون الأولون قبل أن يصيروا الى موضع المدينة حيث المسجد النبوى^(٨).

ومن أبرز جبال المدينة أحد في شمالها وعير في جنوبها الغربى^(٩). وسلع، بفتح أوله وسكون ثانيه، وهو جبل بسوق المدينة وهو محاط اليوم بالعمران ويكاد يكون في وسطها^(١٠). كما يحيط بها في جهتي الشرق والغرب تكوينات بركانية تشكلت نتيجة للنشاط البركانى الذى تعاقب على المدينة خلال العهود القديمة، حيث أنها تقع قريباً من أحد أكبر

(١) Crichton, A; History of Arabia, vol.. 1, p. 86.

أما تفصيلاً فإنها تقع بالنسبة لخطوط الطول والعرض على الدرجة ٣٩ والدقيقة ٣٦ وثانية واحدة و٦١٪ من خطوط الطول. وعلى الدرجة ٣٤ والدقيقة ٢٨ وخمس ثوان و٣٥٪ من خطوط العرض. (انظر: حافظ، على: فصول من تاريخ المدينة، ص ١٣).

وكان عمر كحالة قد ذكر أن المدينة تقع على الدرجة ٣٩ والدقيقة ٥٠ طولاً شرقياً وعلى الدرجة ٢٤ والدقيقة ٣٢ عرضاً شمالياً. (انظر: جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٧٤).

(٢) اليعقوبى: البلدان، ص ٧٢.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٨٢ مادة مدينة،

العينى: عقد الجبان، ج ١، ورقة ٣٢.

(٤) السمهودى: الوفاء، ج ١، ص ١٦١،

المطرى: التعريف، ص ٨٠.

(٥) المطرى: نفس المكان.

(٦) ياقوت: المصدر السابق، ج ٥، ص ٨٢، مادة مدينة،

الفيروز آبادى: المغانم المطابة، ص ٣٢٣-٢٤.

قباء: بالضم والقصر وقد يمد. ويقول المطرى إنها كانت على ثلاثة أميال من المدينة. (انظر: المصدر السابق، ص ٥٠).

(٧) اليعقوبى: المصدر السابق، ص ٧٣.

(٨) المطرى: المصدر السابق، ص ٤٩-٥٠،

اليعقوبى: المصدر السابق، ص ٧٣.

(٩) المطرى: التعريف، ص ٦٨-٦٩،

كبريت: الجواهر الثمينة، ورقة ٨ (مخطوط الاوقاف ببغداد).

جبل عير: عير الصخرة: حرف نأتى فيها خلقه، وقيل كل نأتى في وسط مستو.

والعير أيضاً هو الجبل، وقد غلب على جبل عير بالمدينة. (انظر: ابن سيدة: المحكم، ج ٢، ص ١٦٧-١٦٩).

(١٠) ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٣٦، مادة سلع،

العباسى: عمدة الأخبار، ص ٣٣٧،

الأنصارى، عبد القدوس: أثار المدينة المنورة، ص ٢٠٣-٢٠٥.

المراكز البركانية في الجزيرة العربية وكان في نشاط بركاني إلى وقت متأخر حوالي عام ١٢٦٦م^(١). وقد عرفت تلك التكوينات في المدينة باسم لابتى المدينة أو حرتيها^(٢). وهما حرة واقم في الشرق وحرة الوبرة في الغرب^(٣). ومن ضمن حرة الوبرة يوجد ثلاث هضاب بركانية تعرف باسم الجهاوات^(٤). ومن أجل ذلك قيل أن المدينة تقع في حوص جبلي^(٥). وللمدينة عدة أودية تجري خلالها في وقت الامطار والسيول من جبال بمواضع في شرقها وجنوبها^(٦). ومن أشهر تلك الأودية: وادي العقيق في جهة الغرب منها، ويأتي من تحت جنوبها^(٧). ووادي بطحان الذي يمر بالمدينة وسط بيوتها^(٨) في جهة الغرب متجها شمالا بعد التقائه بوادي مذيئيب ورانوءا^(٩) أو رانون^(١٠). ويشق وادي مهزور، وهو شرقي العوالي، الحرة الشرقية إلى العريض ملتقيا أيضا، ببطحان في طريقه غربي المدينة إلى الشمال^(١١). وفي شمال المدينة وادي قناة ويأتي مأؤه من شرقيها ثم تجتمع مياهه مع الأودية المذكورة بموضع يقال له الغابة^(١٢).

(١) Brita; Ency. vol. 15 p. 206.

ويورد المؤرخون المسلمون حادثة آخر نشاط بركاني شهدته المدينة، فذكروا أن ابتداءه كان زلزلة بالمدينة مستهل جمادى الآخرة أو آخر جمادى الأولى سنة أربع وخمسين وستائة من الهجرة ثم ابتداء بعد ذلك تدفق الحمم من البراكين أو ما كان يعرف باسم النار، ودامت إلى يوم الأحد السابع والعشرين من رجب ثم خمدت. (انظر: السمهودي: الوفاء، ج ١، ص ١٤٢-١٤٥).

(٢) المطري: المصدر السابق، ص ١٥، كبريت: المصدر السابق، ورقة ٨،

المعجمي: مكة والمدينة، ورقة ٣٧.

(٣) العباسي: المصدر السابق، ص ٢٩٩-٣٠٢.

(٤) والجهاوات، مفردا جاء: بالفتح وتشديد الميم وبالمد. عن يمين الطريق للمسافر من المدينة إلى مكة. وهي: جها تضارع التي تسيل إلى قصر عاصم بثر عروة في العقيق، والجها الثانية جاء أم خالد، والجها الثالثة جاء العافر بينها وبين جاء أم خالد فسحة. (انظر: العباسي: عمدة الأخبار، ص ٢٨٩-٢٩٠).

(٥) Brita; Ency. vol. 15 p. 206.

(٦) المطري: التعريف، ص ٦٣،

اليعقوبي: البلدان، ص ٧٢.

(٧) اليعقوبي: نفس المكان،

المطري: المصدر السابق، ص ٦٣.

(٨) ابن شبة: أخبار المدينة، ورقة ٥٤.

(٩) المطري: المصدر السابق، ص ٦٣.

(١٠) ابن شبة: المصدر السابق، ورقة ٥٤.

(١١) المطري: المصدر السابق، ص ٦٣،

الانصاري، عبد القدوس: آثار المدينة، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

العريض: تصغير عرض أو عرض: وادي بالحرة شرقي المدينة به جملة آبار وزروع ويبعد عن المدينة حوالي خمسة كيلومترا.

(انظر: الفيروز آبادي: المغامم المطابة، ص ٣٦٠، الانصاري، عبد القدوس: المرجع السابق، ص ١٣٨، العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر، ص ٥٢٥).

(١٢) اليعقوبي: البلدان، ص ٧٢،

الانصاري، عبد القدوس: آثار المدينة، ص ١٨٠ - ١٨٢، ٢٣٧.

وادي قناة: هو الوادي الذي يمر شمال المدينة من الشرق إلى قبور الشهداء بأحد. (انظر: العباسي: عمدة الأخبار، ص ٣٩٩). وقد عرفه ابن شبة بأنه الوادي الأحمر، حين قال: لما قتل حمزة رضى الله عنه، أقام في موضعه، تحت جبل الرماة وهو الجبل الصغير الذي يبطن الوادي الأحمر. (انظر: أخبار المدينة، ورقة ٤١).

الغابة: بالموحدة. وهي اسم موضع قرب المدينة من جهة الشمال، على ثمانية أميال منها، على نحو يريد من ناحية الشمال.

(انظر: العباسي: المصدر السابق، ص ٣٨١ - ٣٨٢).

وقد ساعد النشاط البركاني في المدينة على حجز المياه الجوفية مما جعل في الاستطاعة الوصول إليها في أي بقعة منها عند حفر الآبار العميقة^(١). ولذلك كثرت بالمدينة الآبار التي يسقى منها النخل والزرع^(٢). ومن هذه الآبار: بئر أريس غربى مسجد قباء^(٣)، وبئر البصة جنوبي البقيع^(٤). وبئر حاء شمال المسجد النبوي^(٥). وبئر بضاعة، شمال غرب المسجد النبوي^(٦). ثم بئر رومة وسط العقيق من أسفله شمالا وكانت ليهودى يبيع المسلمين ماءها فاشتراها عثمان بن عفان «رضى الله عنه» فجعلها للمسلمين^(٧).

وكان لتضافر تلك العوامل الطبيعية التى أشرنا إليها مثل توفر المياه بجميع مصادرها بالإضافة إلى خصوبة التربة البركانية، أن أصبحت المدينة في المقام الأول، مدينة زراعية على العكس من مكة التى كانت مدينة تجارية^(٨).

ويسود المدينة مناخ صحراوي متطرف. ولذلك كان الرسول (ص) يأمر المؤذن إذا كانت ليلة باردة ذات مطر يقول: «آلا صلوا في الرحال»^(٩). وكان يقول: من صبر على أوار المدينة وحرها كنت له يوم القيامة شفيعا شهيدا^(١٠). كما روى عنه أنه قال: «إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة»^(١١).

ولم يكن لنزول المطر على المدينة مواسم معينة أو أوقات متقاربة. ولذلك كانت المدينة عرضة لسنوات الجفاف والقحط^(١٢). وأحيانا تتعرض لسيول جارفة تكتسح ما يقابلها من مواش وزروع وطرق^(١٣).

(١) Brita; Ency. vol. 15 p. 206.

(٢) اليعقوبى: المصدر السابق، ص ٧٢.

(٣) المطرى: التعريف، ص ٥٦.

(٤) المطرى: نفس المصدر، ص ٥٨.

البقيع: هو بقيع الغرقد: أصل البقيع في اللغة: كل مكان فيه أروم الشجر من ضروب شتى، وبه سمي بقيع الغرقد، والغرقد: كبار العوسج وهو مقبرة أهل المدينة شرقي المسجد النبوي وغير بعيد منه. (انظر: الفيروز آبادى: المغانم المطابة، ص ٦١، الأنصارى، عبد القدوس: المرجع السابق، ص ١٧٥ - ١٧٦).

(٥) المطرى: المصدر السابق، ص ٥٨.

(٦) المطرى: نفس المصدر، ص ٥٩.

(٧) ابن شبة: أخبار المدينة، ورقة ٤٩.

المطرى: التعريف، ص ٥٩ - ٦٠.

(٨) Brita; Ency. vol. 15 p. 207.

(٩) مالك: الموطأ، ج ١، ص ٧٣. والرحال: جمع رحل وهو المنزل والمسكن.

(١٠) المطرى: المصدر السابق، ص ١٧.

ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٨٣. والأوار: حر الشمس والنار. يقال: لفحنى أوار النار وأوار الشمس، وأوار التنور. (انظر: مجموعة من المؤلفين: المعجم الوسيط، ج ١، ص ٣٢).

(١١) مالك: المصدر السابق، ج ١، ص ١٥. وأبردوا: خففوا. (انظر: المعجم الوسيط، ج ١، ص ٤٧، مادة برد).

(١٢) مسلم: الصحيح، ج ٢، ص ٦١٤ - ٦١٥.

(١٣) روى أن رجلا جاء إلى الرسول (ص) فقال: يا رسول الله هلكت المواشى وتقطعت السبل (لأن الأبل ضعفت لقلة القوت عن السفر) فادع الله. فدعا الرسول (ص) فمطرنا من الجمعة إلى الجمعة. قال: فجاء رجل إلى الرسول (ص) فقال: يا رسول الله تهدمت البيوت وانقطعت السبل (لتعذر سلوك الطرق من كثرة الماء وهلكت المواشى من عدم المرعى، فقال الرسول (ص): اللهم ظهور الجبال والأكام (وهو التراب المجتمع)، ويطون الأودية ومنابت الشجر. قال: فانحابت عن المدينة انحياب الثوب (أى خرجت عنها). (انظر: مالك: الموطأ، ج ١، ص ١٩١).

والاسم الاسلامي لدار هجرة المسلمين هو المدينة أو مدينة الرسول (ص) عوضاً عن اسمها القديم يثرب^(١).

وجاء اسم المدينة من التمدن وهو التوطن وزنا ومعنى وأصله اسم لكل بلد كبير ثم صار علماً بالغلبة عند الإطلاق على المدينة المنورة^(٢). وقيل: المدينة: من دان إذا أطاع وبذلك لأن السلطان يسكن المدن فتقام له طاعة فيها أو لأن الله تعالى يطاع أولاً لأنه عليه السلام سكنها فدانت له الأمم^(٣). ويقال أنها كانت معروفة بهذا الاسم قديماً قبل الإسلام وأن اللفظ قد جاء من كلمة مدينتا (Medinta) أو مدينتو (Medinto) الآرامية التي تعنى مدينة في اللغة العربية^(٤).

ومن غير المستبعد أن تكون المدينة معروفة، قبل الهجرة باسم (مدينة يثرب) ثم اختصر ف قيل لها مدينتا أي المدينة^(٥). خصوصاً وأن الرسول (ص) حين عرف دار هجرة المسلمين قال: أنها المدينة يثرب^(٦). ثم نهى عن قول يثرب، بعد الهجرة، وأكتفى بلفظ المدينة^(٧)، أو مدينة الرسول^(٨).

أما عن الاسم يثرب. فيذكر المؤرخون المسلمون أنها عرفت به نسبة إلى يثرب بن هذيل بن أرم لما نزل أول مرة وقومه موضع المدينة بعد تفرق قوم عاد^(٩). وقيل: أن يثرب نسبة إلى يثرب بن قانية بن مهلائيل بن أرم بن عبيل بن عوص بن أرم بن سام بن نوح وبه سميت يثرب^(١٠). وهو من العماليق^(١١). وكانوا يسمون المنازل التي ينزلونها بأسمائهم^(١٢).

(١) المطري: التعريف، ص ١٦،

ابن الحاج: رفع الحفاء، ورقة ٦٥ (مخطوط بمكتبة المتحف العراقي)، ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٨.

(٢) العجمي: تاريخ مكة والمدينة، ورقة ٣٥. وقد ذكر أن للمدينة أسماء تقارب المئة مثل طابه وطيبة وأرض الهجرة وأكلة البلدان وأكلة القرى والايام وغير ذلك. (انظر: ابن الحاج: المصدر السابق، هامش الورقة ٦٥، السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ٨ وما بعدها).

(٣) كبريت: الجواهر الثمينة، ورقة ٧.

(٤) جواد على: الفصل، ج ٤، ص ١٣٠.

(٥) جواد: الفصل، ج ٤، ص ١٣٠.

(٦) ابن كثير: السيرة، ج ٢، ص ٢١٣.

(٧) المطري: التعريف، ص ١٦ - ١٧. وقيل في سبب تغيير اسم يثرب إنه يعود إلى حب الرسول (ص) للاسم الحسن إذ أن يثرب مأخوذ من الثرب وهو الفساد، أو التثريب وهو المؤاخذة بالذنب. (انظر: المطري: نفس المصدر، ص ١٩).

(٨) ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٨٢.

(٩) العيني: عقد الجمان، ج ١، ورقة ٣٢.

(١٠) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٥٦.

(١١) البلاذري: الأنساب، ج ١، ص ٦-٧.

ابن عبد البر: القصد والأمم (النجم)، ١٩٦٦م، ص ١٤.

(١٢) ابن عبد البر: نفس المكان.

وحاصل ما ذكر أن اسم يثرب كان قديماً. ويقال: أنه وجد مكتوباً على حجر بوادي العقيق ضمن نص أورده ابن زبالة جاء فيه «أنا عبد الله رسول الله سليمان بن داود إلى أهل يثرب»^(١).

ومن الباحثين المحدثين من يرى أن أقدم مورد أشير فيه إلى يثرب هو نص الملك نبونيد (Nabonid) (٥٥٦ - ٥٣٩ ق.م). الذي ذكر فيه أنه بلغ هذه المدينة^(٢). كما ذكرها بطليموس (Ptolemy) في جغرافيته وكذلك استيفانوس اليزنطي (Stephanus Byzantinus) باسم يثربا «Iathrippa»^(٣).

وكما سبق أن أشرنا فإن أكثرنا فإن الجزء الجنوبي من المدينة كان يعرف بالعالية وقباء وذلك يعني أن اسم يثرب لم يكن يطلق على جميع أجزاء المدينة في الغالب. وقد لاحظ ذلك معظم مؤرخي المدينة فذكروا أن يثرب اسم ناحية من مدينة الرسول^(٤) وأنها غلب الاسم على كل المدينة - في بعض الأحيان - من باب إطلاق اسم البعض على الكل^(٥).

وكانت ناحية يثرب قبل نزول الأوس والخزرج تعد أم قرى المدينة وبها كان معظم اليهود النازلين فيها على العماليق^(٦). ويذكر المطري أن ناحية يثرب كانت معروفة بهذا الاسم إلى أيامه، وفيها نخيل كثير ملك لأهل المدينة وأوقاف للفقراء وغيرهم^(٧). ويحدد موضعها على أنه «غربي مشهد أبي عماره حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله، وشرقي الموضع المعروف بالبركة، مصرف عين الأزرق ينزلها الركب الشامي في وروده وصدوره وتسميها الحجاج عيون حمزة»^(٨).

(١) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٥٨-٥٩،

ابن النجار: الدرر، ص ٣٠.

(٢) جواد: الفصل، ج ١، ص ٦١٠-٦١٥، ج ٤، ص ١٣٠.

(٣) Brita; Ency. vol. 15 p. 206.

(٤) المطري: التعريف، ص ١٩،

المراغي: تحقيق النصرة، ص ٢٢.

(٥) السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٠.

(٦) المطري: المصدر السابق، ص ١٩.

(٧) المطري: نفس المكان.

(٨) المطري: التعريف، ص ١٩،

المراغي: تحقيق النصرة، ص ١٩،

مشهد حمزة: في الركن الشمالي الشرقي من جبل عينين جنوبي جبل أحد. وهو على مسافة أربعة ونصف كيلومترات في الخط الممتد من مسجد الغمامة وسط المدينة. (انظر: العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر، ص ٥٣١ - ٥٣٢).

عين الأزرق: تسميها العامة العين الزرقاء. وهي عين أجراها مروان بن الحكم لما كان والياً لمعاوية على المدينة. وكان أزرق العينين أضيفت إليه العين التي أجراها بأمر معاوية. وأصلها بئر معروفة كبيرة بقباء غربي مسجد قباء وهي عذبة الماء وغزيرته. أما البركة فهي قرب بئر رومة - شمال غربي المدينة آخر العقيق - تصلها قناة يجري فيها الماء من عين الأزرق. (انظر: العباسي: عمدة الأخبار، ص ٢٦٥، ٣٧٩، الانصاري، عبد القدوس: آثار المدينة، ص ٢٦٢ وما بعدها).

ومما قيل أيضا في تحديد موضع يثرب أنها ما بين طرف قناة إلى طرف الجرف وما بين المال الذي يقال له البرني إلى زباله^(١). وهذا التحديد لا يتعارض مع ما سبق ذكره من أن يثرب تقع في تلك الجهات الممتدة غربى مشهد حمزة إلى مجتمع الأسياال برومة^(٢).

ومما يجدر ذكره هنا أن الرسول (ص) حينما هم بالتحول من قباء إلى موضع مسجده قال: أمرت بقرية تاكل القرى يقولون يثرب وهى المدينة^(٣). وذلك يعنى أن موضع مسجد الرسول (ص) اليوم وما حوله كان يعرف أيضا باسم يثرب^(٤). وبالإضافة إلى ذلك فقد ذكر بعض مؤرخى المدينة أنه كان يثرب عدد من الصاغة اليهود^(٥). وقد غاير بعضهم بين يثرب هنا وبين زهرة^(٦). واعتبروا أن الصاغة إنما كانوا بزهره وكانت أعظم قرى المدينة^(٧).

ويمكننا التوفيق بين الروايات السابقة إذا اعتبرنا أن المراد يثرب هو جميع سافلة المدينة بما في ذلك زهرة، بالإضافة إلى منطقة المسجد النبوى المحيطة به. مع عدم استبعاد أن التسمية إنما كانت تطلق أصلا على الجهة الشمالية الغربية للمدينة ثم عرفت به كل سافل الجهات الشرقية ليثرب وذلك من باب اطلاق اسم البعض على الكل.

(١) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ٨ - ٩.

الجرف: بالضم ثم السكون: موضع على ثلاثة أميال من المدينة من جهة الشمال الغربى. (انظر: العباسي: المصدر السابق، ص ٢٨٨).

البرنى: ويقال البرناوى. (انظر: ابن النجار: الدرة، ص ٨). والبرنى لفظ يطلق على نوع من التمر كان مشهورا بالمدينة. وحقيقة المال المعروف بالبرنى أو البرناوى مجهولة الآن. وربما أنه بعض بساتين العيون في الشمال الغربى للمدينة. أما زباله: فهى شالى جبل سلع إلى قرب وادى قناة. (انظر: الأنصارى، عبد القدوس: المرجع السابق ص ١٧٧، العياشى: المرجع السابق، ص ٢٤ - ٢٥).

(٢) المطرى: التعريف، ص ١٩،

العباسي: عمدة الأخبار، ص ٢٨٨، ٣٣٢، ٣٩٩،

العياشى: المدينة بين الماضى والحاضر، ص ٢٤.

(٣) المطرى: المصدر السابق، ص ١٩.

(٤) يذكر ابن الحاج أن الرسول (ص) حينما سار من قباء «ركب ناقته وجاء يثرب أى المدينة». (انظر: رفع الخفاء، ورقة ٦٨).

(٥) قيل إنهم ثلاثمائة صائغ. (انظر: المطرى: المصدر السابق، ص ١٩ - ٢٠). وهو عدد كبير يصعب تصديقه، على الرغم من اشتهاار معظم اليهود بصناعة الذهب إلا أنه - فيما يبدو لنا - وعلى فرض صحة تلك الرواية فإن تلك الناحية من المدينة كانت ولا بد مركزا خاصا لمعامل الصاغة ومكانا لمتاجرهم فى المدينة.

(٦) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ٩، ابن النجار: الدرة، ص ٨.

زهرة: بالضم ثم السكون: موضع بالمدينة بين الحرة الشرقية والسافلة. (انظر: العباسي: المصدر السابق، ص ٣٣١).

(٧) السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ٨ - ٩،

العباسي: المصدر السابق، ص ٣٣١،

المراعى: تحقيق النصرة، ص ٢٣.

ثانيا : أهمية موقع المدينة الاقتصادية بين الشمال والجنوب

حرص معظم مؤرخي المدينة على الإشارة إلى قدم العمران وسكنى الناس بها^(١). كما أجمعوا في كتاباتهم على أن الصراع والتنافس بين سكانها العرب وبين جيرانهم اليهود كان قديما، واستمر إلى ما قبل الاسلام^(٢).

وقد كانت يشرب، إضافة إلى أنها واحة خصيبة التربة ومن أمهات المراكز الزراعية، فهي واقعة على طريق القوافل التجارية التي تحمل الطيوب بين اليمن والشام^(٣). وذلك الموقع قد جعل من يشرب مطمعا للقوى المتنافسة حينذاك. وهو ما كان يحرك روح العداء ويشير الحروب سواء بين العرب واليهود من جهة أو بين الأوس والخزرج أنفسهم. ونتيجة - فيما نرى - لتلك الأهمية السياسية، فقد تمتعت المدينة - قبيل الاسلام - بمركز اقتصادى مرموق في مجالات التجارة والصناعة. فأصبحت بذلك محطة تجارية هامة للتجار العائدين إلى الشام والشرق من الحجاز واليمن^(٤).

ولم يقتصر الامر في المدينة على ازدهارها التجارى الخارجى. بل إن التجارة الداخلية فيها كانت نشطة ومزدهرة. ودل على ذلك ما ذكر من كثرة أسواقها ومتاجرها^(٥). وكان التعامل فيها كبيرا بين أهلها وبين من يفد عليهم من جيرانهم^(٦).

(١) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٥٩،

العدوى: أحوال مكة والمدينة، ج ٢، ورقة ١١١،

البتنوني: الرحلة الحجازية (الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٢٩هـ)، ص ٢٥٢.

(٢) السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٩،

العدوى: المصدر السابق، ج ٢، ورقة ١١١،

ابن النجار: الدرة، ص ٩.

(٣) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٧٨٨،

اليعقوبي: البلدان، ص ٦٨ وما بعدها،

السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٠ - ١٧١،

حتى: تاريخ العرب، ج ١، ص ١٤٦.

(٤) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٠،

البلاذري: فتوح البلدان. ج ١، ص ٤١ - ٤٢.

(٥) السهمودي: الوفاء، ج ٢، ص ٧٤٧ وما بعدها.

(٦) أنظر: الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٦٥. ويمكن الاستدلال على أهمية النشاط التجارى في المدينة من اهتمام القرآن الكريم بأمر البيع وتنظيمه وسن قوانينه حيث قال تعالى: «وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون». سورة البقرة: ٢٧٥. والربا: هو الزيادة على الشيء. وكانوا في الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين فيقول: لك كذا وكذا وتؤخر عنى. فيؤخر عنه. (انظر: الطبرى: جامع البيان، ج ٣، ص ١٠١). كما قال تعالى في أمر البيع «ويل للمطففين» فأحسنوا الكيل. (انظر: الطبرى: نفس المصدر، ج ٣٠، ص ٩٠-٩١).

ولقد كان من أبرز سمات النشاط التجاري الخارجى للمدينة ما ذكر من أن التجار من الشام وغيرها كانوا يقدمون إلى المدينة لتصريف تجارتهم^(١). كما كان تجار المدينة يحملون بضائعهم إلى الشام بواسطة القوافل ويستوردون منها الأقمشة المختلفة^(٢).

وكانت الحدادة والصياغة من أشهر الصناعات في المدينة^(٣) ويقف إلى جانب ذلك بعض الصناعات الخفيفة وخاصة المعتمدة على مواد النخيل^(٤)

ومما سبق نجد أن المدينة كانت جديرة باختيار الرسول (ص) لها كعاصمة للإسلام ومنطلق لدعائه وسراياه الظافرة. وجاءت تلك الجدارة نتيجة لموقعها الاستراتيجى ولشهرتها الدولية بين الشمال والجنوب كمحطة هامة في الطريق التجارى بين الشام واليمن، إضافة إلى ما تمتعت به من موقع طبيعى حصين ضم تربة خصبة ذات ماء وفير مع شعب تجلت في جوانبه الايجابية كل عوامل التكامل والتوازن النفسى ممثلا في اليهود، أصحاب الكتاب والرسالة وقتها، وفي الأوس والخزرج وهم من اليمن أهل الحضارة والعمران.

ومع أن تأثير اليهود في الأوس والخزرج، من ناحية العقيدة، كان محدودا جدا إلا أنهم آمنوا بفكرة ظهور نبي جديد بتأثير منهم، وكانوا أهل كتاب وعلم^(٥).

وقد عبر الأوس والخزرج عن هذا الايمان حين لقي نفر منهم رسول الله (ص) في موسم الحج وهو يعرض نفسه على القبائل طالبا النصر واطهار دين الاسلام^(٦)، ثم انصرفوا عن رسول الله (ص) راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا^(٧). فلما قدموا إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله (ص) ودعواهم إلى الاسلام حتى فشا فيهم^(٨)، ثم توالى وفودهم على الرسول (ص) في المواسم حتى كان الموسم الثالث حيث وافاه في عقبه ثلاثة وسبعون رجلا ومعهم امرأتان من نسائهم حيث بايعوه على أن يمنعوهم مما يمنعون نساءهم وأبنائهم حين يقدم عليهم المدينة مهاجرا^(٩).

(١) ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ٤٤ - ٤٥، ١٠٧.

(٢) الديار بكرى: تاريخ الخميس، ج ٢، ص ١٢،

الشريف: المرجع السابق، ص ٢٧١.

(٣) المطرى: العريف، ص ١٩ - ٢٠،

الشريف: المرجع السابق، ص ٣٧٦ - ٣٧٧.

(٤) مثل صناعة الخوص والحبال، من سعف والياف النخيل وصناعة الأثاث والأبواب من الجذوع. (انظر: الشريف: نفس المرجع، ص ٣٧٦ - ٣٧٧).

(٥) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٢٩٢.

(٦) ذكر أن الرسول (ص) عرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن فقال بعضهم لبعض: يا قوم والله إنه النبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه. (انظر: ابن اسحاق: نفس المكان).

(٧) ابن اسحاق: نفس المكان.

(٨) ابن اسحاق: نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٩٣.

(٩) ابن اسحاق: نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٩٤ - ٣٠٨.

ولم يمض وقت كثير على هذه البيعة حتى أذن الرسول (ص) لأصحابه في الهجرة إلى المدينة وأقام ينتظر أن يؤذن له في الخروج^(١). وكان نزول معظم المهاجرين الأوائل في بني عمرو بن عوف بقاء^(٢). ثم تنابح المهاجرون إلى المدينة ولحق بهم رسول الله (ص) - فيما بعد - بعد رحلة شاقة ومضنية أعقبها السهل والأهل وترحيب الأوس والخزرج بمن هاجر إليهم.

وكان وصول الرسول (ص) إلى المدينة في يوم الاثنين اثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول^(٤)، الموافق الرابع والعشرين من شهر سبتمبر عام ستائة واثنين وعشرين بعد الميلاد^(٥).

وقد بدأ الرسول (ص)، بعد استقراره وبناء مسجده في المدينة، في تنظيم العلاقات بين السكان حيث كتب كتابا بين المهاجرين وأهل المدينة وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم^(٦). وذلك التنظيم يعد خطوة أولية جمعت عناصر السكان في المدينة فيما يشبه الاتحاد العام تحت قيادة واحدة وسياسة موحدة^(٧). ثم رأى الرسول (ص) بتأييد من الله تعالى أن أفضل سبيل لفرض هبة الاسلام في المدينة ولرفع معنوية المسلمين بين القبائل هو الاتجاه إلى بعث السرايا لاعتراض عير قريش القادمة من الشام واستمالة ما أمكن من القبائل المجاورة إلى صف المدينة بموادعتها ومحالفتها^(٨).

وقد أدت تلك الخطة الحكيمة دورها كاملا وتوجت أعمالها بالنصر المؤزر على الرغم من قلة أنصار الاسلام حينذاك^(٩). فكان لذلك أعظم الأثر في تكاثر المهاجرين في المدينة مع توالى انتصارات المسلمين حتى سميت سنة تسع من الهجرة، لما أفتتح الرسول مكة بسنة الوفود، لكثرة من وفد فيها على رسول الله (ص) من القبائل معلنين الطاعة والولاء^(١٠)؛ كما تقاطرت على المدينة أعداد كبيرة من شتى القبائل العربية راغبة في الجهاد والهجرة إلى رسول الله (ص) فأصبح لمعظمهم في المدينة خططا خاصة بهم^(١١).

(١) السهودي: الوفاء، ج ١، ص ٢٣٥.

(٢) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٢٤.

(٣) ابن اسحاق: نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٢٦ - ٣٤٧.

السهودي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٥ وما بعدها.

(٤) ابن اسحاق: المصدر السابق ج ٢، ص ٣٤١، ابن خياط: تاريخ، ج ١، ص ١٢،

ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج ١، ص ٢٢٥ (الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٧م).

(٥) Holt, P.M.; Cambridge History of Islam. vol. 1 (Cambridge, 1970) p. 41.

ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٨. (انظر الكتاب في الملاحق).

(٧) Holt; o. p. cit vol. 1. p. 41.

(٨) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٩ وما بعدها. (طبعة اكسفورد).

(٩) قال تعالى: «وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ... الآية». الأنفال: ٢٦.

(١٠) ابن اسحاق: السيرة، ج ٤، ص ٩٨٥ وما بعدها.

(١١) انظر: السهودي: الوفاء، ج ٢، ص ٧٥٧ وما بعدها.

الفصل الثاني

عناصر السكان في المدينة قبل الإسلام وبعده

- اليهود
- الأوس والخزرج وحلفائهم من العرب
- الموالى والمبيد
- قريش وثقيف
- المهاجرون من قبائل وأفناء العرب

١ - اليهود

لفظ اليهود - في هذه الدراسة - نريد به ما يحتمله من معنييه : وهما النسب والديانة : قال الله تعالى في القرآن الكريم « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما^(١) »، وهو تعبير عن اعتناق اليهودية مثلما يقال نصراني لا اعتناقه النصرانية. وعلماء اللغة تعرضوا إلى هذا المعنى فقال ابن منظور الهود التوبة، هاد يهود هودا : تاب ورجع إلى الحق فهو هائد . . . وهود الرجل : حول إلى اليهودية^(٢). واليهود لفظ يراد به - أيضا - الدلالة على النسب مرادف للفظ بنى اسرائيل^(٣)، وهو لفظ يعنى في العبرانية بنى عبدالله أو صفوة الله. مركبة من اسرا بمعنى عبد أو صفوه ومن ايل وهو الله^(٤). وقيل انها تعنى سرى الله^(٥). كما تعنى الشديد أو القوى، وهو لقب يعقوب^(٦).

كما أنهم سموا يهودا نسبة إلى يهوذا بن يعقوب، فان الملك استقر في ذريته، وقد أبدلت الذال المعجمة دالا مهملة فقليل يهود^(٧). وهذا التقسيم وعاه المؤرخون المسلمون فقال السهيلي : «يهود اسم علم كثمود يقال : إنهم نسبوا إلى يهوذا بن يعقوب ثم عربت الذال دالا فإذا قلت : اليهود بالالف واللام، احتمل وجهين النسب والدين الذى هو اليهودية، أما النسب فعلى حد قولهم التيم في التيمين. وأما الدين فعلى حد قولك : النصرارى والمجوس أعنى أنها صفة لا أنها نسب إلى أب^(٨)».

(١) آل عمران : ٦٧. الحنيف : من تحنف إلى الشيء إذا مال إليه، ومنه قيل لمن مال عن كل دين أعوج : هو حنيف وله دين حنيف، وتحنف فلان إذا اسلم. (انظر : الزحشرى : أساس البلاغة، ص ١٤٤).

(٢) لسان العرب، ج ٥، ص ٤٣٩.

(٣) واسرائيل هو لقب يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم، أبو اليهود، وقد سموا بذلك نسبة إليه. (انظر : ابن اسحاق : السيرة، ج ١، ص ١٢، شنوده : اليهود، ص ١٥، ٢٠، طنطاوى، د. محمد سعيد : بنو اسرائيل في القرآن، ج ١، ص ٦).

(٤) طنطاوى، د. محمد سعيد : نفس المكان.

(٥) السهيلي : الروض الأنف، ج ٢، ص ٢٩٤.

(٦) للاطلاع على المعانى المرتبطة بهذا الاسم وعن صلته بالكتابات المسارية واللغة الكنعانية. انظر : *The Interpreter's Dictionary of the Bible*, Abingdon - press, New York, vol. 2, p. 765.

(٧) البيرونى : تاريخ الكمل والنحل، ج ٢، ص ٤. اقتبسها طنطاوى، في كتابه بنى اسرائيل في القرآن، ص ٨،

السهيلي : الروض الأنف، ج ٢، ص ٢٩١،

اليقوى : تاريخ، ج ١، ص ٣١،

شنوده : اليهود، ص ١٤.

(٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩١.

وقد تعمدنا تناول هذه النقطة عن معنى لفظ اليهود كتوطئة للحديث عن أصل اليهود في المدينة، وهل هم من بني اسرائيل نسباً أم أنهم عرب تهودوا؟.

وما نظن أنه من السهولة بمكان الوصول إلى قرار جازم عن حقيقة قدم وجودهم وأصلهم في المدينة وذلك عائد إلى أن الباحث في هذا المجال لا يملك نصوصاً تاريخية واضحة تخوله أن يتحدث فيه^(١)، على أن هذا لا يمنعنا من أن نشير بإيجاز إلى الخلاف في المصادر حول أصل اليهود ومجيئهم إلى يثرب. فقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى القول بأن اليهود كانوا في جملة من كان في جيش نبونيد يوم جاء إلى تيماء، فأقاموا بها وبمواضع أخرى من الحجاز بلغت يثرب^(٢). علماً بأن نبونيد لم يشر في أخباره المدونة إلى وجود يهود في جيشه أو إساكنه لهم في هذه الأرضين^(٣). وإن صدقت هذه الرواية، فلربما أنهم كانوا قلة ولم يكن دورهم كبيراً في ذلك الجيش.

ويذكر أنه عثر على عدد من الكتابات النبطية في الحجر وفي مواضع أخرى من أرض النبط وردت فيها أسماء عبرانية تشير إلى أن أصحابها هم من يهود^(٤). ويعود بعض تلك الكتابات إلى القرن الأول للميلاد وإلى سنة ٣٠٧ ميلادية^(٥).

وذلك الوجود للاجئين اليهود في بلاد العرب جعل من الطبيعي أن يتجه بعضهم ممن كان في فلسطين، حوالي القرن الأول الميلادي، إلى أعالي الحجاز وإلى يثرب، بعد ظهور الروم على بلاد الشام وفتحهم بالعبرانيين احتفاءً ببني عمومهم، ولأن هذه الديار بعيدة عن متناول الروم^(٦). هذا إلى جانب أن اليهود كانوا ينظرون إلى العرب، الساكنين شرق الحد العربي Limes Arabicus. على أنهم من نسل إسماعيل وإبراهيم، فهم من ذوى رحمهم

(١) جواد: الفصل، ج ٦، ص ٥١١.

(٢) جواد: الفصل، ج ٦، ص ٥١٣.

تيماء: بلد في أطراف الشام بين الشام ووادي القرى على طريق حاج الشام ودمشق. وتقع اليوم في الجزء الشمالي الغربي من المملكة العربية السعودية، شمال مدينة العلا، وأرضها خصبة زراعية. انظر: كحالة عمر: جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٢٩. وتعد تيماء إحدى المدن القديمة التي لها دور كبير في تاريخ شمال الجزيرة العربية السياسي والاقتصادي وذلك لوقوعها على الطريق التجاري بين الشمال والجنوب. (انظر: الانصاري، دكتور عبد الرحمن الطيب: لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية، بحث نشر في مجلة الدارة، العدد الأول، السنة الأولى، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، الرياض، ص ٨٢). وذكرت بعض النقوش التي اكتشفت حديثاً في حران سنة ١٩٥٦م أن نبونيد بنى في تيماء مدينة جميلة فيها قصراً شبيهاً بقصره في بابل. (انظر: الانصاري، د. عبد الرحمن: المرجع السابق، نفس المكان). ونبونيد، أو نابونيد، هو أحد ملوك بابل. وقد انتقل الحكم إليه بعد تعاقب ثلاثة من أسرة نبوخذ نصر على العرش في مدى سبع سنوات ملؤها التفسخ والقلق، وكان من أسرة كهنوتية، واعتلا العرش عام ٥٥٥ ق. م، وكانت له طموحات سياسية كبيرة فغزا شمال سوريا حتى وصل حماة ووصل إلى غزة جنوباً ثم اتجه إلى واحة تيماء. (انظر: صالح، د. عبد العزيز: الشرق الأدنى القديم، ج ١، ص ٥٦٠ - ٥٦١).

(٣) جواد: المرجع السابق، ج ٦، ص ٥١٣.

(٤) Islamic Culture, vol. 111. No. 2. April, 1929, Judaeo-Arabic Relations in pre-Islamic Times, by Josef (٤)

Horovity, p. 170.

اقتبس جواد على في كتابه الفصل، ج ٦، ص ٥١٣.

الحجر: (يكسر الحاء وسكون الجيم): اسم ديار ثمود وادي القرى بين الشام والمدينة. (انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج ٢،

ص ٢٢٠-٢٢١).

(٥) جواد: المرجع السابق، ج ٦، ص ٥١٣.

(٦) جواد: نفس المرجع، ج ٦، ص ٥١٨.

الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٠٧.

ويرجون اعتناقهم دين إبراهيم جد العرب واليهود^(١).

ونحب أن نشير هنا، إلى أن بعض الباحثين المحدثين، كانوا يميلون إلى إرجاع صلة اليهود بالعرب، في الحجاز ويثرب، إلى عصور موعلة في القدم، ربما تصل إلى أكثر من ألف عام قبل ميلاد المسيح، أي بعد خروج بني إسرائيل من مصر بقيادة موسى عليه السلام^(٢). فقد لقي اليهود أثناء تقدمهم نحو فلسطين والشام - عامة - مقاومة وعنتا شديداً^(٣). ولتعزيز رجوعهم إلى مصر فلربما أن جماعات صغيرة منهم فضلوا اللجوء إلى الحجاز طلباً للأمان والعافية وفراراً عما هم فيه من ضنك العيش وقلة ما لديهم من «القشء والبطيخ والكراث والبصل والثوم»^(٤). وقد ضجوا بشكواهم تلك إلى موسى معبرين بذلك عن جذب سيناء^(٥). ثم إن منطقة الحجاز ومعظم أجزاء جزيرة العرب كانت في ذلك الحين من أشجر بلاد الله^(٦).

ويذكر بعض المستشرقين أن القبائل العربية في عام ١٢٥٥ ق م، قد توقفت في سيناء والنفود في هجرتها من مصر إلى فلسطين وأن موسى تزوج من امرأة عربية كانت تعبد الها صحراويا قاسيا يدعى ياهو، وهو الاله الذي دعى «يهوه» فيما بعد^(٧). وفائدة تلك الرواية أنها تشير صراحة إلى وجود علاقات قديمة على عهد موسى بين اليهود والعرب الذين كان من طبعهم - حينذاك - التنقل طلباً للعرى، سواء في صحارى الجزيرة العربية أم في صحراء سيناء. وكان ينظر إلى فلسطين على أنها امتداد طبيعي للحجاز وبالتالي كان من الطبيعي اتصال سكان كل منها بالبلد الآخر^(٨).

والمتبع لروايات المؤرخين المسلمين عن صلة اليهود بالمدينة يجد أيضاً إشارة إلى توغل هذه الصلة إلى عهد موسى عليه السلام، وهم يرجعون أسبابها إلى عوامل سياسية ودينية أحياناً^(٩). فمن العوامل السياسية استفحال أمر العماليق، ساكني يثرب والجحفة من أرض الحجاز، وتعدد إغاراتهم على بني إسرائيل في الشام مما جعلهم يضجون بالشكوى إلى موسى، فوجه إليهم جيشاً وامرهم أن يقتلوهم ولا يبقوا منهم أحداً، ففعلوا وتركوا منهم ابن ملك لهم يقال له الأرقم ثم رجعوا إلى الشام وقد مات موسى، فقالت بنو إسرائيل لهم: قد عصيتكم وخالفتم فلا نؤويكم، فقالوا: نرجع إلى البلاد التي غلبنا عليها فنكون بها، فرجعوا إلى يثرب فاستوطنوها وتناسلوا بها^(١٠).

(١) لاندو: الإسلام والعرب، (الترجمة العربية لمثير بلعبيكي، بيروت، ١٩٦٢م)، ص ١٦.

جواد: المرجع السابق، ج ٦، ص ٥١٤ (وانظر الهامش رقم ١، نفس المكان).

(٢) شنوده: اليهود، ص ٢٦ - ٢٩.

جواد: المرجع السابق، ج ٦، ص ٥١١.

(٣) شنوده: اليهود، ص ٣٤.

(٤) شنوده: نفس المكان.

(٥) شنوده: نفس المكان.

(٦) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٥٩.

(٧) Landau. R; Islam and the Arabs, p. 13 (London, 1958).

وانظر الترجمة العربية لمثير البلعبيكي (بيروت ١٩٦٢م)، ص ١٧.

(٨) جواد: المفصل، ج ٦، ص ٥١٣.

(٩) السهيلى: الروض الأنف، ج ٢، ص ٢٥٠ - ٢٥١.

السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٥٧.

(١٠) السهيلى: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٥٠ - ٢٥١.

أما من أرجع تلك الصلة إلى العامل الديني فيذكر أن موسى لما حج كان معه أناس من بني إسرائيل فلما كان في انصرافهم أتوا على المدينة فرأوا موضعها صفة بلد نبى يجدون وصفه في التوراة، فإنه خاتم النبيين، فأشتورت طائفة منهم على أن يتخلفوا به، فنزلوا في موضع سوق بني قينقاع ثم تألفت إليهم أناس من العرب فرجعوا على دينهم^(١)

وإلى جانب ذلك فهناك روايات لبعض مؤرخي الاسلام وغيرهم تذكر أن نزول اليهود في الحجاز إنما كان في أيام نبوخذ نصر أو بختنصر، بعد أن جاء فلسطين فهرب قسم منهم إلى وادي القرى وخيبر وتيما، ويشرب واستقروا بها إلى مجيء الاسلام^(٢).

وقد وجدت اليهودية لها سبيلا بين العرب^(٣)، في حمير وبنى كنانة وبنى الحارث وكنده^(٤)، وغسان^(٥)، ويلي^(٦)، وفي الأوس والخزرج^(٧). وبالنسبة للأوس والخزرج فقد ذكر عن تهودهم أن المرأة تكون مقلاتا فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده^(٨). وهذا يشير إلى أن اليهودية لم تكن في الأوس والخزرج بالشكل الكبير مما ينبى عن أن اعتناقها لم يكن عن اقتناع ورغبة. وهذا يحملنا على الاعتقاد بأن نظرة العرب إلى اعتناق الديانة اليهودية كان يشوبه شئ من الجفاء والنفور إلى درجة اعتبار اعتناقها قرينا للهلاك، بمعنى أن المرأة كانت تفضل أن تعيش ولدها حتى وإن كان يهوديا، فهو في رأيها أفضل من موته. ولو أن هذا لا يعدم وجود فئات قليلة بين القبائل العربية دخلت في الدين اليهودي لأغراض سياسية - فيما يبدو - مثل كعب بن الأشرف، وهومن طيء ثم أحد بنى نبهان، أتى أبوه المدينة

(١) السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٧.

(٢) Donny, R., Die Isrealiten zu Mekka, S. 135.

اقتبسه جواد علي في كتابه المفضل: ج ٦، ص ٥١٧ - ٥١٨. ونبوخذ نصر أو بختنصر: ملك بابلي أرسل جيشا إلى فلسطين وقتل ملك اليهود وسبى قومه في عام ٥٩٧ ق. م. (انظر: صالح د. عبد العزيز: الشرق الأدنى القديم، ج ١، القاهرة، ١٩٧٧ م، ص ٢٧٧).

(٣) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٥٩.

ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٢٢٢.

السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

جواد: المفضل، ج ٦، ص ٥١٤ (انظر الهامش رقم ١، نفس المكان).

رستم: الروم، ص ٢٤.

(٤) ابن قتيبة: المعارف، ص ٦٢١.

(٥) البلخي: البدء والتاريخ، ج ٤، ص ٣١.

(٦) السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٧) الطبري: جامع البيان، ج ٣، ص ١٣ - ١٤.

(٨) الطبري: نفس المكان. ومقلات: وقيل مقلى، بكسر الميم والصواب ما قاله شعبه بن الحجاج وهو مقلات. واشتقاق المقلات من قلت لا من قلا. (انظر: نفس المصدر، ج ٣٣، ص ١٤، وانظر الهامش رقم ١، نفس المكان). والمقلات أيضا: ناقة تضع واحدا ثم لا تحمل، وامرأة لا يعيش لها ولد. والجمع مقاليت. (انظر: البستاني: محيط المحيط، مجلد ٢، باب القاف مادة قلت، ص ١٧٤٩، وانظر الزنجشري: أساس البلاغة، ص ٥١٩).

فحالف بنى النضير فشرف فيهم وتزوج فيهم^(١)، وجبل بن جوال بن صفوان بن بلال الذيباني الثعلبي، وكان مع بنى قريظة^(٢)، وحیی بن أخطب وهو في بنى النضير^(٣)، إذ ذكره بعضهم في نسب عتيبه بن الحارث بن شهاب بن جدی التميمي فارس العرب^(٤).

وهناك تهود جماعي، ويبدو أنه حدث في الفترة ما بين القرنين الرابع والخامس الميلاديين^(٥). فقد ذكر أن اليمن بأسرها قد دخلت في الدين اليهودي وأصبح الدين الرسمي فيها^(٦). كما تهود قوم من بنى الحارث بن كعب وقوم من غسان وقوم من جذام^(٧).

وما نستنتجه مما سبق هو وجود عرب تهودوا وأنهم كانوا يشكلون تجمعا خاصا، وهو ما يحملنا على ترجيح الاعتقاد بأن يهود بنى قريظة ويهود بنى النضير وبعض يهود الحجاز إنما هم عرب تهودوا.

وقد قيل في نسب بنى قريظة والنضير أنهم فخذ من جذام^(٨). وذكر أن تهود أولئك كان في أيام عادي أي السموأل^(٩). وقد عاش السموأل وهو صاحب العلاقة المشهورة مع امرئ القيس الكندي^(١٠)، ما بين القرنين الخامس والسادس الميلاديين^(١١).

ولوتناولنا ما ذكر حول إرجاع نسب بنى قريظة ونسب بنى النضير إلى بنى إسرائيل لوجدنا أن ما ذكر في ذلك هو أنهم من أبناء الخزرج بن الصريح بن السبط بن اليسع بن سعد بن لاوى بن جبر بن النحام بن عازر بن عيزر بن

(١) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٥٩.

السمهودي: الوفاء، ج ١، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٢) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٢٢٢.

(٣) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٥٩.

(٤) السهيلي: الروض الأنف، ج ٢، ص ٢٨٩.

(٥) جواد: الفصل، ج ٦، ص ٥٣٩ - ٥٤٠.

(٦) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ١، ص ١٢ وما بعدها.

اليعقوبي: تاريخ، ج ١، ص ٢٥٧.

جواد: المرجع السابق، ج ٦، ص ٥٣٧ وما بعدها.

(٧) اليعقوبي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٧.

(٨) اليعقوبي: تاريخ، ج ٢، ص ٤٩، ٥٢. وجذام: هو عمرو بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ. (انظر ابن حزم: الجمهرة، ص ٤١٩ - ٤٢٠). ويبدو أن بنى جذام قد ألقوا الشمال ورغبوا عن بلدتهم ونسبهم الأصليين، أيام الأمويين، فقد ذكر أن روح بن زنياع وهو من بني أفصى بن حرام بن جذام، أراد أن يرد نسب جذام إلى مضر، فيقول: جذام بن أسدة أخي كنانة وأسدة ابني خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر. (انظر ابن حزم: نفس المصدر، ص ٤٢٠ - ٤٢١).

(٩) اليعقوبي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٢.

ضيف (د. شوقي): العصر الجاهلي، ص ٢٣٩.

(١٠) ابن خلدون: تاريخ، ج ١، ص ٩١ - ٩٥، (طبعة القاهرة، ١٣٥٥هـ).

(١١) جواد: الفصل، ج ٣، ص ٣٦٠ - ٣٦٨.

هارون ابن عمران عليه السلام^(١). ولو أغفلنا ما ذكر من تسلسل في النسب بعد الخزرج بن الصريح لرأينا أنها جميعها أسماء يهودية شملت بطبيعة الحال عددا من أسماء الأنبياء. ويبدو لنا أن وجود اسم الخزرج في أول النسب إلى جانب أن معظم أسمائهم الأولى كانت عربية^(٢)، يؤكد قدم صلتهم بالخزرج مكانا وربما نسبا عربيا وأن انتحال تلك الأسماء اليهودية بعد أسمائهم العربية إنما أريد به أضفاء الأهمية والاحترام عليهم بوصل أنسابهم إلى أنبياء ديانتهم.

وقد نسلم بالقول أن اليهود من بنى قريظة وبنى النضير، وهم حديثو الهجرة إلى يثرب، قد فضلوا اتخاذ الأسماء العربية بعد اختلاطهم بالعرب في يثرب وتأثرهم بهم. إلا أن ذلك القول إن صدق على غيرهم فإنه يصعب أن يصدق على اليهود أو على أي أمة لها كيائها ومبادئها ودينها. وقد كان اليهود، عند نزولهم يثرب، في أوج قوتهم وسلطانهم^(٣). ولم يكن للعرب في الجاهلية وقتها أي قوة أو تراث ديني حتى يمكننا القول أنهم فرضوا أسماءهم على اليهود^(٤)، مثلما حدث - فيما بعد - سواء بالنسبة لليهود أو بالنسبة لغيرهم من الشعوب والأمصار المفتوحة^(٥).

وقد ذكر أن اللغة العبرية آثاراً ظاهرة في أسماء الأماكن التي نزلها اليهود في الحجاز مثل وادي بطحان بالمدينة، فإن معناه بالعبرية «الاعتساد»، ووادي مهزور بالمدينة أيضا معناه «مجرى الماء»، وكذلك لفظ أريس وهو يطلق في اللغة العبرية والأرمية على الفلاح الحارث، ويثرب رومه التي اشتراها عثمان بن عفان من يهودي معناها البئر العالية^(٦). وذلك يؤكد أن للجنس اليهودي القديم في الحجاز، بعض الآثار اللغوية في أسماء الأماكن التي نزلوها، مما يبرهن به على ما ذكر، عن تأثير الطارئ على البلاد التي يحلون فيها.

ومن الأقوال التي ذكرت عن عروبة بنى النضير وبنى قريظة ما أورده السهمودي من أن قريظة كانوا يزعمون أنهم

(١) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٦١.

(٢) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٥٩ - ٣٦٠،

الشريف: مكة والمدينة، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٣) كستر: الحيرة ومكة، ص ١١،

الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٠٦، ٣٢٠.

(٤) الشريف: نفس المرجع، ص ٣٢٠.

(٥) بارتولد (فاسيلي فلاديمير): تاريخ الحضارة الإسلامية، (الترجمة العربية لحمزة طاهر، ط ٣، القاهرة، ١٩٥٨م)، ص ٣٣،

بروكلمان (كارل): تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٩٣ - ١١٩ وفي أماكن متفرقة.

(٦) ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ١٧.

من ذرية شعيب نبي الله، وكان شعيب من بنى جذام^(١). فإن صحت تلك الرواية لم يعد هناك شك في عروبتهم. ويبدون أن يهود بنى قريظة وبنى النضير وغيرهم كان سابقا لهجرتهم إلى المدينة. وفي هذا يقول السهمودي: أن الروم لما غلبوا على الشام خرج قريظة والنضير وهذل هاربين من الشام يريدون من كان بالحجاز من بنى إسرائيل^(٢) وبنو هذل هم بنو عم قريظة والنضير وليسوا منهم فإن نسبهم فوق ذلك^(٣).

وتذكر الروايات التاريخية وجود لبني جذام في الشام وحسمى^(٤)، وأن لهم منزلة كبيرة وزعامة بين عرب الشام^(٥). وهم في معظمهم نصارى^(٦).

والنصرانية كانت الدين الرسمي للدولة الرومانية فكان اعتناقهم للدين المسيحي تعبيرا عن خضوعهم للدولة الرومانية^(٧). وهو ما ولد عندهم فيما نرى شعورا بالتمرد والخروج على دين الدولة^(٨).

(١) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٦٢. أما عن نسب شعيب (وهو بنى في قوم يقال لهم «حضورا»، من العرب البائدة، من بنى أرفخشذ بن يقطن ابن عابر بن شالخ بن أرفخشذ، ومن بنى عمومهم جرهم وحضرموت والسلف). فأما حضورا فكانت ديارهم بالرس وكانوا أهل كفر وعبادة أوثان، وبعث إليهم نبي منهم أسمه شعيب بن ذى مهران، فكذبوه وهلكوا كما هلك غيرهم من الأمم. (انظر: ابن خلدون: تاريخ، طبعة القاهرة، ١٣٥٥هـ، ج ١، ص ٤٦). ويذكر أن ديار جرهم كانت باليمن وكانوا يتكلمون بالعبرانية. والنص الذي أورده ابن خلدون يلاحظ فيه أنه قد جعل حضورا أبناء عمومة لحضرموت ولجرهم، أى أن حضورا قبيلة جنوبية شأنهم في ذلك شأن قبيلة جذام الجنوبية أيضا. وذكر أن ديار حضورا وهي الرس كانت لحضرموت (انظر جواد: الفصل، ج ١، ص ٣٤٧). والنصوص التي بين أيدينا لا تساعدنا على إعطاء تفصيل واف عن جذام وحضورا أكثر من تلك الصلة المكانية، بالإضافة إلى ما سبق ذكره من زعم بنى قريظة أنهم من ذرية شعيب وكانوا من بنى جذام (انظر: ابن حزم: الجمهرة، ص ٣٣٤، السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٢). على أننا نجد في الجمهرة أيضا، إشارة غير مباشرة عن قرابة جذام وحضورا حيث يجتمع نسبهم في سبأ. فجذام هم بنو عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب ابن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ. (انظر ابن حزم: المصدر السابق، ص ٤١٨ - ٤٢١). أما حضورا فهو عدى بن هلك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن الغوث بن أيم بن الحميسع بن حمير ابن سبأ. (انظر: ابن حزم: نفس المصدر، ص ٤٣٢ - ٣٤). وتقول اليمن أن من حضورا كان شعيب بن ذى يدم. (انظر ابن حزم: نفس المصدر، ص ٤٣٤). فمن ذلك نرى أن جذام وحضورا يجتمعون في سبأ واسمه عامر ابن حسنة بن يشجب بن يعرب بن يقطن بن قحطان، وإلى قحطان جماع اليمن. (انظر: ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٤١٩).

(٢) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٦٠.

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة، ج ١، ص ٦٩ - ٧٠.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٧١.

الزنجشري: الجباب والأمكنة والمياه، ص ٤٢.

الكلبي: الأصنام، ص ٣٨.

دار جذام: حوالى أيلة على خليج العقبة، وهي من عمل الحجاز، وكان من أوديتهم - على عهد الرسول - وادى شنار. (انظر ابن اسحاق: السيرة، ج ٤، ص ١٠٣٠، وانظر أيضا ابن حزم: المصدر السابق، ص ٤٢١).

(٥) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٠١١.

ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٢١٣.

(٦) البلاذري: المصدر السابق، ج ١، ص ٧١.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١٣.

(٧) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٠١١.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١٣.

(٨) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٠١١.

ومما يدل به على عروبة بنى قريظة وبنى النضير، عدم تقيدهم كثيرا بعبادات اليهود، بادعاء نقاء العنصر وتحاشي المصاهرة مع الشعوب غير اليهودية النسب فإنك ترى في بنى قريظة وبنى النضير وجود مصاهرات مع قبائل عربية مثل بنى ذبيان ابن ثعلبة^(١)، وبنى تميم^(٢)، وبنى نهبان من طيء^(٣) وكندة^(٤). ثم إننا نجد أن متهودة العرب يحرصون على الانتساب إلى هاتين القبيلتين اليهوديتين دون غيرها من قبائل اليهود بالمدينة ويعتبرون أنفسهم منهم بالمصاهرة والانتساب^(٥)، وهو انجذاب طبيعي اقتضته صلة الدم القوية بينهم كعرب وممارسة نفس التقاليد والاعراف العربية. وقد لاحظ هذا كثير من المؤرخين المسلمين عند ذكرهم لبعض اليهود المنسوين في بنى قريظة مثل عبد الرحمن بن الزبير بن ياطأ قال عنه ابن خياط: انه ليس من بنى اسرائيل^(٦)، وذلك يؤكد ما ذهبنا إليه آنفا من أن هناك فرقا بين اليهود وبنى اسرائيل حيث أن لفظ اليهود قد يشير إلى الجنس والديانة معا بينما اقتصر لفظ بنى اسرائيل على الجنس دون غيره.

أما بالنسبة لبنى قينقاع فيبدو أنهم بقية عناصر اسرائيلية النسب وأن وجودهم في يثرب يعود إلى ما قبل الميلاد. ونستنتج هذا مما سبق ذكره عن نزول بنى اسرائيل في عهد موسى، يثرب على سكانها العرب القدماء من العماليق، حين أشير إلى نزولهم في موضع سوق بنى قينقاع^(٧). وهذا التعريف مع ذكر اسم بنى قينقاع يحمل على الاعتقاد أنهم هم المعنيون بأول من سكن المدينة من اليهود، على فرض استبعاد امكانية تغييرهم لذلك الموضع أولا لعدم وجود روايات تذكر شيئا عن انتقال جماعي بهدف تغيير المسكن، وثانيا أن صغر رقعة المدينة المسكونة يجعل من المتعذر حدوث مثل ذلك بسهولة.

وقد كان الرسول (ص) ينظر إلى بنى قينقاع على أنهم أصحاب الكلمة والمعرفة بين يهود المدينة. ولذا فإنه حين رأى أنه من الضروري استئالة اليهود للدخول في الاسلام جمع بنى قينقاع بسوقهم ثم قال: يامعشر اليهود، احذروا من اله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النعمة واسلموا فأنكم عرفتم أنى نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله إليكم^(٨).

(١) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٢٢٢.

(٢) السهيلي: الروض الأنف، ج ٢، ص ٢٨٩.

(٣) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٥٩.

السمهودى: الوفاء، ج ١، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٤) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠١.

(٥) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٥٩.

السهيلي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٩.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠١، ٢٢٢.

(٦) الطبقات، ص ١٢٣.

(٧) السمهودى: الوفاء، ج ١، ص ١٥٧.

(٨) الطبرى: تاريخ، ج ٢، ص ٢٧٩.

السمهودى: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

وبنو قينقاع كانوا دون سائر يهود يثرب أصحاب الصناعة والصياغة^(١)، وهى من الحرف التى يأنف منها العرب ويرونها من الحرف الحقيرة^(٢).

وهناك رواية يمكن اعتبارها نصا على نسبة بنى قينقاع إلى بنى اسرائيل. وهو ما نجده في حديث بخيريق الذى قيل إنه من بنى قينقاع^(٣)، وكان عالما وقد أوصى بأمواله للنبي (ص) وهى سبع حوائط فجعلها النبي (ص) صدقه^(٤). وكان بخيريق قد شهد أحد فقتل بها فقال عنه رسول الله (ص): بخيريق سائق يهود وسلمان سائق فارس وبلال سائق الحبشة^(٥)، وقيل بخيريق خير يهود^(٦). والرسول (ص) جمع هنا بين أسماء رجال أسلموا، وعرفهم بنسبتهم إلى جنسياتهم ولو كان يقصد الديانة لقال بخيريق سائق اليهود وسلمان سائق المجوس وبلال سائق النصارى. وقد سبق أن تعرضنا إلى معنى التفريق بين لفظ يهود بدون الألف واللام والتى تعنى النسب^(٧)، واليهود بالألف واللام والتى يحتمل فيها وجهين النسب والدين^(٨).

وقد أورد غير واحد من المؤرخين المسلمين نصا على أن بنى قينقاع هم من ذرية يوسف عليه السلام^(٩).

أما ما قد نجده في بنى قينقاع من تشابه في اللغة والعادات مع سائر يهود يثرب فالظاهر أن مرده يعود إلى مجاورتهم الطويلة للقبائل العربية وإلى انقطاع صلتهم ببنى جلدتهم في الشام من يهود، حتى أن هؤلاء لم يكونوا يرونهم مثلهم في العقيدة بل رأوا أنهم لم يكونوا يهودا لأنهم لم يخضعوا لأحكام التلمود^(١٠).

والذى نراه أن سبب انعزال يهود يثرب وبعدهم عن بنى جلدتهم في الشام بنبذ كثير من تقاليد اليهود، إنما يرجع إلى ظروف هجرتهم إلى الجزيرة العربية، سواء ما كان يرجع تاريخه إلى عهد موسى عليه السلام^(١١). أو ما كان أيام

(١) الطبرى: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٨١،

المطرى: التعريف، ص ١٩ - ٢٠.

(٢) ابن خلدون: تاريخ، ج ١، ص ٣٣٧ (طبعة بولاق، ١٢٨٤ هـ)،

جواد: المفصل، ج ٦، ص ٥٣٦.

(٣) ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٣٩٣.

(٤) ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٣٩٣.

(٥) ابن حجر: نفس المكان.

(٦) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٦٣.

(٧) السهيلي: الروض الأنف، ج ٢، ص ٢٩١.

(٨) السهيلي: نفس المكان.

(٩) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٦٤،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٠.

(١٠) ولفنسون: تاريخ اليهود، ص ١٣.

(١١) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٥٧.

بختنصر حين اكتسح ديارهم في الشام^(١). فقد صاحب هجرة اليهود إلى يثرب ظهور خلاف بينهم وبين بنى عمومهم في الشام وهذا نستخلصه من حديث ابن شبه حين ذكر أن موسى وهارون أقبلا حاجين فمر بالمدينة، فخافا من يهود، فخرجا مستخفين^(٢). وبصرف النظر عن صحة تلك الرواية إلا أنها تظهر أن هجرة اليهود إلى المدينة كانت نتيجة خلاف بينهم وبين يهود الشام. وإذا ما سلمنا بهذا الأمر فإن يهود المدينة، بحكم كونهم أقلية في محيط عربي كبير وجدوا أن من مصلحتهم كأقلية ليس لها سند خارجي، الاندماج - ولو نسبيا - في محيطهم الجديد لامتصاص ما قد ينشأ من رد فعل كثيرا ما يقابل به الغرباء من قبل أهل البلاد الأصليين.

أما بالنسبة للرواية، التي تذكر أن هجرة اليهود إلى يثرب إنما كانت لآيمانهم بظهور نبي عربي منعت في كتابهم، وأنه يظهر في بعض هذه القرى العربية، في قرية ذات نخل^(٣)، وأن اليهود يرجون أن يلقوا هذا النبي فيتبعونه^(٤). فإنها تجعلنا نعتقد أيضا، أن اليهود، وقد آمنوا بأن هذا النبي سيظهر في بلاد عربية، فهو - ولا ريب - لا بد أن يكون - في اعتقادهم - عربيا أو على الأقل لسانه عربيا. وعلى ذلك فلا غرابة أن يهبطوا أنفسهم ويربوا صغارهم على التشبع بالعادات والتقاليد العربية لينالوا الخطوة لدى هذا النبي المنتظر.

وهذه المرونة، الشاذة عن طبع اليهود، والخروج عن تقاليدهم المتزمتة التي لا تشجع - عادة - على الاختلاط بغير جنس اليهود، قد تجعلنا نعتقد أنها من عوامل دخول بطون بنى قريظة وبنى النضير، والذي ذكر أنهم من قبيلة جذام العربية^(٥)، كما أنها أيضا، من عوامل دخول سواهم من العرب في الدين اليهودي، وبالتالي الهجرة إلى يثرب.

ويبدو أن تساهل يهود يثرب وخروجهم على بعض أحكام التلمود^(٦)، بالإضافة إلى الوضع غير المستقر في الشام، حيث ظهر الروم على تلك البلاد وفتكوا بالعبرانيين، قد جعل منطقة يثرب مركز جذب لليهود، إحتفاء بمن كان بالحجاز من بنى إسرائيل^(٧).

والغالب على طبيعة الهجرات اليهودية الأخيرة إلى يثرب أنها هجرات صغيرة أو على شكل عائلات ولذا فإنهم يهتمون بغيرهم من القبائل اليهودية ويسكنونهم. ومن أولئك بنو القصيص وبنو ناغصة وبنو هذل وبنو عمرو وبنو معاوية وبنو زعوراء وبنو زيد اللات وبنو حجر وبنو ثعلبة وأهل زهرة وبنو مرأيه^(٨).

(١) انظر: جواد: المفصل، ج ٦، ص ٥١٧ - ٥١٨.

(٢) السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٦١.

(٣) السهمودي: نفس المصدر، ج ١، ص ١٦٠.

(٤) السهمودي: نفس المكان.

(٥) اليعقوبي: تاريخ، ج ٢، ص ٤٩، ٥٢.

(٦) ولفنسون: تاريخ اليهود، ص ١٣.

(٧) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٦٠.

جواد: المفصل، ج ٦، ص ٥١٨.

(٨) السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٠ - ١٦٤. وقيل أن بنى ناغصة حتى من اليمن كانت منازلهم شعب بنى حرام

حتى نقلهم عمر بن الخطاب إلى مسجد الفتح. (انظر: السهمودي: نفس المصدر، ج ١، ص ١٦٣).

وقد تكون تلك القبائل المذكورة قبائل عربية تهودت، مستدلين على ذلك من واقع أسماؤها العربية. وقد تكون فعلا قبائل يهودية الجنس وجرى عليها في تغيير أسماؤها وتقاليدها ما جرى لبنى قينقاع. على أننا نميل إلى الاعتقاد بأنها قبائل يهودية الجنس وذلك إذا سلمنا بأن وجود اليهود في المدينة كان قديما وأن تسريحهم كان مستمرا حتى أواخر القرن الخامس الميلادي - كما سبق أن ذكر خلال البحث، بالإضافة إلى ما سبق ذكره عن عروبة بنى قريظة وبنى النضير - مما يجعل من غير المعقول أن تكون بقية الجنس اليهودي في المدينة لا تتعدى العدد القليل الذي كان يمثل بنى قينقاع عند اجلاتهم من المدينة^(١).

وما بين أيدينا من أخبار عن يهود المدينة لم يكن في حجم آمالنا لمعرفة الاحصاء التقريبي لهم. إلا أننا - مع هذا - لا نعدم وجود نصوص في هذا المجال تلقى بعض الضؤ على الحجم التقريبي لليهود في المدينة.

فالنسبة لبنى قينقاع نجد أن البالغين من الرجال يصل إلى حوالي سبعمائة رجل^(٢). ولعدم معرفتنا بعدد النساء والأطفال فسنفترض أن جميع أولئك السبعمائة متزوجين وأن المتوسط التقديرى لعدد أطفال كل زوجين هو اثنان. وعليه يمكن القول أن عدد بنى قينقاع يصل إلى حوالي ألفين وثمانمائة شخص.

وكذلك بنو قريظة لم تعد معرفتنا لا حصائها عما ذكر عن عدد رجالها البالغين، وهم ستمائة أو سبعمائة^(٣)، والمكثري فيهم يقول: كانوا من الثمانمائة إلى التسعمائة^(٤). وهو اختلاف بسيط يمكن التقريب بينه بأخذ المتوسط لتلك الاعداد وهو سبعمائة وخمسين رجل وقد ذكره أيضا الواقدي^(٥).

وحسب قاعدتنا السابقة يمكن معرفة عدد نساء وأطفال بنى قريظة حيث يكون الاحصاء التقريبي لبنى قريظة هو ثلاثة آلاف شخص.

أما بنو النضير، وهم إحدى قبائل اليهود الثلاث الكبرى في المدينة. فلم نعر على ما ينجر عن عدد رجالهم البالغين إلا أن ابن الحاج أورد نصا يعطى صورة تقريبية عن حجم النساء والصبيان في بنى النضير وذلك عند حديثه

(١) ذكر أنهم كانوا حوالي سبعمائة مقاتل. (انظر: الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٤٨٠).

(٢) الطبري: نفس المكان.

(٣) الطبري: نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٨٨،

ابن النجار: الدرة، ص ٥٤.

(٤) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٧٢١،

الطبري: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٨٨،

ابن النجار: المصدر السابق، ص ٥٤.

(٥) يقول الواقدي: كان جبي بن أخطب يقول لأبي سفيان بن حرب ولقريش في مسيره معهم: إن قومي قريظة معكم، وهم أهل حلقة وافر، وهم سبعمائة وخمسون مقاتلا. (انظر: المغازي، ج ٢، ص ٤٥٤ - طبعة اكسفورد).

عن اجلائهم حيث قال : « فلحقوا بخيبر ثم إلى الشام والحيرة وحملوا النساء والصبيان وغير ذلك على سائمة بعير ^(١) ». وهذا يجعلنا نميل إلى الاعتقاد أنهم في نحو عدد بنى قينقاع أو بنى النضير . //

والمعروف أن إجلاء بنى النضير قد تم قبل الخندق وقد كان عدد المسلمين في ذلك اليوم حوالي الثلاثة آلاف رجل ^(٢) . ولما حاصرهم الرسول (ص) عرض عليهم عبد الله ابن أبي ، مساعدته بامدادهم بألفين من رجاله يدخلون معهم حصونهم ^(٣) . فكأن عبد الله بن أبي يريد بهذا ايجاد توازن بين القوتين لتعادل قوة المسلمين التي تصل إلى الثلاثة آلاف مقاتل .

أما بقية اليهود فلا نعرف عنهم شيئاً أكثر من أنهم كانوا نيفاً وعشرين قبيلة ^(٤) . ويحسن بنا عدم تحميل هذا القول أكثر مما كان عليه الحال عن تجمعات اليهود في يثرب والذي يتمثل في وجود ثلاث تجمعات قبلية كبيرة هم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة . إلا أننا لا نستبعد أن المقصود من إيصال عدد قبائل اليهود إلى هذا العدد الكبير هو إظهار كثرة تفرعاتهم وأنهم يمثلون قبائل عدة . وليسوا مقتصرين فقط على بنى قريظة أو بنى قينقاع وبنى النضير الذين انتهى أمرهم في المدينة على عهد الرسول (ص) . مما يعطى انطباعاً بأن هناك أعداداً كبيرة من اليهود قد دخلوا في الاسلام وانصهروا كلية في مجتمعه بالمدينة ، وأصبحوا جزءاً من تركيبه وبنيته . وهو ما لا نستبعده ، خاصة ، وأن منطق الصحيفة التي كتبها الرسول بعد هجرته كان يذكر عدداً من اليهود منتسبين إلى كثير من بطون الأوس والخزرج ويعدون أمة مع المؤمنين ^(٥) .

ولم ينزل اليهود في يثرب في منطقة واحدة بل تفرقوا فيها . وقد نقل السمهودي عن ابن زباله ما ذكره عن سكنى اليهود المدينة فذكر أن جميعهم كان بزهره ، وهي أعظم قرى المدينة ، ومنهم بنو ثعلبة وأهل زهره وهم رهط الفطيون ملكهم وكان لهم أطام على طريق العريض حين تهبط من الحرة ^(٦) . كما نزل جمهورهم بيثرب بمجتمع السيول مما يلي

(١) رفع الخفاء ، ورقة ٨٩ .

(٢) الطبري : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٥٧٠ .

(٣) ابن اسحاق : السيرة ، ج ٣ ، ص ٦٨٣ ،

الديار بكرى : تاريخ الخميس ، ج ١ ، ص ٤٦٠ .

(٤) السمهودي : الوفاء ، ج ١ ، ص ٤٦٠ . وقد ذكر أن ممن بقى بالمدينة من اليهود حيث نزلت عليهم الأوس والخزرج : بنو قريظة وبنو النضير وبنو ضخم وبنو زعوراء وبنو ماسكة وبنو القمعة وبنو زيد اللات ، وهم رهط عبد الله بن سلام ، وبنو قينقاع وبنو حجر وبنو ثعلبة وأهل زهره وأهل زباله وأهل يثرب وبنو القصيص وبنو ناغصة وبنو عكوة وبنو مراية . (انظر : ابن رسته : الأعلام النفيسة ، ج ٧ ، ص ٦٢) .

(٥) ابن اسحاق : السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٥٠ .

(٦) السمهودي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦١ ، ١٦٤ .

زغابه^(١). إلا أن يهود يثرب قد بادوا ولم يبق منهم فيها أحد^(٢).

ونزل بنو النضير على وادي مذيئيب بالعالية واتخذوا عليه الأموال فكانوا أول من احتفر بالعالية الآبار وغرس الأموال^(٣). ونزل عليهم بعض قبائل العرب، فكانوا معهم، فاتخذوا الأموال وأبنتوا الأطام والمنازل^(٤).

وما ذكره السهمودي من أن بناء الأطام والمنازل في بني النضير إنما كان بعد نزول بعض القبائل العربية عليهم يؤكد عروية تلك العمارة^(٥)، خاصة أن معظم من نزل على بني النضير من القبائل العربية كانوا أحياء من اليمن كبني الجذماء وقيل الجذمي^(٦)، وبني أنيف ومريد من بلي وبني معاوية بن الحارث بن بهثة بن سليم من قيس عيلان^(٧). وبني ناغصة^(٨). فمن غير المستبعد أن يكون أولئك العرب النازحين من اليمن قد حملوا معهم طراز عمارتهم إلى يثرب أو على الأقل طابعها العام.

ثم إنه قد ذكر أيضاً أن العماليق كانوا أول من زرع بالمدينة واتخذ بها النخل وعمر بها الدور والأطام قبل نزول اليهود عليهم في مدينة يثرب^(٩). وذلك يعني أن للعرب في المدينة، معرفة سابقة في بناء الدور والأطام قبل معرفة اليهود الوافدين عليهم. وليس كما حاول بعضهم أن ينسب بناء الأطام في المدينة ومدن الحجاز عامة إلى اليهود، مدعي أن تلك المناطق كانت غير آهلة بكثير من سكانها العرب وإن جموعهم كانت تتجمعها ثم ترحل عنها^(١٠).

(١) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٦١.

(٢) السهمودي: نفس المصدر، ج ١، ص ١٦٥. والمقصود بـ يثرب هنا ما ذكره المطري بقوله: يثرب اسم أرض ومدينة النبي في ناحية منها. قلت وهي اليوم (يعني عصره أواخر القرن السابع الهجري) معروفة بهذا الاسم وفيها نخيل كثير ملك لأهل المدينة وأوقاف للفقراء وغيرهم. وهي غرب مشهد حمزة بن عبد المطلب. (انظر: التعريف، ص ١٩).

(٣) السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٦١.

ابن رسته: الاعلاق النفيسة، ج ٧، ص ٦١.

(٤) السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٦١.

(٥) مدني (السيد عبيد): أطوم المدينة المنورة، بحث نشر في مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، م ٣، السنة الثالثة، ص ٢٢٠.

(٦) ابن رسته: المصدر السابق، ج ٧، ص ٦٢.

(٧) السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٢، ابن قتيبة: المعارف، ص ٨٥.

(٨) السهمودي: نفس المصدر، ج ١، ص ١٦٣. وقد ذكر ابن رسته أن بني ناغصة حو من اليهود. (انظر: المصدر السابق، ج ٧، ص ٦٢).

(٩) ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٨٤. ونحب أن نشير هنا إلى أن هناك تشابها كبيرا بين وظيفة الأطام وهي الحصون والبيوت المرتفعة. (انظر: المعجم الوسيط، ج ١، ص ٢٠) في المدينة ووظيفة بعض قصور اليمن. فقد قيل أن للأطام مساطب عالية تشرف على ما حولها ويتنزه من فوقها. إضافة إلى مهمتها الدفاعية لاتقاء غارات من حولهم من الأعداء (انظر: الأنصاري، عبد القدوس: آثار المدينة المنورة، ص ٦٤). وبالنسبة لقصور اليمن ذكر أن الحمير بين بادروا بحكم الضرورة إلى بناء القصور والمعازل المنيعات اتقاء غارات البدو. (انظر: حتى: تاريخ العرب، ج ١، ص ٧٥). كما استخدمت سطوحها منتزها، حيث جعل أعلى بعضها مجالسا بنوها بالرخام. (انظر: ياقوت: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢١٠، حتى: المرجع السابق، ج ١، ص ٧٥). مثل قصر غمدان في صنعاء الذي يعزى إلى الملك ليشرح بن محصب (انظر: ياقوت: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢١٠). وقد تولى الحكم خلال القرن الأول بعد الميلاد (انظر: حتى: المرجع السابق، ج ١، ص ٧٤). وهناك أيضا بعض الشبه في شكل البناء بين الأطام وبعض قصور اليمن إذ أن كل منها كان على هيئة مربع وله سطح (انظر: حتى: المرجع السابق، ج ١، ص ٧٥، مدني، السيد عبيد: أطوم المدينة المنورة، بحث نشر في مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، م ٣، ص ٣، ص ٢١٤).

(١٠) ولفنسون: تاريخ اليهود، ص ١١٣، ١١٧.

وقد أدى اكتظاظ منطقة العالية بسكانها من العرب واليهود إلى توسعهم نحو الغرب والجنوب الغربي بقاء. وقد ذكر منهم في بقاء جماعات منها بنو القصيص وبنو ناغصة، كانوا مع بنى أنيف قبل نزول الأوس والخزرج عليهم^(١). ونزلت بنو قريظة في دارهم بالعالية على وادي مهزور^(٢)، وكان معهم اخوتهم بنو هذل وبنو عمرو^(٣)، ونزل بنو زعوراء عند مشربة أم ابراهيم ولهم أطم عندها^(٤). أما بنو قينقاع، ومنهم بنو زيد اللات فكانت منازلهم عند منتهى جسر بطحان مما يلي العالية، وكان هناك سوق من أسواق المدينة وكان لهم أطمان عند منقطع الجسر على يمين الذهاب من المدينة إلى العالية إذا سلك الجسر^(٥). وقد تمتد مساكنهم إلى بقاء^(٦). كما سكن من اليهود ناس بالشوط والعنابس والوالج وزباله إلى عين فاطمة^(٧). وكان لأهل الشوط أطمان يقال له الشرعبي، دون ذباب وقد صار لبنى جشم بن الحارث بن الخزرج الأصفر أخوه بنى عبد الأشهل^(٨). ولأهل الوالج أطمان مما يلي قناة^(٩).

وكان اليهود أصحاب الثروة والجاه لاحتلالهم أخصب المواقع في المدينة وهو ما خلق فيهم روح الغطرسة والتعالي على من كان معهم من العرب ممن حالقهم وجاورهم^(١٠). وقد عمل الأوس والخزرج على إذلال اليهود وتحطيم قوتهم وذلك بعد أن قوى مركزهم في المدينة واتصلهم ببني عمومهم في الشام كسند لهم ضد قوة اليهود^(١١). فتوجه مالك بن العجلان مستغيثاً بنفسه إلى الشام بعد أن قتل ملك اليهود الفطيون^(١٢). وهذه الحادثة يبدوا أنها قريبة العهد بزمان الهجرة. ونستدل على ذلك بما ذكر من شهود أحد ولد مالك بن العجلان معركة بدر^(١٣).

(١) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٦٣.

(٢) السهمودي: نفس المصدر، ج ١، ص ١٦١، ١٦٣.

(٣) السهمودي: نفس المكان.

(٤) السهمودي: نفس المصدر، ج ١، ص ١٦٤.

مشربة أم ابراهيم: موضع في المدينة شمالي مسجد بنى قريظة في العالية قريب من الحرة الشرقية في موضع يعرف بالدهشت على أيام المطري بين نخل يعرف بالأشراف، من بنى قاسم بن ادريس بن جعفر أخى الحسن العسكري. (انظر: المطري: التعريف، ص ٥٢).

(٥) السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٤.

جسر بطحان: هو المكان الذي ينطرح فيه وادي بطحان بدء من شمال الماشونية المعروفة اليوم بالمشونية، وينتهي الجسر بين البشر المراكشية العائدة لآل عبد العال المراكشين وبين البشر المشرفية. وهناك جسر بياضة وهو مجتمع منازل بنى بياضة مع بنى حبيب وبنى دينار. ويذكر أيضاً أن شمال الماشونية هو أول مجرى وادي بطحان في مجتمعه مع وادي مذنيب ومهزور، وبقي من الجهات الناحية الغربية وهي المقصودة في بنى قينقاع بالقول «عند منقطع الجسر أى أول مبتدأ بطحان مما يلي غرب الماشونية وغربي جسر بطحان هناك». (انظر: العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر، ص ١٨ - ١٩).

(٦) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٦٠ - ٣٦١.

ابن كثير: البداية والنهاية، م ٢، ج ٣، ص ٢١١.

(٧) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٦٥.

(٨) السهمودي: نفس المكان.

(٩) السهمودي: نفس المكان.

(١٠) السهمودي: نفس المصدر، ج ١، ص ١٨٢.

(١١) السهمودي: نفس المصدر، ج ١، ص ١٧٩.

(١٢) السهمودي: نفس المكان.

(١٣) الواقد: المغازي، ج ١، ص ١٦٧ (طبعة اكسفورد).

وكانت استجابة الغساسنة بالشام سريعة لنصرة الأوس والخزرج فأرسلوا قوة بقيادة أبي جبيلة إلى يثرب^(١) ونزل في سفح جبل أحد وبعث إلى اليهود فقتل منهم ثلاث مائة وخمسين رجلا صبرا^(٢) .

وبالقضاء على رؤساء اليهود ضعف أمرهم وتلاشى نفوذهم حتى صاروا هم الحلفاء للأوس والخزرج^(٣) .

وبعد أن يش اليهود من استعمال القوة ضد الأوس والخزرج عمدوا إلى الحيلة بالدس بين الحيين فكان لهم ما أرادوا فنشبت حروب كثيرة بينهما أضعفت كلا من الأوس والخزرج معا^(٤) . حتى كانت وقعة بعاث، قبيل الهجرة بخمس سنين^(٥)، والتي أنهكت تماما قوة الأوس والخزرج فمالوا إلى السلم مجبرين^(٦) .

وقد زاد خوف اليهود من هذا الصلح بين الأوس والخزرج فبدأوا يتطلعون إلى ما كانوا يؤمنون به من ظهور نبي، لم يكن في حسابهم أن يتبعه الأوس والخزرج قبلهم، وهم أصحاب الكتاب، فكانوا يوعدون به الأوس والخزرج وأنهم سوف يتبعونه وينتصرون به عليهم^(٧) . إلا أن سبق الأوس والخزرج إلى نصرة الرسول محمد (ص) واتباعه جعل اليهود يترجعون عن إيمانهم به أو نصرته . وكان بينهم أفراد آمنوا بمحمد، صلى الله عليه وسلم إيمانا صادقا لم تشبه مصالح دنيوية أو شخصية كيأمين بن يامين^(٨)، وميمون بن يامين الخبر^(٩)، وعبد الله بن سلام وكان حبرا عالما^(١٠)، دخل في الاسلام عن ايمان واعتقاد . ولما في قصة اسلامه من تصوير دقيق للعقلية اليهودية، زمن الهجرة وتجسيد لاختلاقياتهم ومتاجرتهم بعقيدتهم وإيمانهم في سبيل مصالح شخصية ودنيوية فسوف نورد نصها بتصرف عن روايات المؤرخين المسلمين . فقد ذكر أن عبد الله بن سلام قال : لما سمعت برسول الله (ص) وعرفت صفته واسمه وهيبته وزمّانه الذي كنا نتوكل له، فكنت بقاء، مسرا بذلك صامتا عليه حتى قدم رسول الله المدينة . فلما سمعت الخبر كبرت فقالت عمتي حين سمعت تكبيرى لو كنت سمعت بموسى بن عمران مازدت، قال قلت لها: أى عمه والله هو أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بيا بعث به . . قال : فخرجت إلى رسول الله (ص) فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا . . وكنتم إسلامى من يهود وقلت : يارسول الله إن اليهود قوم بهت . فإنهم إن يعلموا

(١) السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٩ .

(٢) السهمودي: نفس المصدر، ج ١، ص ١٨٢ .

(٣) ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٢٦٩، ٣٢٠ .

السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٤) السهمودي: نفس المصدر، ج ١، ص ٢١٥، ٢١٦ .

(٥) السهمودي: نفس المصدر، ج ١، ص ٢١٨ .

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج ١، ص ٤١٧ - ٤١٨ .

(٧) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٢٩٢ .

(٨) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٤٩ .

(٩) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٧١ .

(١٠) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٤٩ .

بذلك بهتوني وعابوني^(١).

ولقد أدرك الرسول (ص) طبيعة اليهود هذه . ولذا نجد أنه عند بدء تنظيم مجتمع المدينة الجديد يضع اليهود في مكان مناسب ، في محاولة لهدايتهم وردهم إلى طريق الاسلام بموادعتهم ومعاهدتهم واقرارهم على دينهم وأموالهم^(٢) ولم يطلب منهم أكثر من التزام جانب الحياد في غزواته على أن ينصروه إذا مادهم المدينة عدو^(٣) . ويقول ابن اسحاق في هذا : وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة^(٤) .

وكان تاريخ هذه المواقعة بعد قدوم رسول الله (ص) المدينة بنحو خمسة أشهر^(٥) . وقد جاء هذا الدستور في شكل كتاب أو صحيفة من محمد النبي (ص) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم وأنهم أمة واحدة من دون الناس^(٦) . ولم يحمل هذا الدستور اليهود أعباء مالية أكثر مما قد نسميه ضريبة حماية ينفقونها مع المؤمنين ماداموا محاربين^(٧) ، واعتبروهم أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم^(٨) .

وعمل الرسول (ص) على استمالة اليهود وتذكيرهم بأن معتقده في الايمان بالله ورسله لا يختلف عن معتقدهم . فكان أن اتجه في صلاته الى بيت المقدس ، إلى أن حولت القبلة قبل بدر بشهرين إلى الكعبة^(٩) . وقد ذكر الطبري في هذا : «أن نبي الله (ص) خير أن يوجه وجهه حيث شاء ، فاختر بيت المقدس ، لكي يتألف أهل الكتاب^(١٠) . فكانت قبلته ستة عشر شهرا ، وهو بذلك يقلب وجهه في السماء ، ثم وجهه الله إلى البيت الحرام^(١١) . وهناك آخرون يرون أن استقبال بيت المقدس بعد الهجرة إلى المدينة ، إنما كان بأمر من الله لنبيه أن يفعل ذلك^(١٢) . وكان بعض

(١) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٦٠ - ٣٦١،

ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٦٤٩، ٤٧١.

(٢) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٨.

(٣) مجهول: في سيرة الرسول، ورقة رقم ١٢، (مخطوط أوقاف بغداد).

(٤) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٥٠.

(٥) مجهول: المصدر السابق، ورقة ١٢.

(٦) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٤٨.

(٧) ابن اسحاق: نفس المكان.

(٨) ابن اسحاق: نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٥٠.

(٩) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢٤١،

مالك: الموطأ، ج ١، ص ١٩٦،

ابن الحاج: رفع الخفاء، ورقة ٧٣ - ٧٤،

ابن ظهيرة: الجامع، ص ٢١ - ٢٢ . وقد ذكر أن القبلة صرفت عن الشام إلى الكعبة في رجب على رأس سبعة عشر شهرا من

مقدم الرسول (ص) المدينة . (انظر: الطبري: جامع البيان، ج ٢، ص ١ - ٣).

(١٠) الطبري: نفس المصدر، ج ٢، ص ٤.

(١١) الطبري: نفس المكان.

(١٢) الطبري: نفس المصدر، ج ٢، ص ٤ - ٥.

عناصر السكان في المدينة المنورة خلال العصر النبوي: عناصر السكان في المدينة قبيل الإسلام وبعده
 ٤٧ المسلمين - قبل ذلك - يرى وجهة التوجه إلى الكعبة عند الصلاة، منذ الأيام الأولى التي سبقت الهجرة^(١). فقد ذكر
 في حديث كعب بن مالك قال: «خرجنا في حجاج قومنا وقد صلينا وفقهنا، ومعنا البراء بن معرور، كبيرنا وسيدنا،
 فقال: باها ولا، قد رأيت ألا أدع هذه البنية مني بظهر، يعنى الكعبة، وأن أصلى إليها. قال: فقلنا. والله ما بلغنا أن
 نبينا (ص)، يصلى إلا إلى الشام وما نريد أن نخالفه. قال: فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام وصلى إلى
 الكعبة»^(٢).

إلا أن قلوب أحبار اليهود كانت تنطوى على عداوة وحسد وضغن، لما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله
 منهم^(٣). وكانوا يزعمون أنهم أبناء الله^(٤).

والذى يبدو، أن اليهود وهم مركز الثقل في الحياة الاقتصادية والمالية في المدينة، شعروا بالخوف من انفلات تلك
 الهيمنة من أيديهم وهم يرون تزايد المهاجرين إلى المدينة وفيهم كبار رجال الاقتصاد والتجارة من قريش وثقيف. وبما
 زاد خوف اليهود، أن مركز المهاجرين الاجتماعى قد ازداد قوة بعد انتصارهم الحربى والسياسى يوم بدر. فلذا عمد
 اليهود في مواقف لاحقة، إلى قطع العهد الذى بينهم وبين الرسول^(٥) (ص)، بغية إضعاف ذلك المركز وهز الأوضاع
 المستقرة بزرع الشك والريبة في مجتمع المدينة.

ولم يكن من عادة الرسول (ص) أن يبدأ أحدا حتى تظهر عداوته، فاتبع مع اليهود أسلوب اللين ودعاهم إلى الله
 بمحاجتهم وتذكيرهم بما في كتابهم من نبوة محمد^(٦) (ص). حتى أنه كان يسعى إليهم بنفسه في بيوت عبادتهم وهى
 المدراس فيدعوهم إلى الله ومحاجهم بما في كتابهم^(٧). إلا أن اليهود ظلوا في غيهم سادرين، وتفاقم شرهم إلى درجة
 تهديد حياة محمد رسول الله (ص) مما جعل الصحابة يكرهون أن يتجول في المدينة بمفرده ليلا، خوفا عليه من اليهود
 أن يصيبوه بسوء^(٨). وقد تعدى تهديدهم للرسول (ص) إلى التحرش بالمسلمين والمجاهرة بإهانتهم^(٩)، معتمدين في

(١) ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ٣١.

(٢) ابن قدامة: نفس المكان.

(٣) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٥٨.

شلبى: التاريخ الإسلامى، ج ١، ص ٢٥٤.

Holt P.M.; The Cambridge History of Islam. vol. 1. p. 44.

(٤) المائدة: ١٨، ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٤٩٢.

(٥) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٦٠، ج ٣، ص ٦٨٢، ٦٨٤، ٧٠٠، ٧١٥-٧٢١؛

البلاذرى: الأنساب، ص ٣٠٨.

(٦) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٨٥ - ٣٨٩.

ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٤٩٢.

(٧) الطبرى: جامع البيان، ج ٣، ص ٢١٧.

(٨) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٩) ابن الحاج: رفع الحفاء، ورقة ٧٩.

البلاذرى: الأنساب، ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

هذا على أن لهم سنداً قوياً هو عبد الله بن أبي^(١). إلى جانب ما اشتهروا به من شجاعة بين طوائف اليهود^(٢).

غير أن حنكة الرسول (ص) جعلته يسارع إلى حسم الأمر بسرعة وفاجأ بنى قينقاع وحاصرهم وكاد أن يقتلهم جميعاً جزاء خيانتهم ونقضهم العهد والميثاق^(٣). إلا أن الموقف اقتضى من الرسول (ص) أن أمر باجلائهم إلى الشام فنزلوا أذرعات^(٤)، حاملين معهم أطفالهم ونساءهم وللرسول (ص) أموالهم وسلاحهم^(٥). وكان الرسول قد نفذ تلك الاجراءات بحق اليهود بعد أن أطلعه الله سبحانه في القرآن الكريم على حقيقة نوايا اليهود بقوله: «إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون»^(٦). حيث ذكر أن هذه الآية نزلت في اليهود الذين كانوا بنواحي المدينة على عهد رسول الله (ص)، توبيخاً لهم في جحودهم نبوة محمد وتكذيبهم به مع علمهم به^(٧).

وقد كرر بنو النضير غلطة بنى قينقاع بنقضهم العهد واعتمادهم على عبد الله ابن أبي وهو الرجل الضعيف والمتردد في المدينة فاتبعوا مشورته وتمحصنوا في حصونهم على أمل أن يمددهم بألفين من رجاله^(٨). إلا أنهم أخيراً نزلوا على الجلاء إلى الشام وأن لهم ما أقلت الابل من الأمتعة إلا السلاح^(٩).

وقد ظنت بنو قريظة أن قوة الاحزاب المحاصرة للمدينة ستكون خير معاون لها على محمد (ص) ولذا فقد نقضوا العهد وحالفوا أعداء المسلمين^(١٠).

وقد اعتبر الرسول (ص) نقض بنى قريظة العهد في هذه الظروف العصبية خيانة عظمى عقابها الموت يستحقه.

(١) البلاذري: نفس المكان.

(٢) ابن الحاج: المصدر السابق، ورقة ٧٩.

(٣) قال تعالى في حق اليهود: «الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون». البقرة: ٢٧. وانظر أيضاً (الطبري: المصدر السابق، ج ١، ص ١٨٢ - ١٨٣).

(٤) البلاذري: الأنساب، ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

أذرعات: من بلاد الشام. والتاء مكسورة ويقال لها يذرعات بالياء. (انظر: الحميري: الروض المعطار، ص ١٩، الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٣٢٩).

(٥) ابن الحاج: رفع الخفاء، ورقة ٨٠.

(٦) البقرة: ٦.

(٧) الطبري: جامع البيان، ج ١، ص ١٠٨.

(٨) ابن الحاج: المصدر السابق، ورقة ٨٨.

(٩) البلاذري: المصدر السابق، ص ١٩.

ابن الحاج: المصدر السابق، ورقة ٨٩.

(١٠) الواقدي: المغازي، ص ٢٩١ - ٢٩٢، (الطبعة الاولى).

مقاتلتها السبعائة والخمسين رجلاً^(١). وقد أبقي الرسول (ص) على النساء والصغار واعتبرهم سبياً للمسلمين^(٢).

وهذا الاجراء الذى اتخذته الرسول (ص) فى حق بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع من قتل وإجلاء هو إجراء سياسى وأمنى اقتضته ضرورة أمن مجتمع الاسلام فى المدينة ولم يكن دافعها تعصب دينى أو عرقى. فقد كفل الرسول (ص) لليهود حريتهم الدينية^(٣). وعاملهم كأى طبقة فى المجتمع ارتبطت مع المسلمين بالمصاهرة أحياناً^(٤). كما أن ذلك الاجراء لم يشمل بقية العناصر اليهودية فى المدينة والتى دخل بعضها فى الاسلام أو التى ظل بعضها الآخر على دينه.

ولكى تكتمل الصورة فى حديثنا عن اليهود كعنصر غير إسلامى فى مجتمع المدينة، يجدر بنا تناول تلك العناصر لمعرفة مدى تأثيرها بالاسلام ونوعية تأثيرها فى المجتمع.

وبالنسبة لليهود، كعنصر بارز فى مجتمع المدينة أكثر من غيره من العناصر غير الاسلامية نجد أن الرسول (ص)، منذ بدء هجرته إلى المدينة عمل على جذب اليهود إلى دين الاسلام، وهم الذين كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج بمحمد قبل بعثته^(٥). فكان الرسول (ص) يبعث إليهم جماعة من المسلمين منهم معاذ بن جبل ويشر بن البراء وداود بن سلمه، لمجادلتهم بالتي هى أحسن بغية إدخالهم فى الاسلام^(٦).

وقد تفاوتت اليهود فى مدى الاستجابة لدعوة الرسول (ص) حتى قيل أنه لم يسلم من بنى النضير غير سعد بن وهب وسفيان بن عمير بن وهب^(٧). وهذه الحالة تصدق أيضاً على بقية طوائف اليهود فالقلة منهم استجابت لدعوة

(١) الطبرى: تاريخ، ج ٢، ص ٤٨٨،

ابن النجار: الدرر، ص ٥٤،

ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٥٣٨. وكان ابن اسحاق قد ذكر عدد مقاتلة بنى قريظة بقوله: المكثرون يقول: كانوا بين

الثمانمائة والتسعمائة. (انظر: السيرة، ج ٣، ص ٧٢١).

(٢) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠١،

ابن النجار: المصدر السابق، ص ٥٤.

(٣) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٥٠،

الديار بكرى: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٥٣.

(٤) الواقدي: المغازى، ج ١، ص ٤١٠-٤١٢، (طبعة اكسفورد).

مجهول: فى سيرة الرسول، ورقة ٢.

(٥) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٤٧٣. وقال تعالى: «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل

يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به». البقرة: ٨٩.

(٦) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٨٩،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٧٣.

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٩.

الإسلام عن إيمان صادق^(١).

وكان بعض أخبار يهود أسرع غيرهم إلى اعتناق الإسلام والايان بمحمد رسول الله، بحكم معرفتهم السابقة بعلامات بعثه ونبوته^(٢). ومن هؤلاء الاخبار، عبد الله بن سلام^(٣)، وكان يقول: عرفت صفته واسمه وهيئته وزمانه الذي كنا نتوكل له^(٤). وقد أسلم من أهل بيت عبد الله بن سلام أبناؤه محمد^(٥). ويوسف^(٦)، وإخوانه سلمه^(٧)، وثعلبة^(٨)، وسلام ابن اخته^(٩).

وآمن بمحمد من الأخبار أيضا يامين بن يامين وميمون بن يامين^(١٠)، وزيد ابن سعنة^(١١)، أو سعية^(١٢)، وكان يقول: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه محمد حين نظرت إليه^(١٣)، وعبد الله بن سالم^(١٤)، وقام بن يهودا^(١٥)، وغير يق، وكان خبر بني ثعلبة بن الفطيون^(١٦).

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب (هانش الاصابة، ج ١)، ص ٦٨، ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٢، ٢٣١، ج ٢، ص ٤٠٠. وكان ممن أسلم من عامة اليهود: جبل بن جوال بني صفوان بن بلال بن أصرم بن إياس بن عبد غنم بن جحاش بن محاله بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان الشاعر الذبياني ثم الثعلبي، وكان يهوديا فأسلم. (انظر: ابن حجر: ج ١، ص ٢٢٢)، وجريج الاسرائيلي. (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٢٣١)، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد، وهم نفر من هذل، أسلموا ليلة نزول بني قريظة على حكم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، (انظر: ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٣، ص ٧١٩، ابن عبد البر: المصدر السابق، ج ١، ص ٦٨، ابن الاثير: أسد الغابة، ج ١، ص ٦٩ - ٧٠)، وزيد بن سعية أحد أخبار اليهود، الذين أسلموا وكان أكثرهم علما ومالا ومن حسن إسلامه. (انظر: النووي: تهذيب الاسماء واللغات، ج ١، ص ٢٠٤).

(٢) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٥٦٦.

(٣) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٦٠ - ٣٦١.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٤٩.

(٤) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٦٠ - ٣٦١.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١١ - ٢١٢، ٦٤٩.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٣٧٩.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٦٧١.

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٦٥.

(٨) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ١٩٩.

(٩) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٥٩.

(١٠) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٦٤٩، ٦٧١.

(١١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٥٦٦.

(١٢) النووي: تهذيب الاسماء واللغات، ج ١، ص ٢٠٤.

(١٣) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٦٦.

(١٤) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٦٧١.

(١٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ١٨٣.

(١٦) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٥٩.

ويشكل بنو قريظة أعلى نسبة في اعتناق الاسلام بين اليهود. وذلك بحكم وجودهم كسبي في أيدي المسلمين^(١). وكانت غالبيتهم من الشباب الصغار ممن شمله عفو الرسول (ص)، ولم يقتلوا^(٢). وقد ذكر ابن حجر أسماء أكثر من اثني عشر قريظيا مسلما ممن كانت له صحبة أو رواية عن النبي^(٣) (ص).

وعلى عهد الرسول (ص)، كان يوجد في المدينة عناصر يهودية كبيرة بقيت على دينها مثل عبد الله بن صائد، كان أبوه من اليهود ولا يدري من أي قبيلة هو، ولد على عهد رسول الله (ص)، وعاش مع أهله في المدينة طوال عهد النبي^(٤) (ص)، إذ أن النبي (ص)، حين مر به، يلعب مع الصبيان، كان غلاما لم يحتلم^(٥)؛ ولأنه ولد على عهد رسول الله (ص)، فهو ربما كان يناهز العاشرة من عمره وهي مدة حياة الرسول (ص)، بالمدينة.

وقد أعطيت تلك العناصر خرية ممارسة ديانتها وطقوسها الخاصة بها^(٦). كما استعان الرسول (ص)، ببعض هؤلاء اليهود واتخذ منهم أدلاء له لمعرفة بعض الطرق حول المدينة، ولم يجبر أحدهم على ترك دينه^(٧). ويذكر أن بعضهم قد أسلم على عهد أبي بكر الصديق^(٨).

ومن غلمانهم من كان يخدمه (ص)، وكان يعودهم في مرضهم^(٩). وكان ينظر إلى اليهود في المدينة على أنهم معاهدون لهم حقهم من العدل والانصاف^(١٠). وقد تمتعوا بمركز مالي واقتصادي مرموق^(١١).

ويبدو أن جلاء بني قينقاع وبني النضير وقتل رجال بني قريظة لم يؤثر كثيرا على عدد اليهود في المدينة إذ كانوا نيفا وعشرين قبيلة^(١٢). كما لم يضعف من رغبتهم في استعادة نفوذهم ومركزهم في المدينة. وقد هالهم ما أصبح عليه

(١) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٥١٩، ج ٣، ص ٢٩٧.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٣.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٨٦.

(٣) وأولئك هم: عمار بن سعد. (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٨١)، وأبو ثعلبة (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٤، ص ٣٠)، وكثير بن السائب (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٢٨٦)، وكعب بن سليم بن أسد، والزيبر بن عبد الرحمن بن الزبير، ورفاعة، وعطية أبناء قرظة، ورافع القرظي، ورفاعة بن سموال، وأسد وأسيد أبناء كعب، وثعلبة بن أبي مالك (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٢٠١، ٥٠١، ٥١٨، ٥١٩، ٥٨٤، ج ٣، ص ٢٩٧).

(٤) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ١٣٣ - ١٣٥.

(٥) ابن حجر: نفس المكان.

(٦) مسلم: الصحيح، ج ٢، ص ٦٤٣.

(٧) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ١٨٧.

(٨) ابن حجر: نفس المكان.

(٩) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٣٠.

(١٠) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٣٦٦.

(١١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٣٦٦، ٤٨٣، ج ٣، ص ٣٩٣.

البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٨، ٢٥ - ٢٦.

(١٢) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ٢٦٥.

الأوس والخزرج من تآلف . فبدأوا يحيكون الدسائس ويبشون بذور الفرقة ما وجدوا لذلك سبيلا . فمن ذلك قصة شاس بن قيس ، وكان يهوديا ، مر على نفر من الأوس والخزرج يتحدثون ، فغاظه ما رأى من تآلفهم بعد العداوة فأمر شابا معه من يهود أن يجلس بينهم فيذكرهم يوم بعث^(١) . وقد كادت أن تشب فتنة عمياء لولا تدارك الرسول صلى الله عليه وسلم ، للأمر^(٢) .

وقد تطلب وجود هذا العدد من اليهود وغيرهم من المعاهدين في المدينة أن وضع الرسول (ص) ، معنى العشور بأنها ليست على المسلمين وإنما هي على اليهود والنصارى^(٣) . وهذا الحديث يقودنا إلى ضرورة ذكر شيء مختصر عن العناصر الدينية الأخرى ، غير اليهودية ، في المدينة .

العناصر الدينية غير اليهودية في المدينة

وفي هذا نشير إلى أن صلة يثرب بالمسيحية ، كانت قديمة وترجع إلى الأيام الأولى لانتشارها . فقد ذكر أنه كان يوجد كتابه في حجر على قبر قديم عند جماء أم خالد بالعقيق^(٤) ، تذكر أن مبشرا من قبل عيسى بن مريم ، قد أرسل إلى أهل هذه القرية^(٥) ، يعني يثرب .

ومن ذلك يظهر أن العناصر غير المسلمة في المدينة لم يقتصر وجودها على اليهود فحسب . إذ يبدو أنه كان يوجد إلى جانب المؤمنين واليهود بعض الصابئة والنصارى والمجوس . وقد جمعهم آية في قوله تعالى : «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد^(٦)» .

وإلى جانب ما ذكر عن قدم النصرانية في يثرب ، فقد بقي تأثيرها إلى العهد القريب السابق للهجرة^(٧) . فقد ذكر

(١) ابن اسحاق : السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٩٦ ،

ابن حجر : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٧ .

(٢) ابن اسحاق : السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٩٧ ،

ابن حجر : الاصابة ، ج ١ ، ص ٨٧ .

(٣) ابن حجر : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١٦ .

(٤) والجماء المذكورة هي إحدى أربعة أجبل ، غربي وادي العقيق . (انظر : المطري : التعريف ، ص ٦٥ - ٦٦) .

(٥) المطري : نفس المكان .

(٦) الحج : ١٧ . والصابئون : قوم يعبدون الملائكة ويصلون القبلة ويقرأون الزبور . أما المجوس ، فهم قوم يعبدون الشمس والقمر

والنيران . (انظر : المطري : جامع البيان ، ج ١٧ ، ص ١٢٩) .

(٧) ابن اسحاق : السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٥٦ ،

ابن قدامة : الاستبصار ، ورقة ٧ - ٨ ،

ابن حجر : الاصابة ، ج ٢ ، ص ١٨٣ .

أن أبا قيس ابن أبي أنس كان رجلاً قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة واعتزل الحائض من النساء وهم بالنصرانية ثم أمسك حتى قدم رسول الله (ص)، المدينة فأسلم^(١). وللتجار النصارى الذين كانوا يقدمون من الشام بتجارهم، تأثير كبير في نشر النصرانية بيشرب، وقد استهوت بعض شباب الأوس والخزرج فاعتنقوها^(٢) ومن هؤلاء شابان من بنى سالم بن عوف تنصرا قبل أن يبعث النبي (ص)، ثم قدما المدينة في نفر من الانصار بتجارة طعام فأتاهما أبوهما، ويقال له أبو الحصين وطلب منها أن يسلما فأبيا^(٣). وقد ساء أبا الحصين أن يتنصر ولداه فأتى النبي (ص)، فذكر فقال له : لا إكراه في الدين^(٤).

وقد كانت الحجاز، عامة على صلة بالنصرانية عن طريق اليمن في العهد الحبشي^(٥)، وكذلك عن طريق العلاقات التجارية مع الشام قبيل وبعد البعثة النبوية^(٦). كما كانت الحيرة مركز تأثير نصراني إلى ما قبيل الاسلام^(٧). حيث ذكر أنه كان يوجد فيها قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا بها على النصرانية، وكانوا يعرفون بالعباد^(٨). وقد استمرت صلة التجار النصارى بالمدينة على عهد النبي (ص)، وأسلم بعضهم بالمدينة حين قدومهم بتجارهم^(٩).

ويوجد في المدينة، على عهد النبي (ص)، بعض النصارى، بقوا على دينهم، وكان الرسول (ص)، قد عرض على بعضهم الاسلام ولم يفرضه، فإن أبوا قسمت أموالهم نصفين وتركت لهم حريتهم الدينية^(١٠)، وذلك - فيما يبدو - كان جاريا على النصارى المقيمين في المدينة وقد حدث جعدة بن هاني الحضرمي «أن النبي بعثه إلى رجل نصراني بالمدينة يدعوه إلى الاسلام، وقال له : فإن أبى أقسم ماله نصفين^(١١)». وظل بعض هؤلاء مترددا بين الإسلام والنصرانية ثم أسلموا على عهد أبي بكر^(١٢).

(١) ابن اسحاق : المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٥٦،

ابن قدامة : المصدر السابق، ورقة ٧ - ٨،

ابن حجر : المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٣.

(٢) ابن حجر : نفس المصدر، ج ١، ص ٣٤٠ - ٣٤١، ج ٤، ص ٤٤.

(٣) ابن حجر : نفس المكان.

(٤) الطبري : المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤ - ١٦،

ابن حجر : المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٤.

(٥) ابن حجر : الاصابة، ج ٣، ص ٥١٢.

(٦) ابن حجر : نفس المصدر، ج ٢، ص ٥٠٣ - ٥٠٤.

(٧) الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام، ص ٣٤ - ٣٦،

سالم (د). السيد عبد العزيز : دراسات في تاريخ العرب، ج ١، ص ٦٥٥.

(٨) ابن دريد : الاشتقاق، ص ١١، (القاهرة، ١٩٥٨م).

(٩) ابن حجر : المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٦٧.

(١٠) ابن حجر : نفس المصدر، ج ١، ص ٢٣٦.

(١١) ابن حجر : نفس المكان.

(١٢) ابن حجر : نفس المصدر، ج ٣، ص ٢٩٨ - ٣٠٠.

ويبدو أن معظم أولئك النصارى لم يستقروا بصفة دائمة في المدينة، وإنما كانوا يغشونها لانجاز بعض شؤونهم التجارية، فقد ذكر أن كعب بن عدى التنوخى أقبل في وفد من أهل الحيرة إلى النبي (ص)، ثم وقع له ولاصحابه تردد وخصوصا بعد وفاة النبي (ص)، وكان الذى يربطه بالمدينة - حينذاك - ما كان بينه وبين عمر بن الخطاب من شراكة في تجارة البز (الثياب). وكان يقول: كنت شريكا لعمر بن الخطاب فلما فرض الديوان فرض لى في بنى عدى بن كعب^(١). وذكر أنه أقام لامسليا ولا نصرانيا، ثم حسن إسلامه على عهد أبى بكر^(٢).

كما ذكر أن الغلام الذى أهدى مع ماريا واسمه مأبور القبطى ظل على نصرانيته ولم يسلم^(٣).

ولا يستبعد أن يكون للمجوس، وهم عبدة النار من الفرس^(٤)، وجود في المدينة على عهد النبي (ص). وقد نستدل على وجودهم من حديث لعبيد الله بن عبد الله قال: جاء مجوسى إلى رسول الله (ص)، قد أعفى شاربه وأحفى لحيته^(٥). كما ذكر أن مولى لرسول الله (ص)، اسمه ماناهية، وكان مجوسيا تاجرا، سمع بذكر الرسول (ص)، فخرج بتجارة معه من مرو (من بلاد خراسان) حتى قدم المدينة فأسلم^(٦).

وكانت المدينة تستقبل قبل الهجرة كثيرا من الموالى الفرس، وهم في غالبيتهم من المجوس مثل سلمان الفارسى الذى كان مجتهدا في المجوسية ثم قدم الجزيرة العربية عبدا فابتاعه رجل من بنى قريظة فاحتمله إلى المدينة^(٧).

ويذكر أن للمجوس وجودا في اليمن، وفي حجر، وأن الرسول (ص)، أخذ منهم الجزية^(٨). وبما أن المدينة - كما سبق أن رأينا - كانت قبيل الإسلام مركزا تجاريا هاما في الطريق التجاري بين اليمن والحجاز، وبين الشام والشرق. فمن غير المستبعد أن يتواجد تجار من المجوس في يثرب بغرض التجارة.

(١) ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٢٩٨ - ٣٠٠.

(٢) ابن حجر: نفس المكان.

(٣) الديار بكرى: تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٣٨.

(٤) المسعودى: مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٢٨.

الديار بكرى: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٥١.

جواد: المفصل، ج ٦، ص ٦٩١.

(٥) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٤٩.

(٦) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٨٥. ثم إن هناك تأثيرا على بعض المفردات المستعملة في الجزيرة العربية والمدينة خاصة، مثل لفظ البرنى، وهو من ألوان التمر في المدينة، وقال أبو حنيفة: معناه بالفارسية حمل مبارك، لأن بر معناها حمل، ونى معناها جيد أو مبارك، فعرته العرب فأدخلته في كلامها. (انظر: السهيلي: الروض الأنف، ج ٣، ص ٢٥٠). ومن ذلك أيضا لفظ السروال فهى فارسية معربة. (انظر مالك: الموطأ، ج ١، ص ٣٢٥).

(٧) ابن اسحاق: السيرة، ج ١، ص ١٣٩ - ١٤٢.

الديار بكرى: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٥١ - ٣٥٢.

(٨) البلاذرى: فتوح البلدان، ج ١، ص ٨٦.

ويبدو أن كثرة أهل الكتاب من اليهود والنصارى جعل من الطبيعي أن ترتبط مصالحهم مع مصالح المسلمين في المدينة بشكل كبير. فاستوجب ذلك تنظيماً لبعض الأمور والحقائق ضمن تلك العلاقات، وخاصة في مجال الأطعمة وما أحل منها وما حرم، فقال تعالى: «اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم»^(١).

ويذكر في هذا المجال أيضاً أن زيد بن ثابت الانصاري النجاري، ترجمان الرسول (ص)، بالسريانية والفارسية والرومية والقبطية والحبشية تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن^(٢). ونستدل من هذا النص على أن تلك الأجناس كان لها وجود بارز في المدينة مكن أفرادها من حفظ ألسنتهم وتعليمها لمن أراد تعلمها من أهل المدينة.

٢ - الأوس والخزرج وحلفاؤهم من العرب

الأوس والخزرج حيان كبيران من أحياء قبائل اليمن^(٣). ويعدان جماع نسب الأنصار^(٤). والأنصار لقب إسلامي عرفوا به لنصرتهم رسول الله^(٥) (ص)، وهم أبناء حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن أمريء القيس بن ثعلبة بن مازن بن^(٦) الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان^(٧). وقيل هم من ولد ثعلبة بن عمرو بن حارثة بن أمريء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان^(٨). واختلاف الروايتين في تسلسل النسب لم يكن كبيراً وهو كثير الحصول عند النسابة في ذكرهم لأنساب القدماء. غير أن الملاحظ هو إجماعهم على أن نسبهم ينتهي إلى قبائل يمانية^(٩).

وقد عرف الأوس والخزرج بين العرب في يثرب باسم اليمانية، ومن تلك التسمية جاء اسم حذيفة بن اليمان

(١) المائة: ٥.

(٢) الخزاعي: تخريج الدلالات السمعية، ورقة ٦٠ (مخطوطة مصورة بمعهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية. رقم الميكروفيلم ١٥٨).

(٣) ابن حزم: الجمهرة، ص ٣٢٩.

السمهودي: الوفاء، ج ١، ص ١٧٣.

(٤) ابن دريد: الاشتقاق، ورقة ٢١٤ (مخطوط بمكتبة السليمانية باسطنبول).

(٥) الأنفال: ٧٢.

ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٢٩٢، ٣٢١، ٥٠٧، السهيلي: الروض الأنف، ج ٢، ص ١٨٣.

الديار بكري: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٠٦.

(٦) ابن حزم: المصدر السابق، ص ٣٣٢.

(٧) ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ٣ - ٤.

(٨) السمهودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٣.

(٩) السمهودي: في نفس المكان.

العيسى ، لما حالف أبوه بنى عبد الأشهل الأوسيين سماه قومه اليان لكونه حالف اليمانية^(١) . واشتهروا أيضا باسم بنى قيلة نسبة الى أمهم قيلة بنت عمرو بن جفنة . وقيل بنت كاهن بن عذرة من قضاة^(٢) .

وينقسم الأوس والخزرج إلى عدة بطون^(٣) . فمن بطون الخزرج الكبيرة : بنو النجار ، وهوتيم الله بن ثعلبة بن حارثة بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر^(٤) ، وهم أدنى أحوال عبد المطلب بن هاشم إليه . فإن أمه هي سلمى بنت عمرو بن حداس بن عامر بن عدى بن غنم بن النجار بن ثعلبة بن الخزرج^(٥) .

ومن الخزرج أيضا بنو مالك بن عدى بن غنم بن عدى بن النجار^(٦) ، ومنهم بنو معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار ، وهم بنو جديلة أمهم نسبوا إليها^(٧) . ومنهم بنو عبيد بن ثعلبة ، رهط أسعد بن زرارة^(٨) ، وبنو سواد بن غنم وبنو عبد عوف بن غنم ، رهط أبى أيوب^(٩) ، وبنو مبدول وبنو مازن وبنو دينار وبنو ساعدة وبنو كعب بن الخزرج وبنو خدرة وبنو خدادة وبنو جشم وبنو سلمة وبنو حرام وبنو زريق وبنو بياضة وبنو سالم وبنو عمرو بن عوف^(١٠) .

أما أشهر بطون الأوس فهم : بنو عبد الأشهل وبنو زعوراء وبنو حارثة وبنو ظفر وبنو خطمة وبنو جحجبا وبنو واقف^(١١) .

ويرجع المؤرخون المسلمون دواعى هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب ، وسكنهم فيها إلى حادثة سيل العرم وخراب بلاد اليمن^(١٢) . فذكروا أن عمرو بن عامر مزيقياء سار عن مأرب هو ومن تبعه من الأزد^(١٣) . فسكن كل بطن ناحية اختاروها ، فسكنت خزاعة الحجاز ، وسكنت غسان الشام ، وتخلف الأوس والخزرج بيثرب ، وكان فيها قرى وأسواق ومها قبائل من اليهود من بنى اسرائيل وغيرهم^(١٤) .

(١) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٣١٧.

(٢) السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٥، ١٧٦.

الديار بكري: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٦.

(٣) ابن حزم: الجمهرة، ص ٣٣٢ - ٣٣٦.

(٤) ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ٣ - ٤.

(٥) ابن قدامة: نفس المكان.

(٦) ابن قدامة: نفس المصدر، ورقة ٧.

(٧) ابن قدامة: نفس المصدر، ورقة ٨.

(٨) ابن قدامة: نفس المصدر، ورقة ١٠.

(٩) ابن قدامة: نفس المصدر، ورقة ٨، ١٤.

(١٠) ابن قدامة: نفس المصدر، ورقة ١٥ - ٤٦.

(١١) ابن قدامة: نفس المصدر، ورقة ٤٦ - ٤٧.

(١٢) ابن الأثير: الكامل، ج ١، ص ٤٠١.

(١٣) ابن اسحاق: السيرة، ج ١، ص ٦، ٧.

السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٦٦ - ١٧٢.

(١٤) ابن الأثير: الكامل، ج ١، ص ٤٠١.

ومع أن الغموض يكتنف أسباب وتاريخ هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب إلا أن ذلك لا ينفي حقيقة هجرتهم، والتي نميل إلى أرجاع زمنها إلى الفترة الواقعة ما بين القرنين الرابع والخامس الميلاديين. على اعتبار أن هجرتهم إلى يثرب كانت بعد هجرة بني قريظة وبني النضير^(١). وقد سبق أن ذكرنا ذلك خلال البحث بأن هجرتهم إلى يثرب قد تمت خلال تلك الفترة^(٢). وربما كان ذلك في الفترة التي بين عيسى ومحمد عليهما السلام حوالي القرن الرابع الميلادي وهو ما ذكره السهمودي^(٣).

والذي يبدو، أن معرفة الأوس والخزرج بيثرب، كانت قديمة وسابقة لهجرتهم. وكان اختيارهم لهذه البقعة الحرة التربة، ذات النخل المطعمات في المحل^(٤). لأنهم كانوا أصحاب خبرة قديمة بشئون الزراعة. وقد لاقى هذا الاختيار - ولا ريب - قبولا ورضى من سكانها اليهود والعرب، ولذلك نجد أن الأوس والخزرج عاملوا اليهود زمانا فصار لهم مالا وعددا^(٥). كما أنه عمل على إيجاد تكامل اقتصادي في يثرب، كان عماده الصناعة والتجارة المحلية في أيدي معظم اليهود^(٦)، والزراعة وتربية المواشي في أيدي الأوس والخزرج الذين جربوا أيضا حياة الترحل وتتبع القطر فلم تتفق واستعدادهم وما اعتادوا عليه^(٧).

علما بأنه كان لليهود أيضا معرفة بشئون الزراعة الخاصة، بمعنى أن لكل عائلة تقريبا حائطا أو نخلا يعملون فيه بأنفسهم لسد حاجاتهم اليومية^(٨). ولذا نجد أن لديهم يوم الخندق آلة كثيرة من مساحي وكرازين ومكاتل. وقد استعارها المسلمون للحفر في الخندق^(٩).

وكان اليهود يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم الأعز والأكثر^(١٠). وقد وعى الأوس والخزرج - من جانبهم - تلك الحقيقة فسالموا اليهود بادية الأمر وقبلوا معاملتهم وسألوهم أن يعقدوا فيهم جوارا وحلفا يأمن به بعضهم من بعض ويمتنعون به ممن سواهم^(١١). وقد ساعد هذا الحلف الأوس والخزرج على أن يوجهوا جل اهتمامهم إلى مجالات

(١) العدوي: أحوال مكة والمدينة، ج ٢، ورقة ١١٢ - ١١٣،

ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠١.

(٢) اليعقوبي: تاريخ، ج ٢، ص ٤٩، ٥٢،

جواد: المفصل، ج ٣، ص ٣٦٠ - ٦٨.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٦.

(٤) السهمودي: نفس المصدر، ج ١، ص ١٧١،

العدوي: المصدر السابق، ج ٢، ورقة ١١٣.

(٥) العدوي: أحوال مكة والمدينة، ج ٢، ورقة ١١٣.

(٦) المطري: التعريف، ص ١٩ - ٢٠،

العدوي: المصدر السابق، ج ٢، ورقة ١١٣.

(٧) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٧٢،

العدوي: المصدر السابق، ج ٢، ورقة ١١٣.

(٨) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٦١.

(٩) الواقدي: المغازي، ج ٢، ص ٤٤٥، (طبعة اكسفورد، ١٩٦٦م)،

المقريزي: امتاع الاسماع، ج ١، ص ٢٢٠.

(١٠) العدوي: المصدر السابق، ج ٢، ورقة ١١٣.

(١١) العدوي: نفس المكان.

الزراعة، حتى ملكوا الأموال وصار لهم عدد وقوة .

وقد بعث هذا التقدم الاقتصادي والاجتماعي في حياة الأوس والخزرج الخوف في نفوس اليهود . ففقطعوا الحلف الذى كان بينهم^(١) . وهنا أحس الأوس والخزرج بضرورة وجود سند سياسى يعتمدون عليه ويردون به خطر ما تبينه اليهود لهم . ولهذا كان اتجاههم إلى الشام حيث بنو عمومته^(٢) . والذى يظهر أنهم كانوا حلفاء مقربين لدى ملوك غسان ومحظون بمنزلة عظيمة^(٣) . ولذا فقد أمدوهم بقوة استطاعوا بها كسر شوكة اليهود والقضاء على وجوههم ورؤسائهم فعزت بذلك الأوس والخزرج بيثرب^(٤) .

وقد تناول المؤرخون المسلمون تلك الحادثة على أنها مجرد استنجاد اقتضته التقاليد القبلية وحثته^(٥) . وهذا يجعلنا نطرح تساؤلا عن حقيقة الدوافع التى جعلت الأوس والخزرج يتجهون إلى الغساسنة بالشام ولم يتجهون إلى القبائل العربية في الحجاز، وهم أقرب إليهم، وكان منهم العديد من بنى عمومته^(٦) .

والذى يبدو لنا أن الغساسنة أنفسهم ربما هم الذين عرضوا على الأوس والخزرج المساعدة لدوافع سياسية كانت تستهدف القضاء على نفوذ اليهود بيثرب، ذات الموقع الاستراتيجي على طرق التجارة^(٧) . خاصة وأن اليهودية قد تسللت إلى اليمن وصار لها بها أنصار على النطاق الرسمى^(٨) . مما قد يجعل منها قوة قد تعرض الوجود المسيحى في اليمن والحبشة لخطر كبير^(٩) . ولذا فإن بنى غسان بالشام، وهم حلفاء الروم المدافعين عنهم لرد هجمات البدو^(١٠)،

(١) العدوى: أحوال مكة والمدينة، ج ٢، ورقة ١١٣ .

(٢) العدوى: نفس المكان،

ابن الأثير: الكامل، ج ١، ص ٤٠٢ .

(٣) العدوى: المصدر السابق، ج ٢، ورقة ١١٣ .

الشرىف: مكة والمدينة، ص ٣٣٠ .

(٤) العدوى: المصدر السابق، ج ٢، ورقة ١١٣ .

(٥) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠٢ .

(٦) ابن الأثير: نفس المصدر، ج ١، ص ٤٠١ .

(٧) حتى: تاريخ العرب، ج ١، ص ١٤٦ .

(٨) ابن اسحاق: السيرة، ج ١، ص ١٩ - ٢٣،

ابن خلدون: تاريخ، ج ١، ص ٩١،

Landau, R.; *Islam and the Arabs*, pp. 16 - 17.

(٩) يقول روم لاندو: «حوالى عام ٣٥٠م كانت اليمن وحير قد أمستا مستعمرتين حبشيتين . . وحمل الأحباش النصرانية إلى جنوب بلاد العرب . . واكتسبت اليهودية اتباعا كثيرين من أفراد الشعب وكان يدافع النعمة على سادتهم النصارى أكثر مما كان ذلك بدافع من ايمان دينى عميق الجذور . . وكانت المستعمرات اليهودية قد قامت قبل ذلك في الجنوب وكانت قد أمست عند الغزو الحبشى موطدة الدعائم، بيد أنها كانت ضعيفة، عدديا ولم تشكل أى خطر كبير على الحكومة الا بعد مجيء النصارى، ثم أن قوتها بلغت من العظم حدا يجوز معه للمرء أن يفترض أن الحملة العسكرية الحبشية المخففة والأخيرة ربما سیرت انتقاما من اليهود الذين أساءوا معاملة السكان النصارى، وابتغاء تحطيم السلطان اليهودى في المنطقة . (انظر: Landau, R.; o.p.cit pp. 16 - 17) .

(١٠) حتى: تاريخ العرب، ج ١، ص ١٠٢ - ١٠٣، والروم، هو الاسم الذي أطلقه العرب قبل الاسلام وبعده على الرومان وحلفائهم البيزنطيين . (انظر: رستم: الروم في سياستهم وحضارتهم وديانتهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، ج ١، ص ٣، ط ١، بيروت، ١٩٥٥م) .

كانوا خير من يمد يد العون للأوس والخزرج للقضاء على نفوذ اليهود في المدينة مثلما كانت الحبشة تقوم بدور المتصدى لقوتهم في اليمن^(١).

ولعل ما يبرر خوف النصارى بالشام من تزايد نفوذ اليهود ما كان من سابقة لاجبارهم في التأثير على أحد ملوك اليمن حين مر بيثرب وهم بغزوها، فنصحوه بالعدول عن ذلك فانصرف عنها واتبعهم على دينهم^(٢).

والعلاقة بين المسيحيين بالشام وبين الأوس والخزرج قد تفسر السرف في عدم تهودهم رغم مجاورتهم الطويلة لليهود وتأثرهم بهم في كثير من العادات^(٣)، وبعض المعتقدات^(٤). ونحن بذلك لا نعتقد أن عدم تهود الأوس والخزرج يرجع إلى عدم توافر النية عند اليهود على نشر ديانتهم بطريقة مباشرة أو لأن نشرها من بعض الوجوه محظور على اليهود^(٥). وقد سبق أن رأينا، أن لاجبار اليهود مساهمة كبيرة في دخول أهل اليمن في اليهودية بالإضافة لوجود كثير من العرب المتهود، وهو ما ينقض ذلك الرأي.

وقد كان لهذا التدخل المسيحي دوره الكبير في توطيد مركز الأوس والخزرج. فعزوا بيثرب وتفرقوا في عالياتها وسافلها المعمور منها والعافي فنزلوه^(٦). وكان هدف المسيحية الأول من ذلك أن توجد لها حلفاء أقوياء في مناطق اليهود من الحجاز لكسر شوكتهم ولضمان عدم اتصالهم بيهود اليمن. ولربما أصبحت يثرب بقيادتها الجديدة من الأوس والخزرج نقطة انطلاق للقضاء على النفوذ اليهودي في اليمن والجزيرة العربية كلها، خاصة بعد فشل جهود المبشرين النصارى في نجران واليمن لادخال اليمن في النصرانية^(٧). وكان بمقدور المسيحية بالشام الاستعانة بقبائل مسيحية للقضاء على اليهود بيثرب، خصوصاً وأن من بواعث ذلك الصراع ضد اليهودية يرجع إلى ما كان بينها وبين المسيحية من نضال ديني^(٨).

غير أنهم وجدوا في رغبة الأوس والخزرج أن يصبحوا سادة يثرب ومحصلوا على أموال اليهود ومستعمراتهم ما جعل مهمتهم أكثر سهولة وضماناً لنجاح خططهم^(٩). ويظهر أن سقوط اليمن بأيدي الفرس^(١٠)، قد جعل دور الأوس

(١) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤ وما بعدها.

(٢) ابن اسحاق: السيرة، ج ١، ص ١٢.

(٣) المطري: التعريف، ص ٤٩.

(٤) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩٢.

(٥) العدوي: أحوال مكة والمدينة، ج ٢، ورقة ١١٤.

أرنولد: الدعوة إلى الاسلام، ص ٤٢.

حسن (د. حسن إبراهيم): تاريخ الاسلام، ج ١، ص ٩٣.

(٥) ولفنسون: تاريخ اليهود، ص ٧٢.

(٦) العدوي: المصدر السابق، ج ٢، ص ١١٣.

(٧) ابن اسحاق: السيرة، ج ١، ص ١٩ - ٢٣.

(٨) ولفنسون: تاريخ اليهود، ص ٥٩.

(٩) ولفنسون: نفس المكان.

(١٠) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ١، ص ٤١ - ٤٥.

ابن خلدون: تاريخ، ج ١، ص ٩٥ - ٩٩.

والخزرج غير ذى أهمية كبيرة، كخلفاء في وسط الجزيرة العربية للروم ضد اليهودية ومناصريها من الفرس الذين كان لهم بعض النفوذ على بنى قريظة والنضير في المدينة. حيث كانوا يدفعون الخراج لعاملهم من قبل مرزبان الزارة، خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي^(١). ثم إن الأوس والخزرج لم يظهرها كفاءة ومقدرة لبناء دولة قوية، مع أن كل الظروف كانت مهيأة لذلك. فقد سيطرت الروح القبلية على سلوكهم فاتجهوا إلى اختلاق مصادمات كانوا في غنى عنها وشغلتهم عن مهمتهم الرئيسية. وكان لليهود أنفسهم ضلع في إثارة تلك الحروب بين الأوس والخزرج حين شعروا بخطر مهمتهم^(٢). على أن ذلك لا يعنى اغفال عوامل الثأر القبلى وما ينطوى عليه من حزازات، إلى جانب وجود المنافسة القائمة على الاستحواذ على الاراضى الزراعية الجيدة والرغبة في الاستئثار بها^(٣).

ومن تلك الحروب حرب سمير، وهى أول حرب بينهم، وكانت أسبابها نزاع قبلى حول دية الحليف^(٤).

وقد وجد اليهود في استمرار ذلك النزاع بين الأوس والخزرج فرصة تضمن بقاءهم في خير البقاع من يثرب فحالفوا الأوس في حربهم ضد الخزرج^(٥). بعد أن علموا برغبة الخزرج في الاستيلاء على منازل قريظة والنضير، وكانت خير البقاع^(٦).

وكان يوم بعث آخر الحروب بينهم^(٧) وقد علمتهم درساً عرفوا منه حقيقة نوايا اليهود. ولذا نجد أن الخزرج لما انهزموا يوم بعث ووضعت فيهم الأوس السلاح صاح صائح منهم منادياً في الأوس بأن يحسنوا ولا يهلكوا اخوانهم. فجوارهم خير من جوار الثعالب، يعنى اليهود^(٨)، كما أن تلك الحروب أظهرت حقيقة الخواء الروحى والحاجة إلى الايمان والاستقرار فكانوا أسرع من غيرهم إلى الإسلام^(٩).

(١) ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص ١٢٨ (لیدن، ١٨٨٩م)،

كستر: الحيرة وعلاقتها بالجزيرة العربية، الترجمة العربية د. خالد المسلي، بحث نشر في مجلة العرب، ج ١١، ص ٧ جمادي الاولى عام ١٣٩٣ هـ، ص ٨٥٧ - ٨٧٤. (وانظر ايضا حمد الجاسر: نفس المصدر، ص ٨٧٥).

الزارة: موضع بقرب القطيف وقد درست في القرن الرابع الهجرى. ولا زال موقعها معروفا يدعى الرمادة بقرب قرية العوامية.

(انظر: الجاسر، حمد: مجلة العرب، نفس المكان).

(٢) هيكل (محمد حسين)، حياة محمد، ص ٢٣٥.

(٣) ولفنسون: تاريخ اليهود، ص ٥٩،

Watt; Muhammad at Medina. p. 155.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ١، ص ٤٠٣.

(٥) ابن الأثير: نفس المصدر، ج ١، ص ٤١٨.

(٦) ابن الأثير: نفس المصدر، ج ١، ص ١١٧.

(٧) ابن الأثير: نفس المصدر، ج ١، ص ١٨.

(٨) ابن الأثير: نفس المصدر، ج ١، ص ٤١٧ - ٤١٨.

(٩) ابن الأثير: نفس المكان،

الذهبي: تاريخ، ج ١، ص ١٧١.

وكان أول معرفة للأوس والخزرج بحقيقة ظهور نبي في مكة يدعو الناس إلى الإسلام. يرجع إلى العام الأول الذي سبق يوم بعث، أي قبل الهجرة بخمس سنوات (١). حيث بدأ في تلك الفترة اتصال الرسول (ص) ببعض رجال الأوس والخزرج الذين كانوا يقدون إلى مكة إما حجاجاً أو معتمرين أو التماساً لحلف من قريش (٢). وأول اتصال كان مع سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف، قدم مكة حاجاً أو معتمراً، وكان يسميه قومه فيهم الكامل لسنه وجلده وشعره، فتصدى له رسول الله (ص)، ودعاه إلى الإسلام (٣). فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج يوم بعث، فكان رجال من قومه يقولون: إنا لنرى أنه قتل وهو مسلم (٤). ثم قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتصقون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، فأتاهم رسول الله (ص) ثم ذكر لهم الإسلام وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بعث ثم لم يلبث إياس أن مات وكانوا لا يشكون أنه مات مسلماً (٥). وقيل قتل قبل يوم بعث (٦).

ومع أن ذلك الاتصال لم يثمر إلا عن اسلام اثنين من الأوس، إلا أنه هب الأذهان والنفوس لأن يكون أهل يثرب من العرب أول من احتضن الإسلام وعمل على نصرته فيما بعد (٧). وفي هذا يذكر أن أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد القيس كانا أول من قدم بالإسلام المدينة، وكانا قد خرجا إلى مكة يتنافران إلى عتبة بن ربيعة فسمعا برسول الله (ص) فأتياه فعرض عليهما الإسلام وقرأ عليهما القرآن فأسلما ولم يقربا عتبة ورجعا إلى المدينة (٨).

وهناك عوامل عدة ساعدت على جعل الأوس والخزرج أول من تفهم حقيقة دعوة الإسلام وعمل على مؤازرتها. ومن تلك العوامل ما حل بالأوس والخزرج من ضعف وافتراق بعد يوم بعث، الذي قضى على كثير من

(١) الذهبي: تاريخ، ج ١، ص ١٧٠ - ١٧١،

الديار بكري: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٠٦،

ابن الحاج: رفع الخفاء، ورقة ٦٤.

(٢) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٢٨٩،

الذهبي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٠ - ١٧١.

(٣) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٩ - ٢٩٠،

الذهبي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٠، ١٧١.

(٤) الذهبي: نفس المكان.

(٥) الذهبي: نفس المكان. وقد ذكر في الاستيعاب أبو الحنيس بدلاً من أبي الحيسر. (انظر: ابن عبد البر، هامش كتاب الإصابة،

ج ١، ص ١٠٣)، وقيل أنه أبو الجيش، أنس بن رافع. (انظر: الطبري: جامع البيان، ج ٤، ص ٣٤). وهو تصحيف ظاهر، ومن غير المستبعد أن يكون في هذا التعدد شيء من الصحة لاحتمال أن ما ذكر هو فعلاً أساء متعددة لابنائهم.

(٦) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩١.

(٧) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٢٩٢،

الديار بكري: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٠٦.

(٨) ابن الأثير: أسد الغابة، ج ١، ص ٧١.

زعمائهم^(١). وقد اعتبر يوم بعث يوما قدمه الله لرسوله (ص) في دخول الأوس والخزرج في الاسلام^(٢)، مما سهل مهمة الرسول (ص)، فقدم المدينة وقد افترق ملؤهم وقتلت سراتهم^(٣).

والعامل الثاني جاء نتيجة تشبع الأوس والخزرج بالفكرة الدينية وطقوسها بحكم مجاورتهم لليهود وتأثرهم بهم^(٤). وقد كان اليهود يستفتحون عليهم بخروج نبي سيتبعونه ويقتلون به الأوس والخزرج^(٥)، الذين غلبوهم على أمرهم. فكان إذا وقع بينهم شيء تقول اليهود: إن نبيا سيبعث إلا وقد أظل زمانه فنقتلكم معه^(٦).

وفكرة ظهور نبي جديد لم تكن شائعة في يثرب فحسب بل إنها كانت منتشرة في الشام واليمن^(٧). فقد ذكر أن عبد المطلب بن هاشم لما وفد على سيف بن ذى يزن الحميري لتهنئته بانتصاره على الحبشة قال سيف لعبد المطلب: إنني أجد في العلم السابق أن يثرب استحكام ملكه وأهل نصره (أى محمد، صلى الله عليه وسلم^(٨)). ولهذا كان دخول الأوس والخزرج في الاسلام بهذه السرعة لا يمانهم بيعته أولا، ولخوفهم أن تسبقهم يهود إليه ثانيا^(٩).

والعامل الثالث الذى أسرع بدخول الأوس والخزرج في الاسلام ونصرة نبيه هو التنافس والتفاخر القبلى بين الحيين. ذلك أن خوف الخزرج - فيما يبدو - من أن تسبقهم الأوس إلى دخول الاسلام ونصرة محمد (ص)، جعلهم يقطعون الطريق على إخوانهم من الأوس ويعلمون استعدادهم لمخالفة الرسول^(١٠) (ص)، ويطلبون منه أن يهاجر

(١) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ٢٢٢، ٢٢٣،

ابن الحاج: رفع الخفاء، ورقة ٦٤.

(٢) الذهبي: تاريخ، ج ١، ص ١٧١.

(٣) الذهبي: نفس المكان.

(٤) الذهبي: نفس المصدر، ج ١، ص ١٧٢،

ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٦٥، ج ٣، ص ٣٧٨،

الاصفهانى: الاغانى، ج ٤، ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٥) الذهبي: تاريخ، ج ١، ص ١٧٢،

السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ٢٢٣،

العدوى: أحوال مكة والمدينة، ج ٢، ورقة ١١٤.

(٦) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٢٩٢،

ابن الحاج: رفع الخفاء، ورقة ٦٤ (انظر الهامش، نفس المكان).

(٧) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ١، ص ١١٦ - ١١٩،

العدوى: المصدر السابق، ج ٢، ورقة ١١٤.

(٨) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ١، ص ١١٦ - ١١٩.

العدوى: المصدر السابق، ج ٢، ورقة ١١٤.

(٩) الذهبي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٢.

السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٢.

(١٠) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩٢.

الذهبي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧١ - ١٧٢،

السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

إليهم ليدعوا قومهم إلى أمر الله وإلى الإسلام^(١).

وقد سبق أن عرفنا قدم العلاقات الطيبة بين قريش، قبيلة الرسول محمد (ص)، وبين الأوس. وذلك لما قدم أبو الحيسر مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل يلتصقون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج^(٢). ولذا فإن الأوس مهياؤون أكثر من غيرهم من الخزرج لمحالفة الرسول (ص)، على اعتبار أنهم أسبق من الخزرج في الاتصال بالرسول (ص) في مكة ومعرفة حقيقة دعوته.

على أن عامل التنافس ذلك لم يكن مجردا في نفوسهم بل إن هناك عوامل دينية وقومية كانت تدفعه وتذكیه. ولهذا فإن الخزرج حين تشاوروا فيما بينهم قال بعضهم لبعض: تعلمون أنه النبی الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه^(٣). فهم بهذا مؤمنون بنبوۀ محمد (ص)، ومصدقون ببعثته. ثم إنهم قالوا للرسول محمد (ص): إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا إلى بلادهم ليدعوا قومهم وقد آمنوا وصدقوا^(٤).

وهم بهذا يؤكدون غيرتهم القومية ورغبتهم في عودة الصفاء بينهم على دين الإسلام. كما يظهرون حاجتهم إلى رجل يقتحم الخصام الذي قسمهم إلى معسكرين، ويقضى على الفوضى السائدة بينهم خصوصا وأنه كان رجلا حياديا لم يغمس بالخصومة المحلية القائمة بينهم^(٥).

وقد كان من ثمار تلك الدعوة أنه لم يبق دار من دور قومهم إلا وفيها ذكر رسول الله (ص)^(٦). فلما كان العام المقبل وافى الموسم من الأوس والخزرج اثنا عشر رجلا فلقوا رسول الله (ص)، بالعقبة، وهي البيعة الأولى^(٧)، أو بيعة

(١) الذهبي: تاريخ، ج ١، ص ١٧٢.

(٢) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٢٩١،

ابن الاثير: الكامل، ج ١، ص ٤١٥،

الذهبي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٢،

(٣) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩٢،

الذهبي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٢،

السمهودي: الوفاء، ج ١، ص ٢٢٢.

(٤) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩٢،

السمهودي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٢.

(٥) فلهاوزن: الدولة العربية (الترجمة العربية للدكتور يوسف العث، دمشق، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م)، ص ١٣ - ١٤.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ١٥٩،

الذهبي: تاريخ، ج ١، ص ١٧٢،

ابو القاسم: المبعث والمغازي، ورقة ٥٦.

(٧) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٢٩٤،

ابن عبد البر: الاستيعاب، (هامش كتاب الاصابة، ج ١)، ص ٨٣ - ٨٤،

الذهبي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٢.

النساء^(١). وقد يسمون أهل العقبة الثانية^(٢)، على اعتبار أن نفر الستة من الخزرج الذين وافوا الرسول (ص)، في العام السابق كانوا أهل العقبة الأولى ولم يكن يومها بيعة^(٣).

وذكر أن بيعة النساء إنما كانت على السمع والطاعة في النشاط والكسل وعلى النفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى أن ينصروه إذا قدم عليهم يثرب فيمنعونهم مما يمنعون به أنفسهم وأهلهم ولهم الجنة^(٤). ثم رجعوا إلى المدينة وكان رأس الدعاة أسعد بن زرار^(٥)، وقد زاد عدد المسلمين على الأربعين فكان أسعد بن زرار يجمع بهم^(٦). ثم أرسلوا إلى رسول الله (ص) وطلبوا منه معلما يعلمهم القرآن. فبعث إليهم مصعب بن عمير^(٧). وكان الأوس والخزرج قد كتبوا بذلك إلى رسول الله كتابا يطلبون إرسال من يعلمهم ويفقههم في الاسلام^(٨). وقيل أن الرسول (ص)، بعث مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، حال انصرافهم^(٩). فنزل على أسعد بن زرار وكان يصلي بهم^(١٠). وقد أسلم على يد مصعب خلق كثير من الأنصار، وكان يدعو الناس سرا^(١١)، إلى أن أسلم سيد الأوس سعد بن معاذ وابن عمه أسيد بن حضير^(١٢). وقد ترتب على اسلام هاتين

(١) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩٤،

ابن الحاج: رفع الخفاء، ورقة ٦٥. وقيل بيعة النساء، أي وفق بيعة النساء التي نزلت بعد فتح مكة وهي أن لا نشرك بالله ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتر به بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف والسمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وأثره علينا وأن لا تنازع الأمر أهله.

(انظر: الديار بكرى: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣١٦-٣١٧).

(٢) ابن الحاج: المصدر السابق، ورقة ٦٥،

الديار بكرى: المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٦.

(٣) السمهودي: الوفاء، ج ١، ص ٢٢٢-٢٢٣،

الذهبي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧١-١٧٢.

(٤) الذهبي: نفس المصدر، ج ١، ص ١٧٢-١٧٣،

ابو القاسم: المصدر السابق، ورقة ٥٦.

(٥) الذهبي: تاريخ، ج ١، ص ١٧٣-١٧٤،

ابن الحاج: رفع الخفاء، ورقة ٦٥.

(٦) ابن عبد البر: الاستيعاب (هامش كتاب الاصابة، ج ١)، ص ٨٤،

ابن الحاج: المصدر السابق، ورقة ٦٥،

الذهبي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٣-١٧٤،

(٧) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٢٩٦،

ابن الحاج: المصدر السابق، ورقة ٦٥.

(٨) ابو القاسم: المبعث والمغازي، ورقة ٥٦.

(٩) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩٦.

(١٠) ابن اسحاق: نفس المكان.

(١١) الذهبي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٤.

(١٢) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩٧-٢٩٩،

ابن اسحاق: المصدر السابق، ورقة ٦٥،

ابن الحاج: المصدر السابق، ورقة ٦٥.

ابو القاسم: المصدر السابق، ورقة ٥٦.

الشخصيتين أن تبعهما في يوم واحد جميع بنى عبد الأشهل الرجال والنساء تقريباً^(١)

وقد سجل بنو عبد الأشهل بدخولهم الجماعي في الإسلام وبجهرهم بدعوة الرسول (ص)، في المدينة سبقا على الخزرج بعد أن فانتهم فضيلة السبق في دخول الإسلام . وهو ما أثار - فيما يبدو - غيرة وغضب عامة بنى النجار، ممن لم يدخلوا بعد في الإسلام ترقباً للنتائج الأخيرة . فأخرجوا مصعب بن عمير واشتدوا على أسعد بن زرارة صاحبهم الذي كان ينزل عنده مصعب . فانتقل مصعب إلى سعد بن معاذ، سيد الأوس، يدعوهم إلى الله^(٢) .

ويظهر أن تلك المنافسة كانت من القوة بحيث أننا نجد لها ذيولاً حتى بين المسلمين من الأوس والخزرج أنفسهم، حتى قيل أن مصعب بن عمير كان يصلى بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض^(٣) .

وقد انتشر الإسلام في يثرب بسرعة كبيرة جداً، وفي مدة وجيزة، حتى قيل أنه لم تبق دار من دور الأنصار إلا وبها رجال ونساء مسلمون^(٤) . إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخطمه ووائل وواقف وتلك أوس الله وهم من الأوس بن حارثة . فلم يزالوا على ذلك حتى مضت بدر واحد والخنذق^(٥) .

وقد جدد الأوس والخزرج دعوتهم لمحمد (ص)، أن يقدم عليهم يثرب وذلك بعد أن كثر المسلمون في يثرب وفشا الإسلام بين دورهم^(٦) . يقول جابر بن عبد الله : واجتمعنا سبعين رجلاً منا فقلنا : حتى متى نذر رسول الله (ص)، يطوف في جبال مكة ويخاف؟ فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم فواعدنا شعب العقبة فاجتمعنا من رجل ورجلين حتى توافينا عنده فقلنا : يا رسول الله علام نبأبعك؟ قال : على السمع والطاعة في النشاط والكسل وعلى النفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم فيه لومة لائم وعلى أن تنصروني إذا

(١) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩٩،

الذهبي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٢) الذهبي: تاريخ، ج ١، ص ١٧٥ .

(٣) الذهبي: نفس المصدر، ج ١، ص ١٧٣ .

(٤) الذهبي: نفس المصدر، ج ١، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(٥) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٢٩٩،

الذهبي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(٦) الذهبي: نفس المصدر، ج ١، ص ١٧٧ . ويذكر الديار بكرى أنه في السنة الثالثة عشرة من النبوة قدم مكة في موسم الحج قريب من خمسمائة نفر وفي رواية ثلاثمائة نفر من الأوس والخزرج وخرج معهم مصعب بن عمير إلى مكة واتفق منهم سبعون رجلاً . قال ابن سعد : يزيدون رجلاً أو رجلين وامرأتان : نسبة بنت كعب أم عمار وأساء بنت عمرو . وقال ابن اسحاق : ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان وقال الحاكم خمس وسبعون نفساً لا أقوا رسول الله (ص) فواعدهم أن يحضروا شعب العقبة في الليلة الثالثة من ليالي التشريق للمباينة . (انظر: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣١٧) .

قدمت عليكم يثرب تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم ولكم الجنة^(١).

وقد أكد الأوس والخزرج تأييدهم لدعوة الاسلام واياء الرسول محمد (ص)، وأصحابه ومنعتهم مما يمنعون منه أنفسهم بعد هجرته (ص)، وأصحابه^(٢).

وقد بلغ من حرص الأنصار على لقاء الرسول (ص)، أنهم لما سمعوا بهجرته صاروا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه فما يردهم إلا حر الظهيرة^(٣). فلما نزل يثرب تدافعوا إليه كل يطلب منه أن ينزل بدارهم وكانوا يأخذون بخطام ناقته فيقول خلوا سبيلها فإنها مأمورة^(٤). ثم حط رحاله في دور بني النجار فنزل على بيت ابي أيوب الانصارى النجارى^(٥). وكان أبو أيوب يقول: كنت في العلو فلما خلوت إلى أم أيوب قلت لها: رسول الله (ص)، أحق بالعلو منا. فما بتنا تلك الليلة، فلما أصبحنا قلت: يا رسول الله ما بت الليلة أنا ولا أم أيوب، والذي بعثك بالحق لا أعلو على سقيفة أنت تحتها أبدا^(٦).

ولقد صح إيمان الأنصار وسمى على كل معنى لحلف أو عقد. ولذا فقد أصروا على أن يشركهم رسول الله (ص)، في غزوة بدر، وهي أول مرة يخرجون معه لقتال، وذلك لاشتراطهم فيبيعة العقبة أن ينصروه بالمدينة فقط^(٧). وقال قائلهم: لقد آمانا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك^(٨).

وقد تعددت مواقف الانصار التي تبين مدى تغلغل الايمان في قلوبهم فمن ذلك ما كان يفعله أبو طلحة يوم أحد حين تناول يحمى رسول الله من النبل ويقول: نحري دون نحر^(٩). وقد اعتبر بعضهم التخلف عن غزوة تبوك

(١) الذهبي: تاريخ، ج ١، ص ١٧٧.

(٢) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ١٩٥.

(٣) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٤١.

ابن الحاج: رفع الخفاء، ورقة ٦٨.

(٤) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤١.

ابن الحاج: المصدر السابق، ورقة ٦٨، ٦٩.

(٥) ابن الحاج: نفس المصدر، ورقة ٦٩.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠٥.

(٦) ابن الحاج: المصدر السابق، ورقة ٦٩.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠٥.

(٧) ابن الحاج: رفع الخفاء، ورقة ٧٤.

(٨) ابن كثير: البداية والنهاية، م ٢، ج ٣، ص ٢٦٢.

ابن الحاج: المصدر السابق، ورقة ٧٥.

(٩) ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ٩.

جرما يستحق عليه ربط نفسه في سارية من سواري المسجد حتى يكفر عن ذنبه^(١). وحتى صغارهم كانوا يعملون ما أستطاعوا عمله، حتى يبدو كبارا ويمجيزهم رسول الله في الغزوات إذ كان يرد من استصغر إلا من كان راميا^(٢)، أو كان قوى البنية مصارعا^(٣).

وكانوا يتحببون إلى رسول الله (ص)، بالهدايا رجالهم ونساؤهم، وكانت أم سليم، امرأة من الأنصار، تتأسف على ذلك وما كان لها شيء، فجاءت بابنها أنس بن مالك وقالت: يخدمك أنس يا رسول الله^(٤).

وكأى مجتمع فيه الخير والشر وجد بين الأوس والخزرج ومعهم نفر من العرب^(٥)، جماعة عرفوا بالمنافقين^(٦). وهم من أظهر الاسلام تقية، وكان رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي^(٧). وقد وصفهم الله بقوله تعالى: «وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية»^(٨). ولم يكن هوى المنافقين وكلمتهم مع المسلمين فكانوا يكيدون لهم ما وسعهم الكيد^(٩). وقد احتمل الرسول كل ما يصدر عنهم من ايذاء وعاملهم في الظاهر معاملة المسلمين^(١٠). ولم يسمع نصيحة من قال: ألا تقتلهم؟ لأن وجهة نظر الرسول (ص) كانت تستهجن أن يتحدث الناس بأن محمد ا يقتل أصحابه^(١١) وهي وجهة نظر يتجلى فيها عمق التفكير وبعد النظر. فإذا لم يكن للمرء أن يقتل أصحابه خشية حديث الناس. فكيف يكون عليه الأمر إذا كان المقتولون أهله وبنى عمومته؟ ولهذا فقد دارى الانصار ولم يقتل من المنافقين أحد لأن فيهم الكثيرين من أبنائهم وآبائهم^(١٢).

(١) ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٦٣١.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٧٠.

(٣) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٨، ٧٩.

(٤) مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ٩.

الديار بكري: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٥٠.

المقريزي: امتاع الاسماع، ج ١، ص ٤٧.

(٥) قال تعالى: «ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم» براءة: ١٠١.

ومردوا على النفاق، أقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب الآخرون. (انظر: الطبري: جامع البيان، ج ١١، ص ٩، ج ٢٦، ص ٧٦-٧٧،

ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٧٣، ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٣٥٧، ج ٢، ص ٣١٦).

(٦) قال تعالى: «واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الاغورا». الأحزاب: ١٢. وانظر أيضا: ابن

اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٧٣ وما بعدها.

(٧) ابن الحاج: رفع الخفاء، ورقة ٧٢.

(٨) آل عمران: ١٥٤. وانظر أيضا: الطبري: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٩) قال تعالى: «إن تمسكم حسنة تسوءهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بها يعملون محيط». آل عمران: ١٢٠.

(١٠) ابن الحاج: المصدر السابق، ورقة ٧٢.

(١١) ابن الحاج: نفس المكان.

(١٢) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ١٥٠، ٥٦٤-٥٦٥، ج ٢، ص ٣٦٦.

والذى نرى أن المنافقين - وهم في معظمهم من الأوس والخزرج لما يدخل الايمان في قلوبهم - كانوا رجالا غلبت عليهم روحهم الوطنية والعصبية القبلية وحسدوا هذا الرجل الغريب في المدينة، الذى خطف منهم الأنظار وحاز على النفوذ بمدينتهم. بعد أن كانوا قبيل الهجرة يستعدون لآحياء مناسبة وطنية هى تنويج عبد الله بن أبى بن سلول ملكا على يثرب^(١).

ولا ريب أن الخزرج - خاصة - سيتهيئون عجبا لو تم لهم ذلك وسيعدون تلك المناسبة من مناقبهم ومفاخرهم. ولا أدري هل كان هناك علاقة بين هذه وبين قول القائل أنه لا يوجد في بنى عبد الأشهل، (وهم من الأوس) منافق واحد^(٢)؟، لأنه ربما أن الأوسيين، وهم الذين لم يمانعوا أن يحكمهم خزرجى بعد يوم بعث على ما كان بينهم من عداوة، قد راجعوا أنفسهم في أمر تنصيب خزرجى عليهم، فلم يجدوا غضاضة أن يحكمهم رجل محايد لا أعز منه وقد جمعهم الله عليه^(٣).

وقد وجد اليهود في المنافقين، ومعهم عبد الله بن أبى، خير عضيد لهم لمواجهة الرسول محمد (ص)، بيثرب^(٤). وربما أنهم علقوا الأمل في استمرار نفوذهم على تمكن عبد الله بن أبى من أن يصبح ملكا على أهل يثرب^(٥).

وكان من المبادئ الوطنية التى نادى بها المنافقون واعتبروها حقا من حقوقهم، طلبهم أن يكون الأمر لهم وليس لمحمد ومن معه^(٦)، الذين ما فتئوا يثبتون أقدامهم في المدينة، يشد أزهرهم تتابع أعداد المهاجرين من كل القبائل وهو ما جعل الأنصار يمتلكون أكثرية ضئيلة^(٧). ولهذا السبب كان انشقاق عبد الله بن أبى بمن معه من المنافقين يوم أحد وكان عددهم ثلاثمائة رجل^(٨).

وكما أسلفنا - كانت مشكلة المنافقين الأولى هى عدم صحة إيمانهم^(٩)، وإلا لتغلبت روحهم الاسلامية على سلوكهم القبلى الجاهلى.

(١) يقول ابن اسحاق: وأما عبد الله بن أبى فكان قومه نظموا له الخرز ليتوجوه، ثم يملكوه عليهم، فجاء الله تعالى برسوله (ص)، وهم على ذلك. (انظر: السيرة، ج ٢، ص ٤٢٣).

(٢) ابن اسحاق: نفس المصدر، ج ٣، ص ٦٠٦.

(٣) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ٢٢٢،

ابن الحاج: رفع الخفاء، ورقة ٦٤.

(٤) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٥٨،

ابن الحاج: المصدر السابق، ورقة ٧٢.

(٥) Holt, P.M.: The Cambridge History of Islam. vol. 1. pp. 43 - 44.

(٦) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٥٨٤،

ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٤٤٣.

(٧) فلهاوزن: الذلوة العربية، ص ٣٦.

(٨) ابن الحاج: رفع الخفاء، ورقة ٨١.

(٩) قال تعالى: «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين». البقرة: ٨.

وبإمكاننا أن نتعرف على مدى إيمانهم وشكهم من قول أحدهم (حصين بن نمير الانصارى)، لما أغار على تمر الصدقة فسرقه فقال له الرسول (ص): ويحك ما حملك على هذا؟ قال: حملني عليه أنى ظننت أن الله لا يطلعك عليه فأما إذ أطلعك الله عليه وعلمته فإنى أشهد اليوم أنك رسول الله. وإنى لم أومن بك قط قبل هذه الساعة يقينا^(١).

وقد قام المنافقون، إرضاء لعصبيتهم الوطنية والقبلية الجاهلية، ببناء مسجد عرف بمسجد الضرار مضاهاة لمسجد بنى عمرو بن عوف بقباء ولمسجد رسول الله^(٢)، وكانوا يجتمعون فيه ويعيرون النبي (ص)، ويستهزئون^(٣). وكان الذى بناه اثنا عشر رجلاً هم: خدام بن خالد من بنى عبيد بن زيد، وثعلبة بن حاطب من بنى أمية بن زيد ومعتب بن قشير من بنى ضبيعة بن زيد أبو حبيبة بن الأذعر وعباد بن خيف من بنى عمرو بن عوف وجابر بن عامر وابناه مجمع وزيد، وقتيل بن الحارث ومخرج ومجاد بن عثمان سبعتهم من بنى ضبيعة، ووديعه بن ثابت من بنى أمية بن زيد^(٤).

وكان المنافقون يشتركون مع المسلمين في الغزوات، إنما كان دافعهم هو المغانم والأسلاب. ولذا قال أحدهم يوم الخندق (مغيث بن بشر): أوعدنا محمد أن يفتح قصور فارس والروم واليمن ولا يتبرز أحدنا إلى الخلاء من رحله، والله لغرور. وتابعه على ذلك رهط من المنافقين^(٥).

وظل الرسول (ص)، يتبع مع المنافقين سياسة المداراة واللين فكان أن آمن معظمهم وأعلن توبته^(٦). وكان الله تعالى قد أطلع الرسول (ص) على أسرارهم وعرفه إياهم في سورة براءة^(٧).

ومن خلال تتبعنا بالدراسة في كتب التراجم كابن حجر (الاصابة) وابن قدامة (الاستبصار) لتراجم الصحابة من الانصار، تجلت لنا ميزة انفرد بها الأنصار أكثر من غيرهم، وتلك اتجاههم لطلب العلم وحرصهم على التفقه في الدين. وهى ميزة جبلوا عليها نتيجة معاشتهم الطويلة لليهود، أصحاب العلم والكتاب، ورغبتهم الصادقة أن يتفوقوا عليهم ويذوهم في ذلك.

وقد بدأت هذه الرغبة في طلب العلم والتفقه في الدين منذ أن كان الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة حين طلبوا

(١) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣٩.

(٢) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٦٦،

السمهودى: الوفاء، ج ٣، ص ٨١٥ - ٨١٩.

(٣) السمهودى: نفس المكان.

(٤) السمهودى: الوفاء، ج ٣، ص ٨١٦ - ٨١٧.

(٥) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٧٠٦،

الواقدي: المغازى، ص ٢٩١ (الطبعة الاولى).

(٦) ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٤٩١، ج ٣، ص ٥٤٩.

(٧) انظر: الطبرى: جامع البيان، ج ٢٦، ص ٦٠.

منه أن يرسل معلما يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين^(١). وقد اهتم منهم كثير بدراسة القرآن وجمعه على عهد رسول الله^(٢).

وكان الرسول (ص) يرسل منهم إلى القبائل العربية أفرادا وجماعات يفقهونهم في الدين ويقرئونهم القرآن^(٣). وقد لاقوا عنتا ومشاق كثيرة في مهمتهم تلك كيوم بثر معونه ويوم عضل والقارة قبله^(٤).

ويعد أبي بن كعب الانصاري أحد فقهاء الصحابة وأقرأهم لكتاب الله تعالى^(٥)، كما كان أسيد بن حضير بن سمالك الأشهل من أحسن الناس صوتا بالقرآن وهو أحد العقلاء والكملة من أهل الرأي^(٦).

وقد عرف في الأنصار جماعة وهبوا أنفسهم لدراسة القرآن، عرفوا بالقراء^(٧). ولم يكن عملهم الديني هذا واهتمامهم العلمي ليشغلهم عن كسب عيشهم بأيديهم، فقد كانوا يحتطبون بالنهار ويتدارسون القرآن بالليل^(٨).

كما أن اتجاه الأنصار العلمي لم يصرفهم عن خدمة رسول الله ودين الاسلام بأفكارهم وأعمالهم. فقد كان شعراء الانصار وخطباءهم خير منافع عن الرسول والاسلام. وقد شهد وفد تميم لاولئك بالتفوق والمقدرة العظيمة فقالوا: إن خطيب القوم أخطب من خطيبنا وشاعرهم أشعر من شاعرنا^(٩).

(١) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٢٩٦،

الذهبي: تاريخ، ج ١، ص ١٧٣،

ابن الحاج: رفع الخفاء، ورقة ٦٥،

المراغي: تحقيق النصرة، ص ٣٠.

(٢) ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٢٥٠،

ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ٧.

(٣) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٦٦.

(٤) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٧٤، ١٨١، ٣٦٢، ٤٠٢، ٥٦٦،

ابن قدامة: المصدر السابق، ورقة ٢١

ابن الحاج: المصدر السابق، ورقة ٨٧.

(٥) ابن الأثير: أسد الغابة، ج ١، ص ٧١-٧٢،

ابن قدامة: المصدر السابق، ورقة ٨.

(٦) ابن عبد البر: الاستيعاب، (هامش كتاب الاصابة، ج ١)، ص ٥٤.

(٧) ابن الحاج: المصدر السابق، ورقة ٨٧.

(٨) ابن الحاج: نفس المكان.

(٩) ابن اسحاق: السيرة، ج ٤، ص ٩٩١،

ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ٢٥.

وكان عبد الله بن رواحة الانصاري، الشاعر المشهور، يكتب للنبي (ص)، وشهد كثيرا من الغزوات وبعثه الرسول (ص) في ثلاثين راكبا إلى خيبر، وكان نعم الرجل^(١). كما بعث بشير بن سعد الانصاري إلى فدك في سرية^(٢).

واشتهر بعضهم بشجاعته واقدامه وقت القتال^(٣). ولقد حذق الأنصار فنون الحرب وآلتها، وأدرك الرسول (ص) تلك الموهبة وقدرها فيهم^(٤). كما كان لهم أيضا معرفة بالطرق كأدلاء في مواقع القتال وغيرها^(٥).

وتكملة لحديثنا عن الانصار، سنتحدث عن حلفائهم من العرب فهم يعتبرون أفرادا من الأوس والخزرج بالحلف^(٦).

وأصل الحلف المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق على أن يكون الأمر واحد بالوفاء^(٧). وهو علاقة اجتماعية قل أن ترفضه قبيلة ما لأنه يعبر عن قوتها. فطالب الحلف كثيرا ما كان قد أصاب دما في قبيلته فهرب إلى القبيلة الأخرى يطلب حلفها وحمايتها^(٨). كما أن الحلف يعبر عن قوة القبيلة ويظهر استقلالها. فقد قيل أن حارثة الأوقص كان رجلا متعبدا يطوف حول بيت فيه صنم لهم. فقيل له إن بيتا بمكة يتعبد له أهله وكل من جاء من العرب. قال: فهو أولى من هذا البيت لأخرجن إليه. قالوا: إنك لا تستطيع أن تقيم به إلا أن تحلف أهله، فخرج حتى قدم فحالف أمية بن عبد شمس^(٩).

وقد يسمى الحليف باسم حلفائه كما حصل لوالد حذيفة بن اليمان العبسي كان قد أصاب دما، فهرب إلى المدينة، فحالف بني عبد الأشهل، فسماه قومه اليمان لكونه حالف الأوس وهم من اليمن^(١٠).

وقد تكون المصاهرة خارج القبيلة، إحدى دواعي المحالفة، كما هو الحال لدى سمرة بن جندب بن هلال الفزاري قدمت به أمه بعد موت أبيه فتزوجها رجل من الأنصار فصار حليفا لهم^(١١).

(١) ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٣٠٦-٣٠٧.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ١٥٨.

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة، ج ١، ص ١٧٢.

(٤) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٨٦.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٣١٧. والحلف: بكسر الحاء ويفتحها أحيانا: القسم. يقال: حلف يحلف حلفا وحلفا

ومحلوفا والحلف بالكسر: العهد يكون بين القوم لأنه لا يعقد إلا بالحلف والجمع احلاف، وقد حالفه محالفة وحلافا وهو حلفه وحليفة. أى

عاهدة، وتحالفوا: تعاهدوا. وحالف الرجل بين جماعتين آخى بينهما. (انظر: ابن سيدة: المحكم، ج ٣، ص ٢٦٠-٢٦١، ابن منظور:

لسان العرب، ج ٩، ص ٥٣، طبعة دار صادر، بيروت.)

(٧) ابن منظور: لسان العرب، ج ٩، ص ٥٣-٥٤.

(٨) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٣١٧.

(٩) ابن حبيب: المتق، ص ٢٨٥.

(١٠) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٧.

(١١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٨.

ثم إن علاقات الجوار والرغبة في طلب فرص معيشية أفضل تعد إحدى الدوافع لمخالفة أفراد قبيلة ما لقبيلة أخرى. وهذا ما يمكن ملاحظته في كثرة حلفاء الأوس والخزرج من بلى وجهينة، وقد ذكر منهم ابن حجر^(١) حوالي خمسين صحابيا بلويا وجهنيا. فمن بلى أكثر من العشرين ونحو ذلك العدد من جهينة.

وكان ابن زبالة قد ذكر أن ممن كان من العرب مع يهود يثرب، قبل الأنصارهم بنو أنيف، حتى من بلى^(٢)، وقيل أن بني أنيف من ولد جشم بن تميم بن عوذ مناة بن تاج من بلى^(٣). وقد عد بنو أنيف في الأنصار لمخالفتهم لهم^(٤).

ويلتقى نسب جهينة مع بلى في الحافى بن قضاة^(٥). وتقع مساكنهم على ساحل البحر الأحمر من جنوبي ديار بلى حتى ينبع^(٦).

ويلى بلى وجهينة في كثرة الحلفاء، قبيلة أشجع، فمنهم ما يقارب العشرين صحابيا^(٧). وأشجع من غطفان بن قيس عيلان^(٨). وتقع منازلهم بضواحي المدينة^(٩).

وقد ذكر ابن حجر في كتاب الإصابة^(١٠)، بعض أسماء القبائل العربية التي كان منها أفراد حالفوا الأوس والخزرج هم: مزينة، عبس، تميم، بجيلة، فزارة، أزد شنوءة، أسد بن خزيمة، غطفان، جذام، سليم، بهران، كندة، خزاعة، قضاة، أسلم، حمير، حضرموت، قريش، سعد العشيرة، عكل. ولم يتعد ما ذكره ابن حجر من كل قبيلة العشرة أشخاص تقريبا.

(١) الإصابة، في أماكن متفرقة من الأجزاء الأربعة. وينوبلى هم من ولد بلى بن عمرو بن الحافى بن قضاة. (انظر: ابن حزم الجمهرة، ص ٤٤٢). وتقع مساكنهم بين المدينة ووادي القرى من منقطع دار جهينة إلى حد دار جذام بالنبيك، على شاطئ البحر الأحمر. ثم لها ميامن البر إلى حد تبوك ثم إلى جبال الشراة، ثم إلى معان، ثم راجعا إلى أيله. (انظر: الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٢٧٣، كحالة: معجم قبائل العرب، ج ١، ص ١٠٥). والنبيك: هو المعروف الآن باسم المويلح. (انظر: الحري: كتاب المناسك، ص ٦٥١، تحقيق حمد الجاسر، الهامش رقم (١)، نفس المصدر، ص ٢٧٣).

(٢) السمهودي: الوفاء، ج ١، ص ١٦٢.

(٣) ابن حزم: المصدر السابق، ٤٤٢.

(٤) ابن حزم: نفس المكان.

(٥) ابن حزم: نفس المصدر، ص ٤٤٢ - ٤٤٣.

(٦) كحالة: المرجع السابق، ج ١، ص ٢١٤.

(٧) ابن حجر: المصدر السابق، في أماكن متفرقة من أجزاء الكتاب الأربعة.

(٨) ابن حزم: المصدر السابق، ص ٢٤٩.

(٩) كحالة: المرجع السابق، ج ١، ص ٢٩.

(١٠) انظر الأجزاء الأربعة في أماكن متفرقة.

يشكل الموالى في مجتمع المدينة في العهد النبوي، طبقة اجتماعية كبيرة^(١). وقد روى عن النبي (ص) أنه قال: يامعشر الموالى شراركم من تزوج في العرب^(٢). ونحن وإن كنا لا نجزم بصحة ذلك الحديث أو ضعفه، إلا أنه يعطى فكرة واضحة عن تميز طبقة الموالى في مجتمع المدينة. وأن غالبيتهم كانت من غير العرب. كما أنه - في نظرنا - لا يخرج عن كونه تنظيمًا اجتماعيًا اقتضته ظروف تلك الفترة، ولسد أبواب الذرائع، فهو لا يحمل معنى النهي بداعي العصبية أو العنصرية. فقد قيل للرسول (ص): إن فلانا المولى تزوج في الانصار. فقال: أرضيت؟ قال: نعم، فأجازه^(٣). كما أن القرآن الكريم كان يؤكد على انعدام الطبقة في المجتمع المسلم بمعناها البشع ومفهومها الضيق العام^(٤).

على أن ذلك لا يعني عدم وجود فئات في المجتمع الاسلامي لم تقف أمام تلك المساواة محاربة لها. فقد ذكر أن الأقرع بن حابس التميمي، وعيينه بن حصن الفزاري وغيرهم جاءوا فوجدوا النبي (ص) قاعدا مع بلال الحبشي وصهيب الرومي وعمار بن خباب في أناس من ضعفاء المؤمنين، فلما رأوهم حوله حقروهم. فأتوا النبي (ص) فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا العرب به فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك، فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد^(٥).

وكان الرسول (ص) قد خطب زينب بنت جحش ابنة عمته، لزيد بن حارثة، وهو مولى فاستنكفت منه وقالت: أنا خير منه حسباً^(٦).

ووجود الموالى في مجتمع المدينة كان ضرورة اجتماعية لا غنى عنها^(٧)، للاعتدال الكبير عليهم لقيامهم بكثير من الأعمال والخدمات التي يصعب على المجاهدين القيام بها لانشغالهم بأمر الغزوات ونشر الاسلام^(٨). على أن هناك من الموالى من شارك في كثير من الغزوات وأظهر براعة فائقة في القتال بين يدي رسول الله^(٩) (ص). وقد شهد منهم

(١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٥٤.

(٢) ابن حجر: نفس المكان.

(٣) ابن حجر: نفس المكان.

(٤) قال تعالى: «وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة»، الأنعام: ٩٨. وروى أن الرسول (ص)، قال: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه». (انظر: الدولاوي: الكني والاسماء، ج ١، ص ٢٥).

(٥) الطبري: جامع البيان، ج ٧، ص ٢٠١.

(٦) الطبري: نفس المصدر، ج ٢٢، ص ١١ - ١٢.

(٧) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٧٥، ج ٢، ص ٥٨.

(٨) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٢٣١، ٣٦٢. ويذكر أن الاعتماد على الموالى قبل الاسلام كان كبيرا جدا وقد أكلت إليهم أعمالا متنوعة حتى ليكاد يخيل للباحث في ذلك العصر أن الرقيق هم قوام العمل في الحياة الجاهلية، وهو ما رآه بعضهم. (انظر: الاسد، د. ناصر الدين: القيان والغناء في العصر الجاهلي، ص ٣٣).

(٩) الواقدي: المغازي، ص ٢٠٤، (الطبعة الأولى)،

ابن الأثير: أسد الغابة، ج ١، ص ٧٦.

بدار عشرون مملوكاً^(١). وكان من شقران، وهو مملوك للنبي (ص) ولم يسهم له بشيء، وكان على الأسرى فأجزاه كل رجل له أسير، فأصاب أكثر مما أصاب رجل من القوم^(٢).

وكان السبي أحد أسباب وجود الأرقاء في المدينة على عهد النبي (ص). وهم في الغالب، من القبائل العربية ممن أفاء الله على رسوله^(٣). ولم يكن أسر هؤلاء العرب لمجرد استرقاقهم بقدر ما كان يستهدف تحريرهم من ضغوط ربما كانت تمنعهم من دخول الاسلام داخل قبائلهم. ولذا نجد أنهم يعاملون معاملة إنسانية عالية، فلم يكن يفرق بين المرأة وابنها^(٤)، أو بينها وبين زوجها إذا كانت تريده ويريدها^(٥).

وكان النبي (ص) ومعظم الصحابة كثيراً ما يمنون على هؤلاء الأسرى بالعتق بعد وصولهم إلى المدينة^(٦).

وكانت السبايا العربيات يمهرن مهور نساء العرب، على عهد أبي بكر^(٧). وربما كان هذا جارياً أيضاً في عهد الرسول (ص)، لقرب الفترة الزمنية، بالإضافة إلى حرص الصحابة على الاقتداء بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد يكون البيع أحد أسباب الرق في العرب، وهو أكثر شيوعاً، قبيل الهجرة، حيث كان الرجل يقدم بقريبته فيبيعه على من يتسررها^(٨). وكان من هؤلاء عدد كبير في المدينة^(٩).

وفي المدينة فئة من الموالي كانوا يعرفون باسم المولدين، ينسبون إلى بلدانهم أو قبائلهم فيقال: مولدي

(١) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٥٣ (طبعة اكسفورد)،

ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٦٠١.

(٢) الواقدي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٣ (طبعة اكسفورد).

(٣) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٤، ٣٦٧، ج ٣، ص ٤٦٦ - ٤٦٧.

(٤) ابن حجر: نفس المكان.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٥٢.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٤٨٩ - ٤٩٠، ج ٢، ص ٣٦٧.

(٧) ابن حبيب: المنق، ص ٥٠٥.

(٨) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٣٠٢.

(٩) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٥٤٣، ٤٨٦،

البلاذري: الأنساب، ج ١، ص ٤٨٤ (تحقيق حميد الله).

حسمى^(١)، ومولدي مكة^(٢)، ومولدي السراة^(٣)، ومولدي مزينة^(٤)، وكانوا يباعون مثل أي رقيق آخر^(٥). كما أن منهم أفراداً قدم منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، عبداً كهديّة^(٦).

وكان للرقيق مصادر رئيسية تغذي مرافق العمل في المدينة وتساعد على تسير عجلة الحياة فيها. ومن أشهر هذه المصادر: الحبشة^(٧)، وفارس^(٨). وكان وجود الموالى الفرس في المدينة يرجع إلى الفترة السابقة للهجرة^(٩). وكان الاختطاف أحد أسباب رقهم حين يأتون بلاد العرب لأغراض تجارية أو دينية فيؤسرون ثم يباعون بالمدينة^(١٠).

أما الموالى القبط فقد عرفوا في الحجاز قبيل الهجرة^(١١). ومن أولئك أبورافع القبطي، كان مولى العباس بن عبد المطلب وأسلم قبل بدر ولم يشهد لها. وشهد أحداً^(١٢)، ويعقوب القبطي مولى بني فهر القرشيين. وقيل إنه كان ممن بعثه المقوقس مع مارية للنبي، صلى الله عليه وسلم^(١٣).

وتعد بلاد النوبة إحدى هذه المصادر المشهورة لمدينة الرقيق^(١٤). ويبدو أن النوبيين كانوا معروفين لدى كثير

(١) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٤٣، ٤٨٦.

البلاذرى: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٨٤. والمولد: اسم مفعول. ورجل مولد أى عربى غير محض. (انظر: البستاني:

محيط المحيط، ج ٢، مادة ولد، بيروت، ١٨٧٠م). وقيل المولد من ولد عند العرب ونشأ مع أولادهم وتأدب بآدابهم. (انظر: البستاني: نفس المكان).

(٢) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٤ - ٣٥.

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب (هامش كتاب الاصابة، ج ١)، ص ١١٣.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٧٥، ج ٣، ص ٥٥٢.

(٤) البلاذرى: المصدر السابق، ص ٤٨٣.

(٥) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٤.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٣١، ج ٣، ص ٣٩٤.

(٧) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٤٩.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٣١.

(٨) الواقدي: المغازي، ص ٢٠٤، (الطبعة الأولى)،

مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ١٠ - ١١،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩، ج ٢، ص ٥٨.

(٩) مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ١٠ - ١١،

ابن حجر: الاصابة، ج ٤، ص ٢٣٩.

(١٠) مجهول: المصدر السابق، ورقة ١٠ - ١١،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٢ - ٦٣.

(١١) ابن الأثير: أسد الغابة، ج ١، ص ٦٣،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٤، ص ٦٧.

(١٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١، ص ٦٣،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٤، ص ٦٧.

(١٣) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٦٦٨.

(١٤) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٥٦١، ج ٣، ص ٢٩٣، ج ٤، ص ٣٨٧ - ٤٦٤.

من القبائل العربية، كبنى ثعلبة^(١)، وبنى حنيفة. وكان هوزة بن علي الحنفي قد أهدى نوبيا لرسول الله (ص) فاعتقه^(٢). وقد أخدم النبي (ص) أبنته فاطمة جارية نوبية تشاطرها الخدمة فكانت تعجن وتحتطب لها^(٣).

ومن ضمن الموالي في المدينة جملة العبيد الذين نزلوا على النبي (ص) من حصن الطائف لما حاصرها فأسلموا فاعتقهم وعدتهم بضعة عشر رجلا^(٤). كما كان في المدينة موالي من أهل اليمن^(٥).

والمولى هو العبد المملوك^(٦). كما يراد به أيضا العبد المعتق^(٧)، وكان الرسول (ص) يقول: الولاء لمن أعتق^(٨). وقد استحب أهل المدينة استعمال لفظ مولى فلان وفضلوه على قولهم: عبد فلان^(٩). كما كان يقال للعبد أيضا: غلام فلان^(١٠). وقد يكون المولى، مولى اصطناع وحلف، وهو غير مولى الرق^(١١).

وقد أعتبر مولى القوم منهم له ما لهم من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات^(١٢)، شريطة أن يكون السيد مسلما. ولذا فقد رد الرسول (ص) لغيلان بن سلمة الثقفي، لما أسلم، ولأ عبد له كان قد فر إلى رسول الله (ص)، وغيلان مشرك^(١٣). وكان الرسول (ص) قد أنكر على رشيد الفارسي، مولى بنى معاوية من الأنصار، في إحدى الغزوات حين ضرب أحد المشركين، قوله: خذها وأنا الغلام الفارسي. فقال رسول الله (ص): ألا قلت خذها وأنا الغلام الأنصاري^(١٤)؟ وما يظهر أيضا، مدى قوة رابطة الولاء بين السيد ومولاه ما ذكر من أن ولأ عبد، بعد وفاة سيده، إنها

(١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٥٦١.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٢٩٣.

(٣) ابن حجر: الاصابة، ج ٤، ص ٣٨٧.

(٤) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٠١، ٦٤٩، ٦٦٧.

(٥) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٤٠ - ٤٦.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٠٨.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٥٤٨.

الفيروز آبادي: القاموس، ج ٤، ص ٤٠٤.

(٧) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٥٦٢.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٦٢، ج ٣، ص ٤٦٧.

الفيروز آبادي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٠٤.

(٨) مالك: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٦٢.

(٩) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٦٢، ج ٢، ص ١٧٤، ج ٣، ص ٥٧٦.

(١٠) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٣٦٢، ج ٢، ص ١٧٤.

(١١) ابن خلدون: تاريخ، ج ١، ص ١١٤ (طبعة بولاق، ١٢٨٤ هـ).

(١٢) ابن عبد البر: الاستيعاب (هامش كتاب الاصابة، ج ١)، ص ٤٨٣.

مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٥١٨.

ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٦٠١، ٤٦٧. ج ٤، ص ٢٦.

(١٣) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٥٤٨.

(١٤) الواقدي: المغازي، ص ٢٠٤ (الطبعة الاولى). وروى أن الرسول (ص) قال: «من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرفا ولا عدلا». (انظر: ابن عبد البر: الانباه، ص ٤٣).

يعود إلى ورثة السيد ضمن ممتلكاته الأخرى^(١). وما تجد الإشارة إليه أيضا، أن بعض أهل الإسلام كان يعتق عبده سائبه، فلا ينتفع به ولا بولائه^(٢).

وإلى ما قبيل الهجرة كانت تجارة الرقيق مشهورة في بلاد الحجاز. وكانت أسواق العرب المشهورة تعد أفضل مكان يعرض فيه العبد للبيع^(٣). وكان ثمن الغلام - حينذاك - يصل إلى مبلغ أربعمائة درهما^(٤).

وتعد منطقة يثرب - في تلك الفترة - منطقة جذب لبيع الرقيق. وقد وصل ثمن الغلام الفارسي حوالي ثلاثمائة درهما^(٥).

وفي العهد النبوي حافظت تجارة الرقيق على ازدهارها في المدينة وأصبح لهذه التجارة متعهد يبيع عرف بصاحب الرقيق^(٦). وكان النبي (ص) يشتري منهم العديد ويمن عليهم بالعتق^(٧). كما كان الصحابة يقتنون برسول الله في شراء الرقيق وعتقهم^(٨).

وقد وصل ثمن العبد في العهد النبوي إلى مبلغ ثمانمائة درهما^(٩). وبقي على هذا الرقم حتى عهد عثمان بن عفان فوصل ثمن العبد، الصحيح المعافي، إلى مبلغ ألف وخمسمائة درهما^(١٠).

وكان يحق للمولى أن يشتري مملوكا إذا كانت لديه القدرة على ذلك^(١١). وكان لرسول الله (ص) مولى اشترى أخا له مملوكا. فقال رسول الله (ص): قد عتق عليه حين ملكه^(١٢). وقد يباع العبد للحاجة إلى ثمنه أو لوفاء دين قد حل^(١٣).

(١) ابن عبد البر: المصدر السابق (هامش كتاب الاصابة، ج ١)، ص ٨٥.

(٢) الطبري: جامع البيان، ج ٧، ص ٨٨.

(٣) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٦٣.

(٤) ابن حجر: نفس المكان.

(٥) ابن حجر: الاصابة، ج ٤، ص ٢٨٦.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٤، ص ٣٢-٣٣.

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٥٥٢، ٦٠١.

(٨) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٥٨، ج ٣، ص ٤٦٦، ٤٦٧، ٥٠٤.

(٩) ابن الاثير: أسد الغابة، ج ١، ص ٤٣.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٩٦.

(١٠) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٦١٣.

(١١) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧٤.

(١٢) ابن حجر: نفس المكان.

(١٣) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٩٦، ج ٣، ص ٦٦٨.

وكان الموالي يزاولون بعض المهن والحرف الوضيعة والتي كان العربي يأنف أن يقوم بها^(١). وكانت الحجابة إحدى تلك الحرف^(٢). وقد حجم أبوظبية، مولى بنى بياضة، رسول الله (ص) فأمر له بصاعين من طعام وكلم بنى بياضة أن يخففوا عنه من ضريبته^(٣).

وزاول بعض الموالي حرفاً خفيفة كعمل السيوف^(٤)، وبرى النبال^(٥). وقد نسب كثير من الموالي إلى مهنته أو حرفته مثل يحنس النبال^(٦)، ومحزبن القصاب^(٧)، وأبى رافع الصائغ^(٨)، وميثم التمار^(٩)، وسعد القرظ، كان يتجر في القرظ^(١٠)، وإبراهيم النجار^(١١).

ولم يكن للموالي تأثير كبير في المجتمع المدني خلال العهد النبوي، سوى ما نجده في استحباب خدمة المخصيين في البيوت بين النساء^(١٢)، وقد جلبت تلك العادة - كما يبدو - من مصر وشاعت في المدينة. إذ كان المقوقس قد أهدى لرسول الله (ص) مارية القبطية وكان معها مخصياً يدخل عليها ويحدثها ويخدمها^(١٣).

ومما يدلوننا أن سبب استحباب خدمة المخصيين في مجتمع المدينة وقلة استخدام الجوارى أو القيان في البيوت، مع أنهم كنا عماد الخدمة في المنازل قبل الاسلام^(١٤)، يرجع إلى الرغبة في تقليص مهمتهن تلك، سداً لأبواب الفساد التي قد تنشأ، نتيجة وجودهن بين الرجال. فقد ذكر أن من ستهن في الجاهلية أنهم كانوا يكسبون بفروج امائهم.

(١) ابن خلدون: تاريخ، ج ١، ص ٣٣٧ (طبعة بولاق، ١٢٨٤هـ).

(٢) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٤٤.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٤٧ - ٣٤٨.

(٣) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٤٤.

(٤) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٤١٦.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٦٤٩.

(٦) ابن حجر: نفس المكان.

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٨٦.

(٨) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٤، ص ٧٤.

(٩) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٥٠٤.

(١٠) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٩. والقرظ: بالتحريك، وآخره ظاء معجمة، هو ورق شجريقال له السلم، يدبغ به

الآدم، أي الجلود. (انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٢٥، مادة قرظ، المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٧٣٤).

(١١) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ١٦.

(١٢) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٧٦٧.

(١٣) البلاذري: الانساب، ج ١، ص ٤٤٨ - ٤٥٠.

الديار بكرى: تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٣٨.

(١٤) الاسد (د. ناصر الدين): القيان والفناء في العصر الجاهلي، ص ٤٠ - ٤٣.

وكان لبعضهم راية منصوبة في أسواق العرب فيأتيها الناس فيفجرون بها^(١). وذكر أيضا إنه كان لكلب في سوق دومة الجندل قن كثير في بيوت أو حوانيت من شعر، وكانوا يكرهون فتياتهم على البغاء^(٢).

كما ذكر أن عبد الله ابن أبي كان يملك جاريتين وكان يكرهن على البغاء ولذلك أنزل الله تعالى قوله: «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، ومن يكرهن فإن الله من بعد أكرههن غفور رحيم»^(٣).

وقد كان لوجود الموالي في المدينة بعض التأثير في مجال الغناء. فقد كان الغناء أحد ألوان الفن الذي يتقنه الموالي في المدينة قبيل الهجرة^(٤)، وخاصة القيان^(٥). ولما قدم الرسول (ص) المدينة ذكر أن الحبشة، يعنى الموالي من الحبشة، لعبت بحرايا فرحا بقدمه^(٦). كما خرج جوار من بنى النجار يضربن الدفوف ويغنين^(٧).

ويظن بعض الباحثين المحدثين، أن يهود المدينة استخدموا الغناء في عباداتهم كما استخدموه عند سقى الزروع وفي الحصاد^(٨).

غير أن إتجاه المسلمين، في العهد النبوي إلى أمر الغزوات ونشر الاسلام، جعل تأثير الموالي - في مجال الغناء - في المدينة منعزلا، تقريبا. ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم، كان ينهى عن الغناء، ويصفه بمزامير الشيطان^(٩).

وقد ظلت بذرة هذا التأثير في كمون شبه تام حتى العهد الأموي، فانطلقت من مكمنها^(١٠)! واعتبر معبد، مولى بنى مخزوم - حينذاك - فحل المغنين وإمام أهل المدينة في الغناء^(١١). وكان معبد أحسن الناس غناء وأجودهم صنعة وأحسنهم حلقة^(١٢).

(١) ابن حبيب: المحبر، ص ٣٤٠.

(٢) ابن حبيب: نفس المصدر، ص ٢٦٣ - ٢٦٥.

(٣) النور: ٣٣، الطبري: جامع البيان: ج ١٨، ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٤) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ٢٦٤.

(٥) ضيف (د. شوقي): الشعر والغناء، ص ٦٦ - ٦٧.

(٦) السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦٢.

(٧) وكان من ضمن كلامهن: «نحن جوار من بنى النجاريا حبذا محمد من جار». (انظر: السهمودي: نفس المكان).

(٨) Farmer, A.; History of Arabian Music (London, 1929) p. 17.

(٩) اقتبس شوقي ضيف: المرجع السابق، ص ٥٦، الهامش رقم ١، نفس المكان.

(١٠) البلاذري: الأنساب، ج ١، ص ٤٥١ (تحقيق حميد الله).

(١١) ضيف: الشعر والغناء، ص ٤١.

(١٢) الاصفهاني: الاغانى، ج ١، ص ٤٨ - ٥٠.

(١٣) الاصفهاني: نفس المكان.

وكان قد بلغ من شهرة أهل المدينة بالغناء وقوة تأثيره أن الوليد بن يزيد الأموي كان يقول: ما أقدر على الحج، فقيل له: وكيف ذاك؟ قال: يستقبلني أهل المدينة بصوت معبد: القصر فالنخل فالجاء بينهما^(١).

أما ما قد نعتبه من تأثيرات الموالي في مجال اللغة، ما نجده في القرآن الكريم من ألفاظ كانت أعجمية، حتى عربت. ومن هذه الألفاظ، لفظة: كفل، أي ضعف بلسان الحبشة^(٢)، وقسورة، أي أسد، بلسان الحبشة^(٣)، وسجيل، أي جهنم، فارسية عربت^(٤).

أما بالنسبة لتأثير الموالي في اللباس، فقد ذكر الطبري في تفسير قوله تعالى: «يأياها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين»^(٥). ما نصه: «يأياها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين، لاتشبهن بالاماء في لباسهن إذا خرجن من بيوتهن لحاجتهن، فكشفن شعورهن ووجوههن، ولكن ليدنين عليهن من جلابيهن، لئلا يعرض لهن فانسق إذا علم أنهن حرائر بأذى من قول^(٦)». ونستدل من ذلك أنه قبل نزول تلك الآية كانت بعض النساء في المدينة يتشبهن بالاماء في لباسهن وهيئتهن عند الخروج من بيوتهن أي كاشفات عن شعورهن. وأن الأمر واضح وكبير، مما استدعى نزول هذه الآية لتصحيح الوضع القائم - حينذاك.

٤ - قريش وثقيف

لقد جاء الجمع بين قريش وثقيف في حديثنا هذا لما بينهم من تلاحم وعلاقات قديمة أسهمت في تكوين شخصية تكاد تكون واخدة.

وترجع تلك العلاقات إلى ما قبل الاسلام. وكان أول حلف دخل فيه قريش، حلف ابني علاج وهما شريق وعمر أبناء علاج من ثقيف^(٧).

ولم تقف هذه الصلات على المجالات السياسية إذ تعدتها إلى النطاق الاجتماعي والاستيطاني أحيانا، فكان لكبار قريش في الطائف أموالا، للحرث والزرع والانتجاع^(٨). كما أن المصالح الاقتصادية والتجارية بين ثقيف وقريش

(١) الاصفهاني: نفس المصدر، ج ١، ص ٥١.

(٢) الطبري: جامع البيان، ج ١، ص ٨.

(٣) الطبري: نفس المكان.

(٤) الطبري: نفس المكان.

(٥) الأحزاب: ٥٩.

(٦) الطبري: جامع البيان، ج ٢٢، ص ٤٥ - ٤٦.

(٧) ابن حبيب: المنق، ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

(٨) ابن حبيب: نفس المصدر، ص ٩٨ - ٩٩.

كادت أن تكون واحدة ومتفقة في كثير من المجالات^(١).

وكان أبرهة الحبشي، حينما هم بغزو الكعبة بمكة، أشكل عليه الأمر ولم يستطع أن يفرق بين مكة والطائف حتى خرج عليه مسعود بن معتب الثقفي وقال له: إن هذا البيت ليس بالبيت الذي تريده إنما البيت الأعظم الذي تريد هو الذي صنع أهله ما صنعوا أمامك^(٢). وذلك يعطى فكرة عن تشابه الدور الديني والسياسي لثقيف وقريش وإلى أى حد كانت عليه منزلتهم بين العرب^(٣).

وكانت قريش تنظر إلى الطائف على أنه امتداد طبيعي لنقوذها، كما كانت ثقيف تعد الحرم ملكا للجميع^(٤). فقد ذكر أن قريشا حين كثرت رغبت في وج، وهو وادى الطائف، فقالت لثقيف: نشركم في الحرم واشركونا في وج، فقالت ثقيف: كيف نشركم في واد نزله أبونا وحفره بيده في الصخر. وأنتم لم تجعلوا الحرم إنما جعله إبراهيم عليه الصلاة والسلام^(٥).

وقد تأصلت تلك العلاقات بعد ظهور الاسلام بداعي محاربه ودحره، وكان يوم أحد شاهدا على ذلك حين خرجت قريش وهم ثلاثة آلاف بمن ضوى إليهم، وكان فيهم من ثقيف مائة رجل^(٦).

وأحداث التاريخ الإسلامي، أظهرت إلى أى حد كانت ثقة الرسول بمقدرة وكياسة رجال قريش وثقيف للقيام بدورهم في بناء المجتمع الاسلامي، ولهذا كان يؤمل هدايتهم ودخولهم في الاسلام^(٧). ولم يحمل لهم حقدا، رغم عداوتهم. وهى صفات حازوا عليها نتيجة انفتاحهم الواسع على العالم - حينذاك - ومعاشرتهم لأهل العلم والكتاب من اليهود والنصارى ومعاملاتهم مع التجار سواء في بلادهم أم خارجها^(٨).

(١) ذكر أن أبا سفيان خرج في نفر من قريش ومن ثقيف فوجهوا بتجارة إلى العراق فقال لهم أبو سفيان: إنا نقدم على ملك جبار لم يأذن لنا في دخول بلاده، فأعدوا له جوابا. فقال غيلان بن سلمه الثقفي: أنا أكفيكم. فرضوا به. (انظر: ابن حجر: الأصابة، ج ٣، ص ١٨٩ - ١٩١).

(٢) ابن اسحاق: السيرة، ج ١، ص ٣٠ - ٣١،

ابن حبيب: المنق، ص ٧٣.

(٣) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٧.

(٤) ابن حبيب: المصدر السابق، ص ٢٨٠.

(٥) ابن حبيب: نفس المكان.

(٦) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٢٠٣ (طبعة اكسفورد).

(٧) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٤٧٠ - ٤٧١،

ابن حبيب: المنق، ص ٩ - ١٠،

ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٤٤٩.

(٨) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ١، ص ٨٨ - ٩٠، ج ٢، ص ٢٩٢.

وقد بدأت هجرة الأوائل من قريش^(١) وحلفائهم ومواليهم، إلى المدينة قبل العقبة الكبرى بسنة تقريباً^(٢). وكانت الرغبة في كسب ملجأ أمين وبعيد عن أذى قريش والتفرغ لنشر دعوة الاسلام، إحدى العوامل الظاهرة لهجرة هذه العناصر من مكة إلى المدينة بعد أن سبقتها هجرتان إلى الحبشة^(٣).

ولم تكن قريش تجهل ما سوف تسفر عنه نتائج هذه الهجرة إلى المدينة فكانت تتخوف من التحاق الرسول (ص) ببقية المهاجرين، فيأتيهم بالآلا طاقة لهم به^(٤). ولذا فقد عملت، ما وسعها الجهد، على عرقلة هذه الهجرة وإبطائها. غير أن عملها حبط أمام إصرار المهاجرين وصدق عزيمتهم^(٥). ويذكر أنه لم يكن مع أم سلمة حين خرجت إلى المدينة إلا بغيرها وابنها في حجرها^(٦). وذلك يعطى صورة عظيمة عن مدى إيمان المهاجرين وقوة عزائمهم وإصرارهم على الهجرة إلى الحُد الذي جعل تلك المسلمة تهاجر وليس معها إلا ابنها في حجرها. وقد نزل عدد من هؤلاء المهاجرين الأوائل، على بعض الأنصار في قباء، لعدم وجود مساكن أو موارد عيش لهم^(٧).

وبعد هجرة النبي (ص)، بدأت هجرة جماعية إلى المدينة^(٨). فقد ذكر أن آل مظعون الجمحيين، وآل أبي البكير، وحلفاء بنى عدى، وغيرهم، كانوا ممن أوعب في الخروج إلى المدينة رجالهم ونسأؤهم ولم يبق منهم بمكة أحد حتى غلقت دورهم^(٩).

(١) وقريش خمسة عشرون بطنا، وهم: بنوهاشم بن عبد مناف، بنو المطلب ابن عبد مناف، بنو الحارث بن عبد المطلب، بنو أمية بن عبد شمس، بنو نوفل ابن عبد مناف، بنو الحارث بن فهر، بنو أسد بن عبد العزى، بنو عبد الدار بن قصي - وهم حجة الكعبة - وبنو زهرة بن كلاب، بنو تميم بن مرة، مخزوم، بنو قحظة، بنو مرة، بنو عدى بن كعب، بنو سهم، بنو جمح، ويقال هؤلاء قريش البطاح وسواهم قريش الظواهر وهم: بنو مالك بن حنبل، بنو معيط بن عامر بن لؤى، بنو نزار بن عامر، بنو سامة بن لؤى، بنو الأدرم، وهوتيم بن غالب، بنو محارب بن فهر، بنو الحارث بن عبد الله بن كنانة، بنو عائذ، وهو خزيم بن لؤى، بنو نباتة، وهو سعد بن لؤى.

(انظر: المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٦٩).

(٢) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٢٦٩ - ٢٧٢،

الذهبي: تاريخ، ج ١، ص ١٨٥،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٣٥.

(٣) ابن اسحاق: السيرة، ج ١، ص ٢١٣ - ٢٢٠، ج ٢، ص ٣٢١ - ٣٤٦،

ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٢٣٣ - ٢٣٥، ٣٣٥، ٤٦٤، ج ٣، ص ٤٧.

(٤) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٣١ - ٣٣٢،

ابن الحاج: رفع الخفاء، ورقة ٦٦.

(٥) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٢٦٩ - ٢٧٢،

الذهبي: تاريخ، ج ١، ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٦) الذهبي: نفس المكان.

(٧) ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٧١، ٣٨٦،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٥.

(٨) ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٨٨، ٣٩٣، ٣٩٧،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٣.

(٩) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٤،

ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٨٨، ٣٩٣، ٣٩٧.

وقد ترتب على هذه الهجرة الجماعية وجود مشكلة توفير مساكن لايوائهم وطعام لأقواهم . ولذا فقد عمد الرسول (ص) إلى انزالهم أفرادا وجماعات على بعض دور الأنصار^(١) . إلى أن خطت منازلهم^(٢) . وكان العزاب ، من المهاجرين ، ينزلون على سعد بن خيثمة في بيته القريب من مسجد قباء^(٣) .

وقد شهد معظم المهاجرين الأوائل مع رسول الله (ص) بدرا وسائر المشاهد^(٤) . وقد كان لشعورهم بالضعف لقلتهم ، حافزا لهم على مضاعفة الجهد وسد النقص . فكان رسول الله (ص) يوم أحد لا يرمى ببصره يمينا ولا شمالا إلا رأى أفرادهم في ذلك الوجه يذب بسيفه^(٥) . وقد شارك صغارهم في الغزوات ، رغم أن الرسول (ص) كان لا يجذ اجازتهم لصغرهم^(٦) .

وقد كان لهذا الاخلاص من قبل رجال قريش أن اعتمد الرسول (ص) عليهم موليتهم ثقته ، فكان يؤمرهم على كثير من السرايا والبعوث^(٧) .

وقد كانت الخطوات السلمية والحربية التي قام بها الرسول (ص) ضد القبائل المحيطة ببشر قبل وبعد معركة بدر ، عاملا كبيرا في كسب اعترافهم بسيادة المسلمين في المدينة^(٨) .

وقد شعر المضطهدون في مكة ، من قريش وغيرهم ، بعد هذا الموقف المتحسن لوضع المسلمين في المدينة ، أنهم في مأمن إذا ما هاجروا ، خصوصا وأنه قد كان منهم أناس فتنوا في دينهم ومنعهم أهلهم من الهجرة^(٩) . ولما كانت غزوة

(١) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٢٨ - ٣٣٠،

ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ١٢٣، ٣٩٣ - ٣٩٦، ٤٠٣ .

(٢) ابن سعد: نفس المصدر، ج ٣، ص ٢٧٢،

السمهودي: الوفاء، ج ٢، ص ٧١٧ - ٧٤٧ .

(٣) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٣٠ .

(٤) ابن اسحاق: نفس المصدر، ج ٢، ص ٥٠٠ - ٥٠٧، ج ٣، ص ٦٣٥ - ٦٣٦،

ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣ في اماكن متفرقة،

ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٤٥٦، ج ٢، ص ٢٣٣، ٤٠٢، وفي اماكن متفرقة .

(٥) ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٤٦،

(٦) ابن سعد: نفس المصدر، ج ٣، ص ١٥٠،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٥ - ٣٦ .

(٧) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٣١ - ٤٤٠،

الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١ - ١٩ (طبعة اكسفورد)،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩٦، ٣٣٥ .

(٨) الواقدي: المغازي، ص ٣ - ٤، (الطبعة الاولى)،

ابن الحاج: رفع الحفاء، ورقة ٧٢ - ٧٣ .

(٩) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٤٠٦،

ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٣٢٣ .

بدر خرج عدد منهم مع المشركين فلما تراءى الجمعان انحازوا إلى المسلمين^(١). كما أن من المشركين من أظهر إسلامه بعد المعركة^(٢).

وأثناء فتح خيبر قدم مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة كثير من قريش ممن كانوا قد هاجروا إليها فرارا بدينهم^(٣). وقد كان قدوم أولئك تنفيذا لأمر رسول الله (ص). فهو الذي طلب قدومهم، وكانت تحملهم سفيتان^(٤).

وقد حرص الرسول (ص) على قدوم من هاجر إلى الحبشة لما كان يتوسمه فيهم من عزيمة لسبقهم في دخول الاسلام، وصدق إيمانهم، وقوة تحملهم وصبرهم على الشدائد^(٥). فكان يقول عن عبد الله بن جحش، أحد المهاجرين إلى الحبشة: لا بعثن عليكم رجلا أصبركم على الجوع والعطش^(٦).

وخلال الفترة، التي كانت بين عام خيبر وفتح مكة، أسلم عدد من قريش وهاجروا إلى المدينة. وكان منهم جماعة عرفوا باسم السبعين. وكانت هجرتهم عام خيبر^(٧). وقد جاءت تسمية أولئك باسم السبعين نسبة إلى عددهم. إذ كانوا سبعين رجلا جميعهم من بني عدي بن كعب. والذي ذكر منهم: مسعود بن سويد بن حارثة العدوي، ومسعود بن الاسود بن حارثة العدوي، والحارث بن عمرو بن مؤمل العدوي^(٨). وقبيل الفتح هاجر خالد بن الوليد وخرج معه فتية من قريش قدموا المدينة فأسلموا^(٩).

(١) الواقدي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٦ - ١٥٧ (طبعة اكسفورد)،

ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٠٦،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٣٧.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٣١١، ج ٢، ص ٢٦١.

(٣) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٨١٨ - ٨٢٦،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩٢.

(٤) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٣، ص ٨١٨،

ابن الحاج: المصدر السابق، ورقة ٧١،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٧، ج ٢، ص ٢٨٩، ٣٥٦ - ٣٥٧، ٤٦١.

(٥) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٢٣٧، ٢٩١، ج ٢، ص ٢٨٦ - ٢٨٧، ٤٧٥، ج ٣، ص ٣١ - ٣٢، وفي أماكن متفرقة.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٢٨٥، ج ٣، ص ٤٠٩ - ٤١١.

(٨) ابن حجر: نفس المكان.

(٩) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٧٤٨ - ٧٤٩،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٧.

وبعد الفتح أسلم جميع قريش^(١). وقد حرص الرسول (ص) على تألف كبارهم باعطائهم من غنائم حنين^(٢) وكان قد هاجر معظمهم وسكن المدينة^(٣).

أما بالنسبة للثقيفين فقد اقتفت هجرتهم أسلوب القرشيين تقريبا. فقد كانت هناك هجرات فردية نتيجة ما يلاقيه المسلم في قومه من أذى وقتنة في دينه^(٤). كما كان لقوة الايمان وعمق المبدأ وصدقه دافعا لبعض شباب ثقيف على الهجرة إلى المدينة مضحين بما كانوا عليه في الطائف من ثراء وغنى بين أهليهم^(٥).

وأسلم معظم ثقيف بعد الفتح وشهدوا مع رسول الله (ص) بعض غزواته ولزموه في مجالسه ومسجده^(٦).

وقد حظيت قريش في مجتمع المدينة بمنزلة كبيرة فكانت فيهم القيادة والزعامة^(٧). وقد شهد لهم بذلك رسول الله (ص) ومعه الصحابة. فقد ذكر أن الرسول (ص) لما رجع من غزوة بدر منصرفا إلى المدينة تلقاه الأوس والخزرج يهنئونه بفتح الله عليه فقال سلمه بن سلامه بن: وقش الأنصاري: بما تهنؤنا؟ فوالله إن قتلنا إلا عجائز صلعا، كالابل المعلقة، فقال رسول الله (ص): أما لو قد أسلموا، ثم رأيتهم لهبتهم ولو أمروك لا طعتهم ثم لحقرت أفعالك مع فعالهم. قال: فلقد رأيتني في المدينة وأنى لألقى الرجل منهم في الطريق فأتنحي عن طريقه هيبة له حتى يمر^(٨). ويقول ابن اسحاق عن تلك الحادثة ما ملخصها: أن الرسول (ص) حين سمع مقالة سلمه بن سلامة، تيسم، ثم قال: أي ابن أخي، أولئك الملا^(٩).

وتتجلى مما سبق في تقديم قريش، حكمة الرسول (ص) وبعده نظره، وهو الذي لا ينطق عن الهوى. فمع أن الظروف في تلك اللحظات لم تكن مناسبة وكان بمقدور الرسول (ص) أن يصدق على ما قاله سلمه بن سلامة أو يتجاهله، خصوصا وأن المنهزمين كانوا ممن طردوه من بلده وأذوه، وأن المهثين، كانوا ممن نصره وآواه. إلا أن الرسول

(١) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٤، ص ٨٦٧ - ٨٨٤،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٩، ج ٢، ص ٥١ - ٥٢، ٤٠٠ - ٤٠١.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٣٩٠ - ٣٩١. يقول ابن اسحاق: «وأعطى رسول الله (ص) المؤلفه قلوبهم، وكانوا أشرافا من أشرف الناس، يتألفهم ويتألف بهم قومهم، أعطى ابا سفيان بن حرب مئة بعير وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة - اخا بني عبد الدار - مئة بعير. وأعطى الحارث بن هشام مئة بعير وأعطى سهيل بن عمر مئة بعير وأعطى حويطب بن عبد العزي بن ابي قيس مئة بعير. (انظر: المصدر السابق، ج ٤، ص ٩٢٩).

(٣) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٩، ٨٤، ج ٢، ص ٨٩.

(٤) ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٢٧٥.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٥١٢.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٤٣، ١٥٢، ٣٤٤، ٥٤١، ٥٦٨، ج ٢، ص ٤٩، ٤٤١، ٤٤٠.

(٧) ابن حبيب: المنطق، ص ٩ - ١٠،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٤٩.

(٨) ابن حبيب: المصدر السابق، ص ٩ - ١٠.

(٩) السيرة، ج ٢، ص ٤٧٠ - ٤٧١.

(ص) رأى أن من المصلحة عديم شحن نفوس الانصار بكراهية قريش ، لما كان يعهده فيهم من مواهب وقدرات حال دون الاستفادة منها تأخر إسلامهم . وكان الطبري قد أشار إلى ذلك الحرص من الرسول (ص) على صلاح قومه ومحبة مقاربتهم ما وجد إلى ذلك سبيلا ، ليس في المدينة فحسب وإنما منذ أن كان بمكة . وكان يتمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبينهم^(١) .

ومما تجدر ملاحظته أن شهادة الرسول (ص) في قريش لم تكن صادرة عن عاطفة قبلية أو عصبية ، إذ أن معظم قبائل العرب في الجزيرة العربية كانت تعترف لقريش بتلك المنزلة . وكانوا في الجاهلية يسمون أهل الله وسكان الله وأهل الحرم ، وقطان بيت الله^(٢) . وقال عنهم عز وجل في كتابه : «أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون»^(٣) .

وقد ذكر أن أبا مفيان بعد إسلامه ، كان يمازح رسول الله (ص) في بيت بنته أم حبيبة ، زوج رسول الله (ص) ويقول : والله إن هو إلا أن تركتك فتركك العرب فما انتطحت جهاء ولا ذات قرن . ورسول الله (ص) يضحك ويقول : أنت تقول ذاك يا أبا حنظلة^(٤) . ويذكر ابن اسحاق أن العرب كانت تربص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش وأمر رسول الله (ص) وذلك أن قريشا كانوا إمام الناس وهاديهم ، وأهل البيت والحرم وصريح ولد اسماعيل بن إبراهيم وقادة العرب وكانوا لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله (ص) ، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ، ودوخها الإسلام ، عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله (ص) ، ولا عداوته . فدخلوا في دين الله أفواجا ، يضربون إليه من كل فج^(٥) .

وقد ذكر أن وفد بني عبيد بن عدى بن الدئل ، لما وفدوا على رسول الله قالوا : إنا لا نريد قتالك ولو قاتلت غير قريش لقاتلنا معك^(٦) . وهذا يظهر إلى أي حد كانت قلوب العرب مع قريش ، وبين مقدار الاحترام الذي كانت تحظى به قريش لدى القبائل العربية لما كانت تتمتع به من مواهب قيادية في مجالات الاقتصاد والدين^(٧) . فقريش

(١) تاريخ ، ج ٢ ص ٣٣٧ - ٣٣٨ .

(٢) ابن حبيب : المنق ، ص ١٠ .

(٣) القصص : ٥٧ .

(٤) الاصفهاني : الأغاني ، ج ٦ ، ص ٣٢٣ .

(٥) السيرة ، ج ٤ ، ص ٩٨٥ .

(٦) ابن حجر : الاصابة ، ج ٢ ، ص ٤٧ .

(٧) ابن حبيب : المنق ، ص ١٠ - ١٢ . ومما نراه أن نظام الخمس ، الذي كان يميز قريش وخزاعه وكل من ولدت قريش من العرب وكل من نزل مكة من قبائل العرب عن القبائل العربية الأخرى بعادات خاصة خلال الاحرام ، كان أهم العوامل التي ربطت القبائل بدين قريش ونفوذها إلى الحد الذي جعل أحدهم وهو زهير ابن جناب الكلبي يهاجم غطفان بعد أن قررت ان تنشئ حرما مثل مكة . ولعل مما زاد ذلك النظام قوة وأهمية أن قبائل الخمس عاشت في مناطق مختلفة من شبه الجزيرة العربية ، فقد سكنت ثقيف في جنوب شرقى مكة ، وكنانة في الجنوب حيث تسيطر على طريق مكة - اليمن ، وعامر بن صعصعة في شمال شرقى مكة ، وقضاعة (كلب) على طريق الحيرة وفارس . (انظر : ابن حبيب : المحبر ، ص ١٧٨ - ١٧٩ ، وانظر ايضا : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة خمس ، الترجمة العربية ، الاصفهاني : الأغاني ، ج ١٢ ، ص ١٢١ ، كستر : مكة والحيرة ، ص ٦٣) .

كانت هي المهيمنة على أمور الكعبة وما يتعلق بها من شئون الحج وشعائره، وهي المسؤولة عن تقديم الخدمات للحجاج العرب في الجاهلية^(١)، كالرفادة والسقاية وحمل المنقطع به من الحاج ومعونته على بلاغ منزله^(٢).

كما أن مواهب قريش السياسية وبراعتهم في شئون التجارة جعلهم يحصلون على الآلاف من ملوك الفرس والروم واليمن لضمان التبادل التجاري بين تلك البلدان وقبائل الجزيرة العربية^(٣). وهذا أكسبهم أيضاً محبة واحترام القبائل، إذ أن تلك المهمة قد ساعدت على ازدهار النشاط التجاري لديهم وحفظت رؤوس أموالهم وأرباحهم نتيجة قيام قريش بمهمة الوكالة في ذلك. والآلاف كان يعنى دفع مبلغ من المال يمنح من قبل هاشم إلى رؤساء القبائل كأرباح ويتعهد بنقل بضائعهم مع بضائعه، ويسوق إبلهم مع أبله، كي يربحهم من مشاق الرحلة ويضمن سلامة تجارتهم، كما أنه يريح قريشا من شر الأعداء، بمعنى أنه كان مفيداً للجانبين^(٤).

ويذكر أن الرسول (ص) يوم بدر قد رفض مشورة من رأى ضرب أعناق الأسرى القرشيين وقبل إجابة أبى بكر الصديق بقبول الفداء منهم^(٥). ثم أنه - فيما ذكر - كان يبعث بهال إلى أبى سفيان بن حرب في فقراء قريش وهم مشركون يتألفهم^(٦).

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن الرسول (ص) كان من الممكن ألا تتغير نظرتة تلك تجاه قريش، حتى لو لم تكن قريش من قومه وعشيرته، فقد ذكر أن الرسول (ص) بعث نميلة بن عبد الله الليثي إلى بنى ضمرة فرجع إلى رسول الله (ص)، فقال: يا رسول الله قالوا: لا نحاربه ولا نساله ولا نصدقه ولا نكذبه، فقال الناس: يا رسول الله أغزهم. فقال: دعوهم فإن فيهم عدداً وسؤداً، ورب شيخ صالح من بنى ضمرة غاز في سبيل الله^(٧).

ومن ذلك نرى أن تعامل الرسول (ص) مع بعض القبائل كان مبنياً على المرونة والرفق بهم، لما يتوسمه فيهم من خير وصلاح للإسلام وأهله، حتى وإن لم يسلموا بعد.

(١) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ١، ص ٨٤،

كستر: المرجع السابق، ص ٥٥.

(٢) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ١، ص ٨٤،

ابن حبيب: المنق، ص ١١.

(٣) انظر: السهيلي: الروض الأنف، ج ١، ص ٧٦،

كستر: مكة والحيرة، ص ٥٦ - ٥٩. ويقول ابن اسحاق: «إيلاف قريش: إيلافهم، يعنى الخروج إلى الشام، وكانت لهم خرجتان، خرجة في الشتاء، وخرجة في الصيف». (انظر: السيرة، ج ١، ص ٣٦).

(٤) O'Leary; Arabia before Muhammed, pp. 182, 184.

كستر: المرجع السابق، ص ٤٦.

(٥) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٠٧ - ١١٠ (طبعة اكسفورد)،

ابن الحاج: رفع الحفاء، ورقة ٧٨.

(٦) ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٥٠٥.

(٧) اليعقوبي: تاريخ، ج ٢، ص ٧٣.

وقد أثبتت الاحداث صدق حدس الرسول (ص) وبعد نظره بضرورة ادخار قريش لزمانهم . فقد كان الاعتماد عليهم كبيرا في المدينة . وكانت أول راية عقدها رسول الله (ص) لعبيدة بن الحرث المطلبى القرشي ، أرسله في سرية قبل وقعة بدر^(١) . كما أن أول لواء عقد كان لحمزة بن عبد المطلب^(٢) . ويذكر أنه لم يكن مع الرسول (ص) يوم بدر من الفرسان إلا فارسان ، الزبير بن العوام على الميمنة والمقداد بن الاسود على الميسرة^(٣) .

وقد أظهر الكثير من رجال قريش مواهب فذة في السلم والحرب^(٤) . وذكر أن الرسول (ص) كان يقول : اللهم أيد الاسلام بأحب الرجلين إليك ، عمر بن الخطاب أو عمر بن هشام^(٥) . وكان عمر بن الخطاب ملازما لرسول الله (ص) في مشاهدته كلها ، وخرج في عدة سرايا وكان أميرا على بعضها^(٦) . وذكر أن النبي (ص) رأى أبا بكر وعمر فقال هذان السمع والبصر^(٧) .

وفضل الرسول (ص) استعمال قريش على الأمصار المفتوحة البعيدة عن المدينة ، كاليمن والبحرين وخيبر^(٨) . وقد يرجع سبب ذلك إلى ضمان عدم خروج تلك الأمصار أو ارتداد أهلها والتفافهم على زعمائهم .

وذكر أن خالدا وابانا وعمرأ أبناء سعيد بن العاص لما بلغتهم وفاة النبي (ص) رجعوا عن أعمالهم . فقال لهم أبو بكر : ما أحق بالعمل منكم^(٩) . واستخلف النبي بعضهم على المدينة في عامة غزواته^(١٠) . كما كان يستكتب منهم من يجيب عنه الملوک ، حتى قيل أنه استكتب عبد الله بن الأرقم الزهري وبلغ من أمانته عنده أنه كان يأمره أن يكتب إلى بعض الملوک فيكتب ويختم ولا يقرأه لأمانته عنده^(١١) .

(١) الواقدي: المغازي، ص ٣-٤ (الطبعة الاولى)،

ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٥٠-٥١،

ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٤٤٩ .

(٢) الواقدي: المصدر السابق، ص ٣-٤،

ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥١،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٥٣-٣٥٤ .

(٣) ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠٣،

الذهبي: سيرة أعلام النبلاء، ج ١، ص ٢٩ .

(٤) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢ .

(٥) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٢٦٥-٢٦٩،

ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٥١٨-٥١٩ .

(٦) ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٦٥-٢٦٩ .

(٧) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩٩ .

(٨) كان خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، على اليمن، وأبان أخوه، على البحرين، وعمر بن سعيد بن العاص، على سواد

خيبر . (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٥٣٩) .

(٩) ابن حجر: نفس المكان .

(١٠) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٥٢٣ .

(١١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٧٣، ٣١١ .

وقد تعددت مواهب القرشيين، في المدينة، فجمعوا بين صفات الشجاعة والحرب وفضائل العلم والتفقه في الدين^(١). كما تولى منهم جماعة، على عهد رسول الله (ص)، أمور الفتيا^(٢). وكان يبعث رجالا منهم إلى البلدان لتعليم الناس السنة وأصول الاسلام^(٣).

وكان لرجال ثقيف مشاركة بارزة في إدارة شئون المجتمع المدني على عهد النبي (ص) كالغيرة بن شعبة، وكان يقال له مغيرة الرأي، لدهائه وحسن تدبيره^(٤). وللتقيفين أيضا نصيب كبير في مراكز القيادة والمشاركة في الغزوات^(٥). فقد أصبحوا عصب كثير من البعوث والسرايا. ولدنا نص يذكر أنه قد أصيب منهم يوم الجسر مع أبي عبيدة ثلاثمائة رجلا^(٦)، مما يعطى فكرة عن مدى مشاركتهم بأعداد كبيرة في الغزوات على عهد النبي (ص). على اعتبار أن نسبة المصابين كانت كبيرة مما ينبىء عن كثرة المشتركين منهم في تلك السرية. كما أنه قد تعنى كثرة المصابين فيهم، أنهم كانوا على جانب كبير من الشجاعة والجرأة والاقدام، مما عرضهم لتلك الاصابات أكثر مما قد تدل على كثرتهم. إلا أنه مهما كان الأمر فإن الثلاثمائة أنفسهم الذين شاركوا في سرية جسر أبي عبيدة وأصيبوا، يعدون نسبة كبيرة بحذ ذاتها.

وقد ضم المجتمع المدني، عددا من حلفاء قريش ممن دخل في الاسلام عن إعجاب وإيمان^(٧). وهم من كانت لهم سابقة في دخول الاسلام والهجرة إلى الحبشة^(٨). ثم الهجرة إلى المدينة، مع المهاجرين الأوائل، الذين شهدوا مع رسول الله مشاهدته^(٩).

ويبلغ عدد حلفاء قريش من سكّن المدينة وصحب رسول الله (ص)، حسب ما ذكره ابن حجر، حوالي ٣٩ صحابيا، وكان أغلبهم من خزاعة وبلى وعذرة، وجعفي، وأسد خزيمة، ومزينة، وهذيل، وسليم، وتميم، وكندة، والازد، والليث، وعنز، وهوس، وقضاع، وحضرموت، وعنس، وثقيف، ومازن، وعجل، والقارة^(١٠). وقد شارك

(١) ابن سعد: الطبقات: ج ٣، ص ١٠٢-١٠٤، ١١٦-١١٨،

الذهبي: سيرة أعلام النبلاء، ج ١، ص ٢٧-٣٠،

ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٢، ٣٣٠-٣٣١.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٤١٦.

(٣) ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، ص ١١٦-١١٨، ٤١٠-٤١١.

(٤) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٥٢-٤٥٣.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٥٧.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٢-٣، ٤، ص ٤٥.

(٧) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٤٥٨، ج ٢، ص ٥٢١.

(٨) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٢٦٥، ٣٨٦-٣٨٧، ٣٩٠،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٨٧.

(٩) ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، في أماكن متفرقة،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٩، ٤٨٦، ج ٢، ص ٥١٢ وفي أماكن متفرقة.

(١٠) انظر كتاب الاصابة، في أماكن متفرقة من الاجزاء الاربعة، ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، ص ٨٩ وما بعدها.

هؤلاء الحلفاء في حياة المدينة السياسية والدينية والأموال العامة. فكان منهم أمراء السرايا وعمال البلدان وعمال الأخماس والسفراء إلى الملوك^(١).

ومما يجدر ذكره أنه - حسب علمنا - لم ينضم إلى ثقيف، بعد هجرتهم إلى المدينة، حلفاء كما هو الحال بالنسبة لقريش، التي انضم إليها حلفاء جدد من سائر القبائل^(٢).

٥ - المهاجرون من قبائل وأفناء العرب

نقصد بالمهاجرين من قبائل وأفناء العرب، بقية المهاجرين من القبائل العربية ممن لم نتحدث عنهم تفصيلاً، رغبة في الاختصار وأملًا أن يكون في ذلك تيسيراً لمن أحب المقارنة السريعة بين جموع تلك الأمة في المجتمع المدني.

وينتسب معظم هؤلاء المهاجرين إلى القبائل العربية التالية: بلى، جهينة، حنيقة، تميم، الأزد، ذهل، عجل، ثماله، هلال، كنانة، هوازن، خثعم، مزينة، الليث، غطفان، ضبة، غفار، غافق، عقيل، جشم بن سعد، عامر، ثعلبة، جعل، مذحج، بكر، أمّس، عنز، قضاعة، أسلم، دوس، خزاعة، أشعر، باهلة، طيء، عذرة، مراد، محارب، عبد القيس، بجيلة، غنم بن دودان، نهد، جرم، ذبيان، قشير، أنمار، أسد خزيمة، نمير، جذام، كلاب، النخع، مرة، جعفي، همدان، كندة، هذيل، فزارة، سدوس، ضمرة، لخم، تنوخ، عبس، أشجع، حضرموت، سليم، حمير، غنو^(٣).

ومن المهاجرين من لم تعرف قبائلهم على وجه التأكيد، وهم في الغالب يرجعون إلى القبائل العربية التالية: مجمع، الحارث بن كعب، عكل، ثعلبة بن عتبان، إياد، يشكر، عك، شيبان، مدلج، عنس، بهران، سلول، ثعلبة بن ذبيان، سعد بن هديم، النكر، القارة، جرهم، البهز، مازن، تغلب بن كعب^(٤).

(١) ابن سعد: نفس المصدر، ج ٣، ص ٩٢، ٩٥ - ٩٨،

ابن حبيب: المحبر، ص ٧٦ - ٧٧،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٩٧، ج ٣، ص ٢٨٦ - ٢٨٧، ٣٨٨.

(٢) ابن حجر: المصدر السابق، (انظر الأجزاء الأربعة، في أماكن متفرقة).

(٣) انظر: ابن حجر: الأصابة، (الأجزاء الأربعة في أماكن متفرقة).

Watt; Muhammad at Medina, pp. 82 - 130 (Oxford, 1977).

(٤) ابن حجر: المصدر السابق (الأجزاء الأربعة في أماكن متفرقة). وللمستزيد في معرفة أنساب تلك القبائل، انظر: القلقشندي:

نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، (تحقيق علي الخاقاني، بغداد، ١٣٧٨ هـ) في أماكن متفرقة.

وقد ينسب بعض المهاجرين إلى بعض البلدان مثل: اليمامة، اليمن، الطائف، فارس، مكة، الربذة، نجران، زبيد^(١). أما من كان نزاع من هنا وهناك، ممن لا يعلم ممن هم. فأولئك هم من عنيينا بالقول أنهم من أفناء العرب^(٢).

الاحصاء التقريبي لعامة المهاجرين في المدينة

وقد حاولنا في هذه الدراسة معرفة الاحصاء التقريبي للمهاجرين في المدينة، وهو لا يعنى ادعاء المقدرة على إعطاء إحصاء كامل ودقيق عن عددهم. بقدر ما أردنا به تقريب الصورة وتوضيحها في ذلك. وما ذلك إلا لأننا لم نجد بين أيدينا نصوصا متكاملة أو صريحة عن تعداد القبائل العربية المهاجرة إلى المدينة. وهي معضلة واجهت الكتاب المسلمين عند حديثهم عن الصحابة فقال ابن حجر: «فجمعت كتابا كبيرا في ذلك ميزت فيه الصحابة من غيرهم ومع ذلك لم يحصل لنا من ذلك جميعا الوقوف على العشر من أسامي الصحابة بالنسبة إلى ما جاء عن أبي زرعة الرازي قال: توفي النبي (ص) ومن رآه وسمع منه زيادة على مائة ألف انسان من رجل وامرأة كلهم روى عنه سماعا أو رؤية»^(٣).

والعدد الذي ذكره أبو زرعة يشمل عدد الصحابة في المدينة وغيرها، وذلك من واقع النص السابق. واستنادا إلى بعض الروايات التاريخية يمكننا القول بأن المسلمين في المدينة مع بدء الهجرة كانوا قليلا^(٤)، لم يصلوا - فيما يبدو - إلى سبعين ألفا، على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم^(٥). وكان الاحصاء التقريبي للمسلمين، سواء في المدينة أم في غيرها، يوم تبوك، حوالى خمسين ألف رجلا^(٦).

ولو أخذنا بالتقدير النسبي لتزايد سكان المدينة معتمدين في ذلك على تناول الاعداد المذكورة للمقاتلة المسلمين منذ غزوة بدر، لخرجنا بنتيجة شبه مقنعة، وهي أن تزايد أعداد المسلمين في المدينة نتيجة الهجرة، على عهد النبي، كان بطيئا أول الأمر، ثم سريعا وكبيرا جدا منذ غزوة الخندق. فعدد مقاتلة المسلمين يوم بدر كان حوالى ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا^(٧). ويوم أحد كانوا حوالى سبعمائة رجلا^(٨). ويوم الخندق بلغ عدد المسلمين حوالى ثلاثة آلاف رجل^(٩). وحين خرج الرسول (ص) في آخر سنة ست، معتمرا، كان الناس سبع مائة^(١٠). وحضر مع الرسول صلى

(١) ابن حجر: الاصابة، (انظر الأجزاء الأربعة في أماكن متفرقة).

(٢) ابن حبيب: المنق، ص ٢٤.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٣ - ٧.

(٤) قال تعالى: «واذكروا إذ كنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس». الآية: الأنفال: ٢٦.

(٥) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٠٩.

(٦) عن منجاب بن راشد الضبي قال: قدم علينا كتاب النبي (ص) عام تبوك، فاستفدنا إلى تبوك فنشرت إليه تيم والرباب وأخواتها، فكان ربيع الناس، وكانوا ثمانية وأربعين ألفا. (انظر: ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٤٥٨ - ٤٥٩).

(٧) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٥٢٤، الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٥٢ - ١٥٦، طبعة اكسفورد).

(٨) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٨٦.

(٩) ابن اسحاق: نفس المصدر، ج ٣، ص ٧٠٥.

(١٠) ابن اسحاق: نفس المصدر، ج ٣، ص ٧٧٤.

الله عليه وسلم يوم فتح خيبر أقل من ألفى رجل^(١). وبلغ عددهم يوم الفتح، وأواخر سنة ثمان، حوالي عشرة آلاف من أهل المدينة^(٢). وبلغ عددهم يوم الطائف حوالي اثني عشر ألفاً، منهم ألفان من أهل مكة^(٣).

والمعروف، أنه بعد فتح مكة تزايد عدد الذين دخلوا في دين الله أفواجا^(٤). وهذا يجعلنا نميل إلى ترجيح ما رآه بعضهم، من أن الرسول (ص) قبض والمسلمون ستون ألفاً بالمدينة وثلاثون ألفاً في قبائل العرب وغيرها^(٥). وكان يغذى هذا الجمع المتزايد من المسلمين في المدينة، تتابع المهاجرين أرسالا إليها، حتى ذكر أن من القبائل من أوعبوا جميعاً إلى المدينة رجالهم ونساءهم وأطفالهم حتى أغلقت دورهم^(٦).

وتجد في الملاحق إحصاء تقريبياً عن أعداد بعض القبائل العربية المهاجرة إلى المدينة والذين شاركوا في الغزوات. مؤملين أن يساعد ذلك في إلقاء الضوء على حجم الكثافة العددية للقبائل المهاجرة، وأن يبين مقدار التناسب بين أعدادهم. كما أوردنا إحصاء آخر عن عدد الصحابة من سائر القبائل ممن روى عن النبي (ص)، تجده في الملاحق أيضاً.

وقد ظلت معدلات السرعة في تتابع الهجرة إلى المدينة مستمرة إلى ما قبيل وفاة النبي^(٧) (ص). وكان قد بلغ بالنبي (ص) حداً، بعد تكاثر الناس في المدينة على صغرها^(٨)، أنه صار من المتعذر عليه - في بعض الأحيان - التعرف على كثير من الصحابة^(٩).

(١) ابن اسحاق: نفس المصدر، ج ٣، ص ٧٩١ وما بعدها.

البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٩ - ٣٢.

(٢) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٤، ص ٨٥٩. وذكر أن من بنى سليم سبع مئة رجلاً. وقال بعضهم ألف رجلاً، ومن بنى غفار أربع مئة، ومن أسلم أربع مئة، ومن مزينة ألف وثلاثة نفر، وسائرهم من قریش والأنصار وحلفائهم، وطوائف العرب من تميم وقيس وأسد. (انظر: ابن اسحاق: نفس المصدر، ج ٤، ص ٨٧٧).

الواقدي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٨٨٩ (طبعة أكسفورد).

(٣) الواقدي: نفس المكان،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٩.

(٤) قال تعالى: «إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسيح بحمد ربك واستغفره أنه كان تواباً».

النصر: ١-٣.

(٥) انظر الكتاني: التراتيب الادارية، ج ٢، ص ٤٠٧.

(٦) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٢٤.

ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ١٤.

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ١٧٥، ج ٢، ص ١١٨.

(٨) ذكر أن الرجل قد يستغنى عن ركوب الدابة فيها، وذلك يدل على قرب المسافات بين مواضعها. (انظر: العدوي: أحوال مكة والمدينة، ج ٢، ورقة ١١٧. وكان بعضهم قد ذكر أن المدينة كانت في مقدار نصف مكة، أي انها لم تكن كبيرة، حيث أن مساحة مكة كانت محصورة بين الجبال على شكل وادي ضيق. (انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٨٢).

(٩) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٤٣.

والظاهر أن الرسول (ص) رأى ضرورة الحد من استمرار هذه الهجرة الكبيرة غير المنظمة، والتي إذا ما استمرت على معدلها، فسوف تفقد المدينة قدرتها على استيعاب المهاجرين وتوفير ضروريات المعيشة لهم. ولذا نجد أن الرسول (ص) قد حرم مساحة محدودة من المدينة لا يختلج خلالها ولا يعضد شجرها^(١)، وقدرت تلك المساحة، على أنها بريد في بريد^(٢). وحدود هذا الحرم، ما بين جبل أحد أو ثور شماله إلى جبل عير جنوبا، وما بين لابتى المدينة، أي حرة واقم شرقا إلى حرة الوبرة غربا^(٣). وقد طلب الرسول (ص)، ممن كانت له غنم، أن ينأى بها عن المدينة فإنها أقل أرض الله مطرا^(٤).

وكان لتلك الاجراءات في تحريم المدينة، أثر كبير في الحفاظ على ثروتها الحيوانية والزراعية. فكان أبوهريرة يقول: والذي نفسى بيده لو أجد الأطباء يبطحان ما عايتها^(٥). وقد رأى بعض المؤرخين المسلمين أن حرم المدينة ليس كحرم مكة في أحكامها^(٦). فتحريم المدينة - كما أسلفنا القول - كان اجراء اقتضته ضرورة الحد من تدفق المهاجرين وتزايدهم فوق قدرة المدينة الاستيعابية.

ويبدو أن مشكلة التفكير في نتائج تدفق المهاجرين الكبير، قد بدأت في الظهور، سنة خمس من الهجرة، حين أمر الرسول (ص) برجوع بعض القبائل المهاجرة إلى أموالهم وبلادهم^(٧). ومنذ ذلك التاريخ كان الرسول (ص) يحرص عند استقبال وفود القبائل، على سؤالهم عن بلادهم ويدعوهم بنزول الغيث ثم يميزهم منصرفين عن المدينة إلى بلادهم^(٨). ولم يكن ذلك يتم إلا بعد أن يبقوا في ضيافة النبي (ص) مددا، لا تتعدى الشهر، ينالون خلالها قسطا من تعاليم الاسلام وفاتحة القرآن وما يتيسر منه^(٩). ولم نجد ما يدل على أنه كان يشجعهم على البقاء في المدينة أو الهجرة إليها، خلال تلك الفترة، من سنة خمس حتى فتح مكة، حيث أعلن ذلك صراحة بقوله: لا هجرة بعد الفتح^(١٠). ثم ميز القادرين على القتال بأحقية الهجرة دون غيرهم، مادام العدو يقاتل^(١١).

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٦-٧.

(٢) كبريت: الجواهر الثمينة، ورقة ٨. والبريد، أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل ثلاثة آلاف ذراع وخمسةائة ذراع، بذراع اليد. (انظر: السهوي: الوفاء، ج ١، ص ١٠٣).

(٣) البلاذري: المصدر السابق، ج ١، ص ٦-٧.

كبريت: المصدر السابق، ورقة ٨.

(٤) ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٣١٤.

(٥) البلاذري: المصدر السابق، ج ١، ص ٧.

المطري: التعريف، ص ١٥-١٦.

(٦) كبريت: المصدر السابق، ورقة ٨.

(٧) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢٩١.

(٨) ابن سعد: نفس المصدر، ج ١، ص ٢٩٧-٢٩٨.

(٩) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٥٣، ٧٨، ١٥٦، ج ٣، ص ٣٤٢، ٤٣٥.

(١٠) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٠٣.

(١١) روى عن الرسول (ص)، قوله: «لا تنقطع الهجرة مادام العدو يقاتل». (انظر:

ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٥٢٠).

وقد ساعد قفل باب الهجرة، على انتشار الاسلام بين القبائل في اليمن والشام وغيرها من أنحاء الجزيرة العربية. وذلك لكثرة ممن وفد على النبي (ص)، وتفقّه في الدين ثم رجعوا إلى قومهم يحدثونهم عن الاسلام ويدعونهم إليه^(١). وكان الرسول (ص) يكتب لبعضهم كتباً تذكر أن حاملها مبعوثون إلى قومهم عامة ومن دخل فيهم، يدعونهم إلى الله ورسوله^(٢).

ولعل المدارس لفئات أولئك المهاجرين، يلاحظ أن المهاجرين من أهل نجد يشكلون نسبة ليست بالكبيرة في المجتمع المدني. قياساً لما كانت تتمتع به تلك البلاد من إمكانات بشرية واقتصادية مرموقة في العصر الجاهلي^(٣). وقد كانت بلاد الحجاز تعتمد في غذائها من الحبوب، على ما يأتيها من نجد، حتى قيل أن اليمامة مريف أهل مكة^(٤). وكان يضرب بمنتجاتها الحيوانية والزراعية المثل في الجودة^(٥). كما أن نجدا تعد المصدر الرئيسي للخيول العربية الأصيلة^(٦)، حيث تربي في سهولها ووديانها أحسن الخيول^(٧). وكان الرسول (ص) يحرص على جلبها إلى المدينة^(٨).

ويبدو أن اكتفاء نجد المعيشي وازدهارها الاقتصادي قد قلل من هجرتهم بشكل ملحوظ. ولهذا اتسمت علاقاتهم واتصالاتهم، بالمدينة - بادية الأمر - بطابع سياسي، في الغالب. وهذا ما نجده في إرسال وفد بني تميم بهدف المفاوضة لفك أسرى بني النضير من تميم^(٩)، أو البعثات التي يرسلها مسيلمة إلى المدينة لمناظرة الرسول (ص) ومحاجته^(١٠). وقد أسلم معظم من وفد على الرسول (ص)، وبقي في المدينة^(١١). ومنهم من رجع إلى اليمامة^(١٢).

(١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٢١١، ج ٣، ص ٤٤١، ٤٣٥.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤١٣، ٤٤١.

(٣) الهمداني: مختصر البلدان، ص ٢٩ - ٣٠.

كستر: الحيرة ومكة، ص ٤٠. وفي هذا المجال يذكر كستر أن لتاريخ تميم في العصر الجاهلي أهمية خاصة. وأن المعلومات حول تميم في المصادر العربية تشير بوضوح إلى العلاقات الوثيقة بين زعماء تميم وملوك الحيرة. وهناك مركز آخر ارتبطت به تميم بعلاقات وثيقة مع مكة، ويذكر كستر أيضاً، أنه من الممكن القول أن تميم لعبت دوراً ذا أهمية في تاريخ مكة في العصر الجاهلي وكانت تساهم كثيراً في دعم نفوذ هذه المدينة في المجتمع القبلي لشبه الجزيرة العربية. (انظر: نفس المكان).

(٤) يذكر أن ثمامة بن أثال الحنفي، أحد رؤساء نجد، قد هدد قريشا حين أسلم، بقطع حبوب نجد عنهم إذا ما تمادوا في عنادهم ومعاداتهم للاسلام. (انظر: ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٢٠٣، حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الاسلام، ج ١، ص ٥، ط ١، القاهرة، ١٩٦٤م).

(٥) الهمداني: المصدر السابق، ص ٢٩ - ٣٠.

(٦) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨.

(٧) حسن، حسن إبراهيم: المرجع السابق، ج ١، ص ٥.

(٨) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٧٢٥.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨.

(٩) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٥٨ - ٥٩.

(١٠) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٦٣٠.

(١١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٢١، ٥٨ - ٥٩، ج ٣، ص ٦٣٠.

(١٢) ابن خياط: الطبقات، ص ٦٥ - ٦٦.

ومن غير المستبعد - في رأينا - أن يكون من عوامل قلة وجود النجديين في المدينة وتفضيلهم البقاء في بلادهم، إنما يرجع إلى طبيعة نفسياتهم، الميل إلى اللغظة والعجرفة وحب المفاخرة، وهو طبع لا يتفق والروح السمحة السائدة بين الصحابة. وقد وصفهم الله، بأن أكثرهم لا يعقلون^(١). وذلك بعد أن دخل وفد بني تميم مسجد الرسول (ص) ونادوا من وراء حجراته أن أخرج إلينا يا محمد. فأذى ذلك من صياحهم النبي، صلى الله عليه وسلم^(٢).

وكان الرسول (ص) يفرح بإسلام أهل نجد ويؤمل قدوم سادتهم إلى المدينة^(٣)، وقد وصف أحد سادتهم بأنه سيد أهل البويرة^(٤). ويبدو أن لحرص الرسول (ص) على تواجد سادة أهل نجد في المدينة ما يبرره، فهم على ما اتصفوا به من جلالة في الطبع والسلوك^(٥)، إلا أنهم كانوا أصحاب شجاعة وفروسية، يشهد لهم بها. وهي صفات كانت عند المسلمين تعد الغاية وعدة الجهاد مع طاعة الله وصدق الإيمان^(٦). كما ذكر أن لبعض أهل نجد دراية جيدة بفنون البناء، على عهد النبي (ص)، ويبدو أنهم قد تركوا بصمات واضحة على طريقة وفن العمارة في المدينة بعد الهجرة. وربما قبل ذلك. فقد حكى أن طلق بن علي الحنفى، بنى مع الصحابة مسجد رسول الله (ص). وقال النبي (ص): قربوا له الطين فإنه أعرف^(٧). ولهذا يعد وجودهم في المدينة نافعا ومفيدا.

ومن الأسباب، التي حدت من هجرة النجديين إلى المدينة بالشكل الكبير، ما سبق أن ذكرناه عن ازدهار نجد الزراعى الذى سيعود نفعه على المسلمين بشكل أكبر وأضمن إذا ما دخل أهل نجد في الاسلام وصار هواهم مع المسلمين. وقد عمل الرسول (ص) على تشجيع وتنمية قطاع الزراعة في نجد باقطاعه بعض النجديين أرضا في نجد كان بعضها يغل أربعة آلاف ومائتين أردبا^(٨).

(١) قال تعالى: «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون». الحجرات: ٤.

(٢) ابن عبد البر: الاستيعاب، (هامش كتاب الاصابة، ج ١)، ص ٩٦.

(٣) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥٢ - ٢٥٤.

(٤) ابن حجر: نفس المكان.

(٥) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٥٨ - ٥٩.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٢٣٩.

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٣٢ - ٢٣٣.

مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ٥.

(٨) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٨٩، ج ٣، ص ٢٠٠ - ٢٠١. ونحب أن ننوه هنا، الى أن ابن حجر لم يذكر نوع الوحدة حين ذكر أن الأرض كانت تغل أربعة آلاف ومائتين. وقد أثبتنا هنا أردبا لأنها كانت وحدة القياس الشائع استعمالها في تلك الفترة. فقد ذكر أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص، وإلى مصر، أن يحمل طعاما في البحر يكفي عامة المسلمين حتى يصير به إلى ساحل الجمار (ميناء المدينة سابقا) فحمل طعاما إلى القلزم، ثم حمله في البحر في عشرين مركبا في المركب ثلاثة آلاف أردب. (انظر: اليعقوبي: تاريخ، ج ٢، ص ١٥٤).

نشاط طوائف المهاجرين

يجد الباحث المتتبع لنشاط سائر المهاجرين في المدينة أن ذلك النشاط كان كبيراً وواسعاً جداً، إلا أن ذكره كان نثراً هنا وهناك في بطون الكتب التاريخية. وخاصة كتب الطبقات والسير والتراجم. ولعلها المأثرة البارزة لابن حجر في كتابه الإصابة - كما رأينا - أنك تجد في ثناياه إشارات وافية وموجزة عن رجال مجهولين قاموا بدور طيب ومفيد في المجتمع المدني على عهد النبي (ص) وبعده. وكان أبرز نشاطهم اهتمامهم بالرواية عن الرسول (ص). وقد جاء ذلك نتيجة ملازمتهم له، سواء في المسجد، لحرصهم على أداء الصلاة معه^(١)، أو في مجلسه^(٢)، أو على طعامه^(٣). وكانت المباشرة وانعدام الوحشة بين الرسول (ص)، وأصحابه، هي أساس العلاقة الحميمة القائمة بينهم. فقد ذكر أن النبي (ص) مريمخارق الهلالي، وهو كاشف عن فحده ولم يواره حتى قال له النبي (ص) وار فخذك فإنها عورة^(٤). ولم يؤنبه على سواها. وقد روى أن أبا هريرة، وكان أحفظ الصحابة لأخبار رسول الله (ص)، كان جريئاً على أن يسأل رسول الله عن أشياء لا يسأله عنها غيره^(٥).

ولقد تميزت روايات أولئك المهاجرين عن الرسول (ص)، نتيجة تلك الملازمة الحميمة والدائمة، بمعلوماتها الدقيقة وأحياناً بالخصوصية مما لم يكن بعض الرواة من الصحابة يأتي على ذكرها، لعدم ملاحظته الدقيقة أول عدم تقديره لما تحويه من معاني منظمة للحياة والسلوك العام. ومن ذلك: الروايات الخاصة بأداب الطعام. ذكر أبو خيمصة المزني. أنهم حضروا طعاماً مع رسول الله وهو يشتغل بحديث رجل أو امرأة فجعلوا يأكلون ويقصرون في الأكل. فأقبل عليهم النبي (ص)، فأكل معهم ثم قال: كلوا كما يأكل المؤمنون، فأخذ لقمة عظيمة ثم قال: هكذا لقما خمسا أوستا إن كان مع ذلك شيء وإلا شرب^(٦). وروى نعمة الضبي قال: كان رسول الله (ص) إذا قرب إليه الطعام قال: سبحانك ما أحسن ما ابتليتنا، سبحانك ما أكثر ما أعطيتنا، سبحانك ما أعظم ما عافيتنا^(٧).

ومن أمثلة تلك المعلومات الدقيقة، التي حرص صحابة رسول الله (ص) من المهاجرين على حفظها وذكرها لما تشتمل عليه من صور صادقة لعادات المجتمع المدني، الذي كان فيه الرسول (ص) القدوة الحسنة، ما ذكرته بنت مشرح الأشعرى، أن أباهم مشرحاً قص أظفاره فجمعها ثم دفنها ثم قال: هكذا رأيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم^(٨). أو مارواه أحدهم، واصفاً نعلي رسول الله (ص)، وكيفية شدتهما^(٩).

وقد اتخذ الرسول (ص)، من بعض المهاجرين أدلاء على الطريق^(١٠). وكان للكثير منهم خبرة في ذلك المجال.

(١) ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٢٣٨، ٢٧٨، ٤٠٢، ٤٢٠.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ١٩٧، ج ٣، ص ٢٧٧.

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب، (هامش كتاب الإصابة، ج ١)، ص ٦٣.

(٤) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٨٩.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٤، ص ٢٠٦.

(٦) ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ٤٧.

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٥٥٨.

(٨) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٢١.

(٩) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٦٦.

(١٠) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٢٥.

ولم تكن تلك الخبرة مقتصرة على معرفة طرق مزابهم ومنتجعاتهم القريبة فحسب، فقد ذكر ناجية بن جندب بن عمير بن يعمر الأسلمي، إنهم كانوا بالغميم فجاء رسول الله (ص) خبر قريش أنها بعثت خالد بن الوليد، جريدة خيل يتلقى رسول الله (ص)، فكره رسول الله (ص) أن يلقاه، وكان لهم رحيمًا، فقال: من برجل يعدلنا عن الطريق؟ فقلت: أنا بأبي أنت وأمي يارسول الله، قال: فأخذت بهم في طريق قد كان بها فداقد وعقاب فاستوت لى الأرض حتى أنزلته على الحديبية^(١). كما وصف أحد المهاجرين، بأنه كان من أهدى الناس بالطريق^(٢).

وقد شاركت طوائف المهاجرين في الغزوات والبعوث كجنود مجهولين على الرغم من أن أحدهم ذكر أنه قتل تسعة وتسعين من المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣). وكان صدق الايمان أعظم دافع لهؤلاء المهاجرين على أقدامهم وحرصهم على خدمة الاسلام والذود عن حياضه. ومن ذلك ما ذكر أن محرز بن نضلة الأسدي ويعرف بالأخرم، جاء يتخلل الشجر مع فوارس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أولهم، وذلك في غزوة ذي قرد. فأخذ أحد الصحابة بعنانه فقال: يا أخرم أهدركم لا يقتطعونك قبل أن تلحق رسول الله (ص)، وأصحابه. فقال: إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق والنار حق فلا تحل بيني وبين الشهادة^(٤). وهنا نجد أن إيمانهم الصادق ورغبتهم في الشهادة في سبيل الله، كان هو الباعث القوي على اخلاصهم واندفاعهم لنصرة الاسلام، زاهدين فيما سوى ذلك من مركز أو سمعة.

وقد ساهم عدد كثير من طوائف المهاجرين، جنباً إلى جنب مع الانصار أثناء الغزوات، على تنطس أخبار العدو وتتبع حركاته^(٥).

(١) ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٥٤١.

الغميم: بفتح أوله، وكسر ثانيه ثم ياء مثناه من تحت ميم أخرى، وهو الكلاء الأخضر تحت اليابس. والغميم، فعيل بمعنى مفعول أى مغموم وهو الشيء المغطى. والغميم هنا موضع له ذكر كثير في الحديث والمغازي، وهو قرب المدينة بين رابغ والجحفه. وهناك موضع آخر بين مكة والمدينة يقال له: كراع الغميم. (انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢١٤).

الحديبية: بضم الحاء وفتح الدال وياء ساكنه وياء موحدة مكسورة: قرية متوسطة، ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة، التي بايع رسول الله (ص) تحتها. وبينها ومكة مرحلة. وبينها وبين المدينة تسع مراحل. (انظر: ياقوت: نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٢٩).

(٢) هوفرات بن حياف بن ثعلبة بن عبد الغزي اليشكري ثم العجلي، حليف بنى سهم. (انظر: ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٠٠ - ٢٠١).

(٣) والمهاجر المذكور، هولقيط بن أرطاة السكوني. (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٢٥٩، ٣٠٦، ٣٢٩، وفي أماكن متفرقة، ج ٤، ص ٤٨، ٥٣).

(٤) ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٣٦٨.

ذى قرد: بفتح القاف، ويقال قرد بضميتين، والقرد في اللغة الصوف الرديء. (انظر: السهيلي: الروض الأنف، ج ٤، ص ١٤). وغزوة ذي قرد، سببها هجوم عيينه بن حصن الفزاري في خيل من غطفان على لقاح لرسول الله (ص) بالغابة. (انظر: ابن اسحاق: السيرة: ج ٣، ص ٧٥١ - ٧٥٢).

(٥) ابن عبد البر: الاستيعاب، (هامش كتاب الاصابة، ج ١). ص ٦١، ٦٣، ٧٤.

وتعد مساهمة بعض المهاجرين في مجال الطب بالمدينة، مساهمة كبيرة ورائدة، حيث ذكر أن أبا رمثة التميمي كان طبيباً على عهد رسول الله (ص) مزاولاً لأعمال اليد وصناعة الجراح^(١). كما كان على أيامه، الحارث بن كلدة الثقفي، وكان قد تعلم الطب بناحية فارس وتمرن هناك. وعرف الداء والدواء، وبقي أيام رسول الله (ص)، وأيام أبي بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية^(٢). كما كان في أيام رسول الله (ص)، أطباء من حى قبيلة أنمار، يداوون الجراح ويجهدون في ذلك^(٣).

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج ٢، ص ٢٣.

(٢) ابن جليل: طبقات الأطباء والحكماء، ص ٥٤ (القاهرة، ١٩٥٥م)،

ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣.

(٣) ابن جليل: المصدر السابق، ص ٥٤.

الفصل الثالث

الأوضاع العامة للسكان في المدينة بعد الهجرة

- أولاً: النواحي الاجتماعية العامة
- ثانياً: العلاقات الاجتماعية بين السكان

أولا : النواحي الاجتماعية العامة

الدعوة إلى الهجرة

يجد المطلع في كتب الحديث، أن الرسول (ص)، بعد هجرته إلى المدينة، كان يرغب في الهجرة ويجعلها شرطا مهما في المبايعة على الاسلام، وتماه^(١). وكان أيضا يحط من جدوى أسلوب البداوة والترحل في تلك المرحلة^(٢). ومن ذلك ما نجده في القرآن الكريم كقوله تعالى : «الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله^(٣)». ويذكر أنه شاع بين الناس في المدينة على عهده (ص)، أنه قد نهى عن قبول هدايا الأعراب أو طعامهم^(٤). وقد أريد بالأعراب هنا، كل منقطع في البادية، لا يتصل بالمسلمين في المدينة ولا يجيب داعي الجهاد والدين^(٥). ويبدو أن ذلك قد حدث بعد أن أهدى له أعرابي ناقتين، فعوضه لم يرض مما حمله على القول : لقد هممت ألا أتعب إلا من قرشى أو أنصاري أو ثقفى^(٦). وذلك يعطى فكرة عن وجود محاولة لتهجير الأعراب وربطهم بالحاضرة، وإظهار ما كانوا عليه من تخلف في أدب المعاملة وجفوة في الطبع، حين قرن أسباب ذلك بالعزلة والانقطاع في البادية. مستتجين كل ذلك من المقارنة بينهم وبين قبائل قريش والأنصار وثقيف، وهي قبائل عربية مستقرة ومتحضرة، ويروى أن الرسول (ص)، حين سئل عن قول الله تعالى : «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات»^(٧).

(١) مالك: الموطأ، ج ١، ص ١٩٦-١٩٧.

ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٣٠٢، ج ٣، ص ٤٤٠.

(٢) ذكر أن الرسول (ص)، لما نزل بتبوك أشار بيده فقال: الايمان يمان والجفاء وغلظ القلوب في الفداديد، أهل الوبر. (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٥، ج ٤، ص ٤٦٣). والفداديد أو الفدادين: جمع فداد، وهو من الفديد، أى الصوت الشديد، فهم الذين تعلوا أصواتهم في إيلهم وخيلهم ونحو ذلك. (انظر: مسلم: الصحيح، ج ١، ص ٧١، الهامش رقم ٢، نفس المكان).
(٣) براءة: ٩٧.

(٤) روى عن عائشة «رضى الله عنها» أنها قالت: «أهدت أم سنبلة الأسلمية لرسول الله (ص)، لبنا فدخلت عليه فلم تجده. فقلت لها: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد نهى أن نأكل ما تهديه الأعراب، فدخل رسول الله (ص)، وأبوبكر، فقال: يا أم سنبلة ما هذا معك؟ قالت: لبن أهديته إليك. قال: اسكبي يا أم سنبلة، فناولته رسول الله فشرب. فقالت عائشة: يا رسول الله قد كنت حدثتنا أنك نهيت عن طعام الأعراب؟ فقال: يا عائشة، ليسوا بأعراب، هم باديتنا ونحن حاضرتهم، إذا دعوناهم أجابوا فليسوا بأعراب». (انظر: ابن حجر: المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٦٣).

(٥) ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ٤٦٣.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٥٤١.

(٧) قال تعالى: «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون». الحجرات: ٤.

قال: هم الجفأة من بنى تميم لولا أنهم من أشد الناس قتالا للأعور الدجال لدعوت الله أن يهلكهم^(١). وهنا نرى أن الذى شفع لأولئك الأعراب الجفأة عند رسول الله (ص)، هو تميزهم بالشدة فى القتال، والا استحقوا غضب الله ورسوله، لأنهم سيكونون عالة - ولا ريب - على دولة الاسلام بتعطيل قدراتهم الفكرية والاقتصادية، إذا ما طال انقطاعهم فى البادية. وذلك النص يعبر عن وضع دولة الاسلام، عند قيامها فى المدينة، وحاجتها إلى احتياطي كبير من الجنود الذائدين عن حياضها. ولهذا فإن وجود الأعراب، ذوى الشدة القتالية، فى المدينة سوف يجعل مهمة استنفارهم للجهاد سهلة وميسرة. ولذلك قيل: «لانتقطع الهجرة ما قوتل الكفار»^(٢).

وبما سبق يمكننا استنتاج أن الدعوة إلى الهجرة كانت تستهدف أولا تكوين مجتمع الامة الاسلامية الجديد، القائم على أسس قوية من الاستقرار والتحضر، والبعد ما أمكن عن الفردية والانعزالية، كما استهدفت ثانيا، إعداد النواة القوية الأولى للجيش الاسلامى لممارسة مهامه فى الجهاد ومقاتلة الكفار.

الاستعداد النفسى والسياسى لنشر الاسلام

وبعد أن اطمأن الرسول (ص) على نجاح خطته لتكوين المجتمع الاسلامى القوي فى المدينة، بدأ فى تنفيذ مرحلة أخرى لبناء المجتمع الاسلامى الكبير وتوسيع نفوذه ليشمل العالم أجمع. وقد استتجنا ذلك مما كان يتناقله المسلمون على عهده (ص)، من أحاديث كقوله: يظهر المسلمون على جزيرة العرب وعلى فارس والروم وعلى الأعور الدجال^(٣). وقوله: إن الأرض ستفتح عليكم، وتكفون المؤونة فلا يعجز أحدكم أن يلهو بسهمه^(٤). ثم أن الرسول (ص)، كان يحث الناس على الاكثار من النسل ويقول: لاتزوجن عجوزا ولا عاقرا، فإنى مكاثركم الأمم^(٥). والنص السابق أيضا، يصور حالة دولة الاسلام فى المدينة وحاجتها إلى زيادة عدد سكانها لمواجهة التحديات التى كانت تحيط بها من أعدائها، أعداء الاسلام. فهذه المرحلة التى نتحدث عنها تعد مرحلة تهيؤ واستعداد نفسى وسياسى استهدف رفع معنويات المسلمين وبث الثقة فى نفوسهم ليكونوا أكثر قدرة وجدارة لنشر الاسلام وتوسيع نفوذه.

وقد بدأت تلك الجهود بإرسال سرايا حول المدينة بغية تأمين سلامة حدودها وتأكيد قوة المسلمين وسيادتهم فيها، وذلك بموادعة القبائل المحيطة بالمدينة، على أن لا يغزوهم ولا يغزوا المسلمين ولا يعينوا عليهم أحدا^(٦). كما أن من

(١) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٣٧٣.

(٣) ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٥٩٣.

(٤) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٧.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٣٢١، ج ٣، ص ٥٠.

(٦) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٤٢٧ - ٤٢٨، ج ٣، ص ٢٩٢.

ابن حبيب: المحبر، ص ١١٠ - ١١١.

البلاذرى: الأنساب، ج ١، ص ٢٨٧.

ابن الحاج: رفع الحفاء، ورقة ٧٢.

أهداف تلك السرايا، إخضاع من يظهر تحدياً أو مقاومة لنفوذ الرسول (ص) في المدينة من القبائل العربية^(١).

ولأن الخطر العظيم على الاسلام في المدينة كان يأتي من قبل قريش، لذا فقد وجهت ضدها حملات حربية مركزة استهدفت - بادىء الأمر - قطع طرق تجارتها مع الشام^(٢)، ومع العراق^(٣). حتى حصرتهم تلك الحرب وأنهكت أموالهم^(٤). وقد أجبرهم ذلك على توقيع صلح الحديبية مع المسلمين^(٥)، والاعتراف بسلطانهم في المدينة^(٦)، ثم انتهت تلك المجابهة بعد فتح مكة سنة ثمان، بإسلام جميع قريش^(٧).

وعلى المستوى الدولي أو الخارجي بالنسبة لمنطقة نفوذ المدينة، وحدود الجزيرة العربية، بدأت مرحلة الاتصال بدول العالم، سياسياً، بإرسال الرسل إلى الملوك، يدعون إلى الاسلام. وكتب إليهم رسول الله (ص)، كتباً. واتخذ خاتماً من فضة وختم به تلك الكتب^(٨). وكان خرج ستة نفر منهم في يوم واحد، وذلك في المحرم سنة سبع^(٩). ويعد ذلك الاتصال بالعالم، تحولا في مجريات السياسة العالمية، لظهور سلطة منظمة في الجزيرة العربية لها من القوة والسلطان ما يجعلها تكاتب الملوك والعظماء من منبر الدعوة والارشاد. حتى أن بعض العرب - حينذاك - كانوا ينظرون إلى الرسول (ص) على أنه ملك يثرب^(١٠)، وحامي العرب في الجزيرة، وملكهم^(١١).

التكيف في المجتمع المدني بالنسبة للمهاجرين

كانت أولى الصعوبات التي واجهت المهاجرين، هي محاولتهم التكيف مع المناخ السائد في المدينة، والذي وإن كان لا يختلف كثيرا عن مناخ الجزيرة العربية، إلا أن كثرة الزراعة في المدينة وقلة الأيدي العاملة - فيما يبدو - وهي اللازمة لاصلاح التربة وتصريف المياه^(١٢)، قد جعل من هواء المدينة - حينذاك - وبيثا. فاشتكى المهاجرون من الحمى

(١) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٣٥، ج ٣، ص ٤٩٢،

الواقدي: المغازي، ص ٤ - ٥. (الطبعة الاولى).

(٢) الواقدي: نفس المصدر، ص ١١. (الطبعة الاولى).

ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٢٤١ - ٢٤٨.

(٣) ابن كثير: نفس المصدر، ج ٣، ص ٢٤٨ - ٢٥٢.

(٤) الاصفهاني: الأغاني، ج ٦، ص ٣٢٥.

(٥) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٤، ص ٨٥٥،

الاصفهاني: المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٢٥.

(٦) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٤، ص ٨٥٥.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٤١،

ابن كثير: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٦٤ - ١٦٩.

(٨) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢٥٨ - ٢٦١،

ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٣٧٧، ج ٣، ص ٤١١، ٤٩٥.

(٩) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٨.

(١٠) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٦ - ٢٧.

(١١) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٣.

(١٢) ذكر أن المريد، الذي بنى على أرضه مسجد الرسول (ص)، كان فيه ماء مستنجل. فسيروه حتى ذهب، والمستنجل ممشى ماء

المطر. (انظر: الديار بكرى: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٤٣).

ومرض كثير منهم^(١). وكان أهل البادية أكثر المهاجرين تضايقا وشكوى من هواء المدينة ومنهم من استأذن الرسول (ص) في سكنى البادية^(٢). وذكر أن رهطا من عكل وعرينة، أتوا النبي (ص) فقالوا: يا رسول الله إنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، وإنا استوطننا المدينة، فأمر لهم النبي (ص)، بذود وراع وأمرهم أن يخرجوا فيها فيشربوا من ألبانها^(٣).

على أننا نجد - فيما بعد - أن المهاجرين أصبحوا أكثر تكيفا وتعودا على جو المدينة، وذلك بعد اتساع العمران في أرجائها وطول الإقامة بها، بالإضافة إلى ما ورد من دعاء عن الرسول، بأن يحبب الله إليهم المدينة ويصححها، وأن تنقل حماها إلى الجحفة^(٤). ولذلك ألف الناس ذلك الطقس واستطابوا هواءه وفضلوه على ما سواه^(٥). وندلل على ذلك بما حصل لأحد المهاجرين بعد أن نفاه ابن الزبير مع من نفاه من بنى أمية عن المدينة إلى الشام. فلما طال مقامه بها قال أبياتا يحن فيها لربوع المدينة^(٦).

وقد صاحب ذلك التكيف مع المناخ تكيف اجتماعي وتمثيل شبه تام شمل سكان ذلك المجتمع المتعدد الألوان والأشربة. وكان للرسول (ص) دور كبير في حصول ذلك التكيف، فهو المعلم وهو الموجه والعامل على صهر عادات

(١) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٤٢٦ - ٤٢٧.

ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٢٢١.

(٢) ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ١٣٩.

(٣) وكان بعضهم يقول: هم ناس من سليم، ومنهم عرينة وناس من بجيلة.

(انظر الطبري: جامع البيان، ج ٦، ص ٢٠٦ - ٢٠٧).

(٤) ابن كثير: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٢١.

المطري: التعريف، ص ١٥.

السمهودي: الوفاء، ج ١، ص ٥٦. وبما يدلل به أيضا على أثر العمران في تصحيح هواء المدينة، ما ذكر عن عائشة «رضي الله عنها» أنها قالت: «وقد مننا المدينة، وهي أوبأ أرض الله. قالت: فكان بطحان يجري نجلا، يعني ماء». (انظر: المطري: المصدر السابق، ص ١٥). ويبدو أن اهتمام المهاجرين بنظافة المدينة جعلهم يكثر من إحراق البخور في أجوائها. وفي ذلك ذكرانه قدم على عمر بن الخطاب بسقط عود فلم يسع الناس، فقال: جروا به المسجد، ينتفع به المسلمون. (انظر: ابن رسته: الاعلاق النفيسة، ج ٧، ص ٦٦). وقد ذهب بعضهم في قوله حدا، بأن العطر والبخور من الرائحة الطيبة إذا كان في المدينة، أضعاف ما يوجد له في غيرها من البلدان. (انظر: ابن رسته: نفس المصدر، ج ٧، ص ٥٩).

الجحفة: منزل بالقرب من مكة. واشتق اسمها من الجحف، وهو اقتلاعك الشيء، واستئصالك إياه. وسميت الجحفة، لأن السيل جحف أهلها، أي اقتلعهم فذهب بهم. (انظر: ابن دريد: الاشتقاق، ص ٣٠٨).

(٥) الأصفهاني: الأغاني، ج ١، ص ٣٩.

(٦) وبما قال:

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا قباء وهل زال العقيق وحاضره

وهل برحت بطحاء قبر محمد أراهط غر من قریش تباكره

لهم منتهى حبي وصفو مودتي ومحض الهوى مني وللناس سائره

(انظر: الأصفهاني: نفس المكان). على أن ذلك لا يعني في الواقع، أن هواء المدينة قد نقى تماما. فقد ذكر وجود للحمى بالمدينة، حتى

سنة تسع من الهجرة. (انظر: ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٥٧٢ - ٧٣).

الجميع في قالب إسلامي واحد^(١). وقد ظهر ذلك في دعوته إلى توحيد آداب المائدة^(٢)، وآداب السلوك والمجالس^(٣). وغير ذلك من العادات والتقاليد الإسلامية. وبإمكان من أراد الزيادة والاطلاع أن يرجع إلى كتب الفقه والحديث كالموطأ للمالك، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود وغيرها، ففي أبوابها أحاديث كثيرة يستنتج من دراستها صورة ما كان عليه المجتمع المدني من تقاليد وعادات، على اعتبار أن الرسول (ص)، كان هو القدوة الحسنة في ذلك المجتمع وما كان يأمر به كان يتبع بصفة عامة. كما أننا سنشير إلى بعض هذه العادات، خلال البحث.

ولتناولنا حديثاً لعائشة - كنموذج لما ذكرنا - روت فيه عن رسول الله قوله: «عشرة من الفطرة، قص الشارب واعفاء اللحية والسواك، والاستنشاق بالماء وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الأبط وحلق العانة وانتقاص الماء يعني الاستنجاء به^(٤)»، لأمكننا تتبع ذلك التطور في التقاليد وحقيقة التكيف الاجتماعي على عهد رسول الله (ص)، فالذي نعرفه أن عادة الغسل بالماء بعد قضاء الحاجة كانت عادة شائعة في أهل المدينة قبل الهجرة^(٥). ويقال إنهم اكتسبوا عن جيرانهم اليهود^(٦).

الصعوبات الاجتماعية والاقتصادية الناجمة عن الهجرة

أولى الصعوبات الاجتماعية، التي واجهت المهاجرين، كانت مسألة الحصول على مساكن ملائمة للسكنى. وقد نزل بعضهم على بيوت الأنصار بقباء^(٧). ثم ضرب الرسول (ص)، في المدينة الخيام، في صحن المسجد لسكنى الوفود خلال تلك الأزمة^(٨). وعمل على تشجيع البناء ودعى بالبركة لمن باع عقاراً أو داراً، وجعل ثمنها في مثلها^(٩).

(١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٣٥٤.

(٢) ابن حجر: نفس المكان.

(٣) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٦٤١.

(٤) أبو داود: السنن، ج ١، ص ١٤. (القاهرة، ١٣٥٤هـ).

(٥) ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٩١.

(٦) عن عويم بن ساعدة أن النبي (ص)، قال لاهل قباء: «إن الله قد أحسن الثناء عليكم في كتابه العزيز. فقال: فيه رجال يحبون أن يتطهروا إلى آخر الآية. ما هذا الطهور؟ فقالوا: ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا.» (انظر: المطري: الترميز، ص ٤٩).

(٧) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٢٨ - ٣٤١.

ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٢٣٢.

ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ١٧٣ - ١٧٤.

السهيلي: الروض الأنف، ج ٢، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١.

(٨) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥ - ٤٦.

(٩) ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٤٥ - ٤٦.

كما حلت مشكلة النقص في وجود مساكن ملائمة لكثير من الشباب العزاب بايجاد سكن خاص بهم كان يسمى بيت العزاب^(١)، وقيل بيت الغرباء^(٢). ويقول ابن سعد: ونزل العزاب من أصحاب رسول الله (ص) على سعد بن خيثمة^(٣). أما الصعوبات الاقتصادية، فقد كانت أعزل حلا، وقد تمثلت في ضرورة توفر الطعام الكافي للمهاجرين. حيث كانت تمر على أهل المدينة أوقات لم يكن طعامهم فيها سوى التمر والماء، وأحيانا خبز الشعير^(٤). وهي أوقات كانت بمثابة الابتلاء والاختبار من الله تعالى لمعرفة قدرة المسلمين ومدى تحملهم. كما قال تعالى: «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين»^(٥).

وقد أشرك الرسول (ص)، أهل المدينة في مسئولية العمل على تخفيف حدة ما كان يمر على المدينة من أيام يشتد فيها الجوع وتنقص الثمرات، وذلك حين نهي، في وقت من الاوقات، عن ادخار لحوم الأضاحي لأكثر من ثلاث ليال، وأمر بالتصدق بما بقى من لحومها^(٦)، وذلك من أجل مساكين قدموا المدينة، وقت الأضاحي، ورأى ضرورة كفالة معيشتهم وسد حاجتهم^(٧).

ولما كثر الناس بالمدينة، قال الرسول (ص): «يرحم الله رجلا كفانا قومه. فقام سبيع بن نضر فقال: من كان ههنا من مزينة فليقم، فقامت حتى خفت المجالس. فقال رسول الله (ص) يرحم الله مزينة»^(٨). «وقد أنب الرسول (ص)، صاحب حائط في المدينة، دخله أحد المهاجرين، وكان جائعا، فأكل منه فضربه صاحب الحائط، فقال له الرسول (ص): «ما علمته إذ كان جاهلا ولا أطعمته إذ كان جائعا»^(٩). ومع ذلك، فإن الصحابة كانوا يتفقدون بعضهم البعض، ولا يألون جهدا في سبيل تقديم ما يستطيعون تقديمه لآخوانهم إذا عرفوا حالتهم^(١٠). كما أن معظم أصحاب النخيل، من أهل المدينة، كانوا يهبون شيئا معلوما من نخليهم، يعرف باسم العرايا، وهي قد تكون نخلة أو نخلتين^(١١).

(١) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٣٠، ٣٤١ - ٣٤٢.

ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ١٩٧.

(٢) الديار بكرى: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٣٦.

(٣) الطبقات، ج ٣، ص ٢٢٩. والعزاب أو العزب: يقال تعزب الرجل، ترك النكاح وكذلك المرأة. (انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، ص ٧٦٣).

(٤) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٠٣ - ٧٠٤.

ابن كثير: المصدر السابق، م ٢، ج ٤، ص ٩٩ - ١٠٠، ابن النجار: الذرة، ص ٤٩ - ٥٢.

(٥) البقرة: ١٥٥.

(٦) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٤٨٤ - ٤٨٥.

(٧) مالك: نفس المكان.

(٨) ابن خياط: الطبقات، ص ٦٤ - ٦٥.

ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ١٥.

(٩) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٦٥.

(١٠) يروى أن رجلا من الانصار يكنى أبا شعيب قال لغلام له قصاب: أجعل لى طعاما يكفي خمسة فاني أريد أن أدعو النبي، (ص)، خامس خمسة. فإني قد عرفت في وجهه الجوع، وقد فعل الغلام ما أمر به فدعاهم الرجل وشاركهم أحد الغرباء طعامهم فكفاهم جميعا. (انظر: البخاري: الصحيح، ج ٣، ص ٥١).

(١١) البخاري: نفس المصدر، ج ٣، ص ٦٦ - ٦٧.

وكان الرسول (ص)، قد رأى أفضلية الحد من تدفق المهاجرين، لمواجهة تلك الصعوبات. فقد ذكر أنه حين قدم وفد مزينة، سنة خمس من الهجرة، وعددهم أربعمائة، جعل لهم الرسول (ص)، الهجرة في دارهم. وقال: أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم، فارجعوا إلى بلادهم^(١). وبعد فتح مكة أسقط الرسول (ص)، وجوب الهجرة إلى المدينة وقال: «لا هجرة بعد الفتح»^(٢). بمعنى أن الرسول (ص)، لم يقفل باب الهجرة كلية، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم، في حديث آخر: «لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار»^(٣) أو كما قال: لا هجرة، ولكن جهاد ونية، فإذا استغفرتهم فانفروا^(٤).

تضافر الجهود في العمل

كان لتعدد الكفاءات والمواهب في المدينة على عهد الرسول (ص)، ميزة عظيمة، حظيت بها دون سواها من المدن، مما أعطاهها قدرة كبيرة على الحركة والتفاعل السريع مع الأحداث. وقد حرص الرسول (ص)، على توظيف جميع تلك الطاقات والاستفادة منها في مجالات خارجية وداخلية، تخدم أمور الدولة السياسية والاجتماعية.

ونجد أن الرسول (ص) في المجال السياسي، عند اختياره لمبعوثيه السياسيين إلى ملوك العالم، لم يقصر تلك المهمة في رجال قبيلة ما أو في قبائل معروفة، حتى ولو شهد لتلك القبيلة أو غيرها بالتجربة السياسية، كقريش^(٥)، أو ثقيف^(٦)، مثلاً. بل عمد (ص) إلى انتقاء رجاله من بين عدة قبائل منها قريش وضمرة، وكنب، ولخم، وأسد خزيمية، وبجيلة، وحضرموت، وبنى عامر وغيرهم^(٧).

وقد أظهر أولئك المبعوثون، استعداداً جيداً لانجاح مهامهم. فذكر أن كل رجل منهم أصبح يتكلم بلسان القوم الذين بعث إليهم^(٨).

(١) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢٩١.

(٢) ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

(٣) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٣٧٣.

(٤) ابوداود: السنن، ج ٣، ص ٧.

(٥) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٣٩.

(٦) انظر سليمان (حسين محمد): ثقيف من صدر الاسلام حتى سقوط الخلافة الأموية، (رسالة لنيل درجة الماجستير - كلية الآداب

- جامعة القاهرة، ١٩٧٢م)، ص ٣٠ - ٣٥.

(٧) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢٥٨ - ٢٦٦.

ابن حبيب: المحبر، ص ٧٥ - ٧٦.

(٨) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٨.

كما حرص الرسول (ص)، أيضا، على أن تكون وظائف الشؤون الداخلية، كالامارة على المدن، والاقاليم والصدقات والغنائم وغيرها، حقا مشاعا بين جميع القبائل والطبقات^(١).

وكان المجتمع المدني يقدر ذلك الحرص من رسول الله (ص)، بأن يفسح المجال في العمل لكل قادر أيا كانت طبقة أو جنسه، ذكر أن الرسول (ص) أراد أن يعمل له منبرا من الخشب فقال العباس بن عبد المطلب: إن لى غلاما يقال له كلاب، أعمل الناس. فقال: مره أن يعمل^(٢).

الترابط والتعاون في المجتمع المدني ومظاهر ذلك

اتسمت الحياة الاجتماعية بين أفراد المجتمع المدني، بترابط وتعاون وثيق، سداه ولحمته الاسلام، الذى استطاع - في مدة وجيزة - أن يجمع بين المهاجرين والأنصار، مع تعدد ميولهم وتقاليدهم في إطار واحد.

وكان من مظاهر ذلك الترابط والتعاون، الاحترام المتبادل. فكان على المسلم أن يتزحزح لأخيه المسلم إذا دخل عليه، حتى ولو كان في المكان سعة^(٣). كما أنه لم يكن للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال^(٤). وكانت صلة الرحم من أبرز الخلال الحميدة في ذلك المجتمع. واعتبر بر الوالدين ورعايتهما، إذا ما كانوا في حاجة إلى تلك الرعاية، أعظم من الجهاد في سبيل الله^(٥). وكان الرسول (ص)، قد رد بعض الصحابة من أجل أمهاتهم وأسقط عنهم الجهاد^(٦).

ولقد كانت عوامل المحبة والتصافح في ذلك المجتمع وبعده عن الغل والشحناء، كثيرة^(٧). ولعل العامل الرئيسى في انتشار المحبة وقلة ما كان يعانيه من مشاكل سلوكية اجتماعية، أنه لم يكن ينظر إلى الأخطاء في المعاملات بمنظار الحقد والكراهية، فتضخم على حساب قطع دابرها.

ولدينا بعض المواقف السلوكية التى تلقى بعض الضوء على ما ذكرنا. منها ما ذكر أن أعرابيا دخل المسجد فكشف عن عورته ليبول فصاح الناس به، حتى علا الصوت، فقال الرسول (ص): اتركوه فتركوه، فبال. ثم أمر رسول الله (ص)، بذنوب من ماء، أى دلو، فصب على ذلك المكان^(٨). وفي هذا الصدد ما ذكر أن الرسول (ص)، يوم بدر،

(١) ابن حبيب: المصدر السابق، ١٢٥ - ١٢٨،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٨، ج ٣، ص ٤١٢.

(٢) السهوي: الوفاء، ص ٣٩٣.

(٣) ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٦٢٦ - ٢٧.

(٤) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٩٠٧.

(٥) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٩، ج ٤، ص ٩.

(٦) ابن حجر: نفس المكان.

(٧) مالك: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٠٧ - ٩٠٨.

(٨) مالك: نفس المصدر، ج ١، ص ٦٤ - ٦٥.

كان يعد صفوف أصحابه فمر بسواد بن غزية، وكان خرج عن الصف، فطعنه في بطنه بالقدح وقال: استوياسواد. فقال: يارسول الله أوجعتني. فكشف رسول الله (ص) عن بطنه في الحال فقال: استقد^(١).

ومن المظاهر العديدة الأخرى لترباط مجتمع المدينة، المشيع بروح التعاليم النبوية التي اعتبرت المؤمنين في توادهم وتراحهم كالجسد الواحد، حرص الناس على إعادة المريض والدعاء له^(٢).

وكان تبادل الهدايا، فيما بينهم، يعد تعبيراً عن مدى ما بينهم من محبة واحترام. ولم يكن ينظر إلى ثمن أو قيمة الهدية^(٣). وهي قد تكون لباساً^(٤)، أو فاكهة^(٥)، أو طعاماً^(٦).

ومع أن يوم الخندق، كان يوماً عصيباً على أهل المدينة، لدرجة أنهم كانوا يشدون الحجارة على بطونهم من الجوع، أثناء حفر الخندق^(٧)، إلا أن ذلك لم يكن يمنع الشخص منهم عن أن يقتسم مع رفيقه ما كان يأتيه به أهله من تمر أو خبز على قلته^(٨). وكان أحد الصحابة قد رأى ما برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه من أثر التعب والجوع فاستأذن إلى بيته وطلب من امرأته أن تذيب عناقاً صغيرة، كانت كل ما عندهم، وأن تعد ما بقي عندهم من خبز الشعير. ففعلت ثم أتى به وقدمه لرسول الله فأكل منه ودعى أصحابه عليه، ليأكلوا^(٩).

وقد أصبح لدعوات الطعام والولائم في المجتمع المدني، معنى يعبر به عن المحبة والتقدير. وكان الرسول (ص) يلبي كثيراً من هذه الدعوات مع أصحابه^(١٠). وكان أفضل شيء يقدمه صاحب البيت لزارته هو الطعام^(١١). وكان بعض الأنصار يحملون كل يوم قصاع الثريد إلى النبي (ص) يتناوبون ذلك بينهم، إلا سعد بن عبادة فإنه ما كان يقطع جفنته في كل ليلة إلى دار أبي أيوب فيدعو النبي (ص)، أصحابه فيأكلون^(١٢).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، م ٢، ج ٣، ص ٢٧١.

(٢) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٤٨٨، ج ٢، ص ٢٦، ج ٣، ص ٢٤١-٢٤٢.

(٣) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٩٠٧-٩٠٨، ٩٩٦.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤١٧.

ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ٢٣.

(٤) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٣، ٣٠٦، ٤١٧.

(٥) ابن قدامة: المصدر السابق، ورقة ٢٣.

(٦) مالك: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٩٦.

(٧) ابن كثير: المصدر السابق، م ٢، ج ٤، ص ٩٩-١٠٠.

ابن النجار: الدرر، ص ٤٩-٥٢.

(٨) ابن كثير: المصدر السابق، م ٢، ج ٤، ص ٩٩-١٠٠.

ابن النجار: المصدر السابق، ص ٤٩-٥٢.

(٩) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٧٠٣.

ابن كثير: البداية والنهاية، م ٢، ج ٤، ص ٩٧.

(١٠) مالك: الموطأ، ج ١، ص ١٥٣.

ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٣٢٣.

(١١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٣٦٨.

(١٢) ابن النجار: الدرر، ص ٥٦.

علاقات المصاهرة بين قريش والأنصار

من أبرز الروابط الاجتماعية بين قريش والأنصار بالمدينة رابطة المصاهرة، وقد كان لها أرهاصات في الجاهلية. فقد ذكر أن هاشم بن عبد مناف، كان يختلف إلى الشام في التجارة، فإذا مريثرب نزل على عمرو بن زيد بن لبيد، وكان صديقا لأبيه وله، فنزل به في سفره وقد انصرف من متجره فرأى ابنته سلمى بنت عمرو، فأعجبته، فخطبها، فأنكحه إياها^(١). وقد كان من الأوس والخزرج في الجاهلية من قدم مكة وتزوج بها وحالف قريشا^(٢). وقد نمت رابطة المصاهرة تلك بعد الهجرة، واتسع نطاقها بين القبيلتين. وقد شملت بنى هاشم مع بنى عمرو ابن عوف من الأوس^(٣)، وبنى عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار^(٤)، وبنى تميم مع بنى امرئ القيس بن الخزرج^(٥)، وبنى الحنظلي مع بنى عدى^(٦). كما شملت كثيرا من البطون غير مذكرونا^(٧).

علاقات المصاهرة بين قريش والقبائل المهاجرة

كان لقريش صلات قديمة ومحالفات واسعة مع بعض القبائل العربية. وتعد قبيلة تميم في مقدمة القبائل العربية التي لها علاقات وثيقة وقوية مع قريش^(٨). ويرجع سبب ذلك إلى دور تميم المرموق المرتكز على قوة بنى تميم وخدماتها

(١) البلاذري: الأنساب، ج ١، ص ٦٤.

(٢) ومن ذكر من أولئك: عبيد بن عمرو بن بلال بن أبي الحرياء بن قيس بن مالك ابن سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج، وكان قدم مكة في الجاهلية وأقام بها وتزوج أم أيمن، أخو أسامة بن زيد لأمه. ثم نقلها إلى يثرب فولدت له أيمن، ثم مات عنها فرجعت إلى مكة فتزوجها زيد بن حارثة فولدت له أسامة. (انظر: ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٩٢ - ٩٣). وكان أبو جابر وجنادة وهوسفيان، من بنى زريق، قد حالف معمر بن حبيب الجمحي، وأقام بمكة ثم أسلم وهاجر إلى الحبشة ثم قدم هو وأبنائه جابر وجنادة في السفينتين من أرض الحبشة. (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٢١١). وانظر أيضا: ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣١٨ - ٣١٩، ابن حبيب: المقيم، ص ٣٢٦.

(٣) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٨،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٧٢.

(٤) ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، ص ٨،

ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ١٠ - ١٢.

(٥) ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٩،

ابن قدامة: المصدر السابق، ورقة ٢٤.

(٦) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٨٠.

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ١٣٢، ج ٣، ص ٦٦٢.

(٨) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ١٦٤،

ابن حبيب: المحبر، ص ١٦٩،

ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٦١١، ٦١٢، ٦٦٨ - ٦٦٩. ج ٤، ص ١١ - ١٢.

لحماية تجارة قريش الخارجية^(١). وقد ذهب كستر إلى القول بأن فريقاً من رجال تميم كانوا يعدون ضمن سياسى مكة، يساهمون في إدارتها كما ساهموا في ازدهار نفوذها وهيبتها في المجتمع القبلى، وكان ذلك وفق نظام خاص، وذلك النظام هو نظام الخمس^(٢).

والذى نراه، أن قريشا كانت تحافظ على صلاتها مع بنى تميم لما كان لهم من منزلة لدى الفرس، إذ كان لهم الحق في الانتجاع والميرة في بلاد الفرس^(٣) وقد شعرت قريش، بحاستها التجارية، أن من مصلحتها أن تكون علاقاتها مع فارس جيدة لضمان تجارتها بين الشام واليمن ولفتح أسواق فارس أمام تجارتها.

وكما كان لتمييم ذلك الدور في حياة قريش، فإن غفارا تعد إحدى القبائل التى كانت قريش، قبيل الاسلام، تحافظ على أن تظل العلاقات القائمة فيما بينهم، قوية وسلمية، حيث أن غفارا كانت من طريق تجارة قريش إلى الشام^(٤).

ومما سبق نرى أن علاقات قريش مع القبائل العربية، في الجاهلية، كانت تقوم - بالدرجة الاولى - على مصالح اقتصادية. وندلل أيضا على ذلك، بما نجده عند دراسة محالفات قريش في الجاهلية. مثل حلفها مع الأحابيش، وهم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وبنو المصطلق، والحيا بن سعد بن عمر، وبنو الهون بن خزيمه. إذ نجد أن دوافع ذلك الحلف كانت الرغبة في دعم قوة قريش والحفاظ على هيبتها، لما لها من أهمية وثقل تجارى، في المنطقة^(٥). ويدخل في هذا الباب أيضا، حلف الفضول. فقد ذكر أن من أسبابه أن لميس بن سعد البارقي، من الأزد، قدم مكة بتجارة له فاشترها أبى بن خلف الجمحي ثم ظلمه، فتداعت قبائل قريش إلى حلف فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم، ممن دخلها من سائر الناس إلا أقاموا معه فكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلومه^(٦).

(١) ابن حبيب: المصدر السابق، ص ٢٦٤ - ٢٦٥،

كستر: مكة و تميم، ص ١٧ (ترجمة الحبورى، بغداد، ١٩٧٥م).

(٢) المرجع السابق، ص ١٧. والخمس لغة: من فعل خمس الرجل في الدين، أى تشدد. والخمس: قبائل من العرب منهم قريش كلها، وخزاعة وكل من ولدت قريش من العرب، وكل من نزل مكة من قبائل العرب. وقد شددوا على أنفسهم في دينهم وخاصة في مناسك الحج. (انظر: ابن حبيب: المصدر السابق، ص ١٧٩ - ١٨٠، وانظر أيضا: المعجم الوسيط، ج ١، ص ١٩٦).

(٣) ابن خلدون: تاريخ، ج ٢، ص ١٦٨ (تحقيق الأمير شكيب أرسلان).

(٤) ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ٦٢ - ٦٤.

(٥) ويمكننا استخلاص ذلك، من قول ابن حبيب: بأن الذى بدأ حلف الأحابيش رجل من بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة، هبط مكة فباع سلعة له ثم أوى إلى دار من دور بنى مخزوم فاستسقى، فخرجت إليه امرأة من قريش، فقال: هلا كنت أمرت بعض الحفدة؟ فقالت: تركنا بنو بكر نعما. فخرج الرجل حتى أتى بني الحارث بن عبد مناة فقال: يابني الحارث أذلت قريش لبني بكر، فإن كان عندكم نصر فنصر. فقالوا: ادعوا أخوانكم بني المصطلق والحيا بن سعد بن عمرو. فركبوا إليهم فجأوا بهم، وسمعت بهم بنو الهون بن خزيمه فركبت معهم. فخرجوا حتى اجتمعوا بذيئ حبشي، وهو جبل بأسفل مكة على ستة أميال منها، فتحالفوا بالله قائلين: إنا ليد هد الهد وتحقق الدم ما أرسى حبشي. (انظر: المنق، ص ٢٧٥ - ٢٧٧).

(٦) ابن اسحاق: السيرة، ج ١، ص ٨٧،

ابن حبيب: المنق، ص ٣٤٣.

ومما نراه، أن حلف قريش مع ثقيف ودوس كان من أسبابه، رغبة قريش في بسط نفوذها الاقتصادي على الطائف^(١).

وكان لتلك العلاقات بين قريش والقبائل العربية في الجاهلية دور كبير في سرعة حدوث عملية التمثيل والانصهار في المجتمع المدني، إذ اتسعت دائرة مصاهرة قريش، فشملت عددا كبيرا من القبائل المهاجرة، فعمل ذلك - ولا شك - على إيجاد تلاحم أكثر بين أفراد المجتمع المدني، لما لصلته الرحم من أهمية كبرى في الرابطة الأسرية، إذ كان ابن أخت القوم يعتبر منهم^(٢). وكان ينظر إلى الخال على أنه بمنزلة الوالد^(٣).

ومن القبائل التي تم بينها وبين قريش صلات مصاهرة بعد الاسلام في المدينة، هي كل من: بنى أسلم^(٤)، وبنى خثعم^(٥)، والأشعريين^(٦)، وطى^(٧)، وبنى هلال^(٨)، بلى^(٩)، وبنى حنيفة^(١٠)، وبنى عبد القيس^(١١)، ومزينة^(١٢)، وبنى تميم^(١٣)، وبنى الدئل^(١٤)، وثقيف^(١٥)، وسليم^(١٦)، وهمدان^(١٧)، وضمرة^(١٨)، وبنى غفار وغيرهم^(١٩).

(١) ابن حبيب: نفس المصدر، ص ٢٨٠.

(٢) ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٤٢١.

(٣) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٣٧.

(٤) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٤، ص ٩٥.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٧٢-٧٣، ج ٣، ص ٤٧٢، ٤٨٠، ٤٨١.

(٦) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٤٠٨.

ابن حبيب: المصدر السابق، ص ٣٠١-٣٢٥.

(٧) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٨) ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٢٣٥-٢٣٦.

مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ٢.

(٩) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٨١.

(١٠) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٢٠٢-٢٠٣.

(١١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٤١.

(١٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٥٤٥-٥٤٦.

(١٣) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٧٣.

(١٤) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٦٥٩.

(١٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٤٧٨.

(١٦) ابن حبيب: المنطق، ص ٣٠١-٣٢٥.

(١٧) ابن حبيب: نفس المكان.

(١٨) ابن حبيب: نفس المكان.

(١٩) ابن حبيب: نفس المكان.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٧١.

العلاقات الاجتماعية بين الأنصار وسائر المهاجرين

لم تكن علاقة الأنصار بغيرهم من المهاجرين وليدة الهجرة فحسب، إذ سبق ذلك قيام علاقات نسبية وسياسية مع كثير من القبائل العربية^(١). وقد اعتبر الزبيرى، بنى ساعدة، وهم من الخزرج، من أبناء مجربة بن كنانة بن خزيمة^(٢)، وهو زعم، وإن لم نسلم بصحته، إلا أنه يعطى فكرة عن وجود قرابة قد تكون مصاهرة بين بنى كنانة بن خزيمة وبنى ساعدة، وهى قرابة وإن شابها شيء من الغموض، إلا أنها، - فيما يبدو - كانت وثيقة وعميقة.

وقد قامت بين الأنصار وأفراد القبائل المهاجرة في المدينة علاقات نسبية ومحالفات فردية^(٣). كالعلاقات مع بنى الليث^(٤)، وبنى تميم^(٥)، وجهينة^(٦)، وبلى^(٧)، وسدوس^(٨)، ومع بني عبس بن بغيض من غطفان^(٩).

ونحب أن نشير هنا إلى أن علاقة الحلف في المدينة لم تكن تعنى الرغبة في الحصول على سند قوى يكون بديلاً لقبيلة الحليف البعيدة عنه، ذلك أن كثيراً من ذكرنا على أن لهم علاقة مصاهرة أو حلف مع الأنصار في المدينة، بعد الهجرة، كان لقبائلهم وجود قبلى في المدينة نفسها، بل إننا نجد أن أحد الخزرجيين، من بنى جشم بن الخزرج، قد حالف بطناً آخر من الخزرج، هم بنى بياضة^(١٠).

المجالس والأندية العامة

لقد عايش الرسول (ص)، في مجتمعه السابق بمكة، نظاماً وتقاليده متطورة، كانت ثمرة اتصال أهل مكة التجاري بالعالم الخارجي، كالحيشة واليمن وغيرها^(١١)؛ ولعل أبرز تلك التأثيرات كان بناء دور خاصة تعرف باسم النادي أو الندوة^(١٢)، تناقش فيها أمورهم، فيما ينوهم، وفيما أرادوا من نكاح أو حرب^(١٣). وقد اتخذ الرسول (ص)، مع مبدأ

(١) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

العدوى: أحوال مكة والمدينة، ورقة ١١٣، ١٢٠.

الزبيرى: نسب قريش، ج ١، ص ١٠.

(٢) نفس المكان.

(٣) ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٤٧٢.

(٤) ابن حجر: نفس المكان.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٨٦.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ١٤٧.

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٤، ص ٢٤٥.

(٨) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٧١ - ٤٧٢.

(٩) ابن خياط: الطبقات، ص ٤٨ - ٤٩.

(١٠) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٦.

(١١) ابن حبيب: المنطق، ص ١٨.

(١٢) ابن حبيب: نفس المكان.

(١٣) ابن حبيب: نفس المكان.

هجرته إلى قباء، مجلسين، أحدهما لسكنه والآخر يجلس فيه إلى الناس^(١). ولما انتقل إلى المدينة من قباء، صرنا نسمع بمجلس رسول الله^(٢). وكان مقره هذه المرة في المسجد، إذ يعقد ليلاً، لتفقد أحوال الصحابة^(٣).

وقد يجلس الرسول (ص)، مع أصحابه أوقاتاً، يباسطهم ويبازحهم^(٤). وكان من الصحابة رجل يلقب حمار، كان يضحك رسول الله (ص)، يهدى له العكة من السمن أو العسل، ثم يجيء بصاحبها فيقول: أعطه الثمن يا رسول الله^(٥).

وكان للأنصار مجالس للسمر والترويح^(٦)، تعرف بهم^(٧). وقد أقرها الرسول (ص)، على أن تكون بعيدة عن البذاء ومسابة الناس^(٨). وكان حسان بن ثابت، يجلس إلى أطمه، فارغ، ويجلس معه أصحاب له ويضع لهم بساطاً يجلسون عليه، يتطارحون شجون الحديث ويتبادلون فنون الشعر^(٩).

كما كان للأنصار أمكنة خاصة لتداول الرأي والمشورة في الأمور الهامة والعظيمة، وتسمى السقيفة^(١٠). كما كان لسائر المهاجرين من القبائل مجالس خاصة للسمر وتطراح الحديث، وكان الرسول (ص)، يقف عليها ويبازحهم ويضحك معهم^(١١).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ١٩٧.

(٢) ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٦٨، ٢٤٣.

(٣) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٣.

(٤) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٤٨٣.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٣٥١-٣٥٢.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٢١.

(٧) الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة ٢٠١.

(٨) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١.

(٩) الأصفهاني: الأغاني، ج ٤، ص ١٦٠.

(١٠) ابن اسحاق: السيرة، ج ٤، ص ١٠٧١.

ابن كثير: المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٠١. السقف، بالفتح، غناء البيت، والجمع سقف. والسقيفة. كل بناء سقفت به صفة أو شبهها، مما يكون بارزاً. (انظر: ابن سيدة: المحكم، ج ٦، ص ١٤٧).

(١١) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٥٧.

الباب الثاني

التنظيم السياسي الإداري والاجتماعي للقبائل خلال العصر النبوي

● مراحل التنظيم

● تخطيط المدينة ومنازل القبائل فيها خلال العصر النبوي

الفصل الأول

مراحل التنظيم

- مقدمة عن مراحل التعليم
- التنظيم العشائري
- التنظيم الجماعي
- عصبية الوطن أو الأرض

مقدمة عن مراحل التنظيم

ذكر أن النبي (ص)، لما نزل على كلثوم بن الهدم بقاء، بعد هجرته، نادى كلثوم غلامه نجيجا، فتفاءل النبي (ص) باسمه وقال: أنجحت يا أبا بكر^(١). والعبارة التي جاءت عن الرسول (ص)، توحى بما كان في ذهنه من عمل على توطيد أمر الاسلام وتأسيس كيانه في المدينة، وهو الذي لا ينطق عن الهوى. ولذلك فإن الرسول (ص) - بمكة - كان رسولا فحسب، ولكنه بعد أن انتقل إلى المدينة، أصبح كذلك رئيس دولة، يطبق ما يسنه الله من الأنظمة المالية والقانونية والادارية والعسكرية^(٢).

ومن أهم النظم التي أوجدها الرسول في المدينة، تنظيم القبائل العربية، سياسيا واجتماعيا واقتصاديا^(٣). وقد قامت تلك التنظيمات في أساسها، على القبيلة كوحدة رئيسية وفعالة في النشاط العام، وخاصة في الأمور السياسية والحربية. وهذه التنظيمات كانت على شكل مراحل ثلاث، بدت بصفة عامة، وكأنها مراحل انتقالية تتدرج بالقبائل العربية في نقلات معروفة ومدرسة، كان هدفها النهائي وضع العرب أمام مسئولية تأسيس الدولة الاسلامية^(٤). غير أنها كانت، في الواقع، تتداخل مع بعضها، حسب الظروف والأحوال. وذلك معناه أن الهدف من تطبيق تلك التنظيمات، بذلك الشكل، كان تعويد القبائل عليها، وجعلها في محل اختبار وامتحان، لمعرفة مدى تقبل المجتمع لها ولمراقبة رد الفعل لديهم^(٥). ومن أجل ذلك لم يصل إلى علمنا أن الرسول كان يفرض تلك الأنظمة ويلزم الآخرين باتباعها. وندلل على هذا، بما حصل من أحداث اجتهادية في غزوة ذات السلاسل سنة ثمان من الهجرة، حين أمر

(١) ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٥٥٢.

(٢) انظر: القرآن الكريم، في أماكن متفرقة وخصوصا السور المدنية. وانظر أيضا: على (سيد أمير): مختصر تاريخ العرب، ص ١٨ (الترجمة العربية لعفيف البعلبكي، بيروت، ط ٢، ١٩٦٧م)، وانظر أيضا: متولى (د. عبد الحميد): مبادئ نظام الحكم في الاسلام، ج ١، ص ٤٥١ (القاهرة، ١٩٦٦م).

(٣) للنسابة تعاريف عامة في تقسيمهم للقبائل، ومفردها قبيلة، ويقولون في ذلك: الشعوب هي الجماهير التي تفرقت منها العرب ثم تفرقت القبائل من الشعوب، ثم تفرقت العائلات من القبائل، ثم تفرقت البطون من العائلات، ثم تفرقت الافخاذ من البطون، ثم تفرقت الفصائل من الافخاذ. وليس دون الفصائل شيء. وفصيلة الرجل هي رهطه الأدنى وبنو أبيه. وقد قيل بعد الفصيلة: العشيرة، وليس بعد العشيرة شيء. (انظر: ابن عبد البر: الانباه على قبائل الرواه، ص ٤٥).

(٤) متولى: مبادئ نظام الحكم في الاسلام، ج ١، ص ٤٤٨.

(٥) ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٢٥٣.

النبي (ص)، عمرو بن العاص على بلى ونحوهم من قضاة، ثم أمدّه بعدد من المهاجرين أمر عليهم أبا عبيده بن الجراح، فلما قدموا عليه قال: أنا أميركم. فقال المهاجرون: بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيده أمير المهاجرين. فقال: إنما أنتم مددي. فلما رأى ذلك أبو عبيدة، وكان حسن الخلق متبعا لأمر رسول الله (ص) وعهده. فقال: تعلم يا عمرو أن رسول الله (ص) قال لي: إن قدمت على صاحبك فتطاوعا. وإنك إن عصيتني أطعتك^(١).

ولعل كلمة «فتطاوعا» الواردة في النص السابق، تغني عن التوضيح، فهي تبين طبيعة التعامل مع تلك الأنظمة وكيفية أو مقدار استجابة الناس للسير على منهاجها، كما أنها تظهر إلى أي حد كان تطبيقها مرنا.

وقد عرضنا تلك التنظيمات - في هذا البحث - حسب التسلسل الزمني، ما أمكن ذلك، مع مراعاة ما سبق أن ذكر عن تداخل تلك المراحل مع بعضها. وعليه فإن المراحل التنظيمية التي اتبعت في التنظيم السياسي كانت على النحو التالي:

١ - التنظيم العشائري

وهو تنظيم قبلي يقدم البطون والأفخاذ والعشائر على أنها وحدات أو فصائل لها شخصيتها واعتبارها في المجتمع من خلال استقلالها الإداري التابع لسلطة الرسول صلى الله عليه وسلم^(٢). ويقصد من مرحلة التنظيم العشائري توزيع المهام والمسؤوليات على العشائر، وتولى عدة أعمال ووظائف اجتماعية، لم يكن في مقدور الدولة في المدينة أن تقوم بها. بحكم حداثة تكوينها وانصرافها لأمر نشر الإسلام. وذلك التنظيم في طابعه العام، يعد تنظيمًا اجتماعيًا أكثر مما هو عسكري أو سياسي. وقد راعى ذلك التنظيم احترام أو مسايرة ما كانت عليه القبائل العربية من اعتزاز وافتخار بقبيلتها وحمية له^(٣). ولم يكن الرسول (ص) يؤاخذ الناس - في هذه المرحلة - على حميتهم أو فخرهم بقومهم. ذكر أن عكرمة بن أبي جهل، قتل صحرا الأنصاري، فبلغ النبي فضحك. فقال الأنصار: يا رسول الله، اتضحك أن قتل رجل من قومك رجلا من قومنا؟ فقال: ما ذاك أضحكني ولكنه قتله وهو معه في درجته^(٤). كما ذكر أن أحد الصحابة سأل رسول الله (ص): أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟ قال: لا، ولكن من العصبية أن يعينهم على الظلم^(٥).

(١) ابن حجر: نفس المكان.

(٢) ذكر أن الرسول (ص) قال على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا... فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. (انظر: الطبري: جامع البيان، ج ١٨، ص ٩١).

(٣) روى أن أحد الصحابة كتب لأهله في مكة يخبرهم بتجهيز رسول الله (ص) إلى أهل مكة. وقد اعتذر هذا الصحابي - فيما بعد - بأن ليس لأهله عشيرة تدفع عنهم، فقبل عذره. (انظر: ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٣٠٠). كما روى أيضا عن الرسول حديثا يؤكد حقيقة وجود تلك الحمية، وتحكمها في سلوك معظم الناس، إن تركها طائفة يفعلها آخرون. (انظر: مسلم: الصحيح، ج ٢، ص ٦٤٤).

(٤) ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ١٨١.

(٥) ابن خياط: الطبقات، ص ١٢٣ - ١٢٤.

وقد ظلت روح التماسك بين المشتركين في النسب داخل العشيرة أو القوم، باقية إلى عصور متأخرة^(١)

٢ - التنظيم الجماعى

وهو تنظيم قام على أساس قبلى ودينى، ويعد مرحلة ثانية في التنظيم القبلى. وعرف هذا التنظيم بوسائله التى استهدفت أولا الوصول إلى جمع عدة بطون أو عشائريتنسبون إلى قبيلة واحدة، في تنظيم خاص، له استقلاله المحدود، كمرحلة أولية أو تمهيدية، وفي النهاية الوصول إلى جمع عدة قبائل تحت راية واحدة.

ووظائف التنظيم الجماعى أو وسائله أكثر مساسا بالمصلحة العليا، وتمثلت في عمارة المسجد الجامع وعقد المؤاخاة والتنظيمات الحربية أو الرايات. ولقد كان أبرز إنجاز لهذا التنظيم، المستهدف إلغاء كل تمييز قبلى، هو جمع الأوس والخزرج تحت اسم واحد هو الأنصار؛ وسائر من هاجر إليهم بالمهاجرين^(٢).

وتجد أن التنظيم الجماعى، إلى جانب كونه تنظيما اجتماعيا، فهو في نفس الوقت تنظيم حربي أو عسكري، لاشتتاله على ما عرف بتنظيم الرايات.

وكان سعد بن أبى وقاص قد عمل، عند تقسيمه القبائل، في سكنى الكوفة بمثل ذلك التنظيم، في مرحلته الأولى، والتي ستحدث عنها في موضوع عصبية ذوى الارحام. إذ جمع بين القبائل المشتركة في النسب أو المرتبطة بروابط القربى في خطة واحدة من خطط الكوفة المعروفة بالاسباع^(٣).

٣ - عصبية الموطن أو الأرض

وهذا التنظيم هو قمة النضج والاكتمال في تلك التنظيمات. وميزته أنه كان، في ظاهره، تنظيما قبليا تغلب عليه النزعة الدينية وحب الأرض. ويعتمد على صهر الوحدات الجماعية، أى مجموع القبائل، في بوتقة واحدة توجه كل اهتمامها وعصبيتها لحب الأرض التى يعيشون عليها ويبارسون فوقها نشاطهم الدينى والعلمى والثقافى، وغير ذلك من أمور الحياة.

ويعد الفصل الثانى في هذا الباب وهو تخطيط المدينة ومنازل القبائل فيها، تكملة للحديث عن التنظيم الإدارى والاجتماعى للقبائل، إذ أنه يتعرض لذكر خطط القبائل ومنازلها من وجهة نظر إدارية واجتماعية في نفس الوقت. كما يتناول البحث الأسس التى بنى عليها توزيع القبائل في المدينة.

(١) فلهاوزن (يوليوس): تاريخ الدولة العربية، ص ٣ - ٤ (الترجمة العربية لمحمد أبورية، القاهرة، ١٩٥٨م).

(٢) على (سيد أمير): مختصر تاريخ العرب، ص ١٨ (الترجمة العربية لعفيف البعلبكي، بيروت، ط ٢، ١٩٦٧م).

(٣) انظر: الطبرى: تاريخ، ج ٤، ص ٤٥،

ماسنيون: خطط الكوفة، ص ١٠،

الزبيدي (د. محمد حسين): الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة، ص ٤٢ - ٤٣ (القاهرة، ١٩٧٠م).

أ - وظائف التنظيم العشائري

المحنا في المقدمة عن التنظيم الاجتماعي والاداري أن من الأهداف الرئيسية للتنظيم العشائري، هو إشراك القبائل في مسؤوليات الدولة للقيام بعدة أعمال ووظائف كان يتعذر على الدولة - حينذاك - الاضطلاع بها وحدها، خصوصا وأنها في مراحل تكوينها.

ومن أهم وظائف التنظيم العشائري، حصر القبائل، بالحفاظ على انتفاءاتها وأنسابها. وهناك أحاديث تروى عن الرسول (ص) تحث على الاهتمام بالنسب، والحفاظ عليه. منها قوله صلى الله عليه وسلم: تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم^(١). وذكر أن الأشعث بن قيس قال: قدمت على رسول الله (ص) في وفد كنده فقلت: أأستم منا يا رسول الله؟ فقال: لا. نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ولا نتنفى من أبينا^(٢). وفوق كل ذلك ما ذكره الله تعالى، مينا الحكمة في تقسيم الناس إلى شعوب وقبائل^(٣). وقد كان الرسول (ص) يهتم بمعرفة أعداد القبائل وأحوال أهلها^(٤). فكان يسأل الناس عنهم، على علمه بهم. ذكر أن صعصعة بن ناحية المجاشعي، دخل على رسول الله (ص) فقال: كيف علمك بمضرب؟ قال: يا رسول الله أنا أعلم الناس بهم. تميم هامتها وكاهلها الشديد، الذي يوثق به ويحمل عليه، وكنانة وجهها، الذي فيه السمع والبصر، وقيس فرسانها ونجومها وأسد لسانها. فقال النبي (ص): صدقت^(٥).

وقد جزأ الرسول (ص)، الولاية على القبيلة، فكان يولي على العشيرة^(٦). مما يجعلنا نعتقد أن الرسول أراد بذلك تحديد المسؤوليات وحصرها في وحدات صغيرة لتسهيل معرفة جميع أحوال القبائل وسائر شئونها العامة والخاصة، بالإضافة إلى أن تعدد الزعامات سيخلق روح المنافسة في المجال الديني، بين العشائر لاستباق صالح الأعمال والخيرات العائد نفعها - ولا ريب - على المجتمع كله.

ولقد أثمرت تلك الخطة الحكيمة، فكان من ذلك أن شاعر جهينه عام الفتح جعل معرض افتخاره بين القبائل، في الاطار الاسلامي وحدوده، حيث افتخر بما قدمته جهينه من عمل لنصرة الاسلام والجهاد دونه^(٧). وكانت همدان

(١) ابن عبد البر: الأنباه على قبائل الرواه، ص ٤٢ - ٤٣.

(٢) ابن عبد البر: نفس المصدر، ص ٦٦ - ٦٧.

(٣) قال تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم

خبير» الحجرات: ١٣.

(٤) ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٦٦٢.

(٥) ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ١٨٦.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١ ص ٥٥٩.

(٧) يقول بشرة بن عرفة بن الخشاش الجهني:

ونحن غداة الفتح عند محمد * * * * * طلعا أمام الناس ألفا مقدما

(انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ١٥٢).

حين علمت ب وفاة النبي (ص) همت بالخروج على سلطة المدينة، فنهاهم مران الهمدانى ، فقال : يا معشر همدان إنكم لم تقاتلوا رسول الله ولم يقاتلكم فاصبتم بذلك الخط ، ولستم العافية ، ولم يعمكم بلعنة أوائلكم أو تقطع دابركم . وقد سبقكم قوم إلى الاسلام وسبقتم قوما ، فإن تمسكتم لحقتكم من سبقكم وإن أضعتموه لحقتكم من سبقتموه . فأجابوه إلى ما أحب^(١) .

وكان من مزايا التنظيم العشائرى ، أن باستطاعة السلطة أو الدولة أن تعرف جميع أفراد العشيرة وتتصل بهم عن طريق كبيرهم أو عريفهم . وقد استغلت تلك الميزة ، فى دعوة القبائل إلى الاسلام ، حيث كان الرسول يكتب لواحد من أبناء العشيرة ، حين يقدم عليه باسلامه ، يؤمره على قومه^(٢) ، يدعوهم إلى الاسلام^(٣) . وقد أسلم على أيدي أولئك الأمراء ، كثير من البطون والعشائر^(٤) .

وبالإضافة إلى سهولة انتشار الاسلام بين تلك الوحدات الصغيرة ، فقد كان انتشار العلم ودراسة القرآن والسنة بينهم أكثر سهولة . وقد تولى ذلك الأمر أئمة المساجد ، وكان اختيارهم - فى الغالب - من أبناء العشيرة^(٥) . وكانوا يقرءونهم القرآن ويشرحون لهم مبهمه^(٦) . وقد عمل بعضهم على التعمق فى دراسة القرآن وجمعه على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم^(٧) .

وبالإضافة إلى جهود أئمة العشائر والقبائل ، كان فى المدينة عدد كبير من كبار الصحابة عملوا على نشر العلم والفقه بين الناس ، على عهد الرسول (ص) ، كأبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وأبى بن كعب وعبد الله بن عوف وعبد الله بن مسعود وغيرهم^(٨) .

وكان للمسجد دور عظيم فى توجيه حياة القبائل . حيث كان لكل بطن ، أو عشيرة مسجد ، ينسب إليها^(٩) ، تؤدى فيه شعائر دينها ، وتناقش فيه أمورها الدينية والدنيوية . وقد ذكر أن معاذ بن جبل ، كان إمام قومه فى حياة النبي

(١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٨٨ .

(٢) البخارى: تاريخ، ج ٣، ص ٢٧٧ .

(٣) ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٤) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٦٠ . ج ٢، ص ٢٦، ٢٢٥ - ٢٦، ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٥٤ - ٣٥٥، ٤٥٢، ج ٣، ص ٣٣ - ٣٤ .

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٤٩٩، ج ٣، ص ٢٩١، ٣٣ - ٣٤ .

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٣٦٦ .

(٨) ابن سعد: الطبقات، ج ٢، ص ٣٣٥ - ٤٣ .

(٩) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩٩، ج ٣، ص ٣٨٧ .

الكلاعى: الاكتفاء، ج ١، ص ٤٦٠ ،

السمهودى: الوفاء، ج ٢، ص ٧٥٧ .

صلى الله عليه وسلم، فكان يصلى معه، حرصاً على ألا يفوته شيء من القرآن والسنة، ثم ينصرف إلى قومه فيصلى بهم^(١).

ولأن المسجد كان مركز حياة القبيلة الديني والاجتماعي، لذا فقد عمل الرسول (ص)، على تأسيس مسجد قباء في بني عمرو بن عوف، مع أن إقامته بينهم لم تكن طويلة^(٢). كما أنه شرع في بناء مسجد المدينة حال وصوله من قباء^(٣). وكانت أوامر الرسول (ص) لوفود القبائل، حين يرجعون إلى بلادهم مسلمين، أن يهتموا ببناء مساجدهم ويولوها عظيم عنايتهم^(٤).

ومن وظائف التنظيم العشائري المناطة بالعشيرة ذات الطابع العسكري، واجب إمداد الجيش الاسلامي بعدد من الرايات والألوية^(٥)، وكانت الراية تجمع عدداً من المقاتلة أقلهم عشرة رجال^(٦)، وحدهم النهائي ألف رجل تحت كل راية، أو لواء^(٧). وقد حددت هذه الوظيفة الحربية للتنظيم العشائري مسؤولية القبائل أمام واجبها الديني والقبلي. إذ أن في تجزئة القبائل إلى عشائر لها اعتبارها ووظيفتها، يعد في رأينا، مراعاة حكيمة من الرسول (ص)، لجانب مهم في السلوك القبلي وهو العصبية القبلية والافتخار بالعشيرة^(٨). حتى أن الرجل منهم قد يقاتل مع من هم ضد دينه أو مبدأه طالما أن مشاركته تلك دفاع عن حسيبه^(٩).

(١) ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ٢٩.

(٢) ابن فضل الله العمري: مسالك الابصار، ص ١٢٧.

الكلاعي: الاكتفاء، ج ١، ص ٤٦٠.

(٣) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٤٤ - ٣٤٥.

(٤) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٦٠، ج ٢، ص ٣٥٥.

(٥) الواقدي: المغازي، ج ٢، ص ٨٠٠ - ٨٠١ (طبعة اكسفورد).

(٦) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٢١٩.

(٧) الواقدي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٠٠ (طبعة اكسفورد).

(٨) ابن اسحاق: السيرة، ج ٤، ص ٩٢٥.

ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٤٣ - ٤٤. وفي هذا المجال يذكر، أن وفد هوازن قال للرسول (ص)، بعد معركة حنين: إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك. فامتن علينا. (انظر: ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٤، ص ٩٢٥).

(٩) ذكر أن قرمان بن الحرث، حليف بني ظفر، كان منافقاً وكان عزيزاً في بني ظفر، وحافظاً لهم، ومحبا لهم، وكان شجاعاً يعرف بذلك في الحروب. فلما كان يوم أحد، قاتل قتالاً شديداً فقتل ستة أو سبعة حتى أصابته الجراحة، فقبل له: هنيئاً لك بالجنة يا أبا الغيداق. قال: جنة من حرمل. والله ما قاتلنا إلا على الأحساب. (انظر: ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٣٥). وذكر أيضاً: أن أحد الصحابة وهو عبد الله ابن قيس من بني نصر بن رباب، زعموا أنه قال: «يا رسول الله هلكت بنو رباب، لما استحر القتل فيهم، فذكروا أن الرسول (ص) قال: اللهم أجبر مصيبتهم. قالها رسول الله (ص) مراعاة لعاطفة ذلك الصحابي نحو قبيلته التي كانت على شركها. (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٦١).

وقد أبقى الرسول (ص) - شكلياً - على النظم القبلية الاجتماعية والعسكرية، فكان لكل عشيرة أورهط - حسب كثرتهم - راية أولواء^(١)، أورايتان^(٢)، أوراوية ولواء^(٣)، أولواءان^(٤)، أو أربعة ألوية^(٥). وكان يحمل كل راية، أو أكثر، زعيم أو عدة زعماء، حسب عدد الرايات، وكان لاولئك الزعماء كامل الحرية في تصريف أمورهم، إلا فيما يتعارض مع خطة المعركة العامة^(٦). وكان الرسول (ص) يشاور أفراد العشيرة فيمن يحمل رايتهم^(٧). ولكل عشيرة شعار، ينادون به في الحرب ويعرفون به^(٨).

أما عن تجهيز العشيرة أثناء الحرب، فهو أمر ملقى على عاتق أفرادها أنفسهم، فكان على الرجل، عرفاً، أن يعد سلاحه ويربط خيله في سبيل الله^(٩)، ويؤمن طعامه وشرابه^(١٠). ولم يأمر الرسول الناس بأن يجهزوا أنفسهم، إلا عام تبوك، وكان عام عسرة ومحل، وقد سمي ذلك الجيش باسم جيش العسرة^(١١). فقد حض الرسول (ص)، أهل الغنى - في ذلك العام - على النفقة والحملان في سبيل الله. فأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة، لم ينفق أحد مثلها، تقدر بألف دينار^(١٢). ولم يفرض الاسلام على المؤمنين أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله - بادئ الأمر - إلا أننا نجد في القرآن الكريم ثناء على من يفعل منهم ذلك، ووعدهم أجرهم عند ربهم^(١٣). وفي بعض الآيات ورد أمر من الله للمسلمين بأن ينفقوا في مغازيهم، في سبيل الله^(١٤).

(١) النووي: تهذيب الأسماء واللغات، ج ١، ص ٢٠٣،

ابن الاثير: أسد الغابة، ج ١، ص ٦١،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٥٢، ج ٣، ص ٢٣٧، ٢٤٧، ٣٤٤، ج ٤، ص ٤١٦،

ابن قدامة: الاستبصار، ورقة رقم ١٥، ٢٩، ٣٦.

(٢) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٤٦.

(٣) ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٢٦-٢٧، ج ٤، ص ١٠١-١٠٢.

(٤) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ١٦٤، ٢٤٧، ج ٣، ص ٥٦٥.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٤٩٩، ٥٦٥، ج ٢، ص ٩٩، ٢٨٠، ٤٣٩.

(٦) ابن اسحاق: السيرة، ج ٤، ص ٩٢٦،

النووي: تهذيب الأسماء واللغات، ج ٢، ص ٢٤٣،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢٥، ٥٦١.

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٣٠٤.

(٨) يذكر أنه حين بعث الرسول (ص) طلحة، سرية في عشرة. قال: شعاركم، «يا عشرة». (انظر: ابن سعد: الطبقات، ج ٣،

ص ٢١٩، ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٥١).

(٩) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٤٤٤-٤٤٥.

(١٠) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٠٣.

(١١) ابن اسحاق: نفس المصدر، ج ٤، ص ٩٤٥.

(١٢) ابن اسحاق: السيرة، ج ٤، ص ٩٤٥.

(١٣) قال تعالى «الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون». البقرة: ٢٦٢. والانفاق في سبيل الله يعني هنا. إعانة المجاهدين في سبيل الله بالانفاق عليهم وفي حولانهم وغير ذلك من مؤنهم. (انظر: الطبري: جامع البيان، ج ٣، ص ٦٢).

(١٤) قال تعالى: «وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين». البقرة: ١٩٥، وأنظر أيضاً:

الطبري: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠٠-٢٠١.

وكانت أعطيات المقاتلة - بادية الأمر - عبارة عن ما يحصلون عليه من طريق الأسلاب والانفال . ذكر أن منادى الرسول (ص)، يوم بدر، نادى في الناس : «من قتل قتيلا فله سلبه، ومن أسر أسيرا فهو له . وأمر بما وجد في العسكر وما أخذوا بغير قتال فقسمه بينهم^(١)» .

وبعد أمر جباية الصدقة وشئون المعاقلة، من أجل الوظائف الاجتماعية للتنظيم العشائري . فالعشيرة هي المسؤلة عن جباية صدقتها وذلك عن طريق استعمال أحد أبنائها على ذلك^(٢) أو استعمال من يمت لها بصلة قرابة، كابن الأخت^(٣) . وهو في رأينا تدبير محكم ورشيد^(٤)، لأنه جعل من المستبعد حدوث تدمير قبلي بسبب جباية الصدقة، على اعتبار أنهم لم يعتادوا بعد على دفعها، مما يجعلهم ينظرون إليها، على أنها نوع من الضريبة أو الأتاوة . أما وقد كان الجابي أحد أبنائها فلم يبق في الأمر ما يمس الكرامة أو يثير الحفيظة . ثم إن استعمال أحد أبناء القبيلة يعتبر أمرا مفيدا جدا للقبيلة نفسها ولبيت مال المسلمين . إذ أن الجابي في هذه الحالة، يفترض فيه معرفته لكل فرد في العشيرة، مما يبعد إمكانية حصول ظلم على الفقراء أو محاباة الأغنياء، وذلك لانتفاء عامل الجهل أو قلة الفطنة، وكان الرسول (ص) قد كتب لخزيمة بن عاصم ابن قطن العكلى، حين ولاه على صدقات قومه، يذكره فيه ألا يظلم أو يضيع أحدا، بقوله : «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله لخزيمة بن عاصم، إني بعثتك ساعيا على قومك فلا يضاموا ولا يظلموا^(٥)» . وكان الرسول (ص) يستعمل على صدقات القبيلة، كلما كانت كثيرة العدد، أكثر من عامل^(٦) .

وكما أن القبيلة ملزمة عرفيا برعاية أفرادها^(٧) . كذلك ألزم دستور المدينة، جميع العشائر، أن يتعاقلوا بينهم معاقلهم الأولى، وهم يقدون عانيهم بالمعروف^(٨) . ومن أجل ذلك فإن الذي نرجحه حول دواعي اسناد أمر جباية الصدقة إلى العشيرة، هو للتيسير عليها في الشئون المالية بعد أن اسندت إليها مسؤولية المعاقلة، أى دفع الديات عن أبنائها المعسرين^(٩) . وقد ذكر أن النبي (ص) أتى بامرأتين كانتا عند رجل من هذيل يقال له حمل بن مالك، فضربت

(١) الواقدي: المغازي، ص ٧٣ (الطبعة الأولى).

(٢) النوى: تهذيب الأسماء واللغات، ج ١، ص ١٩٣،

ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٢٥١، ٣٠١، ٣٥٥، ج ٢، ص ٦٦، ٢٩٨، ج ٣، ص ٢٧-٢٨، ٤٠٠، ٦١٥، ج

٤، ص ١٠٨-١٠٩ .

(٣) استعمل النبي (ص)، يزيد بن أبي سفيان بن صخرين حرب بن أمية بن عبد شمس، على صدقات بني فراس، وكانوا

أخواله . (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٦٥٦-٦٥٧) .

(٤) وقد سار على هذا الأمر عمر بن الخطاب، في خلافته إلى درجة أنه استعمل على صدقات طيء، أبو زيد الطائي، الشاعر وكان

نصرانيا . (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٤، ص ٨٠) .

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٤٢٨ .

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٩٠، ١٣٦، ١٨٧،

الاصفهانى: الاغانى، ج ١٤، ص ٦٦-٧٢ .

(٧) ذكر أن طلحة بن عبيد الله التيمي، وكان كثير الغنى، كان لا يدع أحدا من بنى تيم، عائلا، إلا كفاه مؤنته ومؤنة عياله،

وزوج اياماهم وأخدم عائلهم وقضى دين غارمهم . (انظر: ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٢٢١) .

(٨) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٤٨-٣٤٩ . (انظر نص الدستور كاملا في الملاحق) .

(٩) ابن اسحاق: نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٤٨-٣٥١،

ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٥٣٥، ج ٣، ص ٢٧-٢٨ .

إحداهما الأخرى بعمود خباء فألقت جنينها ميتا. فأتى مع الضاربة أخ لها يقال له عمران بن عويم، فقضى عليه رسول الله بالديه. فقال عمران: يابني الله إن لها اثنين (أى ولدين) هما سادة الحى، وهما أحق أن يعقلا عن أمهما. قال: أنت أحق أن تعقل عن أختك من ولدها. فقال: يا نبي الله مالى شىء اعقل منه. عندئذ قال النبي (ص): يا حبل، وكان على صدقات هذيل، اقبض من تحت يدك من صدقات هذيل عشرين ومائة شاه. ففعل^(١). وإلى جانب قيام العشيرة بأمر المعاقلة كانت تتكفل برعاية أفرادها في حالات عسرهم^(٢)، متأسية بحديث الرسول (ص) حين قال: «ألا كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته»^(٣).

وقد تطلب وجود كل تلك المهام المناطة بالعشيرة، ضرورة وجود عريف أو سيد توكل إليه مهمة رئاسة العشيرة لضمان تنفيذ تلك المهام.

ب - رئاسة التنظيم العشائري وعمل النقيب

كان على كل عشيرة في المدينة المنورة، عريف أو سيد، وهو دون الرئيس يختاره الرسول (ص) ويعينه بنفسه أحيانا^(٤). ذكروا أن الرسول (ص) سأل بنى سلمة، من الأنصار، من سيدكم؟ فقالوا: الجند بن قيس، على بخل فيه. فقال الرسول (ص) وأى داء أدوا من البخل، بل سيدكم الجعد الأبيض^(٥). ومن ذلك نرى ان اختيار عريف العشيرة أو سيدها كان يتم من قبل العشيرة نفسها، وقد يرشحه الرسول (ص) ويعينه^(٦). وتلك الحالة متبعة بشكل واضح في عشائر المدينة. أما إذا كانت القبيلة أو العشيرة خارج المدينة، فإن الرسول (ص) يختار بنفسه العامل، وهو اللفظ المستعمل في تلك الحالة^(٧). وقد يضيف الرسول (ص) إلى مهام العامل أمور الحرب وجباية الصدقة^(٨)، وأحيانا تفصل أمور الولاية أو العمالة، عن أمر جباية الصدقة والحرب. فقد ذكر أن سعي بن خفاف التميمي، كان

(١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٩٩، ج ٣، ص ٦٥٧ - ٦٥٨.

(٣) مسلم: الصحيح، ج ٣، ص ١٤٥٩.

(٤) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٤٩٦، ٢٥١.

الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة ٧٤. وقد ظلت لفظة عريف تستعمل في زمن الحجاج. (انظر: ابن حجر: المصدر

السابق، ج ١، ص ١٨١).

(٥) قيل إن المراد بالجعد الأبيض، عمرو بن الجموح، وقيل بشر بن البراء. (انظر: ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٣١٦، ابن

قدامة: الاستبصار، ورقة ٣١، ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٢٩.

(٦) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٦.

ابن قدامة: المصدر السابق، ورقة ٣١.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥١، ج ٢، ص ٥٢٩.

(٧) ابن عبد البر: الاستيعاب، (هامش كتاب الاصابة، ج ١)، ص ١٠٧.

(٨) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

عاملًا للنبي على بطون تميم^(١). والمعلوم لدينا أن على كل بطن من بطون تميم - تقريباً - كان يوجد جابيا للصدقة^(٢). وكانت تولية العامل تعقد بكتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣).

وقد روعي في شخصية العريف أو السيد توفر عدة مقومات أساسية تجعل منه كفؤاً للرئاسة. منها أن يكون له شرف وسؤدد قديم في الجاهلية^(٤). وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: خياركم في الجاهلية، خياركم في الإسلام، إذا فقهوا^(٥). وكان الرسول (ص) قد سأل الأزد، يوم الطائف، عمن يريدون أن يحمل رأيهم، فقالوا: من كان يحملها في الجاهلية^(٦). كما يجب أن تتوفر في السيد عدة خلال منها الكرم^(٧)، والعلم^(٨)، والتواضع^(٩).

أما بالنسبة للنقيب، فقد كانت بداية ظهور مهمته في ليلة العقبة الأخيرة، حين وافى رسول الله (ص)، بمكة سبعون رجلاً من الأوس والخزرج، وبايعوه على أن ينصروه بالمدينة، فاختر منهم اثني عشر نقيباً^(١٠). وكانت وظيفة

(١) ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٥٣.

(٢) وكان ممن ولى جباية صدقات بطون تميم هم: شبر بن صفوان بن عمرو بن الكاتب بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم التميمي. (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ١٣٦). ومنهم أيضاً، سهل بن منجاب التميمي. (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ١٨٧). والهيثم التميمي. (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٣٦٠). ومنهم أيضاً: قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر بن مقاعس التميمي. (انظر: الاصفهاني: الاغانى، ج ١٤، ص ٦٦-٧٢). ومنهم أيضاً، عكراش ابن ذؤيب بن حرقوص بن جعيدة التميمي السعدي. (انظر: ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٩٦).

(٣) ذكر صيفي بن عامر، سيد بني ثعلبة، أن النبي (ص) كتب له كتاباً، فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لصيفي بن عامر على بني ثعلبة بن عامر من أسلم منهم وأقام الصلاة وآتى الزكاة وأعطى خمس المغنم وسهم النبي والصفى فهو آمن بأمان الله». (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ١٩٦-١٩٧).

(٤) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤١٠، ٦٥٥-٦٥٦.

(٥) مسلم: الصحيح، ج ٤، ص ١٩٥٨.

(٦) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٦١.

(٧) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣١٦.

ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ٣١.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٢٩.

(٨) ابن قدامة: المصدر السابق، ورقة ١٤.

(٩) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٨٠.

(١٠) وهؤلاء النقباء هم: أسعد بن زرارة، وسعد بن عباد، وسعد بن الربيع، وسعد بن خيثمة، والمنذر بن عمرو، وعبد الله بن رواحة، والبراء بن معرور، وأبو الهيثم بن التيهان، وأسيد بن حضير، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وعبادة بن الصامت، ورافع بن مالك. (انظر: ابن قدامة: المصدر السابق، ورقة ١٠-١١). وكان صاحب مخطوطة المبعث والمغازي، قد فصل في ذكرهم فقال: «فقال رسول الله (ص) - مخاطباً أسعد بن زرارة من بني النجار - فأنت نقيب على قومك. واخذ منهم اثني عشر نقيباً: فكان نقيبى بنى سلمة، البراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام، وكان نقيب بنى ساعدة المنذر ابن عمرو بن خنيس وسعد بن عباد بن دليم، وكان نقيب بنى زريق، رافع ابن مالك بن العجلان، وكان نقيبى بنى الحرث بن الخزرج، عبد الله بن رواحة وسعد بن الربيع، وكان نقيب القوافل عبادة بن الصامت، وكان نقيبى بنى عبد الأشهل أسيد بن حضير وأبو الهيثم بن التيهان، وكان نقيب بنى عمرو بن عوف سعد بن خيثمة بن الحرث (انظر: أبو القاسم، ورقة ٥٨-٥٩). وكان بن هشام قد ذكر نسب سعد بن خيثمة بن الحرث بقوله «ونسبه ابن اسحاق في بنى عمرو بن عوف وهو من بنى غنم بن السلم، لأنه ربما كانت دعوة الرجل في القوم ويكون فيهم فينسب إليهم. (انظر ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٢).

وقد ذكر النقباء ابن اسحاق إلا أنه لم يعد فيهم أبا الهيثم بن التيهان، وعد فيهم رفاعه بن عبد المنذر بن زبير، من بنى عمرو بن عوف بن مالك. (انظر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٠٣-٣٠٤). وفي ذلك أيضاً يقول بن هشام: «واهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان، ولا يعدون رفاعه. (انظر: ابن اسحاق: نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٠٤-٣٠٥).

والنقيب: في كلام العرب، كالعريف على القوم، غير أنه فوق العريف. (انظر: الطبري: جامع البيان، ج ٦، ص ١٤٨).

النقباء تنحصر في كونهم كفلاء على قومهم بما كان منهم ، ككفالة الحواريين بعيسى بن مريم^(١) . أو كما ذكر ابن اسحاق قول الرسول (ص) : «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي» يعنى المسلمين^(٢) . وذلك يدل على أن مهمة النقيب كانت الانابة عن العشيرة في عقد وحل الأمور ، وأنه بمثابة الضامن والشاهد عليهم^(٣) . ولذلك لما مات أبوامامة أسعد بن زرارة ، وكان نقيب بنى النجار ، قالوا لرسول الله : اجعل منا رجلا مكانه ، يقيم من أمرنا ما كان يقيم^(٤) . ثم إن الرسول (ص) ، لما أراد أن يؤكد بيعة السبعين ، من أهل العقبة ، اكتفى بمبايعة النقباء وحدهم . وكان المفروض أن يبايع الجميع لولا الرغبة في زيادة الحذر لأن الأمر كان سرا عن كفار قريش^(٥) . وذكر أن أم عمارة قالت : رجعنا من بيعة العقبة إلى رجالنا فلقينا رجلين من قومنا وهما سليط بن عمرو وأبو داود المازنى ، يريدان أن يحضرا البيعة ، فوجدا القوم قد بايعوه ، فبايعا بعد ذلك ، أسعد بن زرارة ، وكان رأس النقباء^(٦) . وكان ذلك تطبيقا عمليا لمهام النقيب الرئيسية التى توخاها الرسول (ص) ، حين نقبهم ، بأن يكونوا كفلاء على قومهم بما كان منهم ، فبايعوا الناس في المدينة على الاسلام باسم رسول الله (ص) . وما يؤكد أن مهمة النقباء كانت تمثيل الرسول في المدينة والانابة عن العشيرة عند الرسول ، ما رأيناه من عدم تنقيب نقباء جدد بعد نقباء أهل العقبة ، بدليل أنه لما توفي أسعد بن زرارة ، والمسجد يبنى ، أى في الأشهر الأولى للهجرة^(٧) ، جاء بنو النجار إلى الرسول (ص) ، فقالوا : قد مات نقيبنا فنقب علينا . فقال الرسول (ص) : أنا نقيبكم . ولم ينقب عليهم أحدا^(٨) .

ونخلص من ذلك كله إلى أن التنظيم العشائرى في مجتمع المدينة كان عبارة عن مؤسسة قبلية ، تقوم بعدة مهام تخدم العشيرة كوحدة من وحدات المجتمع . ومهام العشيرة كانت تنحصر في الأمور الاجتماعية الممثلة في رعاية أفراد العشيرة وتفقد أحوالهم ، وتمتد إلى الأمور الدينية القائمة على نشر الاسلام والعلم ، بين العشيرة ، وإلى النواحي المالية مثل جباية الصدقة وصرفها على مستحقيها ، وإلى النواحي العسكرية أو التعبئة العامة ، بجمع العشيرة تحت راية واحدة . كما نستخلص مما سبق ذكره ، أن عريف العشيرة أو سيدها ، كان ينتخب من أبناء العشيرة نفسها ، ويكون العريف - عادة كما أشرنا - ممن حاز على عدة خلال ومناقب حميدة ، أهله للرئاسة . وأن وظيفة النقيب كانت مهمة وقتية تلاشت قيمتها بعد هجرة الرسول (ص) ، إلى المدينة . لأن النقيب إنما كان كفيلا على قومه ، بأخذ بيعتهم على الاسلام وإيواء الرسول (ص) ، وأصحابه ونصرتهم في المدينة .

(١) أبو القاسم : المبعث والمغزى ، ورقة ٥٨ (مكتبة كوبريلى ، استانبول) .

(٢) السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ .

(٣) الطبرى : جامع البيان ، ج ٦ ، ص ١٤٨ .

(٤) ابن اسحاق : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٥٤ .

(٥) ابن الحاج : رفع الخفاء ، ورقة ٦٥ .

(٦) ابن حجر : الاصابة ، ج ٢ ، ص ٧٢ ، ج ٤ ، ص ٥٨ .

(٧) ابن اسحاق : السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٨) ابن اسحاق : نفس المكان ،

ابن قدامه : الاستبصار ، ورقة ١١ .

اهتم الاسلام كثيرا بأمر الجماعة واتحاد الكلمة^(١). وروى عن الرسول (ص)، أنه قال: «إن أمتي ستفترق على اثنين وسبعين فرقة، كلهم في النار إلا واحدة، قال: فقليل يارسول الله وما هذه الواحدة؟ قال: فقبض يده، وقال: الجماعة^(٢)».

وسائل ووظائف التنظيم الجماعي

أولا: إقامة المسجد الجامع وسط المدينة

كان للمسجد في المدينة، إلى جانب وظائفه الدينية، وظائف اجتماعية. فهو لذى الحاجة والعدة والليلة المطيرة والليلة الشاتية^(٣). وقد شرع الرسول (ص)، حال قدومه المدينة، في بناء المسجد الجامع^(٤)، وحرص على أن يكون موقعه في وسط حرم المدينة^(٥)، المحدود بمقدار بريد في بريد ما بين جبل عير إلى جبل ثور، من الجنوب إلى الشمال، وما بين لابتيتها، أى حرتيها الشرقية والغربية^(٦). وقد يسر موقع المسجد المتوسط هذا على جميع المسلمين مهمة الاتصال بالرسول (ص)، واللقاء به في كل الأوقات فقد ذكر عن أنس أنه قال: كنا نصلى العصر ثم يذهب الذهاب إلى قباء، فيأتيهم والشمس مرتفعة^(٧). وقيل أن الرسول (ص)، كان يأتي قباء راكبا وماشيا^(٨). كما أن بنى سلمة، وكانوا في الطرف الشمالى الغربى للمدينة، يحرصون على أداء الصلاة جماعة في المسجد النبوى^(٩). ومن ذلك نستدل على سهولة الاتصال بأطراف المدينة من مركزها وهو المسجد النبوى.

وقد رأى الرسول (ص)، ألا يكون لأحد من القبائل فضل التفرد ببناء المسجد، أو تملك أرضه. ولذلك طلب من بنى النجار أن يثامنوه بحائطهم، لبناء المسجد عليه، ولم يقبل عرضهم، في أن يعطوه الحائط بدون ثمن. فابتاعه بعشرة دنانير^(١٠). وقيل عوضهم رسول الله (ص)، عنه بنخل في بنى بياضة^(١١). وكان الصحابة لما كثروا قالوا للرسول:

(١) قال تعالى: «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا». آل عمران: ١٠٣.

(٢) الطبرى: جامع البيان، ج ٤، ص ٣٢-٣٣.

(٣) الطبرى: نفس المصدر، ج ١١، ص ٢٢-٢٣.

(٤) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٤٣-٣٤٥.

ابن فضل الله: مسالك الابصار، ج ١، ص ١٢٣،

الكلاعى: الاكتفاء، ج ١، ص ٤٦١.

(٥) الديار بكرى: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٤١.

(٦) كبريت: الجواهر الثمينة، ورقة ٨.

(٧) مالك: الموطأ، ج ١، ص ٩.

(٨) مالك: نفس المصدر، ج ١، ص ١٦٧.

(٩) السمهودى: الوفاء، ج ١، ص ٢٠٣.

(١٠) البلاذرى: فتوح البلدان، ج ١، ص ٥.

العصامى: سمط النجوم العوالى، ج ١، ص ٣١٢.

(١١) الذهبى: تاريخ، ج ١، ص ٢٠٢.

اجعل لنا مسجدا^(١)، وكانت تلك رغبة الرسول في أن يكون للمسلمين مسجد جامع، يجمع بالاسلام، الأحمر والأسود^(٢). ولهذا حرص أن يعمل جميع الصحابة في بنائه^(٣)، ووزعهم جماعات ووحدانا، في العمل لحمل الماء من الآبار القريبة^(٤)، ولعجن الطين وضرب اللبن^(٥)، ومنهم من كان ينقل الصخور ويحمل اللبن^(٦). وقد شارك الرسول (ص)، الصحابة في نقل اللبن، احتسابا وترغيبا في الخير، ليعمل الناس كلهم ولا يرغب أحد بنفسه عن نفس رسول الله، صلى الله عليه وسلم^(٧).

وعرف المسجد النبوي، على عهد النبي (ص)، باسم مسجد المدينة^(٨)، مما يؤكد أن الغرض من بنائه، هو أن يكون مسجدا جامعاً للمسلمين في المدينة. وكانت القبائل تحرص على أن تؤدي الصلاة فيه، حتى ولو كانت منازلها بعيدة - بعض الشيء - عنه، مثل بني سلمة، الذين فكروا في بيع بيوتهم والنزول قرب المسجد، لولا أن الرسول (ص)، أمرهم بأن يلزموها^(٩)، وفي هذا أيضا، يذكر أن رجلا من الانصار كان بيته أقصى بيت في المدينة. ومع ذلك لم يكن تخطئه الصلاة مع رسول الله (ص)، في المسجد النبوي^(١٠). ومما يظهر أهمية المسجد ودوره الاجتماعي، في حياة أهل المدينة، ما ذكر من أن الرسول (ص)، أمر بضرب فسطاط، وهو الخيمة الكبيرة، في المسجد، لسعد بن معاذ بعد أن أصيب يوم الاحزاب. فكان يعود في كل يوم حتى توفي سنة خمس من الهجرة، وكان مصرعه بعد الخندق، وبعد يوم بنى قريظة بليال^(١١).

ولم يكن المسجد عند تأسيسه كبيرا، إذ كان طوله سبعين ذراعا في عرض ستين أويزيد قليلا^(١٢)؛ ثم زيد عليه، لما

(١) مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ٥.

(٢) يذكر أن رجلا من الانصار، يقال له أبيض، لما دخل المسجد ورأى الناس يصلون قال: «الحمد لله الذي جمع بالاسلام الأحمر والأسود». (انظر: ابن الاثير: أسد الغابة، ج ١، ص ٤٦).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، م ٢، ج ٣، ص ٢١٧.

مجهول: المصدر السابق، ورقة ٥.

(٤) مجهول: نفس المكان.

(٥) مجهول: نفس المكان.

(٦) ابن كثير: المصدر السابق، م ٢، ج ٣، ص ٢١٧.

مجهول: المصدر السابق، ورقة ٥.

(٧) مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ٥.

(٨) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٥٦٠، ج ٣، ص ٤٣٠.

مجهول: المصدر السابق، ورقة ٤.

(٩) مسلم: الصحيح، ج ١، ص ٤٦١-٤٦٢.

السمهودي: الوفاء، ج ١، ص ٢٠٣.

(١٠) مسلم: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٦١.

(١١) ابن عبد البر: الاستيعاب. (هامش كتاب الإصابة، ج ٢)، ص ٢٨.

(١٢) العدوي: أحوال مكة والمدينة، ج ٢، ورقة ١٣٥.

ابن فضل الله: مسالك الابصار، ج ١، ص ١٢٤.

السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ١، ص ٣١.

ضاق على أهله، فبلغ أقل من مائة في مائة^(١). وقد وصفه العجيمي بقوله: «فكان في ابتدائه غير مربع، وكان مقداره فيما بين جهتي الجنوب، وهي القبلة، والشمال، وهي الشامية المقابلة لها، سبعين ذراعا من الجانبين، ومقداره فيما بين جهتي المشرق، وهي التي فيها الحرة الشرقية، والمغرب، المقابلة لها، ستين ذراعا من الجانبين». ثم زاد فيه صلى الله عليه وسلم، في جهاته كلها، وجعله مربعا كل جهة مئة ذراع. وكان جداره من جهة المشرق داخلا لجهة القبر الشريف. وكانت سواريه من جذوع النخل، وسقفه من جريد النخل مع قليل من الطين بحيث لا يمنع ماء المطر، قريبا من رأس المصلى بحيث لورفع يده لمسه، وكان له درجة في وسطه، وكان جدارانه مبنية بلبن مضروب من بقيع الغرقد، قبل جعله مقبرة. وكان جعل في أساسه عند البناء الثاني نحو ثلاثة أذرع من الحجر. وكان له ثلاثة أبواب إحداها شرقي، في محاذة باب النساء الآن، ويقال له باب آل عثمان. وثانيها غربي في مقابل باب الرحمة الآن، ويقال له باب عاتكة. وثالثها جنوبي، في الجهة القبليّة أقرب الى الجهة الغربية. ثم لما حولت القبلة سده وجعل بابا في مقابلته من لجهة الشامية^(٢). وكان خلوا من الزخرفة والنقوش^(٣). وارتفاعه في نحو سبعة أذرع أو خمسة^(٤). وقد رفض الرسول (ص)، أن يطين السقف، لأن الأمر أعجل من ذلك^(٥). أو كما قيل أقرب من ذلك^(٦). والجملة السابقة الواردة في النص، بأن الأمر أعجل من ذلك - أي من تطين السقف - تعبر عن الوضع القائم في المدينة، عند بناء المسجد، فإنه من غير المعقول أن يصرفوا كثيرا من الوقت في أشياء غير ضرورية. ثم أن المسلمين جميعهم كانوا يشاركون في بناء المسجد. والأحرى بهم أن يجندوا جميع جهودهم للأمر العظيم وهو نشر الاسلام وحمايته من المتربصين به.

وكان الرسول قد أشرك كثيرا من أهل الخبرة والمعرفة في صناعة البناء، من معظم الأقطار، فاستعان برجل من حضرموت، وكان يحسن عجن الطين^(٧)، وبرجل من اليمامة، يقال له طلق من بنى حنيفة. قال: بنيت المسجد مع رسول الله (ص)، فكان يقول: قربوا اليمامي من الطين فإنه أحسنكم له مسكا وأشدكم له منكبا^(٨).

ومما سبق نرى أن المسجد الجامع في المدينة، على عهد الرسول (ص)، كان رمزا لاجتماع المسلمين واتحاد كلمتهم، وكانت مشاركة جميع الصحابة في بنائه دليلا عمليا على تعاونهم وتوَادهم. على أن ذلك التعاون والتواد كان عاما، ثم خصص بين المسلمين بما عرف باسم المؤاخاة، وهي الوسيلة التالية للتنظيم الجماعي في هذا البحث.

(١) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ١، ص ٣١.

مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ٦.

(٢) مكة والمدينة، ورقة ٣٧ - ٣٨. وانظر أيضا: السخاوي: المصدر السابق، ج ١، ص ٣١.

(٣) مجهول: المصدر السابق، ورقة ٦.

(٤) السخاوي: نفس المكان،

مجهول: المصدر السابق، ورقة ٦.

(٥) مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ٦.

(٦) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ١، ص ٣١.

(٧) مجهول: المصدر السابق، ورقة ٥.

(٨) مجهول: نفس المكان.

ثانياً : المؤاخاة

بدأ تنظيم المؤاخاة في السنة الأولى من الهجرة، بعد خمسة أشهر أو ثمانية من قدوم النبي (صلى الله عليه وسلم) المدينة^(١). على أن المتفق عليه أن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، كانت قبل معركة بدر^(٢)، حيث دعا الرسول (ص)، أصحابه من المهاجرين والأنصار إلى اجتماع في مسجد المدينة، حدد فيه أسماء نخبة من المسلمين^(٣)، قيل إنهم تسعون، وقيل بل مئة^(٤). وهناك روايات أخرى تذكر أن جملتهم ثلاثمائة^(٥).

وذكر أنهم كتبوا في أمر المؤاخاة كتاباً، في دار أنس^(٦). وبين الرسول لهم، أثناء ذلك الاجتماع، أنه اصطفاهم وأحب أن يؤاخى بينهم^(٧).

وكانت صفة صحة عقد المؤاخاة، تتم بأخذ أحد الأخوين، الذين عينهما الرسول (ص)، بيد الآخر مرددين أنها أخوان في الله^(٨). وترتب على تلك الأخوة الإسلامية حقوق ميزتها عن أخوة ذوى الأرحام، وسمت بها كثيراً. فالأخ في الله هو المقدم على ذوى الأرحام في الميراث^(٩)، إذ كانوا يتوارثون بهذا الإخاء في ابتدائه، إرثاً مقدماً على القرابة^(١٠). والواقع أن ذلك البند الخاص بالميراث، كان يتعارض - شكلاً - مع الأعراف والتقاليد السائدة، حينذاك. ولذلك لم يدم كثيراً إذ أعقبه نزول آية الميراث ناسخة له بقوله تعالى: «والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله... الآية^(١١)».

(١) مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ١١. وقد سبق تلك المؤاخاة، التي عقدت بين المهاجرين والأنصار، مؤاخاة بين المهاجرين أنفسهم. (انظر: ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢٣٨، وابن سيد الناس: هيون الأثر، ج ١، ص ١٩٩، مجهول: المصدر السابق، ورقة ١٢). وكانت هذه المؤاخاة بين المهاجرين على نطاق محدود ولم تفرض على الجميع. (انظر ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٥١، ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، في أماكن متفرقة). ويعتقد أن النبي، صلى الله عليه وسلم، لم يؤاخ بين المهاجرين بعضهم لبعض، إلا بعد قدومه المدينة. (انظر: ابن سعد: نفس المصدر، ج ١، ص ٢٣٨). والذي نميل إلى ترجيحه، هو أن المؤاخاة، بين المهاجرين، ربما أنها حصلت قبل الهجرة - بشكل نظري - ولم يعرف أمرها إلا بعد قدوم النبي (ص)، المدينة.

(٢) ابن سعد: نفس المكان،

ابن حبيب: المحبر، ص ٧١ - ٧٢.

(٣) الحلبي: السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٩٦ - ٩٧.

(٤) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٨،

مجهول: المصدر السابق، ورقة ١١.

(٥) العامري: بهجة المحافل، ج ١، ص ١٦٩.

(٦) مجهول: المصدر السابق، ورقة ١١.

(٧) الحلبي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٦ - ٩٧.

(٨) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٣٥١،

ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٢٢٦. ويذكر ابن اسحاق هذه الصفة بقوله: وأخى رسول الله بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال، فيما بلغنا ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل: تأخوا في الله أخوين أخوين. ثم اخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: هذا أخي. (انظر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٥١).

(٩) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢٣٨،

ابن حبيب: المحبر، ص ٧١.

(١٠) المقرئ: امتاع الاسماع، ج ١، ص ٥٠.

(١١) الانفال: ٧٥.

ويبدو أن الرسول (ص)، كان يريد بذلك، حين جعل الأخ في الله مقدما على القرابة في الموارث، التنبيه إلى أهمية وعظم أمر المؤاخاة لما سترتب عليها من أمور عظيمة في صالح الاسلام وقيام مجتمع إسلامي ليس للعصبية القبلية الجاهلية مكان فيه. فالمؤاخاة بذلك المعنى كانت عملا مثاليا لما يجب أن يكون عليه المسلمون، ولم تكن نظاما يجب أن يفرض على الجميع، إذ أن باب الخيار، كان مفتوحا لمن أراد أن يتبعه أو عكس ذلك. ولعل مما يدل على ذلك ما وجد من عناية فائقة اتبعت عند اختيار المتآخين من الصحابة.

وقد أظهرت الدراسة المقارنة والتحليلية لعينات كافية من الصحابة، ممن آخى الرسول (ص)، بينهم، أن المؤاخاة قد راعت العوامل النفسية والعلمية والفكرية، وتوخت تقارب المستوى الاجتماعي والفكري بين المتآخين، بغية توفير كل الأسباب لنجاحها وتقويتها^(١). وحتى يكون في تشابه مشاربهم وطباعهم، ما يذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة^(٢).

ويجد الباحث أمثلة كثيرة عن المراعاة في المستوى العلمي والفكري بين المتآخين. فمن ذلك المؤاخاة بين جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل. فهما متفقان في الطباع والسلوك. فكلاهما يهتم بالعلم، حتى عدا من فقهاء الاسلام وعلمائهم، فقليل عن جعفر بن أبي طالب: إنه أفضل الناس بعد النبي^(٣) (ص). وقالوا عن معاذ بن جبل: إنه المقدم في الحلال والحرام^(٤). وإلى جانب توفر تلك الصفة العلمية بين جعفر ومعاذ فإنها من الناحية الفكرية والاجتماعية، متقاربان في الدرجة. فجعفر يعد خير الناس للمساكين^(٥)، أما معاذ فوصف بأنه كان سمحا من خير شباب قومه^(٦).

ويجد الدارس لحياة كل من سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وأبي بن كعب من الناحية العلمية، أنهما قد اجتماعا أيضا في درجة علمية واحدة. فسعيد بن زيد كان مهتما ومعنيا بالفقه والحديث، وروى عنه كثير من الصحابة^(٧). كذلك فإن أبي بن كعب، كان سيد القراء وكان عالما وأول من كتب للنبي^(٨) (ص). كما أنه يعد من فقهاء الصحابة المعدودين^(٩).

(١) يقول الغزالي: «الأخاء الحق لا يثبت في البيئات الخسيسة فحيث يشع الجهل والنقص والجبن والبخل والجشع، لا يمكن أن يصبح أخاء أوتترع عرع حبة، ولولا أن اصحاب رسول الله (ص)، جيلوا على شوائل نقية واجتمعوا على مبادئ رضية، ما سجلت لهم الدنيا هذا التآخي الوثيق في ذات الله». (انظر: فقه السيرة، ص ١٩٣).

(٢) السهيلي: الروض الأنف، ج ٢، ص ٢٥٢.

(٣) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٢٣٧.

(٤) ابن عبد البر: الاستيعاب (هامش كتاب الإصابة، ج ١)، ص ٥٠.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٢٦ - ٤٢٧.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ١٣٧.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٢٦ - ٤٢٧.

(٧) ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٤٦.

(٨) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ١٩.

(٩) ابن عبد البر: الاستيعاب (هامش كتاب الإصابة، ج ١)، ص ٤٨.

وقد جمعت الصفة العلمية والفقهية، بين مصعب بن عمير بن هاشم وبين أبي أيوب. إذ كان مصعب أول من بعثه الرسول (ص)، مع أصحاب العقبة من الأنصار، إلى المدينة، ليفقههم في الدين^(١)، وكان يسمى المقرئ بالمدينة^(٢). أما أبو أيوب، فقد كان، بحكم نزول الرسول عليه، أول مقدمه المدينة، كثير الاهتمام بسماع أحاديث الرسول (ص)، ولذلك روى عن النبي (ص)، وعن كثير من الصحابة^(٣).

وكذلك نجد أن سلمان الفارسي، قد اشترك مع أبي الدرداء عويمر بن ثعلبة في الاهتمام الفقهى والعلمى، ويبدو أنه قد كان بينهما تنافس شريف وكبير لتنمية تلك الصفة، لاستحصال أكبر قدر ممكن من العلم والفقه. ونستنتج ذلك من مازحة الرسول (ص)، لأبي الدرداء بقوله: «سلمان أفقه منك»^(٤).

ومن أمثلة الاتفاق في الطباع بين المتأخين، ما يجده الباحث في مؤاخاة عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع. فهما مجبولان على الكرم ومحبان للبذل في وجوهه. حتى أن سعد بن الربيع، وكان أكثر الأنصار مالا، عرض على عبد الرحمن، بعد أن آخى الرسول بينهما، أن يقاسمه ماله^(٥). فأبى عبد الرحمن بن عوف أن يأخذ منه شيئا. مدلا على كرمه وامتلاء قلبه بالقناعة، وقال: دلني على سوق المدينة^(٦). وكان له ما أراد، فعمل بالتجارة حتى كثر ماله، فتصدق بشطره في سبيل الله، وكان ذلك المال يحمل على خمسمائة فرس مع أربعين ألف درهم^(٧).

أما الزبير بن العوام وسلمه بن سلامه بن وقش فكانا شجاعين وجريئين وكثيرا ما انتدبا للمهمات الصعبة في الحروب^(٨).

وصفة الشجاعة والفتوة يجدها الباحث أيضا تجمع بين كل من علي بن ابي طالب^(٩)، وسهل بن حنيف، ولعل أبرز مثال عليها فدائية علي ليلة هجرة الرسول حين رقد في فراشه غير عابىء بما كانت قريش تبيته لصاحب ذلك الفراش^(١٠). وقد كانت لسهل بن حنيف مواقف بطولية وفدائية في الذب عن الرسول صلى الله عليه وسلم^(١١). وقد بلغ من جرئته في الأيام الأولى للهجرة، أنه إذا أمسى، عدا على أوثان قومه فكسرها غير عابىء بما يترصص به^(١٢).

(١) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٢١.

(٢) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٢٩٦.

(٣) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠٥.

(٤) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٦٢.

(٥) ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٢٦.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٧) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤١٦.

(٨) النوى: تهذيب الاسماء واللغات، ج ١، ص ١٩٥.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٤٥ - ٥٤٦، ج ٢، ص ٦٥.

(٩) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٢٣.

(١٠) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٣٣.

(١١) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٧.

(١٢) الطبرى: تاريخ، ج ٢، ص ٣٨٢.

وكما أخذ العامل النفسي والفكري في الاعتبار، لما لذلك من أثر كبير في تعزيز الصلة وتقويتها بين المتأخين، كذلك روعيت ناحية التكافؤ في السلم الاجتماعي والوظيفي لابعاد الوحشة بين المتأخين بسبب ما قد يظهره أحدهما من أنفه بحكم تفوقه أو علمي مكانته الاجتماعية. لذلك نجد أن الرسول (ص)، حين آخى بين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الخزرجي، راعى ناحية التكافؤ تلك وأخذ بعين الاعتبار منزلتهما الاجتماعية، فكان عمر، وهو أمير المؤمنين - فيما بعد - الرجل المقدم في قومه، وكان إليه السفارة في الجاهلية^(١). أما عتبان بن مالك فقد كان إمام قومه بني سالم^(٢).

وروعي التكافؤ الاجتماعي كذلك، عند المواخاة بين أبي عبيدة بن الجراح، وهو من السابقين ومن علماء الاسلام وأمين الأمة^(٣)، وسعد بن معاذ، وكان سيد الأوس والمطاع فيهم، واسلامهم تم على يديه^(٤).

وتتجلى تلك المراعاة بوضوح أكثر، عند المواخاة بين عمار بن ياسر، حليف بني مخزوم وأمه مولاة لهم^(٥)، وبين حذيفة بن اليمان، حليف بني عبد الأشهل^(٦). وكذلك نجد أن حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، وحليف بن أسد من قريش^(٧). آخى الرسول (ص)، بينه وبين عويم بن ساعدة البلوي، وحليف بني أمية من الأوس^(٨). أما بلال بن رباح، وكان عبدا حبشيا، فقد آخى الرسول (ص)، بينه وبين أبي رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي، وقد كان مملوكا، فاعتق^(٩).

أما وقد استعرضنا، نظام المواخاة، بدايته وأهدافه، فإن هناك نقطة جديرة بالبحث يحسن بنا تتبعها، وهي تتعلق باستمرارية المواخاة وانقطاعها. ومن خلال دراستنا عن المواخاة، رأينا أنها قد انقطعت كنظام قانوني. ذلك أننا لم نعد نسمع بأن الرسول (ص)، قد أمر أو ألزم اثنين بأن يتأخيا، وخاصة بعد يوم بدر^(١٠).

(١) ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٥١٨ - ٥١٩.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٥٢.

(٣) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٥٢.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٥٢.

(٤) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٥٢.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٧.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٥١٢.

(٦) ابن عبد البر: الاستيعاب (هامش كتاب الإصابة، ج ١)، ص ٢٧٧.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٧.

(٧) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٥٢.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٠.

(٨) ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٤٤. وعويم، بصيغة التصغير، ليس في آخره راء: قيل إنه من بني أمية من الأوس، وقيل أنه بلوي حالف بني أمية من الأوس. (انظر: ابن حجر: نفس المكان).

(٩) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٤، ص ٧٢.

(١٠) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢٣٨.

مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ١٢.

وقد ذكر ابن حجر أن عوف بن مالك أسلم عام خيبر، وأخى النبي بينه وبين أبي الدرداء^(١). وذكر أيضا أن ربيعة بن السكن قال: أتيت النبي (ص)، وهو يؤاخي بين الناس فأخى بينهم وبقيت. فقدم رجل من الحبشة فأخى بيني وبينه. وقال: أنت أخوه وهو أخوك^(٢). والمعروف أن قدوم مهاجري الحبشة كان عام خيبر، سنة سبع من الهجرة تقريبا^(٣).

ويسدو أن مواخاة كل من عوف بن مالك مع أبي الدرداء، ومواخاة ربيعة بن السكن مع المهاجر الذي قدم من الحبشة، ربما قد حصلت بناء على طلب منهم أنفسهم وبعد إلحاح كبير، إذ لم يكن هناك إلزام أو أمر من الرسول (ص)، بأن يتآخوا. إنما الذي يمكن ترجيحه، هو أن المواخاة قد استمرت كسنة، يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها، وذلك بعد نسخ أساسها، المعتمد على أن يرث الأخ أخاه في الله بعد المات^(٤)، بنزول آية المواريث بعد وقعة بدر^(٥). فنسخ التوريث كبند من بنود المواخاة، لا يعني انقطاعها، بمعنى أن المتآخي في الله، غير ملزم بأن يورث أخيه، وإلا فإن له مطلق الحرية إذا أراد أن يوصي إلى أخيه بعد وفاته، كما أوصى حمزة بن عبد المطلب، يوم أحد إلى زيد بن حارثة، حين حضر القتال^(٦). ثم أن عمر بن الخطاب في عهده، حين دون الدواوين بالشام، قال لبلال بن رباح، وكان قد خرج إلى الشام فأقام بها مجاهدا: «إلى من تجعل ديوانك يا بلال؟ قال: مع أبي رويحة، لا أفارقه أبدا للأخوة التي كان رسول الله (ص)، عقد بينه وبينني. فضم إليه وضم ديوان الحبشة إلى خثعم، لمكان بلال منهم^(٧)». وذلك يعني أنه حتى عهد عمر كان للمواخاة منزلة معتبرة وإن لم يكن هناك إلزام باتباعها أو فرضها.

وقد نحا بعض المؤرخين المسلمين، إلى الاعتقاد بأن الغرض من المواخاة، كان تحقيق منافع اقتصادية لمواجهة الضائقة المالية التي كان عليها المهاجرون بعد هجرتهم إلى المدينة^(٨). والذي يدلونا، ونرجحه في نفس الوقت، أن الرسول، لم يكن في حاجة إلى وجود من يلتزم بمصالح أصحابه من المهاجرين، لأنه سبق أن أكد على تلك الناحية، في بيعة العقبة الأخيرة، وجعل الالتزام بمصالح أصحابه شرطا لصحة عقد البيعة، حيث جاء فيه: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به، واشترط لنفسني أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأهلكم، واشترط لأصحابي المؤاساة في

(١) المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٣.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٥٠٨ - ٥٠٩.

(٣) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٧٧٤، ٧٩١، ٨١٨، ٢١.

(٤) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٢٢.

(٥) قال تعالى: «والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم، فاولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله.. الآية». الأنفال: ٧٥.

(٦) ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، ص ٩.

(٧) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٥٣.

(٨) يقول ابن كثير: «.. إلا أن النبي (ص)، لم يجعل مصلحة على إلى غيره، فإنه كان ممن ينفق عليه رسول الله (ص)، من صغره في حياة أبيه أبي طالب، كما تقدم عن مجاهد وغيره. وكذلك يكون حمزة قد التزم بمصالح مولا هم زيد ابن حارثة فآخاه بهذا الاعتبار. والله اعلم». (انظر: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٢٢٧، وانظر أيضا: البكري (عبد الله ابو العطا): الانصار والاسلام، ص ٨٠، القاهرة، ١٩٦٤ م).

ذات أيديكم^(١)». ومن ذلك نرى أن الضمان المالي لصالح المهاجرين كان بنداً رئيسياً في بيعة العقبة، وقد التزم الأنصار به وقبلوه على أن لهم الجنة^(٢). ولو كان الغرض من الموأخاة اقتصادياً، يجعل مصلحة الفقراء إلى الاغنياء، لما وجدنا أن كثيراً من الصحابة لم يدخلوا في الموأخاة، مع أنهم كانوا فقراء ومن السابقين إلى الاسلام. مثل أنسة مولى رسول الله (ص)، وأبي كبشه مولى رسول الله (ص)، وصالح شقران غلام رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣)، ومثل يزيد بن رقيش بن رثاب بن يعمر، وعكاشة بن محصن بن حريث، وأبي سنان بن محصن بن حريث، وسنان بن أبي سنان، ومالك بن عمرو، وسعد مولى حاطب وغيرهم^(٤). فلو كان الهدف جعل مصلحة الفقراء إلى الاغنياء، لكان أولئك أولى من غيرهم بالموأخاة. وإضافة إلى ذلك فإن عدداً من الأنصار، كانوا شديدي الفقر، ومع ذلك آخى الرسول بينهم وبين المهاجرين، ومنهم سهل بن حنيف من بني عمرو بن عوف بن مالك من الأوس، وأبودجانه سمالك بن خرشة من بني ساعدة من الخزرج. فقد قيل أن رسول الله (ص)، لم يعط من أموال بني النضير أحداً من الأنصار إلا سهل بن حنيف وأبا دجانه سمالك بن خرشة، وكانا فقيرين^(٥). كما أن من الأنصار، ممن آخى الرسول بينه وبين أحد المهاجرين، من كان لا يجد ما يأكله^(٦).

وقد رأى بعضهم أن الموأخاة إنما هي تسمية إسلامية لنظام الحلف المعروف عند العرب قبل الاسلام^(٧)، والمراد بالحلف هنا قبول فرد ما محالفة قبيلة، غير قبيلته والدخول في عهدها. وهو رأي من الصعب التسليم به، لأن التحالف قبل الاسلام، بذلك المعنى، كان يمثل نظاماً طبقياً ينظر فيه إلى الحليف على أنه أقل منزلة من حليفه أو سائر أفراد القبيلة التي دخل في حلفها، حتى أن ديتهم بينهم كانت النصف^(٨). بينما نجد أن الموأخاة الإسلامية كانت تجعل للأخ المسلم منزلة تقدمه على أخوة ذوي الأرحام، في ناحية الميراث بعد الممات^(٩). ثم إن الموأخاة لو كانت كأحلاف الجاهلية، لاقتضى ذلك ضرورة تواجد المتحالفين وطلب أحدهما من الآخر محالفته. بينما في الموأخاة، كنظام عام يمكن فرضه، نجد أنها تتم حتى ولو كان أحد المتآخين في سفر بعيد، كما حصل بالنسبة لجعفر بن أبي طالب، الذي كان مقيماً في الحبشة بعد هجرته إليها حين آخى الرسول بينه وبين معاذ بن جبل وكان موجوداً مع الرسول (ص)، في المدينة^(١٠)؛ ولذلك نجد في تأويل قول الله تعالى: «ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت

(١) ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ١١،

الدولابي: الكني والاسماء، ج ١، ص ١٣.

(٢) ابن قدامة: المصدر السابق، ورقة ١١.

(٣) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٤٨ - ٥٠.

(٤) ابن سعد: نفس المصدر، ج ٣، ص ٩١ - ٩٧، ١١٥.

(٥) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٤٧٢.

(٦) ابن سعد: نفس المصدر، ج ٣، ص ٥٤٧.

(٧) الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٨٦.

(٨) جاد المولى (وآخرون): أيام العرب، ص ٦٢ - ٦٤.

(٩) يقول ابن سعد: «آخى بينهم على الحق والمؤاساة ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام». (انظر: المصدر السابق، ج ١،

ص ٢٣٨).

(١٠) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٥٢.

إيمانكم فأتوهم نصيبهم^(١)»، ما ذكره الطبري حين قال: «والذين عاقدت إيمانكم على المحالفة وهم الحلفاء وذلك أنه معلوم عند جميع أهل العلم بأيام العرب وأخبارها بأن عقد الحلف بينها كان يكون بالايان والعهود والمواثيق . وكانت موآخاة النبي بين من آخى بينه من المهاجرين والأنصار لم تكن بينهم بأيامهم^(٢)». ولربما أن من أهداف الموآخاة، أن تصبح بديلا للحلف الجاهلي، إلا أنها تختلف عنه في طريقة التعاقد. وكان الرسول (ص)، حين سئل عن الحلف قال: لا حلف في الاسلام^(٣).

والمرجح لدينا أن الهدف الرئيسي للموآخاة، هو الرغبة في ربط القبائل، عن طريق أفرادها في أخوة إسلامية^(٤)، من شأنها التخفيف من حدة العصبية القبلية. وذلك يعني أن عدم تمثيل أي بطن أو عشيرة في الموآخاة، إنها قصد به الضغط، بطريقة غير مباشرة، على القبائل وأشعارهم بطريقة عملية بأن العصبية القبلية أو الافتخار بصلة الدم والقرباة، لم تعد ذات شأن عظيم في هذا المجتمع الاسلامي القائم على المحبة والتعاون والتضحية بين أفرادهم^(٥). ولذلك يتوجب عليهم أن يذعنوا لرأي الأمة الاسلامية ويدخلوا في عصبيتها السامية. وندلل على ما ذكرنا بما لوحظ من عدم دخول بعض بطون الأوس في الموآخاة مثل بني حارثة الذين كانوا رغم إسلامهم. متمسكين بعصبيتهم القبلية، كثيرا. فكانوا يبدون شيئا من النفور تجاه بني عبد الاشهل، لما كان بينهم من عدااء قديم في الجاهلية^(٦). وذلك يعني أن الأسرة أو العشيرة ملزمة بأن تتنازل للأمة عن حق النظر في النزاع المدني، أي النزاع الذي يحدث بين أسر المدينة، حيث أن أول مهمة للأمة هي أن تمنع القتال بين ذويها^(٧). ولا ريب، أن التخلي عن العصبية القبلية أو إضعافها سوف يجرد القبيلة من بعض تقاليد الجاهلية، وخاصة تلك التي تعد إحدى وظائف الدولة، كالأجارة. حيث كان الرجل يضطر بدافع من عصبيته إلى التمسك بها. أما وقد ضعف تأثير العصبية، ولم تعد ذات قيمة، لأن كل المسلمين أخوة، فانه بالتالي سوف لا يكون للأجارة قيمة أو معنى.

ومبدأ العهد والحوار كان يحق للفرد بموجبه أن يتدخل لحماية من له عهد وجوار لديه، دون أن يكون للسلطة حق الاعتراض^(٨). ذلك أن المجير يكون ملزما أدبيا بتنفيذ بنود الاجارة، وإلا لحقه العار، حتى وإن كان من يجبر على غير دينه أو معتقده^(٩).

(١) النساء: ٣٣.

(٢) جامع البيان، ج ٥، ص ٥٤ - ٥٥.

(٣) ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ١٧٢.

(٤) Arnold; The preaching of Islam, p. 33.

(٥) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢٣٨.

(٦) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٢٩٨.

(٧) قال تعالى: «فإن تنازعتم في شئ، فردوه إلى الله والرسول». النساء: ٥٩.

وانظر أيضا: فلهاوزن: الدولة العربية، ص ١٨.

(٨) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٨.

Arnold; The preaching of Islam, pp. 31, 32.

الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٢ - ٣٤.

(٩) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٨.

والمعروف أن بين قريش والخزرج علاقات قديمة في مجالات التجارة^(١)، والسياسة^(٢). إلى جانب ما كان بينهم من صلات المصاهرة^(٣). وقد ازدادت - ولا شك - تلك العلاقات قوة، بمبدأ المواخاة، الذي ربط بين كثير من الخزرج وقريش^(٤). وذلك سوف يسقط أي محاولة قد تقوم بينهم، لحياء مبدأ الاجارة.

وقد أقر دستور المدينة، أو ما عرف باسم الصحيفة^(٥)، نظرية سيادة الدولة وليس القبيلة. فكانت بنود تلك الصحيفة تنص على أن مجتمع الاسلام ليس مجتمع العصبية القبلية، وإنما هو أمة واحدة من دون الناس^(٦). وأكدت الصحيفة على أن ولاء الناس، إنما هو للدولة وحدها، فهي صاحبة السيادة والسلطة. ولذا فإنه لا يحق للمؤمن أن ينصر كافرا على مؤمن، كما لا يحل له أن ينصر محدثا أو يؤويه، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن^(٧). كما أوضحت الصحيفة، أن تصريف أمور الناس في مجتمع المدينة، إنما مردها إلى الله وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٨).

ومما سبق نرى أن الرسول (ص) كان يخطط لعمل يخفف من حدة العصبية القبلية باقرار مبدأ المواخاة، تمهيدا لبناء مجتمع جديد يقوم على رابطة العقيدة دون رابطة النسب والعصبية القومية^(٩). كما أنه يمهد لقيام الدولة بمفهومها العام، المرتكز على وجود مؤسسة قادرة وذات سلطة وتصرف حر.

ثالثا : رابطة ذوي الأرحام

وهي تنظيم يجمع عددا من البطون والعشائر، التي تنتسب إلى قبيلة واحدة، كبطون قريش مثلا أو بطون الأوس والخزرج، تحت راية واحدة في محيط رابطة القرابة. وما يجدر ذكره في هذا المجال، الإشارة إلى أن الفخر بالمناقب الدينية والحمية للقريبى أو صلة الدم، لم يكن أمر ذلك مستهجنا بين المسلمين في المدينة، كما هو الحال في نظرهم

- (١) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٠٨.
- الطبري: تاريخ، ج ٢، ص ٣٦١.
- (٢) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٨.
- الطبري: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٦٨.
- العصامي: سبط النجوم العوالي، ج ١، ص ٣١١.
- (٣) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٨.
- ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ٣.
- (٤) انظر: ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٥١٨ - ٥١٩.
- (٥) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٨ - ٣٥١.
- (٦) ابن اسحاق: نفس المكان.
- (٧) ابن اسحاق: نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٤٩ - ٣٥٠.
- (٨) ابن اسحاق: نفس المكان.
- (٩) فلهاوزن: الدولة العربية، ص ١٧.
- حسن (حسن ابراهيم): تاريخ الاسلام، ج ١، ص ١٠٤.

للعصية القبلية. ولذلك رأينا أن الرسول (ص)، لم ينكر على صفية بنت حيي بن أخطب قولتها، حين بلغها أن اثنتين من أزواج النبي، قالتا: نحن أكرم على رسول الله (ص)، منها. نحن أزواجه وبنات عمه، فقالت صفية: وكيف تكونان خيرا مني وزوجي محمد وأبي هارون وعمي موسى^(١). ونجد أن القرآن الكريم، قد بين طبيعة العلاقة بين ذوي الأرحام، وجعل بعضهم أولى ببعض من غيرهم^(٢).

ويبدو أن بداية ذلك التنظيم، كان حين أمر الرسول (ص)، بتعويض اليتيمين من بني غنم بن النجار، عن مربدهما بنخل في بني بياضة، وليس في بني غنم، إذ نجد في هذا الاجراء شيء من المراعاة لصلة القربى. لأنها كانا بطنين من الخزرج^(٣). وبالإمكان أن نستدل، من ذلك، على وجود رغبة لجمع بطون كل قبيلة على راية واحدة، وعلى الخصوص، في تنظيمات الرسول الحربية، يوم بدر. إذ كان يوجد يومها رايان، إحداهما جمعت بطون الأوس والخزرج وعرفت براية الأنصار، والأخرى كانت لبطون قريش وحلفائها ومن انضم إليهم من المهاجرين^(٤). وقيل «إنه كان لرسول الله (ص)، في المواطن كلها، رايان، مع علي راية المهاجرين، ومع سعد ابن عباد راية الأنصار^(٥). وفي بعض الأحيان، قد يجعل لبطون الأوس لواء خاصا، ولبطون الخزرج لواء آخر. ذكر ذلك البلاذري بقوله إن لواء رسول الله (ص)، يوم بدر مع مصعب بن عمير، ولواء الأوس مع سعد بن معاذ، ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر^(٦). والظاهر من تلك الروايات أن الرسول (ص)، كان يغير القيادات وتشكيل الوحدات، أكثر من مرة في نفس المعركة الواحدة، حسب الظروف والأحوال^(٧).

ولم يقتصر تنظيم رابطة القرابة أو ذوي الأرحام، على قريش والأنصار، وهم الغالبية بين السكان في المدينة، فإنه شمل سائر القبائل العربية، حيث راعى صلة الرحم ورابطة القربى في حالات عديدة حين بعث الرسول (ص)، بعضهم في سرايا أو حين استعمل عليهم^(٨). وأمثلة ذلك، سرية الأزد والأشعرين^(٩)، وتولية عامل واحد على مراد ومذحج وزبيد كلها^(١٠).

(١) ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ٣٤٧.

(٢) قال تعالى: «والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا منكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله.. الآية». الأنفال: ٧٥.

(٣) الذهبي: تاريخ، ج ١، ص ٢٠٢.

ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ٣ - ٤٤.

(٤) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٤٤٥.

(٥) ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٣٠، ٢٤٩.

(٦) الانساب، ج ١، ص ٢٩٣.

(٧) الواقدي: المغازي، ج ٢، ص ٨٠٠ وما بعدها (طبعة اكسفورد).

(٨) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٢٢٩، ج ٣، ص ٢٠٥.

(٩) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٢٢٩.

(١٠) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٢٠٥.

وكان النبي (ص)، قد عقد يوم أحد ثلاثة ألوية أحدهم للأوس بيد أسيد ابن حضير، والثاني للخزرج بيد الحباب بن المنذر، وكان لواء المهاجرين بيد علي بن أبي طالب^(١). وقيل كان لواء المهاجرين بيد مصعب بن عمير بن هاشم^(٢).

وبما سبق رأينا أن الرسول (ص) حاول جمع بطون القبيلة الواحدة، أو من كان ينتمي لها بالولاء أو الحلف، بتنظيم تحت راية واحدة كالمهاجرين، وغالبيتهم من قريش أو حلفائها ومواليها، وكالأنصار وهم الأوس والخزرج. وكان لبعض الظروف السياسية يد في فصلهم إلى قيادتين في بعض الغزوات، كما رأينا في معركة أحد، حيث أن الظروف السياسية - حينذاك - لم تكن مواتية لجمع الفرعين، الأوس والخزرج، وذلك لوجود حركة انشقاق وخروج على رأي المسلمين من قبل بعض الخزرج بقيادة عبد الله بن أبي الخزرجي^(٣).

رابعا : الرابطة العامة بين المسلمين

وهذه الرابطة تعني توحيد عامة القبائل في تنظيم حربي واجتماعي، تحت راية واحدة. وسبق أن رأينا عند تناول موضوع رابطة ذوي الأرحام، وجود اتجاه غرضه جمع البطون التي بينها صلة رحم وقربى، تحت لواء واحد، على اعتبار أنها نقلة في مراحل تنظيمات الرسول (ص)، للقبائل، المستهدفة ضم جميع القبائل تحت راية واحدة باسم الأخوة أو الرابطة العامة بين المسلمين.

ويمكن القول بأن العمل قد بدأ بتطبيق ذلك التنظيم، أو عرضه للامتحان، يوم أحد، حين دمج الرسول (ص)، قيادات المسلمين الثلاث^(٤) في قيادة واحدة عرفت باسم راية المسلمين^(٥). ومنذ ذلك الوقت، عرضت لنا النصوص التاريخية عدة تطبيقات عملية أخرى، هدفها دمج مجموعات القبائل في قيادة واحدة. منها ما ذكر أن أحس، أتوا الرسول في أكثر من خمسمائة ومعهم مائتين من قيس فتنادوا عند النبي (ص)، فبعث معهم ثلاثمائة من الأنصار وغيرهم من العرب. فأوقعوا بخثعم باليمن^(٦). وكان اللواء، يوم خير، واحدا، هو لواء المسلمين تعاقب على حمله عدد من الصحابة^(٧). ولا نستبعد أن اللواء كان واحدا - يوم الفتح - لوجود الرسول (ص)، على رأس المسلمين^(٨).

(١) ابن الحاج: رفع الخفاء، ورقة ٨١.

(٢) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٥٨٦، ابن حجر: ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٢١ - ٤٢٢.

(٣) ابن الحاج: المصدر السابق، ورقة ٨١.

(٤) وتلك القيادات هي: لواء الأوس، ولواء الخزرج، ولواء المهاجرين. (انظر:

ابن الحاج: رفع الخفاء، ورقة ٨١).

(٥) النووي: تهذيب الاسماء واللغات، م ١، ج ٢، ص ٩٦،

ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٥٦٣.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٢٥٦.

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٣٨٧.

(٨) ابن اسحاق: السيرة، ج ٤، ص ٨٥٩،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٤١.

إلا أن كثرة المسلمين^(١)، قد دعت - فيما يبدو - إلى تغيير التشكيل في التعبئة العامة، فعقد الرسول (ص)، لوائين، أعطى أحدهما ناجية بن الأعجم والآخر بريدة بن الحصيب^(٢). وقد كان هذا اللواء، أو اللوائان، الموحدان، يوم الفتح، يجمعان شتى القبائل والبطون والكتائب على راياتها^(٣). وكما سبق أن أشرنا، كان تشكيل الوحدات والقيادات يخضع للظروف. ولهذا نجد أن الرسول (ص)، حين هم بدخول مكة، فرق جيشه، فأمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كدى، وأمر سعد بن عباد أن يدخل في بعض الناس من كداء^(٤).

ومما سبق اتضح لنا مجمل الخطوط الرئيسية لأهداف التنظيم الجماعي، الذي هو مرحلة ثانية في التنظيم العام للقبائل في المدينة. ومن خلال البحث تتبعنا وسائله التي تدرجت بالقبائل، بغية الوصول بها في النهاية إلى تقبل التنظيم الجماعي والذي جمع عدة قبائل تحت راية واحدة وقيادة واحدة في الغزوات. ولعل النقطة الهامة التي نستخلصها، من بحث التنظيم الجماعي، هي أن الرسول (ص)، كان يدرك أن من الصعوبة إلغاء العصبيّة القبلية أو نزعها من نفوس القبائل، في برهة قصيرة. ولذلك أقر الرسول (ص)، تلك الوسائل وجعل المرونة طابع التعامل بها ومعها.

ولقد بلغ من تحكم روح العصبيّة القبلية في نفوس القبائل المسلمة، أن أحد الصحابة (هوزيد بن عمير الكندي) عبر عما كان يعتل في صدره من صراع قوي، بين واجبه الديني وتقاليد القبلية، فسأل النبي: هل أغير مع قومي؟ فقال النبي: ذهب ذاك بالاسلام، وذهبت نخوة الجاهلية، المسلمون أخوة^(٥). ونرى من ذلك كله، أن الهدف الأول للتنظيم الجماعي، كان يرمي إلى العمل على التخفيف من حدة العصبيّة القبلية، ولذلك جعل للمسلمين مسجدا جامعاً كان يسمى مسجد المدينة، ثم ربط بين أفراد القبائل في أخوة اسلامية سمت على أخوة ذوي الأرحام - باديء الأمر - حين جعل الحق في التوريث، بعد الممات، للأخ في الله دون ذوي الأرحام. ومن الناحية العسكرية، وحدت قيادات البطون التي ترتبط مع بعض بصلة رحم أو قرى، تحت راية واحدة، بحيث تجعل من القبيلة وحدة متكاملة. وفي النهاية جمعت رايات القبائل تحت راية واحدة، عرفت براية المسلمين، وكانت قيادتهم موحدة وتنافسهم وافتخارهم موجه لنواح دينية، لصالح الاسلام والمسلمين^(٦). وأصبح مبعث فخر القبائل في مجالسهم القبلية، إذ ذكروا، أن يقال عنهم: إنهم من أتقى الناس لله في الدنيا والآخرة^(٧).

(١) كان عدد جيش المسلمين يوم الفتح حوالي عشرة آلاف رجل. (انظر ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٤، ص ٨٥١، ٨٥٩). وقد زادوا بعد فتح مكة وقبل فتح الطائف إلى حوالي اثني عشر ألف. (انظر الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٨٨٩ «اكسفورد»، ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٩).

(٢) ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٥٤١.

(٣) ابن اسحاق: السيرة، ج ٤، ص ٨٦٣.

(٤) ابن اسحاق: نفس المصدر، ج ٤، ص ٨٦٥.

(٥) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٥٧٠.

(٦) ذكر أن النعمان بن عجلان الزرقي الانصاري قال في معرض فخره على قريش:

فقل لقريش نحن اصحاب مكة
نصرنا واوينا النبي ولم نخف
وقلنا لقوم هاجروا مرحبا بكم
نقاسمكم اموالنا وديارنا
ويوم حنين والفوارس في بدر
صروف الليالي والعظيم من الامر
واهلا وسهلا قد امتنم من الفقر
كقسمة ايسار الجزور على الشطر

(انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٥٦٢).

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

٣ - عصبية الموطن أو الأرض

هذا التنظيم، المرتكز على توجيه العصبية للتعلم بحب الوطن. يعد مرحلة النضوج النهائية في مراحل التنظيمات القبلية في المجتمع المدني، الرامية الى تعويد القبائل على التخلي - تدريجيا - عن العصبية القبلية - كما استعرضنا ذلك في الفقرات السابقة - والهادفة في النهاية إلى توجيه الطاقة العصبية نحو اهتمامات أكبر وأعظم مثالية، كالاعتزاز بالأرض، والافتخار بأهلها والتعصب للمدينة - بادية الأمر - والتي أصبحت مع ظهور الإسلام، تجمع شتى القبائل والأجناس، كما هو الحال في المدينة المنورة^(١)، أو الكوفة والبصرة، اللتين حوتا إلى جانب ذلك، كثيرا من النحل والأديان^(٢)، وأصبح أهل كل منهما يتفاخرون بالعلم والعلماء ويتعصب أهالي كل مدينة لعلمائهم وفقهائهم وأدبائهم^(٣).

وسوف نتعرف على طبيعة ذلك التطور أو التحول لدى القبائل والذي صرف حماسهم التعصبي، من التعصب للقبيلة إلى الأرض أو المدينة. وذلك من خلال التعرض بالبحث لمظاهر التنظيم الوطني الذي قام على أسس يمكن إجمالها فيما يلي:

أ - نسبة القبائل إلى مواطنهم

لقد أظهر الرسول (ص) مواقف إدارية وسياسية برهنت - بما لا يدع للشك مكانا - أنه خير من كان يعرف طباع العرب وعصبيتهم للقبيلة. ومن أجل ذلك سائرهم وتآلف زعماؤهم بالحلم والمال، وعاملهم، مراعيًا مفهومهم الذي يرى أن العصبية القبلية أقوى رباطا من المواطنة والمشاركة في الدار والمال ونحو ذلك^(٤). على أنك تجد - فيما بعد، لدى المسلمين في العهد النبوي - تحولا عن تلك النظرة للعصبية، إلى دعوة لجعل الأرض في منزلة حب القبيلة أو أزيد من ذلك. فقد ذكر أن أحد موالى الرسول (ص) وقع من عذق فمات. فقال الرسول (ص): انظروا رجلا من أرضه فاعطوه ميراثه^(٥). وذلك توجيه من الرسول (ص)، يبين ما للأرض من عظيم القدر والتفضيل، إلى درجة أن أهلها يتوارثون إذا لم يكن للميت عصبه أو أهل. وكذلك فعل الرسول (ص)، حين قدم رجل من حمير ثم مات ولم يجدوا له وارثا مسلما فدفعوا ميراثه إلى رجل من أهل اليمن، من همدان^(٦)، ولم يدفعوه إلى رجل من الشام أو اليمامة مثلا.

(١) انظر: الباب الأول، عناصر السكان.

(٢) الزبيدي (د. محمد حسن): الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة، ص ٣٩ (القاهرة، ١٩٧٠ م).

نافع (عبد المنعم صالح): الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في الشرق الاسلامي، ص ١٥٧. (رسالة ماجستير لم تطبع).

(٣) نافع (عبد المنعم صالح): نفس المكان.

(٤) ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٤٠٤.

(٥) ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٦٣٣.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٥٥١ - ٥٥٢.

ومما يظهر رغبة الرسول (ص)، في أن يوجه الناس جبههم وعصبيتهم إلى الأرض أو المدينة وليس للقبيلة، ما نجده فيها ذكره ابن حجر: أن أصيل الغفاري قدم على رسول الله (ص) من مكة فقالت عائشة (رضي الله عنها): كيف تركت مكة؟ قال: اخضرت أجنابها وابتضت بطحاؤها وأعذق اذخرها، وانتشر سلمها. فقال رسول الله (ص): حسبك يا أصيل، لا تخزنا^(١). ومن ذلك نجد أن الذي أثار حزن الرسول (ص)، ليس فراقه قبيلته قريش، وإنما بعده عن تراب بطحاء مكة وما فيها من اذخر وخضرة، وقد كانت مراتع صباه.

ويجد الباحث، خلال قراءته للنصوص التاريخية الإسلامية، إشارات تظهر حرص الرسول (ص) على أن تنسب القبائل، إذا جاء ذكرها، إلى مدنها أو أقاليمهم كأن يقال: أهل قباء^(٢)، وأهل المدينة^(٣)، وأهل مكة، وأهل الطائف^(٤).

ب - الاستخلاف على المدن أو الأقاليم

لم تكن التولية على الأمصار الإسلامية، على عهد الرسول (ص)، نظاما متبعًا، إلا في أضيق الحدود، إذ كان الاستعمال - في الغالب - على القبائل، مع مراعاة ناحية القرابة بين القبائل في حالة تعددهم^(٥). وقد بدأ نظام الاستخلاف على الأمصار بالاستخلاف على المدينة المنورة، حين يخرج الرسول غازيا^(٦). وقد تستدعي الحاجة لضبط الأمور، تقسيم المدينة إداريا إلى قسمين، على كل منهما عامل مستقل عن الآخر^(٧).

ونظرا لاتساع مساحة اليمن، كان النبي (ص)، يستعمل على بعضها، كزبيد وعدن، وأعمالها^(٨)، واستعمل على نجران عمارة بن حزم الأنصاري^(٩)، وعلى صدقات صنعاء، المهاجر بن أبي أمية المخزومي^(١٠).

(١) نفس المصدر، ج ١، ص ٥٤.

(٢) ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٩١، ج ٣، ص ٢٥.

(٣) قال تعالى: «ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله». براءة: ١٢٠. وعن خالد بن خلاد الأنصاري عن النبي (ص)، أنه قال: من أخاف أهل المدينة أخافه الله. (انظر: ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠٤). وذكر الواقدي أن النبي (ص) دعا فقال: اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك دعاك لأهل مكة وإني محمد عبدك ونبيك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في صاعهم ومدهم وثبارهم. (انظر: المغازي، ص ١٣. الطبعة الأولى).

(٤) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٣١. وروى أن النبي (ص)، قال: إن أول من أشفع لهم من أمتي أهل المدينة ثم أهل مكة ثم أهل الطائف. (انظر: ابن حجر: نفس المكان).

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٣، ٣٥١، ٤٣٦، ج ٣، ص ٣٥٢.

(٦) ابن الحاج: رفع الخفاء، ورقة ٧٣،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٤، ص ٣٨٣، ج ٤، ص ٧٠ - ٧١.

(٧) كان النبي (ص)، قد استخلف على المدينة يوم بدر، كما استخلف على عالية المدينة. (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٤٦).

(٨) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٥٩.

(٩) ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ١٥.

(١٠) ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٤٦٥.

ومما تجدر ملاحظته، أن اختيار العمال على الأمصار الإسلامية، لم يعد - غالباً - يخضع للتقليد القبلي السابق، بمعنى أن يكون العامل أحد أبناء القبيلة أو حلفائها. إذ نجد أن أحد من استخلف على المدينة كان من قبيلة غفار^(١). وكان العامل على صدقات صنعاء، قرشياً^(٢). وقد يستعمل على اليمن جهني^(٣)، أو خزرجي^(٤). وكان عامل البحرين من قبيلة حضرموت^(٥). ومما تجدر ملاحظته - أيضاً - ما رأينا، من أن العامل على اليمن أو البحرين كان من غير أبناء المنطقة المستعمل عليها، بمعنى أن اليمني لم يعد يولى على الأجزاء الكبرى في اليمن^(٦)، وكذلك الحال بالنسبة لأهل البحرين^(٧). وقد يفسر ذلك بأنه كان إجراء وقائياً واحتراسياً، نظراً لكون تلك الأمصار بعيدة جداً عن المدينة، مما قد يغري بالخروج على السلطة فيها، مادام العامل يجد له سنداً في قومه.

ولعل ظاهرة التخلي عن اختيار العامل من بين أبناء الاقليم أو القبيلة، برزت بعد استفحال ظهور حركات الارتداد في اليمن، والخروج على سلطة المدينة، مثل حركة العنسي^(٨). وقد عبر أهل اليمن - بالفعل - عن رغبتهم في الخروج على سلطة المدينة والاستقلال في حكم أنفسهم، حال سماعهم بوفاة الرسول (ص)، فتكلم سفهاء همدان بما كرهه حلماءهم^(٩). ثم كثرت ارتداد وخروج أهل اليمن في السنة الحادية عشرة من الهجرة^(١٠). وخرج معهم في تلك السنة أهل البحرين، والتفوا حول زعمائهم ضد المدينة^(١١).

ثم إنك ترى في نفس الوقت، أن العمال على مكة أو الطائف، كانوا يختارون من نفس القبائل القاطنة تلك المدن أي من قريش وثقيف أنفسهم^(١٢). وقد يعود سبب ذلك إلى أن تلك المناطق كانت قريبة من مركز السلطة في المدينة، بالإضافة إلى أن معظم - إن لم يكن جميع - زعماء وكبراء قريش وثقيف، كانوا يشكلون عنصراً كبيراً من عناصر السكان في المدينة، مما يبعد إمكانية نقض أهل تلك المدن للأمر أو الارتداد عن الإسلام.

(١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٤، ص ٧٠ - ٧١.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٣، ص ١٤٧.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٦٥.

(٣) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٢٨٢.

(٤) ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ١٥، ٢٩ - ٣٠.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٢٧.

(٥) الطبري: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٧.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٩٧ - ٤٩٨.

(٦) كان الرسول (ص) - في السابق - يستعمل على قبائل اليمن من أحد أبنائها. (انظر: الطبري: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣٠).

(٧) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٨) كان الرسول (ص) - بادي الأمر، أيضاً - قد أقر على أهل البحرين، الجاردين المعلى، بعد أن تفقه في المدينة. (انظر: الطبري: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٠١ - ٣٠٥).

(٩) الطبري: تاريخ، ج ٣، ص ١٤٧.

(١٠) ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٤٨٨.

(١١) الطبري: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣١٣ - ٣١٦، ٣٢٣ - ٣٢٨.

(١٢) الطبري: نفس المصدر، ج ٣، ص ٣٠١ - ١٣.

(١٣) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥١، ٤٦٠، ج ٣، ص ٥٩٩.

ويمكن الاستنتاج مما سبق، أن القبائل العربية بدأت تفهم وتستوعب فكرة الانتماء للأرض أو الوطن، وبدأت تقلل من عصبيتها القبلية، وتخفف من حدتها. وانك لتجد - فيما بعد - أن أهل الكوفة والبصرة، وهم في أساسهم ومعظمهم من قبائل المدينة والجزيرة العربية التي هاجرت مع الفتوحات، أصبحوا يتعصبون تعصبا شديدا لمدنهم، ويتفاخرون بعلمهم وعلماهم وفقهائهم وأدبائهم^(١).

(١) نافع (عبد المنعم): الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في الشرق الاسلامي، ص ١٥٧، الزبيدي (د. محمد حسن): الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة، ص ٣٩.

الفصل الثاني

تخطيط المدينة ومنازل القبائل فيها خلال العصر النبوي

- أولا : العمران في موضع المدينة وذكر خطط الانصار قبيل الهجرة وبعدها
- ثانيا : عوامل اختيار موضع المدينة وأصالة تخطيطها
- ثالثا : التطور في تخطيط المدينة وسكنى المهاجرين مع الإشارة لمساحة المدينة
- رابعا : لمحة عن أثر تخطيط المدينة على مدن الأمصار

أولا - العمران في موضع المدينة وذكر خطط الأنصار قبيل الهجرة وبعدها

كانت المدينة المنورة منذ القدم - كما سبق أن رأينا - آهلة بالسكان، إلى الوقت الذي فيه اتخذها الرسول (ص)، أول مدينة إسلامية ظهرت فيها طريقة التخطيط الإسلامي للمدن. إذ أصبح تخطيطها نموذجا احتذى عند تخطيط مدن الأمصار الإسلامية، كالبصرة والكوفة، اللتين كانتا - خلاف ما كان يعتقد - آهلتين بالسكان قبل تمصيرهما في الإسلام^(١).

وكانت عناصر السكان في المدينة المنورة، قبل تخطيطها في الإسلام، مكونة من اليهود والعرب، ومعظم هؤلاء من الأوس والخزرج، وهم الأنصار^(٢).

ومما تجدر ملاحظته على خطط الأنصار وقراهم، أنه لم يطرأ عليها تغيير جذري بعد الهجرة، عدا ما سنتناوله في بحثنا عن نزول المهاجرين باطن المدينة، على قرى الأنصار، وما أحدث ذلك من تعديل بسيط على تنظيم الخطط وتحويل فعالية النشاط العام إلى مركز المدينة، حيث يوجد المسجد. ولذلك سنمهد للحديث عن خطط المدينة بعد الهجرة بذكر خطط الأنصار كإطار رئيسي ومتكامل، لخطط القبائل بعد الهجرة.

وكما أسلفنا القول - فإن الأوس والخزرج نزلوا بعد هجرتهم إلى يثرب بين اليهود، لأن الثروة كانت فيهم^(٣). ولما

(١) يذكر أن مواضع البصرة والكوفة كانت ولايات ساسانية عامرة بالأديرة والضياع أو الدساكر. (انظر: الطبري: تاريخ، ج ٣، ص ٥٩٠ - ٥٩١، ج ٤، ص ٤١). ويقول لويس ماسنيون عن تاريخ البصرة، قبل تمصيرها في الإسلام: «وكانت دساكرها السبع القديمة مأهولة وذات منازل ثابتة من قبل». (انظر: خطط الكوفة وشرح خريطتها، ص ١٠، الترجمة العربية للمصعبي، ط ١، صيدا، ١٩٥٨ م). والدساكر: جمع دسكرة، وهي الضيعة أو المزرعة المسكونة بالفلاحين. فكانت البصرة، قبل تمصيرها، سبع دساكر قريبة من بعض. (انظر: ماسنيون: نفس المكان، هامش رقم ١، نفس المكان). وكذلك الحال بالنسبة لتمصير الكوفة، فقد كانت أراضيها عند الفتح الإسلامي، تطابق لثلاث مناطق أو طسوج مالية ساسانية. (انظر: ماسنيون: نفس المرجع، ص ٧). والطسوج: تقسيم إداري ساساني. إذ أن الممالك والأقاليم الساسانية، كانت تنقسم إداريا إلى أقسام تسمى الأستانات، وكان الأستان ينقسم إلى طساسيج، والطسوج ينقسم إلى رساتيق، والرساتيق يتألف من القرى والضياع. (انظر: ماسنيون: نفس المكان، هامش رقم ٤، نفس المكان).

(٢) العدوي: أحوال مكة والمدينة، ج ٢، ورقة ١١٢ - ١١٣.

(٣) السمهودي: الوفاء، ج ١، ص ١٧٧.

قوي جانبهم وأصبح لهم مركز سياسي في المنطقة، اتخذوا الديار والأموال وتفرقوا في عالية المدينة وسافلها، فمنهم من جاء عفا من الأرض لا ساكن فيه فنزله، ومنهم من لجأ إلى قرية من قراها واتخذ الأموال والأطام^(١).

وتعد تلك المواضع التي سكنها كل من الأوس والخزرج واليهود، وخصوصا الأجزاء الجنوبية في نواحيها الشرقية والغربية، وهي المعروفة بالعوالي وقباء والعصبة، من أكبر مناطق المدينة في الكثافة السكانية وفي وفرة المياه والمزارع^(٢)، إذ يتخللها شبكة جيدة من الأودية - كما مربنا - مثل وادي مهزور، من الشرق ووادي مذيبيب، من الجنوب الشرقي، ووادي رانوساء من الجنوب وجزء من وادي بطحان، حيث يلتقي بتلك الأودية في اتجاهه نحو الشمال الغربي للمدينة^(٣). ولا ريب أن وجود تلك الأودية والآبار في جهات العوالي وقباء والعصبة، كان من العوامل الرئيسية في تركيز معظم السكان هناك وممارستهم للزراعة، بشكل كبير^(٤).

وقد ذكر أن خطط المدينة، حين قدم الرسول (ص)، مهاجرا، كانت تبلغ تسعا، كل دار مستقلة بمساكنها ونخلها وزروعها وأهلها، وكل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في محلهم، وهي كالقرى المتلاصقة^(٥). ووصفت أيضا بأنها أحياء مجتمعة، تجاوز حد القرى كثرة وعمارة، ولم تبلغ حد الأمصار^(٦).

وتشيا مع ما نعتقده أنه يمثل التجمعات الكبيرة للأنصار وخططهم، سنرتب دورهم حسب ذلك، مبتدئين بالجهات الشرقية ثم الجنوبية، وأخيرا الجهات الغربية. وعلى ذلك يكون تفصيل دور الأنصار المذكور على النحو التالي:

١ - دار بني عبد الأشهل، وتشمل منازل بني عبد الأشهل بن جشم بن الحارث، ومنازل بني حارثة بن الحارث، ومنازل بني ظفر. وجميعهم من الأوس.

(١) العدوي: أحوال مكة والمدينة، ج ٢، ورقة ١١٣،

السمهودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٠.

(٢) المرجاني: تاريخ هجرة المختار، ورقة ١٦٠ (مخطوط بمكتبة عارف حكمت بالمدينة)،

الديار بكرى: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٣٦،

السمهودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٧ - ١٧٨.

(٣) أورد المطري في وصفه لبعض أودية المدينة نصا يقول فيه: «وادي رانوساء يأتي من شمالي جبل عير المذكور إلى غربي مسجد قباء موضع يعرف بالعصبة، وهي منازل بني جحجبا من الأوس، ينتهي إلى مسجد الجمعة، منازل بني سالم بن عوف من الخزرج، ثم يصب في بطحان، ثم وادي جفاف وهو أعلى موضع بالعوالي شرقي مسجد قباء، ثم وادي مذيبيب وهو شرقي جفاف فوق مسجد الشمس المعروف قديما بمسجد الفضيخ، ثم يصبان في بطحان يلتقيان هما وارانوساء ببطحان، فيمران بالمدينة غربي المصلى، ويصلان إلى مساجد الفتح سيلا واحدا، ويلتقي هو والعقيق عند بشر رومة. ثم وادي مهزور وهو أيضا شرقي العوالي شمال مذيبيب ويشق الحرة الشرقية إلى العريض». (انظر: التعريف، ص ٦٣).

(٤) لوحظ أن الطابع التجاري والصناعي يكاد يميز الجهات الشرقية للمدينة عن غيرها. إذ توجد هناك معظم أسواق المدينة ومحلات الصاغة. (انظر: المطري: نفس المصدر، ص ١٩ - ٢٠، وانظر أيضا: الشريف: مكة والمدينة، ص ٢٨٨).

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، م ٢، ج ٣، ص ٢٠٣.

(٦) كبريت: الجواهر الثمينة، ورقة ٧.

- ٢ - دار بني معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف من الأوس أيضا .
- ٣ - دار كل من بني واقف والسلم أبناء أمراء القيس بن مالك ، وبني وائل بن زيد بن قيس ، وبني أمية بن زيد بن قيس ، وبني عطية بن زيد بن قيس وبني خطمة بن جشم بن مالك وجميعهم من الأوس .
- ٤ - دار بن عمرو بن عوف من الأوس .
- ٥ - دار بني جحجبا بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف من الأوس .
- ٦ - دار كل من بني الحارث بن الخزرج وبني سالم وغنم أبناء عوف بن عمرو وحلفاؤهم من بني غصينة ، حي من بلى ، وبني الحلبي بن سالم بن غنم ابن عوف وجميعهم من الخزرج .
- ٧ - دار كل من بن بياضة وزريق أبناء عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب ، وبني حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب ، وبني عذارة ، وهم بنوكعب بن مالك بن غضب ، وبني اللين ، وهم عامر بن مالك بن غضب ، وبني أجدة وهم بنو معاوية بن مالك بن غضب ، وجميع أولئك من الخزرج .
- ٨ - دار بني ساعدة بن كعب بن الخزرج ، وبني مالك بن النجار ، وفيهم بنو غنم بن مالك وبنو عدي بن عمرو بن مالك ، وبنو حذيلة بن عمرو بن مالك وبنو مبدول بن عامر بن مالك ، وبنو مازن بن النجار وبنو دينار بن النجار ، وجميعهم من الخزرج .
- ٩ - دار بني سلمة وتشمل منازل بني سلمة بن سعد بن سواد بن غنم ، وبني عبيد بن عدي بن غنم وبني حرام بن كعب بن غنم ، وبني مر بن كعب بن سلمة ، وحلفائهم ، وهم من الخزرج^(١) .

ونحب أن ننوه هنا ، إلى أن خطط الأنصار - تلك - قد تحكم في وجودها - إلى حد ما - ثلاثة عوامل طبغرافية ساهمت في عملية توزيع السكان . وأول هذه العوامل : أولا خصوبة التربة ، الغنية بالمادة البركانية والمتوفرة في خطط الانصار على الطرف الغربي للحرّة الشرقية . وثانيا كثرة الأودية في مناطق العوالي ، في قباء والعصبة ، إضافة الى منطقة مجمع الأسياح من رومة ، في سند الحرّة الغربية أي شمال غرب المدينة . وثالثا غزارة المياه المستخرجة من الآبار المتوفرة في باطن المدينة حول المسجد النبوي . وستتناول ما ذكرناه تفصيلا ، خلال البحث ، إن شاء الله .

أما الآن ، فسيكون الحديث عن خطط الأنصار وشرح خريطة المدينة ، بذكر الخطط الموجودة في الجهات الشرقية ثم الجنوبية فالوسطى حيث ينتهي بنا الحديث إلى ذكر الخطط الشمالية الغربية من جبل سلع والمدينة .

وكانت منازل بني حارثة وبني عبد الاشهل وبني ظفر ، تشغل معظم الطرف الغربي لحرّة المدينة الشرقية^(٢) ، وهي المعروفة بواقم^(٣) . ويبدو أن بني ظفر كانوا يمثلون النسبة الكبرى للسكان - في تلك الدار - ولذلك استحوذوا على

(١) انظر : السهمودي : الوفاء ، ج ١ ، ص ١٩٠ - ٢١٥ .

(٢) العجمي : مكة والمدينة ، ورقة ٤٩ .

(٣) حرّة واقم : سميت برجل من العماليق اسمه واقم ، وقيل : واقع اسم أطم من أطام المدينة ، إليه تضاف الحرّة ، وهومن قولهم : وقمت الرجل عن حاجته ، إذا رددته ، فأنا واقم . (انظر : ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ ، مادة حرّة) .

مساحة أكبر. فكانوا يكونون طوقاً، أحاط ببني عبد الأشهل، من الشمال والغرب والجنوب^(١). بعد توسع تدريجي، اقتضته ظروف تكاثرهم. والذي ذكرناه هو استنتاج من الروايات التي ذكرها المطري، من أن دار بني عبد الأشهل، قبلي دار بني ظفر مع طرف الحرة الشرقية^(٢)، ومن رواية السهمودي، التي ترى أن منازل بني عبد الأشهل، كانت قريبة من منازل بني ظفر، في شاميها^(٣). بالإضافة إلى الرواية التي تجمع على أن مسجد بني ظفر، وهو المعروف بمسجد البغلة، كان شرقي البقيع مع طرف الحرة الشرقية^(٤)، أي أن منازل بني ظفر كانت تمتد أيضاً إلى الجهات الغربية لمنازل بني عبد الأشهل. وهو وضع حداً - ببعض الرواة - إلى الاعتقاد، أن دار بني ظفر وبني عبد الأشهل إنما هي دار واحدة متداخلة الأموال والمنازل. وذلك حين ذكر أن الرسول (ص) «مربدار من دور الأنصار من بني عبد الأشهل وظفر»^(٥).

أما بنو حارثة، فكانت منازلهم تتسع إلى الشمال من منازل بني عبد الأشهل ومنازل بني ظفر إلى وادي قناة شمالي المدينة^(٦). وقد ذكر أنهم تحولوا من داره هذه إلى غربي مشهد سيدنا حمزة في الموضع المعروف ببئر من المدينة، لنزاع بينهم وبين بني عبد الأشهل وبني ظفر^(٧).

وتمتد منازل بني معاوية ويقال لها أيضاً قرية بني معاوية^(٨)، غربي منازل بني عبد الأشهل، وبني ظفر^(٩). ويقع مسجد بني معاوية، وهو مسجد الاجابة، شمالي البقيع على يسار طريق السالك إلى العريض.

-
- (١) المطري: التعريف، ص ٧٨،
السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٩٠.
(٢) المصدر السابق، ص ٧٨.
(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٠.
(٤) المطري: المصدر السابق، ص ٥٢،
العجيمي: مكة والمدينة، ورقة ٤٧.
(٥) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٦١٣.
(٦) المطري: المصدر السابق، ص ١٩ - ٢٠،
السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٠ - ١٩٢.
(٧) المطري: التعريف، ص ١٩ - ٢٠،
المرجاني: تاريخ هجرة المختار، ورقة ١٥٩،
السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٩٠ - ١٩٢.
مشهد حمزة: في محاذة جبل أحد، من جنوبه.
(انظر: الانصاري، عبد القدوس: آثار المدينة المنورة، ص ٢٣٧).
(٨) العجيمي: مكة والمدينة، ورقة ٤٧.
(٩) المطري: المصدر السابق، ص ٥٣.
(١٠) المطري: نفس المكان.

مسجد الاجابة: وهو - كما شاهدته - في شمال شرقي البقيع. وقد حاولت قياس المسافة بينه وبين البقيع، فظهر أنها تبلغ أكثر من خمسمائة متر تقريباً، حين تسلك شارع عبد العزيز ثم تنعطف يساراً مع أول طريق فرعي لعمارة السبيعي. حيث تسير مسافة تزيد على مائتين ومتر تقريباً في طريق متعرج ثم ترى على يسارك المسجد المذكور وهو اليوم مبني على الطراز الحديث البسيط بالحديد والأسمنت والطوب الاسمنتي، ويقع وسط بيوت شعبية بين كثير من الأراضي غير المعمورة.

العريض: تصغير عرض، وادي بالمدينة، في شمالها الشرقي وبه آثار كثيرة ونخيل. (انظر: العباسي: عمدة الاخبار، ص ٣٧٠، العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر، ص ٣٦٧).

والى الجنوب مما ذكرنا - من منازل بعض الأوس - تقع منطقة العالية، جنوبي المدينة، ويجري فيها - أيام الأمطار - عدة شعاب وأودية - سبق أن مررنا على ذكرها - كان من أشهرها وادي، مدينيب ومهزور، وكان عليهما منازل بني قريظة وبني النضير^(١). إذ نزلت بنو النضير مدينيب، ونزلت بنو قريظة على مهزور^(٢). ونزل، بين اليهود على هذين الواديين، بعض بطون الأوس والخزرج مثل بني أمية بن زيد بن قيس، ودارهم كانت بالحرة الشرقية قريب العهن^(٣). كما نزل بينهم بنو وائل بن زيد ودارهم شرقي مسجد الفضيخ^(٤)، ونزل أيضا بنو عطية بن زيد، وبنو واقف والسلم ودارهم قبلى مسجد الفضيخ المذكور^(٥). كما نزل في تلك الجهة بنو خطمة بن جشم بن مالك بن الأوس^(٦). ولم تحدد مواضع منازلهم تماما. فقد ذكر المطري أن منازلهم لا يعرف مكانها. إلا أن الأظهر، أنهم كانوا بالعوالى شرقي مسجد الشمس، لأن تلك النواحي كلها ديار للأوس وما سفلى من ذلك إلى المدينة ديار الخزرج^(٧). بينما يرى السمهودي أن لبني خطمة أطما كان موضعه مال الماجشون الذي يلي صدقة أبان بن أبي حدير^(٨).

والذي يبدو لنا، أن ما ذكره المطري هو القريب إلى الصحة، على اعتبار أن قصبة دارهم كانت هناك، ثم تفرقوا عنها وبنوا خارجها. وقد أشار السمهودي إلى تلك الحادثة بقوله: وكان بنو خطمة متفرقين في أطامهم، لم يكن في قصبة دارهم منهم أحد، فلما جاء الاسلام اتخذوا مسجدهم، وابتنى رجل منهم عند المسجد مسكنه، فكانوا يسألون عنه كل غداة مخافة أن يكون السبع عدا عليه، ثم كثروا في الدار حتى كان يقال لهم غزة^(٩). ونستدل من قول السمهودي، أن الناس كانوا يسألون كل غداة عن الرجل، الذي بنى عند مسجد بني خطمة في قصبتهم، أن تلك المنازل كانت في

(١) السمهودي: الوفاء، ج ١، ص ١٦١ - ١٦٤. (وانظر أيضا: الفصل الخاص بعناصر السكان، موضوع اليهود).

(٢) ابن رسته: الأعلام النفيسة، ج ٧، ص ٦١.

(٣) المطري: التعريف، ص ٧٨ - ٨١،

السمهودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٥ - ١٩٨،

العجيمي: مكة والمدينة، ورقة ٥٠.

العهن: بئر بمنطقة العالية، يزرع عليها حتى أيام المطري. وهي غزيرة الماء، لا تكاد تنزف أبدا. انظر: المطري: المصدر السابق، ص ٦٢).

(٤) المطري: نفس المصدر، ص ٧٨ - ٨١،

السمهودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٥ - ١٩٨،

العجيمي: المصدر السابق، ورقة ٥٠.

(٥) المطري: المصدر السابق، ص ٧٨ - ٨١،

السمهودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٥ - ١٩٨،

العجيمي: المصدر السابق، ورقة ٥٠،

العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر، ص ٢٤٦ وما بعدها.

(٦) المطري: المصدر السابق، ص ٨٠.

(٧) التعريف، ص ٨٠.

(٨) الوفاء، ج ١، ص ١٩٧.

مال الماجشون: ويقال الماجشونية. أو كما تعرف اليوم: المدشونية: نسبت إلى الماجشون، علم معرب: وهو موضع بوادي بطحان من المدينة، عند تربة صعب، وهو موضع بطريق وادي بطحان مع ركن الماجشونية الشرقي، وهو على مقربة من ديار بني الحارث بن الخزرج. (انظر: العباسي: عمدة الاخبار، ص ٣٥٣ - ٣٥٤، ٤٠٨).

(٩) المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٨.

أطراف العوالي من جهة الشرق. وهو ما سيجعل من غير المستبعد أن تعدوا السباع على أهلها لابتعادها عن ازدحام العمران.

أما بنو عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، فقد احتلوا منطقة قباء، كثيرة المياه والزروع، فهي - كما أسلفنا القول - تطوقها عدة أودية، هي مذيئيب من جهة الشرق، وبطحان في الشمال، ورانونا في الغرب^(١). وما تجدر ملاحظته هنا أن قباء تعد - طبغرافيا - جزءا من العالية، ولا تختلف عنها كثيرا^(٢)، إضافة إلى منطقة العصبه^(٣)، فهي تعد أيضا امتدادا طبيعيا لمنطقة قباء نحو الغرب. ولذلك، حين خاصم بنو جحجبا بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف، بني عمومته بنو عمرو بن عوف، وكانوا يسكنون معهم في قباء، خرجوا فسكنوا العصبه^(٤). وكانت العصبه أيضا غنية بالمزارع والآبار^(٥).

ونخلص مما سبق إلى أن منازل الأوس الواقعة في شرق المدينة وجنوبها تعد من أفضل مناطق المدينة وأكثرها خصوبة. وذلك عائد إلى مرور كثير من أودية المدينة خلالها، إضافة إلى اشتغال العرب واليهود في استغلال تلك الموارد لتنمية الزراعة بشكل واسع حتى كان لهم غزار المياه وكرام النخل^(٦).

وبعد أن تتبعنا منازل الأوس، التي شملت جهات المدينة الشرقية والجنوبية سيكون حديثنا عن منازل بطون الخزرج التي تغطي باطن المدينة. بالإضافة إلى جهاتها الشمالية الغربية. وبالإمكان تتبع بعض منازلهم من خلال وصف ابن اسحاق لطريق الرسول (ص)، بعد خروجه من قباء إلى باطن المدينة، حيث يقول: «فأدركت رسول الله (ص)، الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، وادي رانونا»^(٧).

(١) السهمودي: نفس المصدر. ج ١، ص ١٩٣ - ١٩٤.

المطري: المصدر السابق، ص ٦٣ - ٦٤.

(٢) الديار بكري: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٣٦. ويقول الواقدي: «من العالية بنو عمرو بن عوف، أهل قباء». (انظر:

المغازي، ص ٨٥، ط ١).

(٣) العصبه: موضع غربي مسجد قباء. (انظر: المطري: التعريف، ص ٦٣، العباسي: عمدة الأخبار، ص ٣٧٢).

(٤) المرجاني: تاريخ هجرة المختار، ورقة ١٦٠،

السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٩٣ - ١٩٤.

(٥) المطري: المصدر السابق، ص ٨٠،

المرجاني: المصدر السابق، ورقة ١٦٠.

(٦) يقول السهمودي: أن عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي قال، قبيل يوم بعث: يا قوم إن بياضة بن عمرو، أنزلكم منزل

سوء، والله لا يمس رأسي غسل حتى أنزلكم منازل بني قريظة والنضير. (انظر: المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٧).

(٧) السيرة، ج ٢، ص ٣٤٣.

مسجد الجمعة: ويعرف ذلك المسجد أيضا، بمسجد الوادي، وهو على يمين السالك إلى مسجد قباء. (انظر: العباسي:

عمدة الأخبار، ص ١٧٠، العجمي: مكة والمدينة، ورقة ٤٧). وشالي مسجد الجمعة أطم خراب يقال له المزدلف، أطم عتبان بن

مالك، شرقي وادي رانونا. (انظر: المطري: التعريف، ص ٥١، السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ١٩٩،

العدوي: أحوال مكة والمدينة، ج ٢، ورقة ١٥٥).

وكانت منازل بني سالم وغنم ابني عمرو بن عوف بن الخزرج، غربي وادي رانوءا على طريق الحرة الغربية^(١). وذلك يعني أن منازلهم هي الحرة التي تلي جنوبي وغربي قلعة قباء، التي في طريق المدينة إلى مسجد قباء هذه الأيام^(٢).

وكان الديار بكري قد ذكر أن النبي (ص)، أخذ يمين الطريق حتى جاء بني الحبل، رهط عبد الله بن سلول^(٣). ومقتضى ذلك، أن دار بني الحبل غير بعيدة من دار بني سالم، فهي كما ذكره المطري: بين قباء وبين دار بني الحارث بن الخزرج، ودار بني الحارث شرقي وادي بطحان^(٤). وذلك يعني أن معظم منازل بني الحبل، كانت غربي وادي بطحان.

وما تجدر ملاحظته، أن ابن اسحاق قد أغفل ذكر مرور الرسول (ص)، على دار بني الحبل. وهو ما يجعلنا نعتقد أن منازلهم كانت متداخلة في منازل بني سالم بن عوف. وكما ذكرنا، فإن منازل بني الحارث كانت بالعوالي، شرقي وادي بطحان^(٥). وهي على ميل من مسجد الرسول، صلى الله عليه وسلم،^(٦) وتسمى منازلهم السنج^(٧).

ويقول ابن اسحاق: فانطلقت (أي ناقة النبي صلى الله عليه وسلم) حتى إذا وازنت دار بني بياضة تلقاه زياد بن لبيد، وفروة بن عمرو، في رجال من بني بياضة^(٨). وكانت دار بني بياضة تشتمل على منازل اخوتهم وبني عمومهم، من بني زريق بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج^(٩)، وبني حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب، وبني عذارة، وهم بنو كعب بن مالك بن غضب، وبني اللين وهم بنو عامر بن مالك بن غضب، وبني أجدة وهم بنو معاوية بن مالك بن غضب^(١٠). وكان العدد والعدة في بني بياضة وبني زريق. ولذلك كانت

(١) المطري: المصدر السابق، ص ٥١،

السمهودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٩،

العباسي: المصدر السابق، ص ١٧٠.

(٢) العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر، ص ١٠٠.

قلعة قباء: وهي من البناء التركي، قريبة من مسجد الجمعة، إذ لا يبعدان كثيرا، والقلعة قريبة أيضا من مسجد قباء، المسافة بينهما حوالي كيلومتر بالسيارة نحو الشمال للذهاب من مسجد قباء. والمعروف أن مسجد الجمعة ليس بالبعيد عن خط قباء النازل المسفلت، فهو على يمين النازل من قباء على بعد حوالي ثلاثين مترا من الخط المذكور. أما القلعة فهي على الجهة الغربية لهذا الخط، ماثلة للعيان غير بعيدة عن مسجد الجمعة.

(٣) تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٤٠.

(٤) التعريف، ص ٧٩. وانظر أيضا: العجيمي: مكة والمدينة، ورقة ٥٠.

(٥) المطري: المصدر السابق، ص ٧٩.

(٦) السمهودي: الوفاء، ج ١، ص ١٩٨،

العجيمي: المصدر السابق، ورقة ٥٠.

(٧) السنج: بضم أوله وسكون ثانيه، موضع في طرف من أطراف المدينة. (انظر: العباسي: عمدة الأخبار، ص ٣٣٩ - ٤٠).

(٨) السيرة، ج ٢، ص ٣٤٣. وانظر أيضا: المطري: المصدر السابق، ص ٨٠.

(٩) السمهودي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٤.

(١٠) السمهودي: الوفاء، ج ١، ص ٢٠٤.

البطون الأخرى تعيش حياة خوف وشك، وقد حدث أن رجلا من بني عذارة قتل قتيلا من بعض بطون بني مالك، فأرادت بنو بياضة أخذ الرجل من بني عذارة - عنوة - فغاضبهم وخرجوا حتى نزلوا قباء على بني عمرو بن عوف، فحالفهم وصاهروهم^(١).

وقد رجح السهمودي أن دار بني بياضة كانت في شامي دار بني سالم بن عوف^(٢). وهذا يعني أن دار بني بياضة هي ما كان شمالي قلعة قباء مع ما يليها من الشرق جنوبي دار بني مازن^(٣).

ومن ديار بني بياضة: نقيع الخطمات وهزم النبيت من حرتهم^(٤). يقول ابن اسحاق، إن أول جمعة جمعت بالمدينة في هزم بني بياضة في نقيع يقال له نقيع الخضبات^(٥). وذكر من ديار بني بياضة أيضا، قرية بني زريق، قبل سور المدينة وقبل المصلى^(٦).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن اسحاق، قد قدم ذكر دار بني بياضة على دار بني الحارث عند وصفه لطريق الرسول من قباء^(٧). بينما رأى غيره أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، مر أولا ببني الحارث ثم مربيني بياضة^(٨). والذي نعتقده أن مسألة التقديم أو التأخير لذكر مرور الرسول (ص)، على بطون قبائل الأنصار حين خروجه من قباء، لا تعني بالضرورة تحديداً لمنازلهم، بقدر ما تظهر حقيقة جديرة بالملاحظة، وهي أن منازل القبائل لم تكن تخضع لحدود مرسومة بالمعنى المفهوم، حتى يمكن الجزم بأن هذه البقعة، هي منازل بني بياضة، وأن تلك هي منازل بني الحارث.

(١) السهمودي: نفس المصدر، ج ١، ص ٢٠٧.

(٢) نفس المصدر، ج ١، ص ٢٠٥.

(٣) المطري: التعريف، ص ٨٠.

السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٥.

المرجاني: تاريخ هجرة المختار، ورقة ١٦١،

العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر، ص ١٠٠، ٢٢٠ - ٢٢٤.

(٤) المطري: المصدر السابق، ص ٨١.

(٥) السيرة، ج ٢، ص ٢٩٦.

الفيروز آبادي: المغانم المطابه، ص ٤١٥ - ١٦.

نقيع الخضبات: (المطري يقول: بقيع الخطمات): بفتح الخاء المعجمة وكسر الضاد المعجمة، والخضيمة: النبات الناعم الأخضر الغضن، والخضيمة أيضا: الأرض الناعمة النبات، جمعها على خطمات كأنهم اسقطوا الباء، تخفيفا لكثرة الاستعمال. والنقيع: لغة، مستنقع الماء، والنقيع: القاع، وهو موضع قرب المدينة يقال له نقيع الخضبات، كما ذكرنا. (انظر: الفيروز آبادي: نفس المكان، العباسي: عمدة الاخبار، ص ٤٣٠).

(٦) المرجاني: تاريخ هجرة المختار، ورقة ١٥٧.

المصلى: هو مصلى العيد، شرقي وادي بطحان. وكان الرسول (ص) يذبح أضحيته بيده إذا انصرف من المصلى، على ناحية الطريق التي كان ينصرف منها، وتلك الطريق والمكان الذي يذبح فيه، مقابل المغرب مما يلي طريق بني زريق. ومن مواضع المصلى اليوم مسجد الغمامة، في جنوب غربي المناخة، غربي المسجد النبوي. (انظر: المطري: التعريف، ص ٥٥، الأنصاري، عبد القدوس: آثار المدينة المنورة، ص ٢٢٢، العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر، ص ٩٠).

(٧) السيرة، ج ٢، ص ٣٤٣.

(٨) الديار بكري: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٤٠.

إذ أن الأمر كان يخضع - ولا ريب - لقلة وكثرة تزايد القبيلة ، فكلما ازدادت حجما بحثت لها عن متسع من الأرض بأي وسيلة . وذلك يعني إمكانية تداخل منازل القبائل مع بعض ، أو على الأقل إحاطة بعضها ببعض من جهة أو أكثر ، مثلما مر بنا عند ذكر منازل بني عبد الأشهل .

وقد يكون ما ذكرناه ، عن منازل بني بياضة واتساعها شرقا - حيث منازل بني الحارث - مجرد افتراضات ، ولم نستنتج ذلك من مجموعة روايات تحدد منازل بني بياضة وبني الحارث . حيث يقول المطري في هذا : « ودار بني الحارث شرقي وادي بطحان^(١) » . ثم يحدد منازل بني بياضة بقوله : « ديارهم فيما بين دار بني سالم بن عوف بن الخزرج بوادي رانونا ، عند مسجد الجمعة إلى وادي بطحان ، قبلى دار بني مازن بن النجار^(٢) » .

وما ذكره المطري من أن دارهم قبلى دار بني مازن . يعني أن دار بني بياضة كانت تمتد أيضا إلى الجهات الشرقية لوادي بطحان . لأن دار بني مازن بن النجار قبلى بئر البصة^(٣) . والمعروف أن بئر البصة ، قرية من البقيع^(٤) ، على يسار السالك إلى قباء^(٥)

وكان بنوزريق يشغلون الجهات الغربية لمنازل بني مازن والجهات الشمالية لبني بياضة^(٦) . وقد حدد المرجاني موضع قرية بني زريق بقوله : أنها قبلى سور المدينة المشرفة وقبلى المصلى ، وبعضها كان داخل السور اليوم لموضعها المعروف به ذي أروان (أو ذيحال) ، وذي أروان اسم محلة بني زريق وهناك بئر تسمى بئر ذي أروان^(٧) .

وفي مركز الوسط أو باطن المدينة^(٨) ، تجد تجمعاً سكانياً آخر لبعض بطون بني الخزرج . وهو التجمع الذي شكل - فيما بعد - ما يشبه الطوق ، حول المسجد النبوي .

وفي شمال غرب تلك الدائرة تفرقت بطون بني ساعدة بن كعب بن الخزرج في أربع منازل^(٩) . فنزل بنو عمرو وبنو

(١) التعريف ، ص ٧٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٨٠ .

(٣) المطري : نفس المصدر ، ص ٨٨ .

البصة : بضم الباء وفتح الصاد المشددة بعدها هاء ، من بصر الماء بصاً ، رشح . (انظر : العباسي : عمدة الاخبار ، ص ٢٦٢) . وقيل في اسمها ، البصة ، كأنها من بصر الماء بضا : رشح . (انظر : الفيروز آبادي : المعاني المطابة ، ص ٣٠) .

(٤) البقيع : هو بقيع الغرقد ، والغرقد هو كبار العوسج ، وهو مقبرة أهل المدينة . وهو غير بعيد من المسجد النبوي ، شرقي المدينة ، وأصل البقيع في اللغة ، كل مكان فيه أصول الشجر من ضروب شتى . (انظر : العباسي : المصدر السابق ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ، الانصاري ، عبد القدوس : آثار المدينة المنورة ، ص ١٧٥) .

(٥) العباسي : المصدر السابق ، ص ٣٦٢ .

(٦) السهمودي : الوفاء ، ج ١ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٨ ، ٢١٣ وما بعدها .

(٧) تاريخ هجرة المختار ، ورقة ١٥٧ .

(٨) ونحب أن ننوه هنا ، إلى أن التعبيرين السابقين «وسط المدينة أو باطنها» سبقنا إلى استعمالهما بعض المؤرخين المسلمين للمدينة .

(انظر : الديار بكرى : تاريخ الخميس ، ج ١ ، ص ٣٤١ ، العدوي : أحوال مكة والمدينة ، ج ٢ ، ورقة ١٣٤) .

(٩) السهمودي : الوفاء ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .

ثعلبة أبناء الخزرج بن ساعدة، دار بني ساعدة، التي بين السوق، أي سوق المدينة وبين بني ضمرة، فهي في شرقي سوق المدينة مما يلي الشمال^(١).

ويقول المطري في تحديده لدار بني ساعدة: «إن قرية بني ساعدة عند بئر بضاعة، والبئر وسط بيوتهم وشالي البئر اليوم إلى جهة المغرب، بقية أطم من أطام المدينة نقل أنه في دار أبي دجانه الصغرى التي عند بضاعة^(٢)».

ويتفق العياشي (وهو من أهل المدينة المعاصرين ومن المهتمين بآثارها) مع الأقوال المذكورة، عن منزلة بني ساعدة. فيذكر أن لبني ساعدة منزلة في شالي المدينة بين ثنية الوداع، وهي ثنية الركاب كما هي ثنية السبق^(٣)، وهي الطريق بين سفح جبل سلع الشرقي وبين المكان المعروف بالقرين الفوقاني^(٤)، وهذا حدهم من الشمال. أما حدهم من الغرب، فهو جبل سلع من مشرقه، وحدهم من الشرق ناحية شارع السحيمي اليوم^(٥)، وحدهم من الجنوب مسجد أصحاب العباءة^(٦)، ومدفن مالك بن سنان الخدري^(٧).

(١) السمهودي: نفس المكان.

(٢) التعريف، ص ٧٥. وانظر أيضا: المرجاني: المصدر السابق، ورقة ١٥٧.

بئر بضاعة: بضم الباء الموحدة وكسرهما وفتح الضاد المعجمة والعين المهملة وبعدها، هاء. وهي بئر مليحة طيبة الماء، وسط بيوت بني ساعدة. (انظر: العياشي: عمدة الأخبار، ص ٢٦٤). ويعتقد اليوم أن البئر المذكورة توجد في مبنى مدرسة أبي بن كعب لتحفيظ القرآن، الكائنة في الساحة الشمالية لسقيفة بني ساعدة وشارع السحيمي، غير بعيدة عنه كثيرا، إذ تزيد المسافة على المئة متر، كما تسنى للباحث الوقوف على ذلك.

أطم أبي دجانه: الأطم الحصن، وأبودجانه من بني ساعدة، صحابي مشهور. ويرى أحد المؤرخين المحدثين، أن بقية أطم أبي دجانه الساعدي، هو ذلك الطلل الباقي من هذا البناء، والموجود في الناحية الشمالية من الحائط المربع، في وهدة من الأرض، قرب الزقاق الموصل إلى فندق آل المدني بالمدينة، الذي أصبح مدرسة للبنات، ويقع في الشمال الغربي من بئر بضاعة. (انظر: الانصاري، عبد القدوس: آثار المدينة المنورة، ص ٧٥-٧٨). وقد تسنى للباحث شخصيا، الوقوف على بقية أطلال أطم أبي دجانه المذكور، خلال عام ١٣٩٨ هـ. فوجد أنه محاط من جهاته الشمالية والشرقية، بمنفذين ضيقين يفصلان بينه وبين المنازل المحيطة. أما الجهة الغربية للأطم فإنها ملاصقة تماما لجدار أحد البيوت، بينما تطل جهته الجنوبية على شارع صغير يعرف بصيادة.

(٣) المدينة بين الماضي والحاضر، ص ٩٥.

ثنية الوداع: الثنية في اللغة، الطريق في الجبل. وهي مكان معروف اليوم في المدينة، في شمالها. (الانصاري، عبد القدوس: المرجع السابق، ص ١٥٩ - ١٦١).

(٤) العياشي: المرجع السابق، ص ٩٥.

(٥) ناحية السحيمي: هي المعروفة بشارع السحيمي، المتجه شرقا من باب الشامي إلى باب بصري. (انظر: الانصاري، عبد القدوس: آثار المدينة المنورة، ص ١٥٧، العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر، ص ٩٥، ٢٠٤ - ٢٠٥).

(٦) والمراد بأصحاب العباءة هنا، الذين يبيعون العبي. وذلك المحل من سوق المدينة القديم. (انظر: السمهودي: الوفاء، ج ٣، ص ٩٢٣).

(٧) مدفن مالك بن سنان: غربي المدينة ملاصقا للسور. ويقع الآن في حي المناخة (وهي أيضا اسم أكبر شارع في غربي المدينة) والمدفن المذكور، يقع في الجهة الشرقية من المناخة. (حافظ، علي: فصول من تاريخ المدينة، ص ١٥٨، العياشي: المرجع السابق، ص ٩٥، ٢٠٤ - ٢٠٥).

ومن بطون بني ساعدة، بنو قشبة، واسم قشبة عامر بن الخزرج بن ساعدة^(١)، وقد نزلوا قريبا من بني حديلة^(٢). وذلك يعني أن منازل بني قشبة في الجهة الشمالية لدار بني ساعدة، وبالتالي شمال المسجد النبوي. لأن تلك الجهات كانت منازل بني حديلة أو جديلة، وكانت بئر حاء، المعروفة هناك، في وسط دورهم^(٣).

ونزل رهط سعد بن عبادة، وهم بنو أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة، الدار التي يقال لها: «جرار سعد»^(٤). وكان ابن زباله - فيما نقله السمهودي - قد ذكر أن عرض سوق المدينة، ما بين المصلى إلى جرار سعد بن عبادة -ع/الخا(٥). ويذكر العياشي أن جرار سعد قد أشارت إلى مكانها الدولة العثمانية، فوضعت مكانها سبيلا مخصصا على تلة صغيرة جدا، انفصلت عن جبل بني الدليل الذي كان يقال له: «المستندر الأدنى»^(٦).

ويمكن القول أن موقع جرار سعد - هذه الأيام - في شمالي مستشفى الملك عبد العزيز، حيث يمر عليها الطريق الموصل من خلف المستشفى المذكور من الشمال إلى طريق الشهداء^(٧).

ومن بطون بني ساعدة أيضا، بنو وقش، وبنو عنان أبناء ثعلبة بن طريف ابن الخزرج بن ساعدة. وقد نزلوا الدار التي يقال لها: «بنو ساعدة» ويقال لها أيضا: «بنو طريف»^(٨). وهي بين الحماضة وجرار سعد^(٩). والظاهر - كما يرى

(١) السمهودي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٩.

(٢) السمهودي: نفس المكان. وبنو حديلة: يضم الحاء المهملة، لقب معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار. (انظر: المطري: التعريف، ص ٧٨، السمهودي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٩). ويقال لهم أيضا بنو جديلة، بالجيم. (انظر: المرجاني: تاريخ هجرة المختار، ورقة ١٥٩). وقيل أيضا في اسمهم: خذيلة، بالحاء والذال. (انظر: العجيمي: مكة والمدينة، ورقة ٤٩). ويبدو أن الاشكال في ذكر اسمهم، كان نتيجة النسخ، فصحف لعدم وجود النقاط على الحروف في معظم الكتب القديمة.

(٣) السمهودي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢١١ - ١٢.

بئر حاء: نخل وبئر من أموال أبي طلحة الانصاري، وكانت مستقبلية المسجد النبوي. (انظر: المطري: المصدر السابق، ص ٥٨).

(٤) وهي جرار كان سعد بن عبادة يسقي الناس فيها الماء بعد موت أمه. وموضعها يكون مما يلي سوق المدينة من جهة الشمال، ويكون المصلى حده الجنوبي. (انظر: السمهودي: الوفاء، ج ١، ص ٢٠٩).

(٥) نفس المكان.

(٦) المدينة بين الماضي والحاضر، ص ٨٩ وما بعدها.

المستندر: هو الجبل الصغير الذي في شرقي مشهد النفس الزكية، بمنزلة الحاج الشامي. (انظر: السمهودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٦٠). وبالنسبة لمشهد النفس الزكية، فقد انتهى اليوم. فلا وجود له.

(٧) العياشي: المرجع السابق، ص ٨٩ وما بعدها.

مستشفى الملك: انشئ في أول عهد الحكومة السعودية، في باب الشامي. (انظر: حافظ، علي: فصول من تاريخ المدينة، ص ٢٤٦).

(٨) السمهودي: الوفاء، ج ١، ص ٢١٠.

(٩) السمهودي: نفس المكان.

الحماضة: هي المعروفة اليوم بالحماطة بأبدال الضاد طاء، وهي ما بين مدفن مالك بن سنان إلى نهاية السلطانية، البستان المزال اليوم. (انظر: العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر، ص ٩٨). ومدفن مالك بن سنان، يقع في غربي المدينة ملاصقا للسور. (انظر: السمهودي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٩٢٣).

السمهودي - أن منازل بني وقش، هي المرادة من القول، أن لبني ساعدة منزلاً في شامي مسجد الراية^(١).

ومن بطون بني الخزرج، القاطنين باطن المدينة، بنو النجار، وكانوا نهاية المطاف لطريق الرسول (ص)، من قباء، حيث بركت ناقته، حين أتت دار بني مالك بن النجار واختط المسجد، حيث بركت الناقة^(٢). وبعد بناء المسجد أصبحت دار بني غنم بن مالك بن النجار واقعة شرقية^(٣). ومن أزقتهم في تلك الجهة، مما يواجه باب جبريل، زقاق بني غنم^(٤).

وفي غربي المسجد، كانت دار بني عدي بن النجار^(٥). أما دار بني خدرة فكانت عند بئر البصة^(٦). وبئر البصة - كما ذكرنا آنفاً - بئر قريبة من البقيع في جنوبه، على يسار السالك إلى قباء^(٧)، أي أن دارهم واقعة جنوب شرقي المسجد النبوي وجنوبي البقيع، الواقع شرقي المسجد. وإلى جوار بني خدرة، كانت منازل بني مازن بن النجار، حيث ذكر أن منازلهم جنوبي بئر البصة ودار بني خدرة^(٨). وكانت منازل بني خدرة، وهم أخوة بني خدرة، واقعة جنوبي دار بني ساعدة عند الأطم الذي بجرار سعد^(٩). أي أن منازلهم إلى الشمال من المسجد النبوي. وإلى جوارهم من جهة الشرق، كانت منازل بني حديلة، وقد مر ذكرهم - ودارهم عند بئر حاء^(١٠)، مستقبلة المسجد أي أنها في شماله^(١١).

(١) نفس المصدر، ج ١، ص ٢١٠.

مسجد الراية: هو مسجد ذباب، وقد صلى النبي (ص)، على جبل ذباب. وضرب قبته عليه. (انظر: السمهودي: نفس المصدر، ج ٣، ص ٨٤٥). ومسجد الراية هنا، هو ما كان يعنيه المطري، ولم يكن يعرف اسمه، حين حدد موضعه بقوله: إنه أعلى ثنية الوداع، عن يسار الداخل إلى المدينة من طريق الشام. (انظر: التعريف، ص ٥٥). ويرى السمهودي أن المراد بذلك الوصف الذي أورده المطري، هو المسجد المعروف بمسجد الراية نفسه. وهو مبني بالحجارة المطابقة على صفة المساجد العمرية، أي التي بنيت على عهد عمر بن الخطاب، وكان قد تهدم هذا المسجد. فجدد سنة خمس وأربعين وثمانمائة من الهجرة. (انظر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٨٤٥ - ٨٤٧).

(٢) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٤٣.

(٣) المطري: التعريف، ص ٧٧.

السمهودي: الوفاء، ج ١، ص ٢١٠.

(٤) انظر: العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر، ص ١٦٨.

(٥) المطري: المصدر السابق، ص ٧٧ - ٧٨.

(٦) المطري: نفس المكان.

(٧) العباسي: عمدة الأخبار، ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

العياشي: المرجع السابق، ص ١٣٤.

(٨) المطري: المصدر السابق، ص ٧٧.

(٩) المطري: نفس المصدر، ص ٧٩.

السمهودي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٩. ومما تجدر الإشارة إليه، أن العجيمي قد ذكر أن مسجد بني خدرة، شامي سوق المدينة بقرب سقيفة بني ساعدة (والسقيفة هي المعروفة اليوم في مثلث الحديقة الكائنة في رأس شارع السحيمي من جهة الغرب). والصحيح أن المراد، هم بنو خدرة وليس بني خدرة، لأن ذلك الوصف الذي أورده العجيمي ينطبق على ما سبق ذكره عن منازلهم. (انظر: مكة والمدينة، ورقة ٤٩).

(١٠) المطري: التعريف، ص ٧٨.

السمهودي: الوفاء، ج ١، ص ٢١١.

العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر، ص ١٦٧ - ١٧٢.

(١١) السمهودي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٩٦١.

وقد ذكر المطري، أن دار بني دينار بن النجار، واقعة بين دار بني حديلة وبين دار بني معاوية، أهل مسجد الاجابة^(١). أي أنها تمتد في الجهات الشرقية للمسجد النبوي. وكان السهمودي قد نقل عن ابن زباله قوله: ونزل بنو دينار بن النجار، دارهم إلى خلف بطحان المعروفة بهم^(٢). وكان ابن زباله يريد بقوله «خلف بطحان»^(٣)، الجهة الغربية لبطحان لأنها خارج باطن المدينة. واعتبر السهمودي ما ذكره ابن زباله، أقرب وأولى بالاعتماد من قول المطري، أنها شرقي المسجد النبوي^(٤).

ومن الآراء التي حاولت التوفيق بين ما ذكر عن دار بني دينار، ما رآه بعضهم، من أن دارهم لا بد وأن تكون وسيعة من المشرق للمغرب، سعتها من الجنوب إلى الشمال. وأن بعضها لذلك في الحرة الغربية، في المواضع المعروفة بالسقيا وجبل أنعم، بالإضافة إلى موضعي نقب بني دينار، ومسجد المنارتين^(٥). وقد ذكر أيضا بأن لمالك بن النضر، والد أنس بن مالك من بني حديلة، دارا في طريق مكة غربي المسجد النبوي شرقي العقيق عند مسجد السقيا^(٦).

(١) المصدر السابق، ص ٧٨. وقد عددهم المطري من الخزرج. وهو خطأ. والصواب أنهم بنو معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف من الأوس. (انظر: نفس المكان، السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٥).

(٢) نفس المصدر، ج ١، ص ٢١٣.

(٣) السهمودي: نفس المكان.

(٤) نفس المكان.

(٥) انظر: العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر، ص ١٨٥.

السقيا: بالضم ثم السكون، تأنيث اسم من سقاء الغيث وأسقاه، وهو اسم يثر بالمدينة يقال لارضها الفلجان، بضم الفاء، في بني حديلة، في دار مالك بن النضر، والد أنس بن مالك، في طريق مكة، غربي المسجد النبوي، شرقي العقيق، عند مسجد السقيا، في بيوت السقيا. (انظر: العباسي: عمدة الأخبار، ص ٣٣٦). وبيوت السقيا: هي البقع، والبقع: نقب بني دينار الاتي ذكره. (انظر: الواقدني: المغازي، ص ١٢، ط ١).

جبل أنعم: بفتح العين. وقيل بضم العين. ويعرف أيضا باسم الجبل الأحمر، وراء مسجد المنارتين. (انظر: العباسي: المصدر السابق، ص ٢٣٨).

مسجد المنارتين: من طريق العقيق الكبير. وهويين السقيا وبركة وبيك، وشرقي البركة جبل أنعم الأحمر. وهذا المسجد مربع، سيع أذرع في سبع طولاً وعرضاً. وبينه وبين الطريق سبعة أذرع. وما بقي منه (عام ٩٧٢ هـ) إلا مكان المنارتين، وشي، من الاحجار، ومن بناء المسجد قدر ذراع باق من كل الجهات. ومحراه وبابه بين. (انظر: العباسي: نفس المصدر، ص ١٩٧).

نقب بني دينار: النقب: الخرق في الجلد أو الجدار أو نحوهما. والنقب: الطريق الضيق في الجبل. (انظر: مجموعة من المؤلفين: المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٩٥٢، مادة نقب). ونقب بني دينار: في منطقة السقيا - الأنفة الذكر - ويقال له: نقب المدينة، وهو في طريق العقيق بالحرة الغربية، وبه السقيا. (انظر العباسي: المصدر السابق، ص ٤٣٢). وقد سلك الرسول (ص)، نقب بني دينار على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة، يوم غزوة ذات العشيرة، يعترض لغيرات قريش حين أبدأت إلى الشام. (انظر: الواقدني: المصدر السابق، ج ١، ص ١٢ - ١٣، طبعة أكسفورد). وقد إتاحت للباحث، عام ١٣٩٨ هـ فرصة، زار خلالها جهات السقيا. وقد ذكر أن هناك منازل بني دينار، إلا أن الباقي من حصونهم لا يعدو كونه بعض الركام من الاحجار البركانية، التي لا يمكن تمييزها - لأول وهلة - عما حولها من أرض الحرة. وتلك الاطلال - تقوم اليوم - جنوب غربي المدينة، وجنوب محطة السكة الحديد على طريق عروة المسفلت، وهذا الخط هو حدها الشمالي. أما الجبل الأحمر، فيقع اليوم جنوب غرب محطة السكة الحديد، على بعد اقل من كيلومتر - تقريباً - على يسار الخارج من المدينة في طريق عروة. وهو جبل صغير هرمي الشكل، فوقه خزان ماء تابع للعين الزرقاء. وبإمكان الواقف - فيما يسمى منازل بني دينار، بالسقيا - أن يرى هذا الجبل الصغير مثلاً أمام ناظره.

(٦) العباسي: عمدة الأخبار، ص ٣٣٦.

ولعلنا من تلك الأقوال - عن وجود دور لبني دينار وبني حديلة في جهات متعددة من المدينة - نستنتج أن القبائل القاطنة في باطن المدينة، قد يكون لبعضها أموال وتحصينات في أطراف المدينة. وقد تكون تلك الأموال داخل دور قبيلة أخرى، خصوصاً، وأن القبائل - حينذاك - كانت تتعامل بالحصون والآطام، وكأنها أشياء منقولة. فقد تجعل دية القتل من القبيلة الأخرى، أطماً في منازلها^(١). ومن ذلك نرى أنه من غير المستبعد أن يكون لبني دينار أموال غربي وادي بطحان - كما أسلفنا القول - وهي دارهم الأصلية، جوار بني حديلة، حيث تغطي الجهات الشمالية والشرقية، وربما الجنوبية للمسجد النبوي.

وذكر أن دار بني مبذول، واسمه عامر بن مالك بن النجار، كائنة غربي دار بني دينار، في شرقي الدور التي تلي قبلة المسجد النبوي^(٢). أي جنوبي المسجد.

ومن خطط الأنصار في الجهة الشمالية الغربية لجبل سلع إلى سند الحرة الغربية، خطط بني سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن شاردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج^(٣)، وخطط بني سواد بن غنم بن كعب بن سلمه^(٤)، وخطط بني عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمه^(٥)، وخطط بني حرام^(٦). وجهتهم من أكثر جهات المدينة وفرة في المياه، لمرور أودية العقيق وبتحان وقناة خلالها^(٧). وهذه المنازل تغطي في معظمها الجهات المعروفة قديماً باسم يثرب - كما مر بنا - وكانت تعد من أهم قرى المدينة^(٨).

وكانت دار بني سلمة بن سعد، ما بين مسجد القبلتين^(٩)، إلى المذاد، أطم بني حرام في سند الحرة الغربية^(١٠).

(١) ذكر في هذا المجال، أن أطم الخصى: وهو فعيل من خصاه. ابتناه بنو السلم من الأوس، شرقي مسجد قباء، ثم صار بعد لبني المنذر في ديه جدهم. (انظر: الفيروز آبادي: المغامم المطابة، ص ١٣).

(٢) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ٢١٢ - ١٣.

(٣) السهمودي: نفس المصدر، ج ١، ص ٢٠١.

(٤) السهمودي: نفس المكان.

(٥) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ٢٠٢.

(٦) السهمودي: خلاصة الوفاء، ص ٣٩١.

(٧) المطري: التعريف، ص ٥٣ - ٥٤.

السهمودي: الوفاء، ج ٤، ص ١٣٣٢.

(٨) المطري: المصدر السابق، ص ١٩.

(٩) السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠١.

مسجد القبلتين: يبعد عن مسجد الفتح (القائم على سفح جبل سلع في ناحيته الغربية) من جهة الغرب، على رابية على شفير وادي العقيق، وحوله خراب عتيق على الحرة، ويعرف موضعه بالقاع، وحوله آبار ومزارع تعرف بالعرض في قبلة مزارع الجرف. (انظر: المطري: المصدر السابق، ص ٥٤). أما الجرف: بالضم ثم السكون، موضع على ثلاثة أميال من المدينة من جهة الشمال. وسمي بالجرف لأن تبعاً مر به فقال: هذا جرف الأرض، وذلك حسب طريقة المؤرخين القدماء في تفسير الاسماء، وكان اسم الجرف قبل ذلك، العرض. (انظر: العباسي: عمدة الأخبار، ص ٢٨٨).

(١٠) السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠١.

المذاد: هي تكل ما في غربي مجري وادي بطحان، مما يلي مسجد الفتح. انظر: العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر، ص

(٤٧).

مسجد الفتح: على قطعة من جبل سلع من جهة الغرب. (انظر: المطري: المصدر السابق، ص ٥٣، الأنصاري، عبد القدوس: آثار المدينة المنورة، ص ١٢٥ - ٢٧).

وكانت دار بني سلمة هذه، تسمى خريبي^(١). وقيل خرابا^(٢). ومنهم من ذكر أن اسمها خزبي بالخاء والزاى على وزن حبلى^(٣).

ونزل بنو سواد بن غنم بن كعب بن سلمة، عند مسجد القبليتين المذكور^(٤). ويبدو أن منازلهم كانت تتسع نحو الشرق والجنوب لمسجد القبليتين. ومستدلنا على ذلك، ما ذكره السهمودي من أنه توجد لهم أطاما شرقي مسجد القبليتين على شرف الحرة، وعند منقطع السهل من أرض بني سلمة^(٥). كما توجد لهم أطاما جنوبي المسجد على ظهر الحرة^(٦). ومقتضى ذلك أن منزلة بني سواد تقع في النهاية الشرقية للحرة الغربية من شياها^(٧).

ونزل بنو عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة، عند مسجد الحرة إلى جبل الدوخل^(٨). وإلى الشرق من منازل بني عبيد، كانت توجد منازل بني حرام، في مسجد القبليتين ومسجد الحرة، إلى عهد عمر بن الخطاب^(٩). ولذلك كان السيل يحول بين بني حرام وبين صلاة الجمعة في المسجد النبوي، فطلبوا من الرسول (ص)، التحول إلى أقرب مجال لمنازلهم، فدخلوا شعبا في سفح جبل سلع من جهة الغرب^(١٠). حيث عرف ذلك الشعب - فيما بعد - باسمهم. فقل شعب بني حرام^(١١). ويذكر السهمودي أن هناك آثار منازلهم وآثار مسجدهم في غربي جبل سلع على يمين السالك إلى مساجد الفتح من الطريق الجنوبية، وعلى يسار السالك إلى المدينة، وعلى مقربة من محاذاته في جهة المغرب، حصن خل^(١٢).

(١) وقيل، شياها الرسول (ص)، طلحة. وقيل صلحة بضم الصاد. (انظر: السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ٢٠١).

(٢) المطري: التعريف، ص ٥٤.

(٣) العباسي: عمدة الأخبار، ص ٣١٦.

(٤) السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠١.

(٥) نفس المكان.

(٦) السهمودي: نفس المكان.

(٧) إلباشي: المدينة بين الماضي والحاضر، ص ٦٤١.

(٨) السهمودي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٢.

مسجد الحرة: مسجد لبني عبيد، ومنازلهم عنده. (انظر: العباسي: المصدر السابق، ص ٢٠٧). أما بالنسبة لجبل الدوخل: ويقال له جبل بني عبيد. وقربه جبل صغير آخر لهم، يسمى جبل بحينة، غربي بني حرام في الغرب، جانحا في الشمال. والقاصد إلى مسجد القبليتين، من جهة مساجد الفتح، يمر من منازلهم. (انظر: العباسي: نفس المكان). ويعرف جبل بحينة اليوم، بضلع عقاب. (انظر: إلباشي: المرجع السابق، ص ٥٨ - ٥٩).

(٩) السهمودي: خلاصة الوفاء، ص ٣٩١.

العباسي: عمدة الأخبار، ص ٢٠٧.

(١٠) السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ٢٠٣. وانظر أيضا خلاصة الوفاء، ص ٣٩١.

(١١) السهمودي: نفس المكان.

(١٢) الوفاء، ج ١، ص ٢٠٤.

حصن خل: بالخاء المعجمة، وكان يعرف بقصر خل: غربي بطحان. وقد بني على أيام معاوية، أمير المؤمنين، ليكون حصنا لأهل المدينة. وإنما سمي قصر خل، لأنه على الطريق، وكل طريق في حرة أورمل يقال له: خل. (انظر: السهمودي: نفس المصدر، ج ٤، ص ١٢٨٩).

ثانيا : عوامل اختيار موضع المدينة، وأصالة تخطيطها

يرى معظم المؤرخين المسلمين أن نزول الرسول (ص)، في خطة بني مالك بن النجار، إنما كان من قبيل المصادفة وعدم التخطيط المسبق. وأن خروجه، صلى الله عليه وسلم، من قباء، كان على غير هدى أو تدبير. والذي ذكرناه، لا يعدو كونه اجتهادا بنينا على مما أورده المؤرخون المسلمون، من أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يقول للأنصار، كلما اعترضوا طريق ناقته، طالبين منه النزول بينهم: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة^(١)». وفي هذا أيضا يقول ابن اسحاق: «حتى إذا أتت ناقته دار بني مالك بن النجار، بركت على باب مسجده (وهو يومئذ مربد لغلامين يتيمين من بني النجار، هما سهل وسهيل ابنا عمرو، كانا في حجر معاذ بن عفراء). فلما بركت ورسول الله (ص)، عليها لم ينزل وثبت، فسارت غير بعيد ورسول الله (ص)، واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفت إلى خلفها، فرجعت إلى مبركها أول مرة، فبركت فيه ثم تلحلت وأرزمت ووضعت جراتها فنزل عنها رسول الله (ص) واحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله، فوضعه في بيته، ونزل عليه رسول الله (ص)، وسأل عن المربد لمن؟ فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو، وهما يتيمان لي وسأرضيهما منه. واتخذ مسجدا^(٢)».

وليس هناك ما يمنع من اعتبار الرواية السابقة صحيحة ومقبولة، على اعتبار أن الرسول (ص)، لم تكن لديه فكرة كاملة، عن طبيعة أرض المدينة أو حقيقة طبغرافيتها، لعدم مشاهدته بنفسه تلك البقعة على الطبيعة والواقع، حين قدم مهاجرا. ولذلك لم يعط الأنصار رأيا نهائيا، عن المكان الذي سيتخذ منه مركزا لخطط المهاجرين، تحسبا لما قد يستجد من الأمر، خلال مسيره من قباء، مما يحمله على تغيير ما ارتآه^(٣).

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض المؤرخين المسلمين، ذكر أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، حينما كان في قباء، أرسل إلى بني النجار، فجاءوا متقلدين السيوف، وطلبوا منه الركوب معهم إلى دارهم آمنا مطاعا^(٤). ولعلنا من هذا أيضا، نستدل على أنه ربما كانت لدى الرسول، فكرة أولية، عن طبيعة موضع مسجده - اليوم، كما سبق أن ذكرنا - ولذلك أرسل إلى بني النجار، وكانوا أخوال جده عبد المطلب^(٥)، وهذا - ولا شك - سيجعل منهم سندا قريبا يعتز به فيما لو احتاج إلى ذلك، خصوصا وأن بعض زعماء الخزرج، كعبد الله بن أبي، كانوا كارهين لوجود محمد في المدينة^(٦).

(١) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٤٣.

(٢) نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٤٣ - ٣٤٤.

(٣) وقد روى عن النبي (ص)، أنه ركب إلى العقيق، ثم رجع فقال: «يا عائشة جئنا من هذا العقيق فما ألين موطأه وأعذب ماءه. قالت: يا رسول الله أفلا نتقل إليه؟ فقال: كيف وقد ابتنى الناس». (انظر: المطري: التعريف، ص ٦٥، ابن النجار: الدرة الثمينة، ص ٣٠). وروى عنه أيضا أنه قال: «لو علمنا هذه أولا لكانت المنزل». (انظر: الهمداني: مختصر البلدان، ص ٢٥).

(٤) مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ٤٢،

الديار بكرى: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٣٩.

(٥) مجهول: المصدر السابق، ورقة ٤٢.

(٦) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٤٢٢ - ٢٣. وذكر أن شيخا من بني عمرو بن عوف، يقال له أبو عفك، وكان شيخا كبيرا، قد بلغ عشرين ومائة سنة، حين قدم النبي (ص)، المدينة كان يحرض على عداوة النبي (ص). ولم يدخل الاسلام. (انظر: الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٧٤ (طبعة اكسفورد).

وما نظن أن هناك تعارضاً، بين القول، أن اختيار موضع المسجد النبوي وخطط المهاجرين، قد كان عن تخطيط أولى، اعتمل في ذهن النبي (ص)، وبين القول: إن الرسول (ص)، كان يقول عن ناقته: «خلوا سبيلها، فإنها مأمورة». فهذا - في رأينا يعد أحد دلائل نبوته، حيث بركت الناقة في وسط دور بني النجار، الذين أرسل إليهم النبي (ص)، فجاءوا متقلدين السيوف وطلبوا منه الركوب معهم إلى دارهم آمنًا مطاعاً^(١).

ولو استعرضنا إجراءات هجرة الرسول (ص)، لوجدنا أنها كانت - في جميع تفاصيلها - تخطيطاً محكماً، وضع لكل طرف ومفاجأة، حلاً وتدابيراً -/الحا^(٢). ولم يحدث أن الرسول (ص)، ألقى بنفسه إلى التهلكة، على اعتبار أنه رسول الله ومبلغ دعوته، وبالتالي فإن الله ناصره ومعينه. وما لا ريب فيه، أن تدبير سكنى المهاجرين في المدينة، كان يحظى بالعناية من قبل الرسول (ص)، ويستأثر على جل اهتمامه. ومن غير المستبعد أن تكون تلك المسألة من ضمن مخطط الهجرة، الذي وضعه الرسول (ص)، منذ أن أجمع الخروج إلى يثرب وأحكم أمره وتديره. وقد أطلعنا على رأي للمطري يتفق وما ذهبنا إليه، من أن أمر اختيار موضع مسجد الرسول في بني النجار، كان عن تخطيط مبدئي قديم، أعقبه رغبة في التأكد والتحقق من صلاحية المكان، قبل اختياره الاختيار الأخير. وذلك حين قال «روى الزبير بن بكار عن محمد بن الحسن بن زباله عن محمد بن طلحة بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن عتبة عن أبيه قال: اختار رسول الله (ص)، على عينه، فنزل منزله وتخيره وتوسط الأنصار. قلت ولا ينافي ذلك ما ورد أنه لما ركب من قباء يوم الجمعة كان كلما حاذى أومر على دار من دور الأنصار، يدعونه إلى المقام عندهم: يارسول الله هلم إلى القوة والمنعة. فيقول لهم: خلوا سبيلها، يعني ناقته، فإنها مأمورة. وهو قد أرخى لها زمامها وما يحركها^(٣)».

ولقد رأينا - مما سبق - أن مناطق قباء والعصبة والعالية كانت من أكثر جهات المدينة اكتظاظاً بالسكان، إضافة إلى أن المهاجرين الأولين، لما قدموا إلى المدينة، قبل هجرة النبي (ص)، نزلوا بقباء والعصبة^(٤). وكان بإمكان الرسول (ص)، الاستقرار بقباء^(٥). غير أن وقوعها في الجنوب من طرف سهل المدينة الذي ينحدر على مهل نحو الشمال^(٦)، قد جعل منها - في رأينا - غير مؤهلة أن تكون مركز الفعالية كمدينة إسلامية للأنصار والمهاجرين. إذ يتعذر امتداد ذلك

(١) مجهول: المصدر السابق، ورقة ٤٢.

(٢) يقول ابن اسحاق: فلما أجمع رسول الله (ص)، الخروج، أتى أبا بكر بن أبي قحافة، فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار ثور - وهو جبل بأسفل مكة - فدخلا، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيها نهاره ثم يأتيها إذا أمسى، بها يكون في ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامر بن فهير موله، أن يرعى غنمه نهاره، ثم يريحها عليها، يأتيها إذا أمسى في الغار، وكانت أسهاء بنت أبي بكر، تأتيها من الطعام إذا أمسيت بها يصلحها. (انظر: السيرة، ج ٢، ص ٣٣٥ - ٣٦).

(٣) التعريف، ص ٤٣.

(٤) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٨٥ - ٨٧.

(٥) ذكر أن الرسول (ص)، لما خرج من قباء، اجتمعت بنو عمرو بن عوف فقالوا: أخرجت ملالاً منا أم تريد داراً خيراً من دارنا؟ قال: إني أمرت بقرية تأكل القرى. (مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ٤٢، الديار بكرى: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٣٩). ويبدولنا أن المراد بقله «قرية تأكل القرى»، هو تكاثر سكانها وتوسع خطتها على ما حولها.

(٦) كحالة: جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٧٤.

السهل نحو الجنوب أو الشرق، وبالتالي تتعذر امكانية التوسع السكاني معه نحو تلك الجهات المذكورة وسبب ذلك وجود عوائق طبيعية: جغرافية وجيولوجية. وهي التي أعطت للمدينة شكلا فريدا بين المدن الإسلامية، يقرب إلى هيئة الشكل المستطيل^(١).

ومما تجدر ملاحظته أن تلك الظروف الجغرافية والجيولوجية، قد ساهمت مساهمة كبيرة، في عملية توفر القناعة، بصلاحية اختيار مركز ذلك الشكل لسكنى المهاجرين. إذ أن تساوى الاتجاهات من مركز الشكل إلى أضلاعه، سيساعد - ولا ريب - على إيجاد توازن للتوسع المرتقب، في خطط القبائل في المدينة. كما أنه سيجعل من عملية التوسع خارج المدينة، نحو الشمال والغرب، حيث وادي العقيق، عملية نافعة اجتماعيا واقتصاديا. فهو من الناحية الاجتماعية سيخفف الضغط السكاني من قبل المهاجرين على خطط الانصار، كلما اتجهوا لسكنى تلك الجهات، كما أنه سيعمل على ازدهارها عمرانيا وزراعيا^(٢)، وذلك بالعمل على إحياء معظم تلك الأراضي البور القابلة للخصوبة والزراعة^(٣). وبالإضافة إلى ذلك فإن تلك الجهات، من المدينة - كما سبق أن ذكرنا - كانت أكثر تخلصا سكانيا وقادرة على استيعاب نزلاء جدد لوجود فضل في خطط الأنصار أكثر من غيرها^(٤).

وطبقا للمبررات الأنفة الذكر، أختير موقع المسجد الجامع، وهو المسجد النبوي، في مركز وسط من المدينة - تقريبا - أو كما كان يعبر، في باطنها^(٥). أو كما قيل في نحو من وسطها^(٦). حتى يتيسر على المسلمين الاتصال بالرسول (ص) دون مشقة أو عناء، حيث أصبح المسجد نقطة البداية لخطط المهاجرين والأنصار التي أطافت به من جميع الجهات^(٧).

(١) والذي ذكرناه، عن شكل المدينة، هو اجتهاد ببناءه على ما ذكره المؤرخون المسلمون، من أن حرم المدينة، كان بريدا في بريد. وذلك ما بين جبلتها غير إلى ثور (وهو شمالي أحد) من الجنوب إلى الشمال، وما بين لابتها، أي حرتيها الشرقية والغربية. (انظر: كبريت: الجواهر الثمينة، ورقة ٨).

(٢) هناك أحاديث كثيرة، تروى عن الرسول (ص)، تحب سكنى وادي العقيق، من ذلك ما سبق ذكره، من حديث عامر بن سعيد بن أبي وقاص قال: ركب رسول الله (ص)، إلى العقيق ثم رجع فقال: يا عائشة جئنا من هذا العقيق فما ألين موطأه وما أعذب ماءه. قالت: أفلا نتقل إليه؟ قال: وكيف وقد ابنتي الناس. (انظر: المطري: التعريف، ص ٦٥). ومن ذلك أيضا ما روى عن عبد الله بن مطيع قال: بات رجلان بالعقيق ثم أتيا رسول الله (ص)، فقال: أين بتما؟ فقالا: بالعقيق، فقال: بتما بواد مبارك. (انظر الحميري: الروض المطار، ص ٤١٧). وقد ابنتي بعض الصحابة بالعقيق، وكانت فيه الآبار العذبة والقصور المشيدة، مثل قصر سعيد بن العاص وقصر عروه ابن الزبير، وقصر مروان بن الحكم وغيرهم. (انظر: الهمداني: مختصر البلدان، ص ٢٦، ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٤٦ - ٤٨، ابن النجار: الدرة الثمينة، ص ٣١).

(٣) Holt P.M; The Cambridge History of Islam, vol. 1.p.41.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٥.

(٥) مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ٤٢،

الديار بكرى: تاريخ الخميس، ص ٣٤١.

(٦) الاصطخري: المسالك والممالك، ص ٢٣.

(٧) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢٤٠، المطري: التعريف: ص ٣٧ - ٤٣،

السمهودي: الوفاء، ج ٢، ص ٧١٧ وما بعدها. وقد كانت عادة بناء المساكن حول أماكن العبادة، معروفة في مكة قديما. حيث جعلت مركز النشاط في الشئون العامة. فقد ذكر أن قريشا وغيرها من قبائل مكة، لم يبنوا - بادئ الأمر - حول الكعبة دورا مشيدة، احتراماً لها. وكانوا يسكنون في شعاب مكة. فقال لهم قصي: إن سكتكم حول البيت، هابتكم الناس ولم تستحل قتالكم والهجوم عليكم. فبدأ هو، أولا وبني دار الندوة ثم قسم الجهات، بين قبائل قريش. فبنت قريش دورها حول الكعبة. (انظر: الأزرقى: أخبار مكة، ج ١، ص ١٠٣ - ١١٥، بإسلامة، حسن عبد الله: تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص ٥ - ٦، ط ١، جدة، ١٣٥٤ هـ).

وقد لخص العدوي أسباب اختيار باطن المدينة، لاقامة خطط المهاجرين بقوله: وكانت دار بني النجار أوسط دور الأنصار وأفضلها^(١)

ثالثا: التطور في تخطيط المدينة، وسكنى المهاجرين مع الإشارة لمساحة المدينة

كان المسجد النبوي - كما رأينا - أول شيء اختط في وسط المدينة، بعد قدوم الرسول (ص)، من قباء^(٢). وقد ظلت قواعده الأولى، منذ أن أسسه الرسول صلى الله عليه وسلم، النواة التي نمت حولها مشاريع تعميره وتوسعته، منذ عهد الرسول (ص)، إلى أيامنا هذه^(٣). ولهذا فإن المسجد النبوي، يعد خير إحدائية يمكن اتخاذها كبداية لتعيين خطط المهاجرين في المدينة بعد الهجرة، والتي كانت - في معظمها - عبارة عن قطائع أو خطط، تنازل عنها الأنصار للمهاجرين من كل فضل كان في خططهم^(٤)، أو كانت في عفا من الأرض ليست لأحد، فيقطعها الرسول لأصحابه^(٥).

ولعل من أول ما بنى، في خطط المهاجرين حول المسجد، بيوت نساء النبي (ص)، وهي تسعة أبيات بنيت في أوقات مختلفة^(٦)، وكانت عبارة عن مجموعة حجرات، خارجة من المسجد مديرة به من ثلاث جهات. هي أولا

(١) أحوال مكة والمدينة، ج ٢، ورقة ١٣٤. كما روى عن النبي (ص)، حديثا قال فيه: خير دور الأنصار بنو النجار ثم بنو عبد الأشهل، ثم بنو الحارث بن الخزرج، ثم بنو ساعدة، وفي كل الأنصار خير. (انظر: ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ٣). والظاهر، أن الرسول (ص)، يقصد بالدار هنا، المنزل وليس المنزلقة: لأنه لو كان يقصد المنزل لعد معهم قبائل المهاجرين، وكان فيهم من السابقين إلى الاسلام من صدق إيمانه وصحت عزيمته، ولم ينكر دوره الكبير في الجهاد، والالتفاف حول الرسول، صلى الله عليه وسلم، للذود عن الاسلام ونشر دعوته. مثل قبائل، قريش، وثقيف، وغفار، وسليم وغيرهم.

(٢) انظر: ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٤٤،

السمهودي: الوفاء، ج ١، ص ٣٢٢.

(٣) كان المسجد النبوي، على عهد الرسول (ص)، مبنيا باللبن وسقفه جريد، وعمده جذوع النخل. وقال أهل السير: بنى النبي (ص)، مسجده مرتين. بناء حين قدم، أقل من مائة في مائة، وقيل سبعين في ستين ذراعا أو يزيد. فلما فتح الله عليه خيبر، بناء وزاد عليه الدور مثله. وجعل له ثلاثة أبواب، باب في مؤخره أي في جهة القبلة اليوم يدخل منها عامة أصحابه، وباب يدعى بباب عائكة ويقال له باب الرحمة، وباب يدخل منه النبي (ص)، وهو باب عثمان اليوم المعروف بباب جبريل. وهذان البابان، لم يغيرا بعد صرف القبلة، ولما صرفت، سد الباب الذي كان خلفه وفتح هذا الباب حذاه، أي محاذات المسدود، خلف المسجد، أي اتجاهه. (انظر: مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ٥-٧، المطري: التعريف: ص ٣٢، السمهودي: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣٤). وبعد وفاة النبي (ص)، توالى على المسجد عدة زيادات، خلال كثير من العهود إلى أيامنا هذه. (انظر: الأنصاري، عبد القدوس: آثار المدينة المنورة، ص ٩٢-١١٣، العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر، ص ٢٠٨ وما بعدها).

(٤) مجهول: المصدر السابق، ورقة ٤.

(٥) الهمداني: (ابن الفقيه): مختصر البلدان، ص ٢٤ (طبعة ليدن، ١٣٠٢ هـ). السمهودي: المصدر السابق، ج ٢، ص

٧١٨.

(٦) انظر: ابن فضل الله العمري: مسالك الابصار، ج ١، ص ١٢٦. وذكر أن لحارثة بن النعمان الانصاري، منازل قرب المسجد حوله. فكلما أحدث رسول الله (ص)، أهلا، تحول له حارثة عن منزله حتى صارت كلها لرسول الله (ص). (انظر: مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ٧). وكان النبي (ص)، ينزل، قبل بناء المسجد والبيوت، على أبي أيوب، خالد بن زيد الأنصاري التجاري. (انظر: ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٤٤). حيث أقام عنده سبعة أشهر. (انظر: مجهول: المصدر السابق، ورقة ٦). وتقع دار أبي أيوب في الناحية الجنوبية الشرقية للمسجد، وبينها وبين دار عثمان بن عفان، في شرق المسجد، زقاق يعرف بزقاق الحبشة. (انظر: المطري: التعريف، ص ٤٣، الأنصاري، عبد القدوس: آثار المدينة المنورة، ص ٢٨-٢٩).

الجنوبية، حيث بدأ البناء حولها، ثم الشرقية فالشمالية^(١). وهي غير ملتصقة بجدار المسجد، إذ أن أبوابها كانت شارعة^(٢) فيه. وكانت فاطمة بنت رسول الله (ص) وزوج علي رضي الله عنه، تسكن أحد البيوت الملاصقة لبيوت أبيها في الجهة الشرقية^(٣).

وحين خط الرسول (ص)، الدور، حول المسجد لم يخط - بادئ الأمر - لمعظم المهاجرين الأوائل، فظلوا نازلين في خطط الأنصار بعلالية المدينة وبقباء، كل على من نزل عنده^(٤). ويذكر ابن سعد. أن المقداد بن عمرو وخباب بن الأرت، لما هاجرا إلى المدينة، نزلا على كلثوم بن الهدم فلم يبرحوا منزله حتى توفي، قبل أن يخرج رسول الله (ص)، إلى بدر بيسير، فتحولا، فنزلا على سعد بن عباد، فلم يزالا عنده، حتى فتحت بنو قريظة^(٥). وكان أبو بكر الصديق قد نزل على خارجة بن زيد بن أبي زهير، في بني الحارث بن الخزرج بالسنح وتزوج ابنته، ولم يزل فيهم حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٦). كما نزل بعض بني زهرة في بني عمرو بن عوف، في قباء^(٧).

(١) مجهول: المصدر السابق، ورقة ٧. وكانت أبيات النبي (ص)، بالإضافة إلى ما ذكر متسمة بالبساطة، ومنها أربعة بلبن لها حجر من جريد، وخمسة أبيات من جريد مطينة لا حجر لها، على أبوابها مسح الشعر. وقد ذرع ذلك الشعر فوجد أنه ثلاثة أذرع في ذراع. (انظر: ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٩٩ - ٥٠٠، العدوي: أحوال مكة والمدينة، ورقة ١٣٥ - ٣٧).

(٢) العدوي: نفس المكان. وما يجدر ذكره هنا، أن أحد المهتمين بدراسة العمارة الإسلامية، قد التبس عليه الأمر بشأن طريقة بناء حجرات النبي (ص) فوهم أنها في جهة واحدة، هي الجهة الشرقية فحسب. (انظر: شافعي، د. فريد: العمارة العربية، ج ١، ص ٦٤ - ٦٧). كما وقع في خطأ جسيم، حين اعتبر المسجد النبوي عبارة عن قصر كبير بناه النبي (ص)، لنفسه ولآل بيته. حيث يتكون - كما يرى - من حجرات يتقدمها فناء واسع أحاطه بجدران لا تكاد تعلو على قامة الرجل، وجعل في إحدى أركانه صفة أو ظلة، يحتمي بها الفقراء من أصحابه. (انظر: شافعي، د. فريد: نفس المكان). والذي يدولنا أنه أراد بهذا التصوير المتعسف، تبرير فكرته، التي تذهب إلى أن بناء المسجد، والبيوت التي حوله، إنما كانت عن تخطيط مسبق. فرأى - فيما يبدو - أن فكرته تلك، قد لا تستقيم، مالم يؤكد أن البناء قد تم في وقت واحد. على أساس أن الغرض الأول هو بناء دار لنفسه، أما فكرة تحويله إلى مسجد، فأنها لم تظهر إلا بعد تحويل القبلة. (انظر: شافعي، د. فريد: نفس المصدر، ص ٦٥). والشواهد التي بين أيدينا والتي مرت بنا، خلال هذا البحث، تؤكد جميعها، أن الرسول (ص)، فكر في بناء المسجد، بمجرد أن حط رحاله على بني النجار. وكانت بعض النصوص تذكر أن موضع مسجده قد اتخذ بعض الأنصار موضعا لصلاتهم، قبل قدوم الرسول (ص) مهاجرا. (انظر: مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ٤).

(٣) مجهول: نفس المصدر، ورقة ٧.

المطري: التعريف، ص ٣٦ - ٣٧.

(٤) المقرئ: امتاع الاسماع، ج ١، ص ٥٠. ومن هؤلاء المهاجرين، الذين ظلوا نازلين في خطط الأنصار، نذكر بعض من نبه ذكره مثل: أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ومولاه سالم. وعنه بن غزوان بن جابر بن وهب، حليف بني نوفل بن عبد مناف. والزبير بن العوام بن خويلد. وحاطب بن أبي بلتعة، وسعد مولا، وهم حليفان لبني أسد بن عبد العزي بن قصي، وغيرهم. (انظر: ابن سعد: الطبقات، ج ٣، في أماكن متفرقة).

(٥) نفس المصدر، ج ٣، ص ١٦٥ - ١٦٦.

(٦) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ١٧٤. ويذكر أيضا، أن لأبي بكر، دارا قريبة من بيوت النبي (ص)، في شرقي المسجد، أقطعها الرسول (ص)، أبا بكر. (انظر: السهوي: الوفاء، ج ٢، ص ٧١٨ - ١٩). وموضع دار أبي بكر تلك، في شارع الملك عبد العزيز، اليوم، وقد أدخل جزء منها في الرحلة المقابلة لباب النساء. (انظر: الانصاري، عبد القدوس: آثار المدينة المنورة، ص ٣٧).

(٧) ذكر أن سعد بن أبي وقاص بن عبد مناف بن زهرة وعمير أخوه، لما هاجرا من مكة إلى المدينة، نزلا في منزل لأخيها عتبة بن أبي وقاص وكان بناه في بني عمرو بن عوف وحائط له. وكان عتبة أصاب دما بمكة فهرب، فنزل في بني عمرو بن عوف، وذلك قبل يوم بعث. (انظر: ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣٩).

وكان الرسول (ص)، يقطع بعض المهاجرين، في خطط الأنصار. فأقطع - فيما بعد - المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك القضاعي، حليف بني زهرة، في بني جديلة، شمالي المسجد النبوي، وذلك بعد أن دعاه إلى تلك الناحية، أبي ابن كعب^(١). كما ذكر، أن بالمدينة قوما من الحضرميين ولهم دار تعرف بدار الحضرميين، في بني جديلة^(٢). وقد نزل في بني ساعدة، بعض الكنديين^(٣)، وكذلك نزلوا في بني زريق^(٤).

ويبدو أن تكوين دار القبيلة أو خطتهم، كان يبدأ على شكل قطعة فردية لأحد الناهين في القبيلة، حيث تتجمع حولها دور بقية الناس من القبيلة وحلفائها. وقد كانت دار بني زهرة شمالي المسجد، قد بدأت على شكل حش (وهو نخل صغار لا يسقى)، أقطع لعبد الرحمن بن عوف^(٥)، ثم نمت حولها - فيما بعد - دور الأفراد والأحياء^(٦). وكانت دور بني زهرة أو خطتهم، تشغل بعض الأراضي الشمالية للمسجد، وقد تنعطف على المسجد من جهة الغرب^(٧).

ومما تجدر الإشارة إليه، في هذا الصدد، أن خطط القبائل في المدينة، على عهد الرسول (ص)، لم تكن قبلية خالصة، بمعنى أن الخطة لا يسكنها إلا القبيلة نفسها. فقد لاحظنا - مما سبق - نزول كثير من المهاجرين في خطط الأنصار. ولما أقطع الرسول (ص)، الدور جعل لأبي سلمة المخزومي موضع داره عند دار بني عبد العزي الزهرين^(٨). ولذلك من النادر أن يقال، خطة بني فلان، حيث كان من الشائع أن يقال مثلاً: دار آل عمر^(٩). أو حي من أحياء العرب^(١٠).

وقد كونت الدور الشوارع حول المسجد، ما يشبه الخطة الواحدة، حيث جمعت عدة قبائل من المهاجرين، وبعض الأنصار، وهو ما سوف نشير إليه بعد. وكانت تلك الخطة في معظمها قطائع فردية اقتطعت من كل فضل كان

(١) ابن سعد: نفس المصدر، ج ٣، ص ١٦١.

(٢) البلاذري: الأنساب، ج ١، ص ١٠. وقد ذكر السهمودي: أن هناك زقاقاً بالمدينة يعرف بزقاق الحضارمة، في شرقي مؤخر سوق المدينة، مما يلي الشمال. (انظر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٦١).

(٣) ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٥٦٠.

(٤) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ١٤٣.

(٥) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ١٢٦.

ابن شبه: أخبار المدينة، ورقة ٧٥ - ٧٦.

ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٣٥٦.

السهمودي: الوفاء، ج ٢، ص ٧١٧ - ١٨.

(٦) ذكر أن عبد الله وعته ابني مسعود الهذليين، وحليفي بني زهرة، جعل لهما خطتهما عند المسجد، في بني زهرة. فقال حي من بني زهرة، يقال لهم بنو عبد بن زهرة، لرسول الله (ص): نكب عنا ابن أم عبد (يعني عبد الله ابن مسعود) فزجرهم الرسول (ص)، بقوله: ان الله لا يقدس قوماً لا يعطي الضعيف منهم حقه. (انظر: ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٢).

(٧) السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٢٨.

(٨) ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٤٠.

(٩) السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧١٧ - ١٨.

(١٠) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٤٦.

في خطط الأنصار^(١). وكانت قبل الهجرة، عبارة عن خطة قبلية كان يشغلها عدة بطون خزرجية، مثل بني النجار وبني جديلة وبني خدره وبني خدارة وبني ساعدة^(٢).

ومن تلك الدور الشوارع حول المسجد، دور بني زهرة شمال المسجد، وقد مر ذكرها. ودور بني عدي، ومن أشهرها دار آل عمر بن الخطاب، جنوبي المسجد^(٣)، وقد تمتد دورهم إلى البقيع شرقاً^(٤)، وإلى السوق غرباً^(٥).

وإلى القرب من بني عدي، في الجهة الجنوبية للمسجد، توجد دور لبعض مهاجري ثقيف^(٦). وبلي دار آل عمر، في جنوبي المسجد من غربها^(٧)، دار القضاء، وكانت لعمر بن الخطاب، فبيعت في قضاء دينه، بعد موته^(٨). وكان بعض هذه الدار للنحام - يعني نعيم بن عبد الله من بني عدي - وبعضها من دار العباس ابن عبد المطلب^(٩). وقرب دور بني عدي، دار عبد الله بن مكحل الزهري^(١٠)، وهي شارة في رحبة دار القضاء^(١١)، غربي المسجد^(١٢).

ولبني تيم، في الجهة الجنوبية الغربية للمسجد النبوي، دور عامره، شارة في المغرب^(١٣). وهذه الجهة هي من منازل بني النجار، وخاصة بني مالك بن النجار^(١٤). وقد ذكر أن لطلحة بن أبي طلحة الأنصاري، حشا كان ينعطف

(١) مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ٤.

(٢) انظر: السهمودي: الوفاء، ج ٢، ص ٧٣٢ - ٣٣. (وراجع الحديث عن خطط الانصار).

(٣) المطري: التعريف، ص ٣٧ - ٤٠.

السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧١٨، ٧٢٠.

(٤) مالك: الموطأ، ج ١، ص ٧٢.

(٥) ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٤٤٨ - ٤٩. وكانت دار آل عمر، مريدا يتوضأ فيه أزواج النبي (ص)، فلما توفي، استخلصته

حفصة بنت عمر، بثلاثين ألف درهم، فورثها عنها عبد الله بن عمر. (انظر: السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧١٨).

(٦) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٢٢.

(٧) السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٢٠.

(٨) الفيروز آبادي: المغامم المطابة، ص ١٨.

دار القضاء: وقد آلت دار القضاء، إلى ملك أمير المدينة، مروان بن الحكم، في أوائل النصف الثاني من القرن الأول الهجري، فعرفت بدار مروان بن الحكم. وكانت ملاصقة للمسجد النبوي، قبل ازالتها في جهته الجنوبية الغربية شرقي باب السلام. وقد ادخل بعض أرضها في الشارع الجديد جنوبي المسجد، وادخل بعض أرضها الآخر في بناء المحكمة الشرعية الكبرى، وذلك أثناء التوسعة السعودية للمسجد النبوي. (انظر: السهمودي: الوفاء، ج ٢، ص ٧٢٠ - ٧٢١، الأنصاري، عبد القدوس: آثار المدينة المنورة، ص ٤٣).

(٩) السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٢٠.

(١٠) السهمودي: نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٢٤.

ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٣٧٣.

(١١) السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٢٤.

(١٢) السهمودي: نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٢٥.

(١٣) السهمودي: نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٢٦ - ٢٧.

(١٤) السهمودي: نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٢٥.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٦.

على المسجد من جهة الشام^(١). ولبنى تيم أيضا، دور في زقاق البقيع، شرقي المسجد النبوي^(٢).

ومن دور المهاجرين، في الخطة المحيطة بالمسجد، أيضا، دور بني مخزوم، في أول جهة المشرق، مما يلي الشمال، أي أنها في بني جديلة^(٣). وجنوب دورهم، تقع دار عثمان بن عفان^(٤). وكانت تعرف بدار مشيخة الحرم^(٥).

ويوجد في الجهات الغربية للمسجد، مما يلي مصلى العيد حتى منازل بني زريق من الأنصار، عدة دور لكثير من القبائل مثل بني مخزوم وبني زهرة وبني عدي وبني عامر بن لؤي وبني أسد، وبني دوس وبعض أهل اليمن^(٦).

وكما أسلفنا القول، فإن معظم القطاعات في الخطة المحيطة بالمسجد، كانت - في معظمها - قطائع فردية، بعكس ما أصبح عليه الحال بالنسبة لبعض القطاعات الأخرى، ظاهر المسجد، إذ كانت قطائع جماعية قبلية تقطع لمجموعة كبيرة، وقد يشاركهم فيها غيرهم. والمثل على ذلك، خطة بني غفار (وهم بنو غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناف بن كنانة)، وكانت قطيعة قطعها لهم النبي، صلى الله عليه وسلم، في الجهات الكائنة غربي سوق المدينة ومصلى العيد إلى وادي بطحان^(٧). والذي سهل انفرادهم بالمنزل، أنهم كانوا ظاهر المسجد، وأن مساكنهم كانت عبارة عن مجموعة خيام حول مسجدهم^(٨). ويفصل بين خطة بني غفار شمالا، وخطة بني ليث بن بكر، طريق يدعى طريق بني الليث ومن يشاركهم في ذلك^(٩). ودور بني ليث، من طرف المصلى الغربي إلى وادي بطحان^(١٠)، وقد تمتد إلى شمال شرقي سوق المدينة، وشمال منزلة بني ساعدة^(١١)، أي شمال غربي المسجد النبوي. وإلى الشمال من بني ليث نزل بنو

(١) السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٢٧،

العباسي: عمدة الاخبار، ص ٣٠٧.

(٢) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ١٧٥،

السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٣١ - ٣٢.

(٣) السهمودي: نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٢٩ - ٣٠.

(٤) السهمودي: الوفاء، ج ٢، ص ٧٣٢.

(٥) مشيخة الحرم: هي دار كانت مخصصة لاقامة شيخ الحرم النبوي، في عهد الحكومة العثمانية. ويحدها شمالا طريق البقيع، وجنوبا زقاق الحبشة (عرضه حوالي مترين) وقد أدخل جزء من الدار في الشارع الجديد الواقع شرقي المسجد بعد التوسعة السعودية. (انظر: الانصاري، عبد القدوس: آثار المدينة المنورة، ص ٣٤ - ٣٦). ويذكر المطري أن باب جبريل (وهو باب عثمان بن عفان، وكان يدخل منه النبي، صلى الله عليه وسلم) الكائن في الحائط الشرقي للمسجد النبوي، كان مقابلا لدار عثمان ثم اشترى عثمان ما حولها إلى الجنوب والشرق. وشمال الدار، الطريق من باب جبريل إلى البقيع. (انظر: التعريف، ص ٣٨).

(٦) المطري: نفس المصدر، ص ٥٤،

السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٤٠ - ٤٧،

ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٤٩٠، ج ٢، ص ٤٧١ - ٧٢.

(٧) السهمودي: الوفاء، ج ٢، ص ٧٥٧ - ٥٩.

(٨) المطري: التعريف، ص ٧٦،

المرجاني: تاريخ هجرة المختار، ورقة ١٥٧.

(٩) السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٥٩.

(١٠) السهمودي: نفس المكان.

(١١) العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر، ص ٤١١ - ١٢.

ضمرة بن بكر، محلّتهم التي يقال لها ضمرة، بثنية الوداع^(١)، وإلى الشمال الغربي منهم نزل بنو الدليل بن بكر، محلّتهم إلى جبل المستندر^(٢). ويبدو أن بني ضمرة وبني الدليل، كانوا يكونون خطة واحدة مع أسلم ومالك ابني أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر، ويشاركونهم أيضاً، هذيل بن مدركة. فقد ذكر أن منازل أسلم ومالك، كانت تشمل تلك الجهات الكائنة شمالي ثنية عثعث^(٣)، وشرقي مؤخر سوق المدينة مما يلي الشمال^(٤). وكانت منازل هذيل، في السفح الجنوبي الشرقي لجبل سلع، ما بين شمالي منازل أشجع (ابن ريث بن غطفان) إلى جنوبي ثنية عثعث^(٥).

وتتد منازل أشجع من ثنية الوداع إلى جوف شعب سلع والمعروف بشعب أشجع في السفح الشرقي لجبل سلع^(٦).

وبالنسبة لمزينة، وهم بنو هذبة بن لاطم بن عثمان بن عمرو^(٧)، فتمتد منازلهم، في غربي مصلى العيد إلى عدوة وادي بطحان الشرقية^(٨)، وقد تأخذ في اتساعها نحو الجهات الجنوبية للدور التي بالمصلى ثم خطة بني زريق^(٩). وقد نزل معهم في محلّتهم، بنو شيطان بن يربوع من بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر، كما نزل معهم، بنو سليم بن منصور وعدوان بن عمرو بن قيس^(١٠).

ويبدو أن كثرة عدد بني مزينة ومن حل معهم، قد اضطرهم إلى التوسع في المنزل نحو الشرق حتى وصلت دورهم إلى قرب البقيع^(١١)!

(١) السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٦٠،

العياشي: المرجع السابق، ص ٤١٤.

(٢) السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٦٠،

العياشي: المرجع السابق، ص ٤١٥.

(٣) ابن شبة: أخبار المدينة، ورقة ٨٥،

السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٦٠.

ثنية عثعث: تنسب إلى الجبل الذي يقال له سليع - مصفرا - والثنية بينه وبين جبل سلع في الجنوب الشرقي لسلع، وهي إلى الجنوب من ثنية الوداع، المار ذكرها. (انظر: العباسي: حملة الأخبار، ص ٢٨٤).

(٤) السهمودي: الوفاء، ج ٢، ص ٧٦١.

(٥) السهمودي: نفس المكان.

(٦) قال عروة بن الزبير: قدمت أشجع في سبعمائة يقودهم مسعود بن ربيعة، فنزلوا شعبهم فخرج إليهم رسول الله (ص) بأحمال التمر. فقال يا معشر أشجع ما جاء بكم؟ قالوا: يا رسول الله جئناك لقرب ديارنا منك، وكهرنا حرب قومنا لقلتنا فيهم. (انظر:

السهمودي: نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٦٣، ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٤١٠).

(٧) ابن حزم: الحمرة، ص ٤٨٠ وما بعدها.

(٨) السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٦١ - ٦٢.

(٩) السهمودي: نفس المكان،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

(١٠) ويذكر أنهم إنما نزلوا جميعاً، لأن دارهم في البادية واحدة. (انظر: السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٦١).

(١١) السهمودي: الوفاء، ج ٢، ص ٧٦٢.

وقد شكلت منازل جهينة (ابن زيد بن السود بن الحارث بن قضاة) ويلي (ابن عمرو بن الحاف بن قضاة) خطة واحدة تمتد إلى الشمال من خط أسلم، الذي بين أسلم وجهينة، إلى دار بني حرام، في بني سلمة، غربي مساجد الفتح، بمحاذاة السفح الغربي لجبل سلع^(١). وكان النبي (ص)، هو الذي خط المسجد الذي لجهينة ولن هاجر من بلى، بين خيامهم^(٢).

ونزل بنو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن، في محلتهم التي يقال لها بنو جشم^(٣)، وهي في بني زريق من الشرق، أي في الجنوب الغربي للمسجد^(٤).

أما بنو فزارة (هم من ذبيان بن بغيض من غطفان) فكانت خطتهم إلى الشمال من خطة اشجع في السفح الشمالي الشرقي لسلع. حيث نزلت بنو مالك ابن حماد، وبنو زعيم وبنو سكين من فزارة بن ذبيان، في تلك الجهة^(٥).

ومجدربنا - بعد هذا الاستعراض، لخطط الأنصار والمهاجرين - أن نشير إلى أن البناء لم يكن منتشرًا بشكله الواسع في كل مساحة المدينة المعروفة، والتي تقدر على أنها بريد في بريد^(٦). ولذلك كان الجغرافيون المسلمون يرون أن المدينة أقل مساحة من نصف مساحة مكة^(٧).

وقد كان البناء والعمران بالمدينة، منتشرًا في جهات، العالية وقباء والعصبة ويثرب القديمة، بالإضافة إلى الأجزاء المحيطة بالمسجد النبوي. بينما لم تحظ بقية أجزاء المدينة الأخرى - على عهد الرسول (ص) - بتوسع البناء وانتشاره نحو الغرب - على وجه الخصوص - كما حصل فيما بعد^(٨). وقد استنتجنا ذلك من حديث رواه أبو أسيد بن علي بن مالك الأنصاري قال: قال رسول الله (ص): إذا رأيت البناء قد بلغ سلعا فأتمر بالشام، فإن لم تستطع فاسمع وأطع^(٩). وبصرف النظر عن ضعف الحديث، أو عدمه، فإن المهم أنه يهدينا إلى حقيقة، كانت قائمة على عهد

(١) المطري: التعريف، ص ٧٦،

السمهودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٦٣.

(٢) المطري: المصدر السابق، ص ٧٦،

المرجاني: تاريخ هجرة المختار، ورقة ١٥٧ - ٥٨.

(٣) السمهودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٦٤.

(٤) السمهودي: نفس المكان.

(٥) السمهودي: نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٦٤ - ٦٥.

(٦) المطري: التعريف، ص ١٥ - ١٦، ٦٨،

ابن النجار: الدرر الثمينة، ص ٢٨ - ٢٩، ٤٠.

(٧) الاضطحري: المسالك والممالك، ص ٢٣.

(٨) ذكر أن سعد بن أبي وقاص مات في قصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة فحمل إلى المدينة وصلى عليه مروان بن الحكم سنة ٥٥ هـ. (انظر: ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ١٣٩ - ٤٩). ويمكننا أن نستدل من هذا النص على مدى اتساع العمران في المدينة بعد عصر النبي (ص).

(٩) ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ٨.

النبي (ص)، وهي أن البناء لم يكن قد وصل إلى جبل سلع. وذلك على الرغم من أن سلعا لم يكن بعيدا من الخطة المعمورة حول المسجد النبوي، من زاويتها الشمالية الغربية. ولذلك كانت جوارى الأنصار يخرجن لرعي غنم سادتهن بسلع^(١).

وقد سبق أن أشرنا إلى أن مساكن القبائل في تلك الجهات، حول سلع، كان عبارة عن خيام وأخبية^(٢). ولذلك نجد أن المسلمين، يوم الخندق، حين فكروا بحفر الخندق، جعلوه في تلك المناطق المفتوحة والخالية من التحصينات، إذ كان سائر المدينة مشبكا بالبنين^(٣). مما يعني أن خطط القبائل المهاجرة، في هذه الجهات، من غربي المدينة، إنما كانت منشأة، بعد حفر الخندق، وقبيل فتح^(٤) مكة، خصوصا وقد روى عن النبي (ص) قوله: لا هجرة بعد الفتح. كما ذكر أن أسلم جاءت رسول الله (ص) وهو في طريقه لفتح مكة، بغدير الأشطاط، جاء بهم بريدة بن الحصيب فقال: يا رسول الله، هذه أسلم وهذه محالها، وقد هاجر إليك من هاجر منها وبقي قوم منهم في مواشيهم ومعاشهم فقال رسول الله (ص): أنتم مهاجرون حيث كنتم^(٥). أي أن الرسول (ص)، لم يأمرهم أو يشجعهم على الهجرة إلى المدينة في تلك الأثناء. وما نستدل به أيضا على أن هجرة معظم القبائل إلى المدينة، كانت قبيل فتح مكة، ما ذكر من أن الرسول (ص)، قبل الخروج من المدينة، لما أبان الغزو وفتح مكة، أرسل إلى أهل البادية وإلى من حوله من المسلمين يقول لهم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان المدينة. وبعث رسول الله في كل ناحية حتى قدم عليه، أسلم وغفار، وضمرة ومزينة وجهينة وأشجع. وبعث إلى بني سليم. فلقيته بقديد (موضع قرب مكة)، وأما سائر العرب فخرجوا من المدينة^(٦).

وقد حفر الخندق طولا، أعلى وادي بطحان غربي الوادي مع الحرة، إلى غربي مصلى العيد ثم إلى مسجد الفتح إلى الجبلين الصغيرين الذين في غربي الوادي^(٧).

ويبدو أن من أسباب قلة البناء أو التوسع فيه إلى جبل سلع، واكتفاء معظم المهاجرين بالسكنى في الأخبية أو

(١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٢٨.

(٢) انظر: المطري: التعريف، ص ٧٦،

المرجاني: تاريخ هجرة المختار، ورقة ١٥٧ - ٥٨. وقد تكون تلك الأخبية من الجلود، حيث ذكر أن أم مسلم الأشجعية، قالت: دخل علي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأنا في قبة من آدم (جلد) فقال: ما أحسنها إن لم يكن فيها ميتة. (انظر: ابن حجر: الاصابة، ج ٤، ص ٤٩٦).

(٣) الواقدي: المغازي، ج ٢، ص ٤٤٦. (طبعة أكسفورد).

(٤) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

(٥) الواقدي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٨٢. (طبعة أكسفورد).

غدير الأشطاط: على ثلاثة أميال من عسفان مما يلي مكة. (انظر: السهودي: الوفاء، ج ٢، ص ٣٥٢).

(٦) الواقدي: المغازي، ج ٢، ص ٧٩٩ (طبعة أكسفورد).

(٧) المطري: التعريف، ص ٦٥،

المرجاني: تاريخ هجرة المختار، ورقة ١١٦. أما عن الجبلين المذكورين، فهما جبلا بني عبيد. ويقول المطري: يقال لاحدهما

رابح، وللآخر جبل بني عبيد. (انظر: المصدر السابق، ص ٦٥).

الحيام، إنما يعود إلى الحالة الاقتصادية التشفيفية التي مرت بالمسلمين، مع بداية هجرتهم. فقد ذكر أن أم سلمة (زوجة النبي، صلى الله عليه وسلم) لما غزا رسول الله (ص) غزوة دومة الجندل، بنت حجرتها بلبن (وكانت من جريد) فلما قدم رسول الله (ص)، نظر إلى اللبن فدخل عليها أول نسائه، فقال: ما هذا البناء؟ فقالت: أردت يا رسول الله أن أكف أبصار الناس، فقال: يا أم سلمة، إن شر ما ذهب فيه مال المسلمين البنيان^(١).

رابعا: لمحة عن أثر تخطيط المدينة على مدن الأمصار

ويجدر بنا، وقد ألمنا بشيء من العوامل التي دعت إلى اختيار موضع المدينة، كقاعدة للهجرة، وبناء المسجد في وسطها كأول نقطة لبداية خطط المدينة بعد الهجرة، أن نورد بعض المقارنات بين خطط ونظم المدينة وبين بعض مدن الأمصار الإسلامية، للتعرف على أوجه الشبه أو الاختلاف في ذلك. وستكون عنايتنا، مدن كل من البصرة والكوفة والفسطاط، على اعتبار، أن في عناصر سكانها أعدادا كبيرة من قبائل المدينة التي هاجرت إلى هناك، في جيش الفتوحات الإسلامية، والذين كانوا يشكلون عنصر الزعامة والعدد الكبير في أهل تلك المدن^(٢).

وكان الطبري قد أورد نصا يفهم منه أن طريقة تخطيط مدن الأمصار الإسلامية، كانت تأتي للولاية رأسا من المدينة، فيعملون على تنفيذها بحذافيرها^(٣). وعلى هذا يمكن القول بأن تخطيط المدينة - بعد الهجرة - يعد رائدا في مجاله ونموذجا، سار على منواله مخطوطا مدن الأمصار، كالبصرة والكوفة والفسطاط^(٤).

وقد أشرنا في مستهل هذا البحث إلى وجود تشابه كبير بين كل من البصرة والكوفة من جهة، وبين المدينة المنورة من جهة أخرى، في النواحي الطبغرافية. إذ أن كل مدينة قبل تخطيطها إسلاميا، كانت أهلة بالسكان ومستوطنا قديما، لا يخلو من العمران والمزارع^(٥). وذلك يعني أن ظروف تخطيط كل من المدينة المنورة أو البصرة والكوفة، كانت متشابهة

(١) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٩٩.

(٢) انظر: ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٣٣، ٤٧ - ٤٨.

المقريزي: الخطط، ج ٧، ص ٣ - ٥، ٥٢.

ماسنيون: خطط الكوفة، ص ٩ - ١٤.

الجنابي: تخطيط مدينة الكوفة، ص ١، ٤٢، ٧٨ - ٨٠.

دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية لمجموعة من المترجمين، ج ٣، مادة البصرة. وقد ذكر أن عمر كتب إلى عثمان بن حنيف، وكان على الكوفة: أن احمِل إلى أهل المدينة أعطيتهم، فإنهم شركائهم، فكان يحمل ما بين العشرين ألف إلى الثلاثين ألف ألف درهم. (انظر: اليعقوبي: تاريخ، ج ٢، ص ١٥٢).

(٣) يقول، عن تخطيط الكوفة (على يد سعد بن أبي وقاص سنة ١٧ هـ): «وقد بنى سعد في الذين خطوا للقصر قصرا ببحال محراب مسجد الكوفة اليوم، فشيده، وجعل فيه بيت المال، وسكن ناحيته ثم ان بيت المال نقب عليه نقبا، وأخذ من المال، وكتب سعد بذلك إلى عمر ووصف له موضع الدار وبيوت المال من الصحن، مما يلي ودعه الدار. فكتب إليه عمر: أن انقل المسجد حتى تضعه إلى جنب الدار واجعل الدار قبلته، فإن للمسجد أهل بالهار وبالليل، وفيهم حصن لما لهم، فنقل المسجد وأراغ بنيانه». (انظر: تاريخ، ج ٤، ص ٤٦).

(٤) شافعي (د. فريد): العمارة العربية في مصر الإسلامية، ج ١، ص ٦٧ - ٦٨.

(٥) يذكر الطبري، أنه كان في الكوفة قبل تخطيطها من قبل المسلمين، ديرات ثلاثة: دير حرقة، ودير أم عمرو، ودير سلسلة، وخصاص خلال ذلك. (انظر: تاريخ، ج ٤، ص ٤١). وكذلك الحال بالنسبة للبصرة، حين نزها عتبة بن غزوان، كان بها سبع دساكر (جمع دسكرة وهي الضيعة أو المزرعة المسكونة بالفلاحين) بالزابوقة، والخريبة، وموضع بني تميم والأزد. (انظر: الطبري: نفس المصدر، ج ٣، ص ٥٩٠ - ٩١، ماسنيون: خطط الكوفة، ص ١٠، الهامش رقم ١، نفس المكان).

تقريباً. والذي لوحظ في نواحي الشبه بين المدينة المنورة وبين المدن الإسلامية، من حيث تخطيطها واختيار بقعتها، المراعاة التامة لضرورة توفر الماء والزرع والمرعى بشكل كاف وكبير.

وبالنسبة للمدينة، فقد كانت مشتهرة بوفرة مياهها وكثرة نخيلها^(١)، بالإضافة إلى اشتغالها على كثير من البقاع الصالحة للمرعى^(٢)، والمحتطب^(٣).

ولما نزل عتبة بن غزوان، الخريبة من أرض العراق، كتب إلى عمر بن الخطاب يعلمه نزوله إياها: «وأنه لا بد للمسلمين من منزل يشتون به إذا أشتوا، ويكنسون فيه إذا أنصرفوا من غزوهم»^(٤) فكتب إليه: «أن اجمع أصحابك في موضع واحد وليكن قريب من الماء والمرعى، واكتب لي بصفته. فكتب إليه أي وجدت أرضاً كثيرة العسبة في طرف البر إلى الريف، ودونها مناقع ماء فيها قصباء. فلما قرأ الكتاب قال: هذه أرض نضرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب. وكتب إليه أن انزلها الناس»^(٥).

وكان أول ما خط في المدينة، بعد الهجرة، مسجدها^(٦)، ثم خطت الدور وأنزل الناس^(٧). وقد أصبحت تلك الطريقة سنة متبعة عند تخطيط مدن الأمصار الإسلامية - فيما بعد - حيث كان أول ما يخطط مسجدها ودار إمارتها^(٨). ثم تخطط المنازل من المسجد الجامع، باعتباره مركزاً لها^(٩). ذكر الطبري أن أول شيء خط بالكوفة وبني، حين عزموا على

(١) الديار بكرى: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٢٠.

(٢) وكانت للنبي (ص)، قطعة غنم ترعى بالقف: بالضم وسكون الفاء المهملة: وهو علم لواد من أودية المدينة بالعوالي، شالي مشربة أم إبراهيم. (انظر: العباسي: عمدة الأخبار، ص ٣٩٨).

(٣) وكان يوجد في الغابة: وهي اسم موضع قرب المدينة على نحو برید من جهة الشمال بأسفل سافلتها، كثير من الشجر الملتف، لاحتطاب الناس ومنافعهم. (انظر: العباسي: نفس المصدر، ص ٣٨١-٨٢). وذكر أن بني حارثة، من الانصار قالوا: يارسول الله ههنا - يعنون الغابة - مسارح إبلنا ومرعى غنمنا (انظر: البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٣). كما كانت منطقة فيفاء الخبار، غربي الجمادات، موضعاً كانت ترعى به إبل الصدقة ولقاح رسول الله (ص). (انظر: العباسي: المصدر السابق، ص ٢٠٤).

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ج ٢، ص ٤٢٥. وعتبة بن غزوان: هو عتبة بن جابر بن وهب من بني مازن، وحليف بني عبد شمس أبو بني نوفل. (انظر: ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٤٥٥). وهو مؤسس مدينة البصرة سنة ١٦ هـ/٦٣٧ م أو سنة ١٧/٦٣٨ م، بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب. وكان في الموضع الذي شيدت فيه المدينة، معسكر ضرب هناك عام ١٤ هـ/٦٣٥ م، ولكنه أخلى ثانية، وقصد من بناء هذه المدينة أن تكون مركزاً للجيش العربي. لذلك أختير مكانها في بقعة إلى الغرب من النهر عند أطراف السهوب والوادي الخصيب القريب من المشارب والمراعي. (انظر: ابن حجر: نفس المكان، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، ج ٣، مادة البصرة).

(٥) البلاذري: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٢٥.

(٦) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٤٤.

السمهودي، الوفاء، ج ١، ص ٣٢٢ وما بعدها،

ابن الحاج: رفع الحفاء، ورقة ٦٩.

(٧) السمهودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧١٧ وما بعدها.

(٨) اليعقوبي: تاريخ، ج ٢، ص ١٥١.

البلاذري: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٣٨ - ٣٩، ٤٢٥.

(٩) الطبري: تاريخ، ج ٣، ص ٥٩٣، ج ٤، ص ٤٤.

ماسنيون: خطط الكوفة، ص ١٧.

البناء، المسجد^(١). ثم قام رجل في وسطه، رام شديد النزاع، فرمى على يمينه فأمر من شاء أن يبني وراء موقع ذلك السهم، ورمى من بين يديه ومن خلفه فأمر من شاء أن يبني وراء موقع السهمين^(٢).

وكذلك الحال بالنسبة للبصرة، إذ كان أول ما اختط بها المسجد الجامع^(٣). واختطت بعد ذلك على نحو من خطط الكوفة^(٤). أما مدينة الفسطاط، فكان تخطيطها على يد عمرو بن العاص سنة ٢٠ هـ أو ٢١ هـ / ٦٤١ - ٦٤٢ م^(٥). حيث اختط الجامع المعروف بالجامع العتيق وجامع عمرو بن العاص. واختطت قبائل العرب من حوله^(٦).

وسبق أن ذكرنا - آنفاً - أن الطبيعة الجغرافية والجيولوجية للمدينة المنورة، قد أعطتها شكلاً أقرب ما يكون الشكل المستطيل، حيث تحكم في طريقة خططها - بعد الهجرة - بحيث استلزم أن يكون المسجد في الوسط ليتيسر الاتصال بين عامة المسلمين وبين الرسول (ص)، في مقره، حول المسجد. وقد عمل مخططوا البصرة، على محاكاة طريقة خطط المدينة في الشكل. فذكر أن البصرة كانت مستطيلة^(٧)، بينما احتفظت معظم مدن الأمصار الإسلامية، بشكل دائري^(٨)، وهي أشكال وجدت نتيجة إقامة المسجد وسط المدينة الإسلامية، كما هو الحال بالنسبة للمدينة المنورة.

ولو تجاوزنا أوجه المقارنة في النواحي التخطيطية إلى النواحي التنظيمية للقبائل - إدارياً - لوجدنا أن هناك جملة تأثيرات في تنظيم سكني الناس في الخطط، مستمدة من التنظيمات القبلية في المدينة، على عهد الرسول (ص). ومن ذلك ما سار عليه سعد بن أبي وقاص، عند إنزاله القبائل في خطط الكوفة، إذ راعى توفر رابطة القربى بين أهل الخطة الواحدة^(٩). وهو تنظيم شبيه لما سبق أن رأيناه، في حديثنا عن مراحل التنظيم السياسي الإداري والاجتماعي للقبائل في المدينة.

وفي مدينة الفسطاط، اتبع أسلوبان، لانزال القبائل في الخطط، وكلاهما شبيهان بما سبق أن أشرنا إليه في تنظيمات

(١) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٤.

(٢) الطبري: نفس المكان.

(٣) ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٤٥٥.

الجنابي: تخطيط مدينة الكوفة، ص ١٠١.

(٤) الطبري: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٩٣.

(٥) انظر الجنابي: المرجع السابق، ص ١٠٣.

(٦) المقرئزي: الخطط، ج ٧، ص ٥.

(٧) العلي (د. صالح أحمد): خطط البصرة، بحث نشر في مجلة سومر، بغداد، ١٩٥٢ م، م ٧، ج ١، ص ٧٢.

(٨) العلي (د. صالح أحمد): نفس المكان.

ماسنيون: خطط الكوفة، ص ١٧. (وانظر أيضاً الخريطة القديمة للكوفة رقم ١، نفس المرجع، ص ١).

(٩) الطبري: تاريخ، ج ٤، ص ٤٥.

اليقوي: تاريخ، ج ٢، ص ١٥١.

ماسنيون: المرجع السابق، ص ١٠.

القبائل في المدينة، إذ وجد في تنظيمات الفسطاط، لانزال القبائل في الخطط، تنظيم إنزال من تربط بينهم صلة القربى والنسب، في خطة واحدة. مثل خطة مهرة وخطة تحيب وخطة لحم، وخطة غافق، وخطة مذحج، وخطة سبأ، وغير ذلك^(١). وكانت بداية هذا التأثير، قد امتدت مع الطلائع الأولى التي فتحت مصر مع عمرو بن العاص، حين عقد له عمرو بن الخطاب، على أربعة آلاف رجل كلهم من قبيلة عك^(٢). وهو تنظيم، سبق أن رأينا له مثيلاً، في تنظيمات القبائل في المدينة، على عهد الرسول (ص)، وعرفناه باسم التنظيم العشائري، وهناك تنظيم للقبائل في الفسطاط، مستمد أيضاً، من تنظيمات المدينة، وهو تنظيم يعتمد على جمع عدة قبائل تحت راية واحدة. لهذا عرف في خطط الفسطاط، خطة سميت بخطة أهل الراية^(٣)، وهم جماعة من قريش والانصار، وخزاعة، وأسلم، وغفار، ومزينة، وأشجع، وجهينة، وثقف، ودوس وعبس، وبغيض، وجرش من بني كنانة، وليث بن بكر، والعقلاء منهم^(٤). كما عرف أيضاً، في خطط الفسطاط، خطط اللقيف^(٥)، وخطط أهل الظاهر^(٦).

ومما تجدر ملاحظته أن تلك التنظيمات، قد ظلت قوية المفعول والسريان، تؤدي وظيفتها في ضبط أمور القبائل وقطع دابر ما قد يشجر بينهم من خلاف أو تنافس في اختيار المنازل والباق^(٧). وقد ظل الأمر كذلك، حين كانت السلطة قوية. ثم بدأ الضعف يدب في تلك التنظيمات من حيث التنفيذ، بعد توسع الفتوحات الإسلامية في الشرق الإسلامي، حيث ظهر عامل قوة القبيلة في تقرير مصير سكنائها واختيار ما تراه صالحاً من الباق لامتلاكه، وحدث ذلك، على وجه الخصوص، مع بداية القرن الثاني الهجري^(٨). فكانت قيس، هي الغالبة على غيرها من القبائل في غرب إيران، أما في الشرق، فكانت قبيلتا بكر وتميم في نزاع دائم، حول ملكية بعض الأراضي، حيث تدعى كل قبيلة أنها استولت عليها قبل الأخرى^(٩). أما سجستان، المجاورة لإيران، فلم تكن أفضل من جارتها من حيث اشتداد المنافسة على المواضع بين القبائل^(١٠).

(١) المقرئزي: الخطط، جـ ٧، ص ٥٤-٦١. وقد ذكر أن داريني جمع، بركة يجتمع فيها الماء. فقال عمرو بن العاص: خطوا لابن عمي إلى جنبي (يريد وهب بن عمير بن وهب الجمحي) فردمت البركة. وخطت. فهي دار بن جمع. (انظر: ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٦٤٣).

(٢) المقرئزي: المصدر السابق، جـ ٧، ص ١٥.

(٣) المقرئزي: نفس المصدر، جـ ٧، ص ٥٤.

(٤) المقرئزي: نفس المكان.

(٥) وإنما سموا بذلك، لالتفاف بعضهم ببعض. وكان عامتهم الأزد من الحجر، ومن غسان، ومن شجاعة. والتف بهم نفر من جذام ولخم والوحاف وتنوخ من قضاة، فهم مجتمعون في المنزل متفرقون في الديوان. (انظر: المقرئزي: نفس المصدر، جـ ٧، ص ٥٦-٥٧).

(٦) وهم جماع من القبائل، وديوانهم مع أهل الراية، وكان منهم طوائف من الأزد وفهم. (انظر: المقرئزي: نفس المصدر، جـ ٧، ص ٥٧-٥٨).

(٧) ذكر المقرئزي أن عمرو بن العاص، لما رجع من الاسكندرية ونزل، موضع فسطاطه، انضمت القبائل بعضها الى بعض، وتنافسوا في المواضع، فولى عمرو على الخطط معاوية بن حديج التجيبي وشريك بن مسمى الغطيفي وعمرو بن محزم الخولاني وحيويل بن ناشرة المعافري، وكانوا هم الذين انزلوا الناس وفصلوا بين القبائل. (انظر: الخطط، جـ ٧، ص ٥٢).

(٨) نافع (عبد المنعم): الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في الشرق الإسلامي، ص ١٥٩.

(٩) نافع (عبد المنعم): نفس المكان.

(١٠) نافع (عبد المنعم): نفس المكان.

ومما سبق نرى، أن الفكرة القائلة، بأن البصرة تعد أول تجربة لتخطيط المدن الإسلامية^(١)، وتتجاهل دور المدينة المنورة وأثر تخطيطها، هي فكرة تفتقر إلى سند قوي وموضوعية تامة، إذ أن تخطيط المدينة المنورة، يختلف اختلافا كبيرا، عما كانت عليه خططها قبل الهجرة. وذلك لدخول فعاليات جديدة، منها المسجد، الذي شكل مركز الوسط في الخطط الإسلامية - فيما بعد - وتحكم بالتالي في تغيير شكل المدينة وتنظيم خططها. وهو الذي أصبح تقليدا إسلاميا متبعًا، عند تخطيط مدن الأمصار الإسلامية كالבصرة وغيرها.

(١) الجنابي: تخطيط مدينة الكوفة، ص ١٠٣.

الباب الثالث

الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في المجتمع المدني خلال العصر النبوي

- مظاهر الحياة الاجتماعية
- الحالة الاقتصادية في المدينة المنورة خلال العصر النبوي
- لمحات عن الطابع العام لمجتمع المدينة خلال العصر النبوي في النواحي العلمية والثقافية

الفصل الأول

مظاهر الحياة الاجتماعية

- أولاً: مستوى المعيشة مع إشارة موجزة إلى أهل الصفة ومنازل الوفود
- ثانياً: اعتماد الناس في المدينة على الخدم والموالي لقضاء أمورهم

أولا - مستوى المعيشة، مع إشارة موجزة إلى أهل الصفة ومنازل الوفود

لوتساءلنا عن مستوى الحالة المعيشية في المدينة، على عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، لوجدنا أن الجواثب التاريخية، تظهر أن حياة المسلمين كانت بسيطة جدا، وعلى الخصوص في السنوات الأولى التي أعقبت الهجرة، حيث أنها كانت في معظم الأحيان تفتقر إلى أهم ضرورات الحياة اللازمة - حينذاك - لدرجة أن المسلمين، لم يستطيعوا يوم غزوة بدر، أن يؤمنوا لأنفسهم أكثر من سبعين بعيرا، وكانوا يزيدون على ثلاثمائة قليلا^(١). كما حدث أن اشتكى بعض فقراء المهاجرين إلى رسول الله (ص)، من أن التمر أحرق بطونهم، فصعد المنبر فخطب فقال: لو وجدت خبزا ولحما لا طعمتكموه^(٢). ويذكر أن الرسول (ص)، دخل المسجد فوجد فيه أبا بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، فسألها عن سبب محروجهما في غير وقت الصلاة. فقالا: أخرجنا الجوع. فقال الرسول (ص)، وأنا أخرجني الجوع. فذهبا إلى أحد الأنصار (هو أبو الهيثم بن التيهان) فأمر لهم بشعير، عنده، يعمل. وقام يذبح لهم شاة^(٣).

ويبدولنا، أن تلك الضائقة كانت شديدة الوطأة على المهاجرين في المقام الأول، ثم الأنصار، أكثر من غيرهم. حيث ذكر أن رجلا من الأنصار لقي النبي، صلى الله عليه وسلم، فرأى في وجهه أثر الجوع، فخرج الرجل يعدو، فالتمس في بيته طعاما فلم يجد. فخرج إلى بني قريظة فأجر نفسه كل دلو ينزعة بتمرة، حتى جمع حفنة من تمر وجاء إلى النبي، فوضعه بين يديه^(٤).

وقد استمر تعاقب مثل تلك الضائقة الاقتصادية في المدينة، إلى ما بعد يوم الخندق. فقد كانوا، أثناء حفره، يشدون الحجارة على بطونهم من الجوع والبرد^(٥). وفي اعتقادنا أن سبب ذلك الجوع - أثناء غزوة الخندق - لا يعود إلى عدم وجود الطعام، وإنما إلى قلته وتقنيته، بسبب ظروف الحرب. فقد ذكر أنهم قد حصدوا الزرع قبل قدوم جيش

(١) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٦٢ (طبعة اكسفورد).

(٢) ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٢٣١.

(٣) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٩٣٢.

(٤) ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٤٠.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، م ٢، ج ٤، ص ٩٩ - ١٠٠.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٥.

الأحزاب بشهر فأدخلوا حصادهم وأتبانهم. في حين كانت المدينة - ليالي قدموا - جدية^(١).

وبلغ الأمر بالناس - حينذاك - حدا جعلهم يتساهلون في أكل لحوم الحمر الانسية، حتى أتاهاهم نهي الرسول (ص)، عن أكلها، والقصور تفور، فكفأوها على وجوها^(٢). وكان ذلك النهي، قد حدث، عام خير، سنة سبع من الهجرة^(٣).

وكما سبق أن أشرنا، كان مناخ المدينة متقلبا غير مستقر على وتيرة واحدة أو معلومة، وهو ما كان يعرض المدينة لحالات العسرة والجذب. وقد كانت المدينة تعتمد - حينذاك - في المكان الأول، على ما تنتجه أرضها وما تنبتة صحراؤها من كلاً وشجر.

ومما يظهر مقدار تقلب المناخ، ما ذكر من أنه في عام غزوة تبوك، وذلك في شهر رجب سنة تسع من الهجرة، أمر الرسول (ص)، أصحابه - حين طابت الثمار - بالتهيو لغزو الروم، وكانوا قبل ذلك في زمان من عسرة الناس وشدة من الحر وجذب من البلاد^(٤).

وقد تراجعت معدلات حالات العسرة والتقصيف الاقتصادي، بالنسبة للمستوى المعيشي في المدينة، بعد فتح خير وتبوك، حيث كثرت في أيدي المسلمين أموال الجزية من أهل الكتاب في المدن التي افتتحها الرسول (ص). بالإضافة إلى ما صالحوا أهل تلك المدن عليه من الثمار^(٥).

وقد ازداد تحسن حال المسلمين الاقتصادي بعد فتح مكة وانتهاء معركة حنين^(٦). بالإضافة إلى قدوم وفود القبائل العربية إلى المدينة بعشور أموالهم^(٧).

(١) الواقدي: المغازي، ج ٢، ص ٤٤٤ (طبعة اكسفورد).

(٢) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٧٩٤.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٤، ص ٩٤ - ٩٥.

(٣) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٩٤.

(٤) ابن اسحاق: السيرة، ج ٤، ص ٩٤٣.

(٥) ومن تلك المدن، التي افتتحها الرسول (ص): تبالة، وجرش، وتبوك، وأيلة، وأذرح. (انظر: البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٨ - ٣٢، ٧١ - ٧٧، ٨٦ - ٩٥).

والجزية: هي مال في يصر في أهل الفيء. وتجيى بحلول الحول، ولا تستحق قبله. وهي موضوعة على الرؤوس. واسمها مشتق من الجزاء، إما جزاء على كفرهم، لأخذها منهم صغاراً، وإما جزاء على أمان المسلمين لهم، لأخذها منهم رفقاً. وكانت تؤخذ من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، ويجري المجوس مجراهم في أخذ الجزية منهم. وكذلك الصابئون والسامرة ومن شاكلهم. ولم تكن الجزية تجب إلا على الرجال الأحرار العقلاء، كما لا تجب على امرأة ولا صبي ولا مجنون ولا عبد. (انظر: الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد: الأحكام السلطانية، ص ١٤٢ - ١٤٥، ط ٢، القاهرة، ١٩٦٦ م). ويبدو أنهم كانوا يأخذون الجزية، على عهد الرسول (ص)، من مجوس هجر ومجوس أهل اليمن، على كل رجل وعلى كل امرأة أيضاً. (انظر: البلاذري: المصدر السابق، ج ١، ص ٨٦).

(٦) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٣٦٤.

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٦٠٨.

ومن مظاهر تحسن المستوى المعيشي في المجتمع المدني، بعد فتح خيبر^(١)، تخصيص جرايات سنوية لمعظم أهل المدينة، قوامها التمر والشعير^(٢).

ولم يقتصر دخل المدينة على ما سبق ذكره من الأشياء العينية، كالتمر والشعير، ونحو ذلك، وإنما دعم ذلك ما تدفق على المدينة من أموال الجزية، بعد فتح خيبر وغيرها من البلدان، سواء ما كان شمال المدينة أو في جنوبها، حيث جعل الرسول (ص)، على كل حالم من أهل تبالة وجرش من أهل الكتاب دينارا^(٣). وصالح أهل أيلة على أن جعل على كل حالم في السنة دينارا، فبلغ ذلك ثلاثمائة دينارا^(٤). أما أهل أذرح، فصالحهم الرسول (ص)، على مائة دينار في كل رجب^(٥). على ربع عروكهم (والعروك خشب يصطاد عليه) وربع كراعهم وحلقتهم، وعلى ربع ثمارهم^(٦).

وكان للمدينة مصادر أخرى للدخل، غير ما ذكر. فقد صالح الرسول (ص) وافدي أهل نجران واليمن (وهما السيد والعاقب) عن أهل نجران، على ألفي حلة في شهر صفر، وألف حلة في شهر رجب، ثمن كل حلة أوقية، والأوقية وزن أربعين درهما^(٧).

(١) أصبح نصف ما خرج من أرض خيبر يدفع للمدينة، كما ذكره البلاذري. (انظر: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٨).
(٢) كان الرسول (ص)، يعطي كل امرأة من نسائه، ثمانين وسقا من تمر، وعشرين وسقا من شعير، من خيبر. (انظر: البلاذري: نفس المصدر، ج ١، ص ٢٧). ومن أعطى الرسول (ص)، من الصحابة من تمر خيبر: مخزومة بن القاسم بن مخزومة بن عبد المطلب القرشي، أعطاه ثلاثين وسقا. وأعطى ملكان بن عبيدة الانصاري، ثلاثين وسقا. وأعطى جعفر بن عبد يزيد بن هشام بن عبد المطلب القرشي، من خيبر، ثلاثين وسقا، وأطعم أخاه ركانه خمسين وسقا. (انظر: ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٣٩٠، ٣٩٧، ٤٥٧، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ١، ص ٤٠٧).

(٣) البلاذري: المصدر السابق، ج ١، ص ٧١.
تبالة: بالفتح، موضع بين مكة واليمن. وبين تبالة ومكة نحو مسيرة ثمانية أيام على الأبل. وهي شرقي أعراض نجد. (انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٩، الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ١٦٧، «تحقيق الأكوع». وتبالة معروفة الآن باسمها. (انظر: الحربي: كتاب المناسك، الهامش رقم ٩، ص ٦٤٤).
جرش: بضم الجيم وفتح الراء وشين معجمة، بلد بين مكة واليمن، وتعد كورة نجد العليا، وهي من ديار عذر. ويسكنها ويتراأس فيها العواشج ويعرفون اليوم باسم العواشر، في وادي ابن هشبل المضاف إلى أحد رؤسائهم، وهو من روافد وادي بيشة. (انظر: الهمداني: المصدر السابق، ص ٢٥٥، وانظر أيضا، الهامش رقم ١، نفس المكان).

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٧١.
أيله: هي اليوم، العقبة، البلد الميناء المعروف على الفرع الشرقي لرأس البحر الأحمر. (انظر: الحربي: كتاب المناسك، ص ٦٤٩ - ٥٢، انظر أيضا الهامش رقم ١٠، والهامش رقم ٤، نفس المصدر، ص ٦٤٩ - ٥١).
(٥) البلاذري: المصدر السابق، ج ١، ص ٧١.

أذرح: بالفتح ثم السكون وضم الراء والحاء المهملة: وهو اسم بلد في أطراف الشام، من أعمال الشراة ثم من نواحي البلقاء، عمان، مجاورة لأرض الحجاز. وهي قبلي فلسطين من ناحية الشراة. ويأذرح إلى الجرباء كان أمر الحكيمين بين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري. وبينها ميل واحد. (انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ١٢٩ - ٣٠). وأذرح من حدود مساكن جذام. حيث ذكر أن جذام بين مدين إلى تبوك وإلى أذرح. (انظر: الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٢٧٢).

(٦) البلاذري: المصدر السابق، ج ١، ص ٧١-٧٢. والكرع هنا، الخيل ونحوها من المشاية. (انظر: الزنجشري: أساس البلاغة، ص ٥٤١). والحلقة: اسم للسلاح كله. (انظر: الزنجشري: نفس المصدر، ص ١٣٩).
(٧) البلاذري: المصدر السابق، ج ١، ص ٧٦.

وكان النبي (ص)، قد أخذ الجزية من مجوس هجر ومجوس أهل اليمن، ففرض على كل من بلغ الحلم من مجوس اليمن من رجل وامرأة دينارا^(١). وكان كتاب الصلح بين عامل الرسول (ص)، على البحرين، العلاء بن الحضرمي، وأهل البحرين، قد نص على أن يكفوا المسلمين العمل، لانشغالهم بنشر الاسلام، على أن يقاسموهم التمر. وأما جزية الرؤوس، فعلى كل حالم دينارا^(٢). ويذكر أنه حين أتى النبي (ص)، مال من البحرين قال: انثروه في المسجد، وكان أكثر مال أتى رسول الله (ص) فخرج الرسول (ص)، إلى الصلاة ولم يلتفت إليه. فلما قضى الصلاة، جاءه وجلس إليه، فما كان يرى أحدا إلا أعطاه^(٣). ويبدو أن الرسول قصد بهذا العطاء، تقديم تعويضات لأصحابه، لقاء ما عانوه، مع بدء الهجرة، من مشقة، وما تحملوه من التزامات وخسائر مادية. ولذلك يروي أن العباس جاءه - حينذاك - فقال: يا رسول الله أعطني فإني فاديت نفسي وفاديت عقيلا. فقال له الرسول (ص): خذ. فحثا في ثوبه، ثم ذهب يقله فلم يستطع، من كثرة المال حتى نشر منه^(٤).

وقد أصبح لزيادة نسبة دخل المدينة مردود ايجابي، على المستوى الاقتصادي والمعيشي، ازداد على أثره المال بين أيدي الناس، بشكل سريع وكبير^(٥). مثلما حصل لأحدهم، حين استدان، ثم جاءه الغنى سريعا، غير أن الموت عاجله قبل القضاء^(٦). وذلك قد أوجد - فيما يبدو - لصاحب المال منزلة مرموقة في المجتمع المدني، واعتبرا وغيره مفلسا أو صعلوكا^(٧).

ويبدو أن الناس قد طاب لهم التنافس على جمع المال والمفاخرة في ذلك مما جعل الرسول (ص)، ينهي عن التبقر في الأهل والمال. قيل له وما التبقر؟ قال^(٨) الكثرة. وما ساعد أيضا، على تدفق الأموال في أيدي الناس، اشتغال

(١) البلاذري: نفس المصدر، ج ١، ص ٨٦.

(٢) وكان بالبحرين، خلق كثير من العرب، من عبد القيس ويكرين وائل وقيم، مقيمين في باديتها. (انظر: البلاذري: نفس المصدر، ج ١، ص ٩٥).

(٣) انظر: الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة ١٧٠.

(٤) الخزاعي: نفس المكان.

(٥) ومما نستدل به على تدفق المال في أيدي الناس بشكل سريع بعد عسرة، ما ذكر من أن سعد بن الأطول الجهني قال: إن أخاه يسارا مات وخلف ثلاثمائة درهما وعلالا. قال: فأردت أن أنفقها على عياله. فقال النبي (ص): إن أخاك مجوس بدينه فاقض عنه. (انظر: ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٦٦٥). وقيل إن رجلا، على عهد الرسول (ص)، من عامة المسلمين، يقال له الهامة، كان يذكر من كثرة ماله. (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٥٩٤). وذكر إن ثعلبة بن عمرو بن عبيد أحد بني مالك بن النجار، وكان بدريا، عاش حتى أعطى عليا، يوم الجمل مائة ألف درهما أعانه بها. (انظر: السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ١، ص ٣٨٩).

(٦) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٦٥.

(٧) مسلم: الصحيح، ج ٤، ص ١٩٩٧. وقد روى أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: أتدرون ما الصعلوك؟ قالوا: الذي لا مال له. قال: الصعلوك الذي له مال لم يقدم منه شيئا. (انظر: ابن حجر: الاصابة، ج ٤، ص ٥٢). والصعلوك في اللغة أيضا، الذي لا مال له. وقد تصعلك. وفي هذا يقول حاتم طي:

غنيما زمانا بالتصعلك والغنى
فكلا سقناه بأسهها الدهر

(انظر: ابن سيدة: المحكم، ج ٢، ص ٢٩٥، ط ١، تحقيق عبد الستار فراج، القاهرة، ١٣٧٧ هـ).

(٨) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٤، ص ٤.

معظمهم في التجارة، وخاصة المهاجرين منهم. وكان حاطب بن أبي بلتعة، حليف بني أسد بن عبد العزي بن قصي، تاجرا يبيع الطعام. وقد ترك يوم مات (سنة ثلاثين من الهجرة) أربعة آلاف دينار، ودراهما، ودارا، وغير ذلك^(١)

ومن أسس الثروة المعتبرة في المجتمع المدني، غير النقود، امتلاك الأراضي الزراعية، لاستثمارها وبيع ثمرها^(٢)، ويعد أبا طلحة (زيد بن سهل بن الأسود ابن حرام من بني النجار) أكثر أنصار المدينة مالا من نخل، وكان أحب أمواله إليه، بثرءاء، وكانت مستقبله المسجد وكان الرسول (ص)، يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، وقد تصدق بها على أقربائه، فيما بعد^(٣)، ويذكر أن أحد الأنصار شكاه أخوته إلى الرسول (ص) فقالوا: إنه يبذر ماله ويبسط فيه. فقال له: ما شأن أخوتك يشكونك؟ قال: يا رسول الله إني آخذ نصيبي من التمر فأنفقه في سبيل الله، وعلى من صحبني. فقال الرسول (ص): انفق قيس (وهو اسم الصحابي الذي شكاه إخوته) ينفق الله عليك^(٤). ومن هذا نستدل على أن التمر كان يعد أحد أسس الثروة المعتبرة بين الناس، في مجتمع المدينة، وكان يقوم مقام النقود في المعاملات والانفاق.

وبالإضافة إلى ما ذكر كان للثروة الحيوانية أهمية خاصة، حيث أنها كانت مصدرا هاما لللبان، واللحوم، وهما قوام المغيشة لمعظم السكان. وكانت لرسول الله (ص)، عشرون لقحة، ترعى بالغابة، وهي التي يعيش بها أهل رسول الله (ص)، يراح إليه كل ليلة بقريتين عظيمتين من لبن^(٥). وللرسول (ص) ايضا، منائح من الغنم، سبعا، ترعاهن أم أيمن، مولاة رسول الله^(٦)، صلى الله عليه وسلم. وربما ملك الشخص العادي من الناس، خمسمائة شاة من أجود أنواع الغنم وأحسنها^(٧). وربما ملك أكثر من ذلك^(٨).

وما تحذر الإشارة إليه، أن ذكرنا لمصادر الغنى ومظاهره في مجتمع المدينة، لا يعني - بأية حال - أن جميع الناس كانوا أغنياء ومكتفين معيشيا، لأن سنة الله في خلقه، أن يكون في كل مجتمع أناس يغلب عليهم الفقر والحاجة. وقد كان المجتمع المدني - نسبيا - أفضل مجتمع تكاد تتلاشى فيه الهوة بين الأغنياء والفقراء، الذين كانوا يشكلون نسبة قليلة جدا من السكان.

(١) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ١١٤ - ١٥.

(٢) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ١، ص ٣١٤ - ١٥.

(٣) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٥٦٧.

ابن النجار: الدرة الثمينة، ص ٣٢ - ٣٣.

(٤) واسم المذكور كاملا: قيس بن سلع الانصاري. (انظر: ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥٠).

(٥) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٩٤، واللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن، والجمع لقاح. (انظر: مجموعة من المؤلفين:

المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٨٤٠).

(٦) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩٥. والمنائح: مفردا منح، للأبل والغنم، وهي التي يبقى لبنها بعد ذهاب ألبان

مثلها. (انظر: مجموعة من المؤلفين: المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٩٥).

(٧) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٦.

(٨) قيل أن أحد المهاجرين، أسره العدو، فغفلوا عنه، فاستاق غنمهم، فجاء بها، وهي أربعة آلاف شاة. (انظر ابن حجر:

الإصابة، ج ٢، ص ٥).

وقد اهتم الرسول (ص)، بأمر الفئة الفقيرة من الصحابة، في مجتمع المدينة، فبنى ظلة في مؤخرة مسجده، في جهة الشمال، يأوي إليها المساكين. وكانت تعرف باسم الصفة^(١). ومكانها خارج المسجد، لاصقة به^(٢). ويعرف من يأوي إليها، بأهل الصفة^(٣). أو أصحاب الصفة^(٤).

وكان بناء الصفة قد أنجز مع بناء المسجد النبوي في قبلته، لما كانت هذه القبلة في شمالي المسجد، لأنه صلى الله عليه وسلم، صلى ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا، إلى بيت المقدس، فلما حولت القبلة بقي حائط القبلة الأولى مكان أهل الصفة^(٥).

والغرض الرئيسي من بناء الصفة هو إيواء فقراء الصحابة وتأمين معيشتهم^(٦)، خصوصا، وأن الحالة المعيشية كانت في المدينة - كما أسلفنا القول - رديئة، إلى ما بعد فتح خيبر. وقد وصف أبوهريرة، رضي الله عنه، حال أهل الصفة، وكان أحدهم، يقول: لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار، وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ الساقين ومنها ما يبلغ الكعنين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته^(٧). كما وصفوا أيضا، بأنهم أهل الحاجة^(٨). وكان أبوهريرة يقول: كنت من أهل الصفة في حياة رسول الله (ص)، وإن كان ليغشى عليّ، فيما بين بيت عائشة وأم سلمة، من الجوع^(٩).

ولما جاء الله تعالى بالغنى، أصبح أهل الصفة، مجموعة من أصحاب رسول الله (ص)، لا منازل لهم، ينامون

(١) السهمودي: الوفاء، ج ٢، ص ٤٥٣. والصفة: بضم الصاد وتشديد الفاء: واحد صف الدار، وهي مكان مظلل اعد لتزول الغرباء فيه، ممن لا مأوى ولا دارا له. (انظر: مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ٧، ياقوت: معجم البلدان: ج ٣، ص ٤١٤).

(٢) المرجاني: تاريخ هجرة المختار، ورقة ١٣٠ - ٣١.

(٣) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢٥٥.

(٤) مجهول: المصدر السابق، ورقة ٧،

السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥٤.

(٥) ابن فضل الله: مسالك الأبصار، ج ١، ص ١٢٤.

(٦) ابن النجار: الدرة الثمينة، ص ٧١ - ٧٢.

(٧) ابن النجار: نفس المكان.

المرجاني: تاريخ هجرة المختار، ورقة ١٣٠. وأبوهريرة، صحابي جليل، وكان أحفظ الصحابة لأخبار رسول الله (ص)، وهو من قبيلة دوس، أسلم بين الحديبية وخيبر. (انظر: ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ٢٠٢ - ٢٠٧).

(٨) قالت أم سلمة، رضي الله عنها: كان أهل الحاجة من الصحابة: ربيعة بن كعب وأسماء وهند ابنا حارثة الأسلميين، وطهينة (وقيل طهيفة، وقيل طخفه الغفاري، وهو المرجع)، وعبد بن خالد الغفاري، وجعيل بن سراقه وعرباض بن سارية وعمر بن عوف، وعبد الله بن مغفل، وأبوهريرة، وآثله بن الأسقع. (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٣٥، ٢٦٤).

(٩) ابن سعد: الطبقات: ج ١، ص ٢٥٦.

في المسجد، ويظلون فيه ليس لهم مأوى غيره^(١). وهم أيضا، أضياف الاسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا أحد^(٢). وذكر في هذا المجال، أنه لما كثر المجاهدون بالمدينة ولم يكن لهم دار ولا مأوى، أنزلهم رسول الله (ص)، المسجد^(٣). وكان من قدم المدينة، فكان له بها عريف، نزل على عريفه، ومن لم يكن له بها عريف نزل الصفة^(٤).

ومما سبق، نرى أن أغراض ومهام الصفة، قد تطورت كثيرا ولم تعد مهمتها وقفا على إيواء وإطعام الفقراء من الصحابة فحسب، بل أصبحت مع مرور الزمن ومجيء الغنى، أشبه ما تكون بدار الضيافة، تستقبل من لا أهل له ولا دار في المدينة، إلى أن يتدبر أمره ويجد له سكنا ومصدر رزق يعيش منه. وهذه الحال التي أصبحت عليها الصفة جعلها تعرف باسم صفة المهاجرين^(٥).

وذكر أن الرسول (ص)، كان يجالس أهل الصفة ويؤانسهم^(٦). ويتدارس معهم القرآن وأمور دينهم^(٧)، كما كان يدعوهم إلى طعامه، ولو في ظلمة الليل^(٨)، قبل أن تتطور أحوالهم المعيشية.

وقد نتج عن طول تلك الملازمة، بين أهل الصفة ورسول الله (ص)، أن أصبحوا أكثر من غيرهم حفظا لأخبار رسول الله وأحاديثه وأفعاله^(٩). ولعل هذا يعد هدفا من الأهداف التي بنيت من أجله الصفة، إذ عمل على حفظ الصلة الدائمة بين الرسول (ص)، وبين فئة من الصحابة، لم تشغلهم هموم العيال والأهل أو سائر مطالب الحياة، عن تلقي العلم من رسول الله، صلى الله عليه وسلم^(١٠). وقد شهد الجميع، لأهل الصفة بهذه الفضيلة. فذكر أن رجلا جاء إلى طلحة فقال: أرايتك هذا الياني أعلم بحديث رسول الله (ص) منكم - يعني أبا هريرة - نسمع منه أشياء لا نسمعها منكم؟ قال: أما أن قد سمع من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ما لم نسمع، فلا أشك، وسأخبرك. إنا كنا أهل بيوت، وكنا إنما تأتي رسول الله غدوة وعشية، وكان مسكينا لا مال له، إنما هو على باب رسول الله (ص)،

(١) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢٥٥.

(٢) ابن النجار: الدرة الثمينة، ص ٧١ - ٧٢،

السمهودي: الوفاء، ج ٢، ص ٤٥٥.

(٣) مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ٧.

(٤) السمهودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥٦.

(٥) ابن الاثير: أسد الغابة، ج ١، ص ٧٣ - ٧٤،

ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٣٦.

(٦) مجهول: المصدر السابق، ورقة ٧،

السمهودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥٤.

(٧) ابن الاثير: المصدر السابق، ج ١، ص ٧٣ - ٧٤.

(٨) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٥ - ٥٦.

ابن النجار: المصدر السابق، ص ٧١ - ٧٢.

(٩) ابن حجر: الاصابة، ج ٤، ص ٢٠٦.

(١٠) البخاري: الصحيح، ج ٣، ص ٤٦.

فلا أشك أنه قد سمع ما لم نسمع^(١)

وقد زاد عدد أهل الصفة على مائة رجل^(٢). وقيل أن أهل الصفة كانوا إذا أمسوا انطلق الرجل من الصحابة بالواحد منهم والرجل بالاثنتين والرجل بالجماعة للعشاء. فأما سعد بن عباد، سيد الخزرج، فكان يعيش كل ليلة، ثمانين من أهل الصفة^(٣).

ومما تجدر الإشارة إليه، أن إقامة الصحابة في الصفة، لم تكن دائمة. فكانوا يكثرون ويقولون بحسب من يتزوج منهم أو يموت أو يسافر^(٤). وكانوا من عدة قبائل عربية، وكان فيهم بعض الموالي^(٥).

منازل الوفود

والذي يبدو لنا، أن الصفة كانت تؤدي خدماتها كاملة، إلى أن بدأ تتابع الوفود على المدينة، بالشكل الكبير الذي استلزم - ولا ريب - التفكير في إيجاد مكان واسع يكون بديلاً للصفة ويستوعب الأعداد الكثيرة للوافدين والمهاجرين الجدد، ويضمن تقديم واجبات الضيافة لهم. وكانت ارهاصات ذلك التفكير، قد ظهرت، فيما رواه أهل السير، من أن أحد الصحابة (محمد ابن مسلمة الأنصاري) رأى أضيافاً عند رسول الله (ص)، في المسجد. فقال: «ألا تفرق هذه الأضياف في دور الأنصار، ونجعل لك من كل حائط (بستان أو نخل) قنوا ليكون لمن يأتيك من هؤلاء الأقبام؟ فقال الرسول (ص): بلى^(٦). وكانت الخطوة الثانية لحل مسألة إنزال وفود وأضياف الإسلام المتزايد

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١، ص ٢٤. وطلحة، هو ابن عبد الله بن عثمان بن عمرو القرشي التيمي. أحد العشرة المبشرين بالجنة. وأحد الثانية، الذين سبقوا إلى الإسلام، مات سنة ست وثلاثين من الهجرة، وله أربع وستون سنة. (انظر: ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢٩).

(٢) السهوي: الوفاء، ج ٢، ص ٤٥٣.

(٣) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠. وذكر أن الرسول (ص)، كان يفرق أهل الصفة على أصحابه، وتتعضى طائفة منهم معه، حتى جاء الله تعالى بالغنى (انظر: ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢٥٥).

(٤) مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ٧.

(٥) ومن عد في أهل الصفة عدا من ذكرهم: أسماء بن حارثة بن سعيد الأسلمي، وأوس الثقفي، وبلال بن رباح مولى أبي بكر الصديق، وثوبان مولى رسول الله (ص)، وجابر بن حميل الأشجعي، والأسفح البكري، وجرهد بن خويلد الأسلمي، والحارث بن نبيه، والد أنس، وربيعة بن كعب الأسلمي، وسالم بن عبيد الأشجعي، وطهفة أو طخفة بن قيس الغفاري، وعبد الرحمن بن قرط الثمالي، وعرباض بن سارية السلمي، وغرقه الأزدي، وهلال، مولى المغيرة بن شعبة وغيرهم. (انظر: ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢٥٦، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ١، ص ٣٣٥، ٣٧١، ٣٨١، ٨٦، المرجاني: تاريخ هجرة المختار، ورقة ١٣١، ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٣٦، ٣٩، ٢٣١، ٢٩١، ٥١١، ج ٢، ص ٥، ٢٣٥، ٤١٩، ٤٧٣، ج ٣، ص ١٨٥، ٦٠٨ وفي أما كن متفرقة).

(٦) ابن النجار: الدرر الثمينة، ص ٧٢-٧٣. ونحب أن نشير إلى أن ابن سعد وابن حجر، لم يذكر شيئاً عن أمر وضع الأقباء في المسجد. وقد رجحنا أنه هو المذكور في الرواية على اعتبار أنه لم يكن في الصحابة، ممن ذكرهم ابن سعد أو ابن حجر، أحد بهذا الاسم، سوى محمد بن مسلمة الأنصاري، الذي ولد قبل البعثة النبوية باثنتين وعشرين سنة. (انظر: الطبقات، ج ٣، ص ٤٤٣-٤٤٥، الإصابة، ج ٣، ص ٣٨٣-٨٤). والقنو: هو العذق بيا فيه من الرطب، والجمع أقباء. (انظر المرجاني: تاريخ هجرة المختار، ورقة ١٣٠ - ٣١، مجموعة من المؤلفين: المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٧٧٠).

عددهم، هي تخصيص مكان خاص لنزولهم، عرف باسم منزل الوفد^(١). ولم تكن تلك الفكرة جديدة على المجتمع الاسلامي - في الواقع - إذ أنها صاحبت أحداث الهجرة، واقرنت بها، حين نزل العزب من المهاجرين، دار سعد بن خيشمة في قباء^(٢). ونزل معظم المهاجرين على كلثوم بن الهدم^(٣)، وعلى رفاعه بن عبد المنذر^(٤).

ونحب أن نشير في هذا الصدد، إلى أننا لم نجد ما يجلى الغموض عن طبيعة نزول معظم المهاجرين، مع بدء الهجرة، على تلك الفئة المحدودة من الأنصار. وهل كان نزولهم بأجر أم كان تبرعا منهم لوجه الله؟ ومن استقرائنا للنصوص الواردة في كتب التراجم والطبقات، لم نجد ما يدل على فقرهم أو غناهم الكبير. وذلك يحمل على الاعتقاد أنهم كانوا من أواسط الناس. ولا يستبعد أنهم كانوا يأخذون على ايوائهم للنزلاء في بيوتهم أجرا معلوما، خصوصا، وأن المدينة كانت محطة تجارية ومستراحا لقوافل التجار المارين بها، من الجنوب إلى الشمال والشرق، والذي لا بد وأنهم قد طلبوا مكانا يؤمن لهم الراحة والأمان، نظير شيء معلوم يقدمونه، من بضائعهم أو أرباحهم. والذي حملنا على هذا الاعتقاد، ما لوحظ من تكرار نزول كثير من المهاجرين عليهم، مع أن في المدينة عددا من الصحابة هم أكثر من أولئك مالا، وأرفع منهم منزلة اجتماعية وقيادية بين القوم، مما يجعلهم أحرص على أن ينزل المهاجرون عليهم دون غيرهم، لو أن في الأمر مفاخرة أو تسابق على فعل الخير.

والظاهر أن تخصيص منزل بعينه للوفود في المدينة، قد جرى مع بداية سنة تسع من الهجرة. فقد ذكر أن سبعة نفر من قبيلة خشين، قدموا بعد خيبر، فنزلوا على أبي ثعلبة الخشني^(٥). وحين قدم وفد بهراء من اليمن، وهم ثلاثة عشر رجلا، أقبلوا يقودون رواحلهم حتى انتهوا إلى باب المقداد بن عمرو، ببني جذيلة، فخرج إليهم المقداد فرحب بهم وأنزلهم في منزل من الدار^(٦).

وتعد دار رملة بنت الحارث، أشهر منازل الوفود في المدينة، على عهد الرسول (ص)، وذلك لتكرار ذكرها - منذ سنة تسع من الهجرة - حين يذكر إنزال الوفود في المدينة^(٧). وكان اتخاذ دار رملة لتكون منزل الوفد في المدينة، إنما يعود

(١) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣٢.

(٢) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٠٥.

دار سعد بن خيشمة: جنوبي مسجد قباء، تلي جدار قبلته. وهناك أيضا دار كلثوم بن الهدم، جوارها. وقد تهدمت الداران قديما وبنت وزارة المعارف السعودية في مكانها المدرسة الابتدائية للبنين. (انظر: الديار بكري: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٣٦، الفيروز آبادي: المعاني المطابة، ص ٣٢٧، الأنصاري، عبد القدوس: آثار المدينة المنورة، ص ٢٥ - ٢٧).

(٣) ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٠٤، ٤٠٧ - ١٨.

(٤) ابن سعد: نفس المصدر، ج ٣، ص ٣٩٢، ٣٩٣، ٤٠٥، وفي أماكن متفرقة.

(٥) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٣٢٩.

(٦) ابن سعد: نفس المصدر، ج ١، ص ٣٣١.

(٧) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢١٦، ٢٩٩ - ٣٠٢، ٣١٥، ٣٢٤. ورملة بنت الحارث، تذكر في المبيعات، وهي رملة

بنت الحارث بن ثعلبة بن الحرث بن زيد الأنصارية النجارية. وزوجها معاذ بن الحارث بن رفاعه. (انظر: ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ٣٠٥).

إلى أنها كانت واسعة وفيها نخل^(١). وقد ذكر في هذا الصدد أن بني قريظة، لما حكم فيهم سعد بن معاذ، حبسوا في دار رملة بنت الحارث^(٢). والمعروف أن عدد من حبس من بني قريظة، كان يزيد على الثمانمائة^(٣). وهو عدد كبير كان يستلزم - ولا ريب - تهيئة مكان واسع لاستيعابهم.

ثانيا: اعتناء الناس في المدينة المنورة على الخدم والموالي لقضاء أمورهم

لم تكن ظاهرة الاعتماد على الخدم في المجتمع المدني، وليدة ظروف الهجرة فحسب، بل كان أهل المدينة - بحكم كونهم يعتمدون في حل حياتهم الاقتصادية، على الزراعة - يندر أن تخلو بيوتهم من وجود خادم مملوك أو غلام، كما كان يدعى، يعينهم في أمورهم ويساعدهم في زراعتهم^(٤).

ويبدوننا، أن تلك الظاهرة قد أصبحت ملموسة - أكثر من ذي قبل - مع تعدد مهام المسلمين في المدينة، بعد الهجرة وانصراف معظمهم للقيام بمسؤوليته، نحو تثبيت أمر الاسلام، والجهاد في سبيل الله. وذلك أوجد للعبد أهمية كبيرة، في المجتمع المدني، حتى تساوى دوره في نظر المسلمين، بالدور الذي تقوم به الخيل في الجهاد^(٥). وفي هذا ذكر أن سعد بن عبادة سيد الخزرج، كان يغزو على عهد الرسول (ص)، سنة ويغزو ابنه قيس سنة. وكان سعد إذا غزا، أعطى مفاتيح خزائنه لمولاه نسطاس، موليه ثقته، يتصرف بأمواله كيفما شاء^(٦).

وقد بلغ من أهمية ضرورة تواجد الخدم في المجتمع المدني، أن أحد بني مزينة (معاوية بن سويد بن مقرن المزني) قال: كنا بني مقرن لنا غلام، فلطمه بعضنا، فأتى النبي (ص)، فشكا إليه فأعتقه. فقيل: يا رسول الله إنه ليس فيهم خادم غيره. فقال: فليخدمهم حتى يستغنوا^(٧). ويمكننا أن نستخلص من هذه الحادثة عدة معانٍ وحقائق تاريخية، عن مجتمع المدينة، فهي تؤكد مدى الضرورة الملحة لاعتماد الناس على الخدم، وتظهر في نفس الوقت طبيعة العلاقة بين السادة والخدم ومدى الحرص على حفظ حقوقهم، لدرجة أنه كان من حق ولي الأمر، أن يعتق أي عبد يشتكي ظلم مولاه^(٨).

(١) الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة ١٩٣،

الكتاني: التراتيب الادارية، ج ١، ص ٤٤٥ - ٤٦.

(٢) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٠٥.

(٣) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٧٢١.

الطبري: تاريخ، ج ٢، ص ٤٨٨.

(٤) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩٧،

ابن كثير: السيرة، ج ٢، ص ٢٥٣،

الديار بكري: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٣٧.

(٥) روى أن الرسول (ص)، قال: ليس على المسلم في عبده ولا في فرسه صدقة. (انظر: مالك: الموطأ، ج ١، ص ٢٧٧).

(٦) ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٥٥٣. وروى أن عمير مولى أبي اللحم قال: كنت مملوكا فسألت النبي (ص): أتصدق من مال مولاي بشيء؟ قال: نعم. والاجر بينكما. (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٣٨).

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٣٤ - ٣٥.

(٨) وهناك شواهد أخرى، تذكر مجيء بعض العبيد إلى رسول الله (ص)، يشتكون ظلم سادتهم فيصرفهم الرسول (ص)، أحرارا معتقين. (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٥٥١).

وقد تعددت مهام الخدم وتشعبت في المجتمع المدني - على عهد الرسول (ص) - فمنهم من كان يعالج لسادته تجارهم، إذا كانوا تجارا^(١)، أو يرعى غنمهم^(٢)، أو يدير شئون البيت الأخرى^(٣).

ولم تكن الخدمة، على عهد الرسول (ص)، قصرا على العبيد والموالي. فكان من الصحابة من خدم النبي (ص)، واستمر في خدمته، وإن لم يكن مملوكا أو مولى. ومن أولئك هند وأسما وأبنا حارثة الأسلميين، كانا يخدمان رسول الله (ص) لا يريان بابا، حتى قال بعضهم: ما كنت أظنها إلا مملوكين لرسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤). ومنهم أيضا أنس بن مالك الأنصاري^(٥)، وخالد بن سيار الغفاري، وكان سائق بدن رسول الله (ص)، هو وحسان الأسلمي^(٦). وعياذ بن عمرو السلمي^(٧)، والهيثم بن نصر الأسلمي، وكان يأتيه بالماء من بئر أبي الهيثم بن التيهان^(٨)، وعبد الله بن مسعود الهذلي، وكان صاحب نعليه^(٩).

وكان للرسول (ص)، بعض العبيد، فأعتقهم وظلوا في خدمته^(١٠)، ومنهم يسار الراعي، كان غلاما للنبي (ص)، فنظر إليه يحسن الصلاة فأعتقه وبعثه في لقاح له بالحره^(١١).

ولم تقتصر الاستفادة من الموالى والعبيد على الخدمة وإدارة شئون البيت فحسب، بل إن صاحب العبد، ربما استخدم مولاة كحرفي يعمل بيده، أو أجره بنسبة معينة يأخذها من أجرته^(١٢). وربما اشترى الرجل العبد لهذا الغرض، يعمل لحسابه، إما حجاما أو قصابا أو نجارا^(١٣)؛ وما يستدل به على مدى شيوع عادة استخدام السادة، لمواليهم، كأجراء وحرفيين، ما روى من أن الرسول (ص)، قال: وهبت خالتي فاخته بنت عمرو، غلاما وأمرتها أن لا تجعله جازرا ولا صائغا ولا حجاما^(١٤). ويظهر أن شرط الرسول (ص) على خالته، أن لا تجعله في تلك المهن، ربما جاء لأمر توسمها الرسول (ص)، في ذلك الغلام وأمل أن يبد فيها. وكان الرسول (ص)، قد احتجم، فحجمه أبو

(١) الأصفهاني: الأغاني، ج ١، ص ٥٢.

(٢) ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٦٤٨.

(٣) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ١٣.

(٤) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٩٧.

ابن عبد البر: الاستيعاب (هامش كتاب الإصابة، ج ١)، ص ٩٧ - ٩٨.

(٥) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩٧.

(٦) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠٧.

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٦.

(٨) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٦١٥.

(٩) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٦٨ - ٦٩.

(١٠) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩٧ - ٩٨.

(١١) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٦٦ - ٦٧.

(١٢) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٩٧٤.

(١٣) البخاري: الصحيح، ج ٣، ص ٥١، ٥٢، ٥٤.

(١٤) ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ٣٧٤.

ظبية، فأمر له بصاع من تمر. وأمر أهله أن يخففوا عنه من خراج^(١). وقد قيل أن الزبير بن العوام كان له ألف مملوك، يؤدون إليه الخراج^(٢). وذكر أن رجلا، في زمان رسول الله (ص)، أعتق عبدا له، ستة، عند موته. فأسهم رسول الله (ص)، بينهم، فأعتق ثلث تلك العبيد ولم يكن لذلك الرجل مال غيرهم^(٣). ويبدو أن الرسول (ص)، قد أراد بذلك أن لا ينقطع مورد رزق من كان يعيلهم ذلك الرجل من ورثته، حين يعتق كل عبده.

على أن ما سبق ذكره، لا يعني أن المولى أو العبد كان لا يعمل أبدا لصالح نفسه. حيث ذكر أن سعد بن عاذ مولى عمار بن ياسر، اشتكى إلى النبي قلة ذات يده، فأمره بالتجارة، فخرج إلى السوق فاشترى شيئا من القرظ، فباعه فربح فيه^(٤).

وقد اتجه الناس، في المجتمع المدني - كما سبق أن ذكرنا - إلى الاكثار من استخدام المخصيين والمجبوين وكذلك المختنن، للخدمة في البيوت، مراعاة لتقاليد الاسلام، التي كانت لا تبيح الاختلاط بين النساء والرجال، إلا إذا أمنت الفتنة. ومن أجل ذلك كان الرسول (ص)، يعين بعض الصحابة ليحذو بالرجال، وكان أنجشة الأسود - وهو من المختنن - يحذو بالنساء^(٥). فإذا أعتقت الابل قال النبي (ص): يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير^(٦). وكان مانع، أحد هؤلاء، هو وآخر، اسمه هيت، في بيوت النبي (ص)، يقومان بالخدمة بين نسائه^(٧). ويذكر أن آنة المختنن، كان يأتيه الشخص، إذا أراد أن يتزوج، ليدله على امرأة يخطبها، إذ كان مطلعا على مساوىء ومحاسن النساء وعارفا بهن، للملازمة هن في البيوت^(٨). وقد أمر الرسول (ص)، بإخراج آنة المختنن من المدينة^(٩)، لتلك الخلعة فيه وكشفه لأسرار النساء، والتشبيب بهن.

وبالإضافة إلى ما ذكر، استعين بالغللمان الصغار الذين لم يحتلموا بعد، للخدمة في البيوت بين النساء^(١٠). كما

(١) وقوله من خراج: ما يقرره السيد - حينذاك - على عبده أن يؤديه إليه كل يوم أو شهر أو نحو ذلك. (انظر: مالك المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٧٤).

(٢) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٤٦. وقد شهد الزبير بن العوام بدرا، وقتل سنة ست وثلاثين من الهجرة، بعد أن انصرف يوم الجمل. (انظر: ابن حجر: نفس المكان).

(٣) مالك: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٧٤.

(٤) ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٢٩.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٦٧ - ٦٨. والخصي: هو فاقد الخصيتين مع بقاء الذكر، والمجبوب هو الذي استؤصل ذكره وخصياه، وقد جب جبا. (انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ٣٩٢). والمختنن: هو من يشبه خلقة النساء في حركاته وكلامه، وكان فيه لين وتكسر، ولا يشتهي النساء. (انظر: الكتاني: التراتيب الادارية، ج ٢، ص ٤٤١).

(٦) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٦٧ - ٦٨.

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٣٣٥ - ٣٦.

(٨) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٧٥.

(٩) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٧٥.

(١٠) ومن أولئك: إبراهيم، مولى أم سلمة كان عبدا يعمل في بيت أم سلمة فلما بلغ مبالغ الرجال أعتقه الرسول (ص). (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٤، ص ٢). وكان بكر بن الشداخ الليثي، ممن كان يخدم الرسول (ص)، في بيته، وهو غلام صغير، فلما احتلم أعلم الرسول (ص)، بذلك فدعاه. (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ١٦٤).

استعين بالنساء كخادمات، إلا أنهم كن - في الغالب - من الجواري المملوكات^(١). وكان ممن خدم منهن في بيت الرسول، صلى الله عليه وسلم: سلمى، جدة عبد الله بن علي بن أبي رافع، مولى الرسول، صلى الله عليه وسلم، وخضرة، ورضوى، وميمونة، أعتقهن الرسول (ص)، كلهن^(٢). وكان من أهل المدينة، من أسند إلى الجواري أمر رعي أغنامهم حول جبل سلع^(٣). وقد يتسرر الحرجاريته ويعاشرها كزوجة^(٤). وقد جمع بعض المؤرخين وأهل الفنى في المدينة، عددا من الجواري والغلمان للخدمة في بيته^(٥).

(١) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٩٧.

(٢) ابن سعد: نفس المكان.

(٣) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٧٧٦ - ٧٧٧.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٢٨.

(٤) الطبري: جامع البيان، ج ٥، ص ١٥ - ١٦.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٧.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٥٥١.

الفصل الثاني

الحالة الاقتصادية في المدينة المنورة خلال العصر النبوي

- الزراعة
- التجارة
- المهن والحرف العامة

اولا - الزراعة

لقد ساعد تطويق الجبال والحرار البركانية لموقع المدينة المنورة، على جعل تربتها جيدة الخصوبة^(١)، كما عمل ذلك التكوين، الذي يشبه الحوض الجلي^(٢)، على حجز المياه الجوفية العذبة، مما جعل في الاستطاعة الوصول إليها، في أي بقعة من ذلك الحوض، عند حفر الآبار^(٣). وقد تضافرت تلك العوامل، بالإضافة إلى وجود عدد كبير من الأودية التي تسيل على سطحها، في وقت الأمطار والسيول من تلك الجبال والحرار^(٤)، على جعل المدينة - في المقام الأول - مدينة الزراعة والمزارعين^(٥). إذ أن معظم أهل المدينة، كانوا يملكون البساتين وحدائق النخيل، وكانوا يعملون فيها بأنفسهم^(٦)، يستوي في ذلك الصغير والكبير^(٧).

وكانت بساتين أهل المدينة، وحدائقهم، تعرف بالحوائط^(٨). وهي لم تكن - في أغلب الأحيان - كبيرة المساحة،

(١) Brita; Ency. vol. 15.p.206.

(٢) Brita; Ency. Loc. cit.

(٣) ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٣١،

المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٨٠،

المطري: التعريف، ص ٥٦ - ٦٢،

Brita; Ency. o.p.cit, p.206.

(٤) اليعقوبي: البلدان، ص ٧٢،

المطري: المصدر السابق، ص ٦٣.

(٥) ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٨٢ - ٨٦،

الكتاني: التراتيب الادارية، ج ٢، ص ٤٣ - ٤٤،

Brita; Ency. o.p.cit, p.207.

الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٥٦.

(٦) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٣٦١ - ٦٣،

الطبري: جامع البيان، ج ٢، ص ٥٩٣،

مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٥٩٢.

(٧) ذكر أن الرسول (ص)، لما رجع من غزوة تبوك، استقبله سعد بن معاذ، سيد الأوس فقال: ما هذا الذي أرى بيدك يأسعد؟

قال: من أثر المسحاة، أضرب وأنفق على عيالي. (انظر: ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٨).

(٨) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٦٠٦،

الكتاني: التراتيب الادارية، ج ١، ص ٤٠١، ج ٢، ص ٤٧. والحوائط: مذكره، في معنى الحدائق، ومعنى الجنات.

والحائط، هو الحديقة من النخل، وهو أيضا الجدار، لأنه يحوط ما فيه، والجمع حيطان، وحوط حائطاً، عمله. فسميت الحديقة حائطاً من هذا إنه يحوطها. (انظر: المطري: التعريف، ص ٥٨، الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة ١٥٧).

وربما كان متوسطها مائة ذراع في مثلها^(١). ويشتمل الحائط - غالبا - على بئر خاصة به، إلى جانب أطم يكون جواره، لتوفير الحماية^(٢). بل إن بعضهم - زيادة في الحيلة والحذر - لم يجعل لحائطه أي باب ظاهر، سوى فتحة صغيرة جدا، يدخل منها إلى جوف الحائط جدول ماء صغير من إحدى الآبار القريبة منه، وكانوا يسمون ذلك الجدول رييعة^(٣). ومعظم إنتاج تلك الحوائط، كان للاستهلاك الشخصي، وأحيانا، كان الرجل يبيع ثمر حائطه، ويحتفظ بما يكفي قوت عياله^(٤).

وربما عمل الرجل الذي ليس لديه حائط خاصا به، في حيطان أهل المدينة بأجر معلوم من التمر^(٥). وقد يعتمد صاحب الحائط إلى إعطاء حائطه لشخص، يزرعه ويسقيه ويتعهدده مقابل ربع الثمرة أو ثلثها أو نصفها أو أقل من ذلك أو أكثر وهي طريقة تعرف بالمزارة^(٦).

وكانوا يعتمدون في سقيا حوائطهم، على مياه الأودية^(٧)، أو مياه الآبار^(٨). حيث يرفعونها، مستخدمين الابل النواضح^(٩). كما استخدموا البقر لحرث أراضيهم^(١٠).

وقد اتبعت وسائل عديدة، على عهد الرسول (ص)، لحث الناس على الزراعة والاقبال على ممارستها. فكان العرف السائد، أن من أحيا أرضا ميتة فهي له^(١١). هذا بالإضافة إلى التوسع في إقطاع الأراضي الزراعية لمعظم المهاجرين، في وادي العقيق^(١٢)، وفي منطقة العالية^(١٣). ويذكر أن الرسول (ص)، أعطى أحد المهاجرين من حرة

(١) ذكر أن مساحة موضع مسجد الرسول (ص)، لم تزيد على المائة ذراع في مائة، وكان قبل ذلك حائط لبني النجار. (انظر: الطبري: تاريخ، ج ٢، ص ٣٩٧، السهمودي: الوفاء، ج ١، ص ٣٢٢ - ٣٤).

(٢) المطري: المصدر السابق، ص ٥٨.

(٣) مسلم: الصحيح، ج ١، ص ٥٩ - ٦٠.

(٤) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٦٢١ - ٢٢،

ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٣٨.

(٥) الطبري: جامع البيان، ج ٢، ص ١٦٦ - ٦٧.

(٦) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٢٢١،

ابن سيده: المحكم، ج ٣، ص ١.

(٧) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٥٩٢.

(٨) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٤، ص ٩٦.

(٩) مسلم: الصحيح، ج ١، ص ٥٦،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٤، ص ٩٦،

الكتاني: التراتيب الإدارية، ج ٢، ص ٤٧. والابل النواضح، هي التي يستقي عليها. الذكر منها ناضح والأنثى ناضحة.

(انظر: مسلم: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٦، وانظر الهامش رقم ٢، نفس المكان).

(١٠) الكتاني: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٦.

(١١) مالك: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٤٣.

(١٢) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٥.

(١٣) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٢.

الوادي، مبذر صاع^(١)، وأعطى غيره، بئرا بوادي العقيق^(٢). وهذا يدل على أن القطائع، كانت لجميع الفئات، ولذلك اقتصد في توزيعها، حتى ينال كل نصيبه.

ونتيجة لهذا التوسع الزراعي، خارج المدينة، أصبح معظم بساطينها في ظاهرها، ومحيطه بأكثرها^(٣).

وقد اتبعت وسائل عدة، للحفاظ على الثروة النباتية في المدينة - على عهد الرسول (ص) - فمنع قطع السدر، إلا من حرث^(٤). وقد استمر هذا التقليد، إلى عهد عمر بن الخطاب، إذ عين حارسا مهمته معاقبة من يقطع من السمر شيئا^(٥).

وكان للري نصيب كبير في التنظيم الزراعي على عهد الرسول (ص)، ففضى في سيل أودية، مهزور ومذنيب وبطحان، أن يحبس الماء في الأرض إلى الكعبيين. فإذا بلغ الكعبيين أرسل إلى الأرض الأخرى، لا يمنع الأعلى الأسفل^(٦). وذكر أيضا أن لأهل النخل إلى الكعبيين ولأهل الزرع إلى الشراكين^(٧). أما مسايل الماء في الحرار إلى السهول، ففضى في مائها أن يسقى الأعلى أرضه ثم يرسل الماء إلى جاره حتى وإن كانت تلك المسايل في أرض الأول^(٨).

وقد ملك المهاجرون كثيرا من الأراضي الزراعية الواسعة بالغابة^(٩)، وبالحرة الشرقية^(١٠). وكانت أموال بني النضير، بالعالية، قد أصبحت خالصة لرسول الله، صلى الله عليه وسلم^(١١)، بعد اجلائهم، في سنة أربع من

(١) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٨٥.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٤، ص ٢٢٤.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٨٠.

(٤) ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٣٢٤.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ١٠٨.

(٦) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٧٤٤.

البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٩.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٤، ص ٨٧.

(٧) البلاذري: المصدر السابق، ج ١، ص ١٠. والعقبين: مفردا عقب، وهو مؤخر القدم. (انظر: الزنجشري: أساس

البلاغة، ص ٤٢٨، معلوف، لويس: المنجد، ص ٥١٨، «المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٠»). والشارك، رباط النعلين أو سيرها على ظهر القدم. (انظر: الزنجشري: المصدر السابق، ص ٣٢٨، معلوف، لويس: المرجع السابق، ص ٣٨٤).

(٨) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١١-١٢.

(٩) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٧٥٢.

(١٠) البلاذري: المصدر السابق، ج ١، ص ١١-١٢.

(١١) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٦٨٤.

الهجرة^(١). وكان يزرع تحت النخل، في أرض تلك الأموال، فيدخر من ذلك، قوت أهل وأزواج الرسول (ص)، سنة. وما فضل، جعل الكراع والسلاح^(٢). وكان الرسول (ص)، قد أقطع بعض المهاجرين واثنين من الانصار، بعض أراضي بني النضير^(٣).

وتعد النخلة، أهم الأشجار المزروعة في المدينة، وأكثر أموال أهلها^(٤)، ومنها معاشهم وأقواتهم^(٥). وقد بلغ من أهمية زراعة النخلة، على عهد، الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن أصبح من حق العبد أن يكتب صاحبه على عدد من النخل يحميها له بالفقير^(٦). وكانوا يتخذون من جريدها وجذوعها سقوفا وأعمدة لبيوتهم^(٧)، هذا إلى جانب انتفاعهم بأليافها وخصوصها في صنع المكاتل والقفف والحصر، ونحو ذلك^(٨). وكان ثمر النخلة، أهم الثمار لدى أهل المدينة، وآثره لديهم. فكانوا إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، فإذا أخذه قال: اللهم بارك لنا في ثمرنا^(٩).

وقر المدينة أصناف كثيرة جدا، منها الأسود والأحمر^(١٠). وأشهر أصنافه، على عهد الرسول (ص): العجوة، وعذق زيد^(١١). وكان محصول التمريكفي حاجة السكان - في غالب السنين - ولذلك كانوا يبيعون منه الفائض، بسعر أعلى من السعر الذي يشترون به القمح المستورد من الشام^(١٢). ويعود سبب ذلك الى كون التمر عماد معيشتهم، ولأن زراعته، كانت تكلفهم كثيرا من الجهد والوقت. ويذكر أنه ربما أصاب نخلهم آفات زراعية مثل القشام، فيذهب ثمرتهم تلك السنة^(١٣).

(١) ابن اسحاق: نفس المصدر، ج ٣، ص ٦٨٢.

(٢) البلاذري: المصدر السابق، ج ١، ص ١٨.

(٣) البلاذري: نفس المصدر، ج ١، ص ١٨ - ٢٢.

(٤) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٢.

اليقوي: البلدان، ص ٧٣.

(٥) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٠٦ - ٤٠٧.

اليقوي: المصدر السابق، ص ٧٣.

(٦) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٤. والفقير للنخلة، الحفيرة، وإذا خرجت النخلة من النواة، فهي عريسة، ثم يقال لها: ودية، ثم فسيلة، ثم اشاء، فإذا أتت اليد فهي جبارة، وهي العضيد، والكتيلة. ويقال للتي لم تخرج من النواة، لكنها اجتثت من جنب امها: قلعة وجثثة، وهي الجثاثن، والمراء، ويقال للنخلة الطويلة: عوانه، بلغة عمان، وعيدانه بلغة غيرهم، وهي فيعاله من عدن بالمكان اقام به. (انظر: السهيلي: الروض الانف، ج ١، ص ٢٥٠ - ٥١).

(٧) مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ٥.

(٨) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٩١.

البخاري: الصحيح، ج ١، ص ٧٢.

الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٥٧.

(٩) السهوي: الوفاء، ج ١، ص ٥٣.

(١٠) الكتاني: التراتيب الادارية، ج ٢، ص ٥٣.

(١١) البخاري: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٩. والعجوة، ضرب من أجود التمر بالمدينة. والعجوة أيضا، ما يخلط من التمر بعضه ببعض ويركم. أما عذق زيد، فإن العذق، كل غصن له شعب، وهو هنا قنوا النخلة. (انظر: مجموعة من المؤلفين: المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٥٩٣، ٥٩٦).

(١٢) الكتاني: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٢ - ٥٣.

(١٣) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠٩. والقشام، شيء يصيب البلح، بمثل الجدري، فيقير. (انظر: ابن سعد: نفس المكان).

أما غلات الحبوب، مثل القمح والشعير، فتأتي بعد محصول التمر من حيث الكثرة، إذ كانوا يزرعونها تحت النخل^(١). ولم يكن هناك مزارع خاصة بالحبوب، إلا بعد قيام بعض المهاجرين بتولي هذا الامر^(٢). وكان الشعير يحتل المقام الأول، في اعتماد الناس عليه^(٣)، بينما كانت زراعة القمح - فيما يبدو - لا تكفي حاجة أهل المدينة، ولذلك ذكر أن القمح كان يحمل من البلقاء إلى المدينة^(٤).

وقد عمل المهاجرون - فيما بعد - على التوسع في زراعة القمح وعلى وجه الخصوص، ما ذكر من أن طلحة بن عبيد الله التيمي، كان أول من زرع القمح بوادي قناة شمالي المدينة^(٥). ومع ذلك فإن محصول القمح لم يكن يسد حاجتهم، ولذلك اتجهوا إلى تعويض النقص، بالاستيراد من الخارج، حيث ذكر أن عبد الرحمن ابن عوف، قدمت له سبعمائة راحلة تحمل البر والدقيق والطعام عامة^(٦).

وإلى جانب ما ذكر كان يزرع في المدينة بعض الفاكهة. ومن بساينها، ما كان يحمل الفاكهة في السنة مرتين^(٧). وكان أشهرها العنب، وهو أنواع مختلفة. منها المرادوي، وهو أجودها، لرقته وحلاوته^(٨). وأحسنه ما كان في حدائق قباء، ثم العالية، ثم جفاف، وباقي بساين المدينة^(٩). وحكى أن لسعد بن أبي وقاص، بالعقيق، كرم تباع ثمرته بألف دينار^(١٠). هذا إلى جانب زراعتهم للبطيخ والخربز^(١١).

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٨. ونحب أن نشير هنا إلى أنه لا يوجد احصاء عن مقدار غلة المدينة من التمر والحبوب، غير أن بعضهم قدر رجح أن محصول الشعير، كان يساوي ربع محصول التمر، قياساً على ما كانت تنتجه خيبر، وهي واحة شبيهة بالمدينة، فقد كانت تنتج أربعين ألف وسق من التمر وعشرة آلاف وسق من الشعير. (انظر: الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٥٨، وانظر أيضاً المقرئ: إمتاع الاسماع، ج ١، ص ٣٢٨ - ٢٩، والهامش رقم ٣، نفس المكان).

(٢) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٢٢٢.

(٣) ابن سعد: نفس المصدر، ج ١، ص ٤٠، ٤٠٨.

الشريف: المرجع السابق، ص ٣٥٨.

(٤) الكتاني: التراتيب الادارية، ج ٢، ص ٥٢ - ٥٣.

البلقاء: مدينة بالشام من عمل دمشق، سميت بالبلقاء بن سورية من بني عبيل ابن لوط، وهونهاها، وبها كان اجتماع الحكمين: أبي موسى وعمر بن العاص. وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة. (انظر: الحميري: الروض المعطار، ص ٩٦ - ٩٧. ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٨٩).

(٥) ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٢٢.

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١، ص ٥٠.

(٧) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٧١.

(٨) كبريت: الجواهر الثمينة، ورقة ٥٥ - ٥٦.

(٩) كبريت: نفس المكان.

(١٠) كبريت: نفس المكان.

(١١) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٦١٩.

كما زرعوا بعض الخضروات والبقول، مثل القثاء والدباء، وهي نوع من القرع، والبصل والثوم^(١)، والجزر^(٢).

ومما ساعد على انتعاش الزراعة وتقدمها - بشكل واسع - في المدينة، وجود عدد كبير من المهاجرين عملوا في الزراعة واستغلوا الأراضي الزراعية الواسعة، واستصلحوا ما كان حول الأودية، مثل وادي بطحان، بعد أن كان يجري أجنا متغير الطعم واللون^(٣). كما استصلحوا أرض الغابة، شمالي غرب المدينة. وكانت عبارة عن أشجار كثيرة ملتفة، من الطرفاء والأثل، فقطعوا معظمها وغرسوا مكانه وديّة النخل^(٤). كما عملوا على إيجاد مزارع متخصصة لزراعة القمح، في وادي قناة. ذكر أن أحدها كان يزرع فيها القمح على عشرين ناضحا^(٥)، مما يدل على سعة تلك المزارع وكثرة محصولها.

ثانيا - التجارة

أ - أسواق المدينة التجارية

مارس أهل المدينة أنواع النشاط التجاري، بحكم وضعهم الزراعي، المتسم بالاستقرار، ولوقوع المدينة على طريق التجارة بين الشمال والجنوب^(٦). ومن أهم مظاهر هذا النشاط، اشتغال المدينة على عدة أسواق تجارية تعددت أغراضها وتشعبت^(٧). وكان منها قبيل الهجرة، سوق حباشة (بالضم والشين المعجمة)، لبني قينقاع، وهي مخصوصة لبيع العبيد^(٨). ويبدو لنا أنها كانت جزءا من سوق بني قينقاع عند جسر وادي بطحان^(٩). وكانت سوقا عظيمة تكثر

(١) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٣٩١، ٣٩٥،

مالك: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩١٠،

البخاري: الصحيح، ج ٣، ص ٥٣،

البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٧،

الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٥٨.

(٢) مالك: المصدر السابق، ج ٢، ص ٦١٩.

(٣) المراغي: تحقيق النصرة، ص ١٤.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٩،

الفيروز آبادي: المعجم المطبوع، ص ٢٩٩.

(٥) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٢٢٢.

(٦) حتي: تاريخ العرب، ج ١، ص ١٤٦.

(٧) انظر: السهمودي: الوفاء، ج ٢، ص ٧٤٧ وما بعدها.

(٨) ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢١٠ - ١١.

(٩) السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٤٧، ج ٤، ص ١١٧٧.

الجسر: موضعه، عند أعلى بطحان، وتقدم في بطحان أن سيله حين يأتي من جنوب المدينة يسير حتى يرد الجسر، ثم يستبطن وادي بطحان غربي المدينة. (انظر: السهمودي: نفس المكان).

فيها الحركة وأصوات البيع والشراء^(١). وأهم ما كان يباع فيها الحلي والقصي والرماح والسيوف^(٢). ومن أسواق المدينة في الجاهلية، غير مذكور، سوق بزبالة من الناحية التي تدعى يثرب^(٣)، وسوق بالعصبة غربي مسجد قباء^(٤)، وسوق في منازل بني الحبل، بموضع يقال له مزاحم^(٥)، كانت تقوم في الجاهلية وأول الإسلام^(٦). وكان لليهود سوق مجاور لبقيع الغرق، شرقي المسجد النبوي^(٧). واتخذ المسلمون سوقهم مجاورا لها في موضع بقيق الزبير بطريق بقيق الغرق^(٨). والظاهر أن اليهود قد شعروا بقوة المسلمين وأحسوا بخطر منافستهم ومزاحمتهم في تجارة المدينة، طالما كانت هذه السوق قريبة من سوقهم، فأقبل كعب بن الأشرف اليهودي، فدخلها وقطع أطناها. فقال الرسول (ص): لا جرم لأنقلنها إلى موضع هو أغيبظ له من هذا، فنقلها إلى موضع سوق المدينة غربي المسجد النبوي^(٩)، وكان بعض الصحابة قد أشار على الرسول (ص)، باتخاذ هذا الموضع^(١٠). وقد بنى - فيما بعد - بين السوق والمسجد النبوي، بعض بيوت الصحابة^(١١).

وقد كان اختيار المسلمين لموضع سوقهم، اختيارا موفقا دل على عمق تجربتهم التجارية وفهمهم بأمور البيع والشراء. إذ كان واقعا في جهة هي بمثابة المدخل الرئيسي للمدينة، سواء من جهة الشام أو اليمن ومكة، وديار سائر القبائل المجاورة. مما مكنهم - ولا ريب - من تلقي التجار والوفود، حال وصولهم، موفرين عليهم مشقة الالتفاف برواحلهم المحملة حول بيوت المدينة أو حتى التخلخل بينها حتى يصلوا إلى سوق اليهود، داخل المدينة.

(١) الأصفهاني: الأغاني، ج ٢١، ص ٦٢ (القاهرة، ١٩٢٩ م)،

الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٦٥.

(٢) الواقدي: المغازي، ص ١٣٨ - ٤٠ (الطبعة الأولى).

(٣) السهودي: الوفاء، ج ٢، ص ٧٤٧.

زبالة: بفتح الزاي والباء، موضع أول يثرب مما يلي شمال المدينة. (انظر: العباسي: عمدة الأخبار، ص ٣٣٢).

(٤) السهودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٤٧،

ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٢٨.

(٥) السهودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٤٧.

مزاحم: بالضم وكسر الحاء المهملة، أطم من أطام المدينة ابتناه بنو الحبل بين ظهري بيوتهم، كان لعبد الله بن أبي بن سلول.

(انظر: الفيروز آبادي: المغانم المطابة، ص ٣٨٠).

(٦) السهودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٤٧.

(٧) السهودي: نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٤٧ - ٤٨.

(٨) السهودي: نفس المكان.

العباسي: المصدر السابق، ص ٢٧٦.

(٩) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٥،

ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٥٣٤،

السهودي: الوفاء، ج ٢، ص ٧٤٨.

(١٠) السهودي: نفس المكان.

(١١) مالك: الموطأ، ج ١، ص ١٣١.

وكانت سوق المدينة الجديدة، بعد الهجرة، رحبة واسعة لا بناء، ولا ظلة فيها^(١)، وكان الراكب ينزل بها فيضع رحله، ثم يطوف بالسوق، ورحله بعينه يبصره، لا يغيبه عنه شيء^(٢). وكانت السوق أقرب إلى الطول منها إلى العرض. ومن ضمنها المنطقة المعروفة اليوم بالمناخة. ويرجح أنها تمتد من الحد الشمالي لمصلى العيد (وهو في موضع مسجد الغمامة اليوم) إلى منطقة جرار سعد، في منازل بني ساعدة، قرب ثنية الوداع شمال المدينة^(٣). وكانت بداية موضع السوق - عند جرار سعد - مقابر قديمة في بني ساعدة، أعطوها الرسول (ص)، فجعلها من السوق^(٤).

وقد حوت السوق، معظم أنواع البضائع مثل التمر^(٥)، والحنطة^(٦)، والسمن، والأقط^(٧)، وسائر الطعام^(٨)، كما عرض فيها للبيع أنواع الجلود المدبوغة^(٩)، ومواد دبغها، مثل أعشاب القرظ^(١٠). وبيع فيها أيضا، البز، وهونوع من الثياب، وقيل الثياب خاصة من أمتعة البيت^(١١). وكان للبزازين، وهم بائعوا الثياب، مكان معروف بهم في السوق^(١٢). ويذكر أن عثمان بن عفان كان بزازا، ولم يحترف غير البزازة، وكذلك طلحة بن عبيد الله^(١٣). وقد عرض في السوق أيضا، جميع مصنوعات المدينة من السهام والرماح والسيوف والخيل^(١٤). كما عرضت فيها، أنواع الماشية^(١٥)، وكان للخيل قسم خاص من السوق يعرف ببقيع الخيل^(١٦)، وكذلك الابل^(١٧)، والبقر والغنم^(١٨).

(١) السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٤٩.

(٢) السهمودي: نفس المكان.

(٣) السهمودي: نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٤٨.

(٤) السهمودي: الوفاء، ج ٢، ص ٧٤٨.

(٥) السهمودي: نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٤٩.

ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ١٠، ٥٥٠.

(٦) السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٥٦.

(٧) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ١٢٥.

(٨) ابن سعد: نفس المصدر، ج ٣، ص ١١٤ - ١٥.

(٩) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٦٨.

(١٠) والقرظ ورق يدبغ به، كقشر البلوط. (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٩، الكتاني: التراتيب الادارية، ج ٢، ص ٢٧).

(١١) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٨٤.

الكتاني: المرجع السابق، ج ٢، ص ٣١.

(١٢) الكتاني: نفس المرجع، ج ٢، ص ٣٣. والبز: بفتح الباء، الثياب، وهي متاع البزاز، وهوبائع البز، وحرفته البزازة. (انظر: الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة ٢٠٣).

(١٣) الخزاعي: نفس المصدر، ورقة ٢٠٢.

(١٤) الواقدي: المغازي، ص ١٣٨ - ٤٠ (الطبعة الأولى).

(١٥) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٨٣، ج ٣، ص ١٦٠، ٣٩٧.

السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٥٤.

(١٦) السهمودي: الوفاء، ج ٢، ص ٧٥٤.

(١٧) السهمودي: نفس المكان.

ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٥١.

(١٨) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٤٨٣، ج ٣، ص ١٦٠.

وبالإضافة إلى ما ذكر، كان يباع في سوق المدينة جميع ما يرد إليها من الخارج، مثل القمح^(١)، والزيت^(٢)، والعسل^(٣)، وكذلك الخيل والسلاح^(٤)، وبعض الكماليات، مثل أواني الفضة^(٥).

وقد نظم أمر السوق، على عهد الرسول (ص)، وحظي أمر الاشراف عليها باهتمام كبير^(٦). وكان الرسول (ص)، يقوم بنفسه مع بعض الصحابة بتعسس أحوال السوق، ومراقبة أمورها وما يجري فيها^(٧). وذكر أن الرسول (ص)، مر على رجل يبيع طعاما، فأدخل يده، فإذا هو مبتل، فقال: من غشنا فليس منا^(٨). وهذا يعني أن سوق المدينة، على عهد الرسول (ص)، لم يكن عليها عامل بعينه، على الرغم من أن الرسول (ص)، قد استعمل على سوق مكة^(٩). إذ أن قيام الرسول، صلى الله عليه وسلم، بنفسه مع كبار الصحابة بمراقبة السوق، كان يفي بالغرض المطلوب.

ومن ضمن ضبط أمور السوق، مراقبة الأسعار وتحديد بها تقتضيه المصلحة العامة^(١٠). كما منع احتكار ما يأتي إليها من البضائع والطعام^(١١). ووضعت الحدود الكفيلة بمنع أي غبن بين البائع والمشتري. ومن ذلك النهي عن بيع الثمار، حتى يبدو صلاحها^(١٢)، وأن من باع نخلا قد أبرت فثمرها للبائع، إلا أن يشترط المبتاع^(١٣). كما حرم بيع أنواع الفاكهة مثل البطيخ والخربز وكذلك الخضار، كالقثاء والجزر، ما لم يبد صلاحها^(١٤). كما نهى أن يبيع حاضر لباد^(١٥)، وهو أن يكون للبائع سمسار يتولى العقد بين البائع والمشتري بأجر^(١٦).

(١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ١٠٤.

(٢) الطبري: جامع البيان، ج ٣، ص ١٥.

(٣) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٠٧.

(٤) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٨.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ١٤١.

(٦) البخاري: الصحيح، ج ٣، ص ٦١-٦٢.

(٧) السهمودي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٥٥-٥٧.

(٨) السهمودي: نفس المكان.

(٩) الدولابي: الكني والاسماء، ج ١، ص ٢٥.

ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٣، ص ٢٦٥.

(١٠) ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٤٧.

(١١) يروي في هذا، أن الرسول (ص)، مر برجل يبيع طعاما في السوق، بسعر هو أرفع من سعر السوق. فقال: تبيع في سوقنا بسعر هو أرفع من سعرنا؟ ثم قال: إن المحتكر في سوقنا كالمحتكر في كتاب الله. (انظر: ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٤٨-٤٩، السهمودي: الوفاء، ج ٢، ص ٧٥٦-٥٧).

(١٢) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦٣، ج ٣، ص ٤٤٨-٤٩.

الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٦٧-٦٨.

(١٣) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٦١٨.

(١٤) مالك: نفس المصدر، ج ٢، ص ٦١٧.

(١٥) مالك: نفس المصدر، ج ٢، ص ٦١٩.

(١٦) البخاري: الصحيح، ج ٣، ص ٦١.

(١٧) والسمسار هنا، هو الدلال، لأنه يدل المشتري على البائع، أو هو الوسيط بين البائع والمشتري. وقيل إن السمسار، لفظ فارسي معرب. (انظر: الكتاني: التراتيب الادارية، ج ٢، ص ٥٧-٥٨، مجموعة من المؤلفين: المعجم الوسيط، ج ١، ص ٤٥١).

وكان أمر تنظيم البيع والشراء قبل ذلك منعداً في أسواق المدينة، ولم تكن هناك رقابة رادعة على التجار، الذين يغشون في الكيل ويحتالون على الناس^(١). وقد تغير الأمر بظهور الاسلام، حيث نزلت آيات، خاصة بضبط المكايل والموازين^(٢). وكان تجار المدينة، عند قدوم الرسول (ص)، من أسوأ الناس كيلاً، فأُنزل الله «ويل للمطففين»، فأحسنوا الكيل^(٣).

وقد مارس أهل المدينة، أعمال الصيرفة، وكانوا يعتبرونها نوعاً من التجارة^(٤). وقد نظمت أمورهما، وبين حكم الله فيها^(٥). وبعد الربا أبرزت تلك الأعمال التي كانوا يتعاملون بها^(٦)، حتى حرمه الله بينهم^(٧). وأعمال الصيرفة، قائمة على بيع الذهب بالفضة، يدا بيد^(٨). وفي بعض الأحيان، يكون البيع بالنساء أو التأخير، ولم يكن شائعاً^(٩).

وقد أقر الاسلام للنساء، نصيب مما اكتسبن^(١٠). ومنهن بائعات للعطر، يظفن به على النساء في البيوت^(١١).

وكان للقبائل المجاورة للمدينة، دور كبير ساهم في ازدهار ورواج التجارة في أسواقها. إذ كانوا يفدون إليها، حاملين معهم بضائعهم، للبيع والشراء خلال السنة^(١٢). وأهم ما يقدمون به، الابل^(١٣)، والغنم^(١٤). ويذكر أن بني

(١) ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ٣٦.

(٢) انظر: سورة المطففين: ١ - ٣.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٦.

(٣) الطبري: جامع البيان، ج ٣٠، ص ٩٠ - ٩١. والظاهر أن قول الطبري: «أنزل الله سورة المطففين». إنها يريد بذلك، قراءتها بين الناس في المدينة. لأن هذه السورة، مكية النزول.

(٤) الكتاني: التراتيب الادارية، ج ٢، ص ٣٥.

الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٦٦.

(٥) انظر: سورة البقرة: ٢٧٥، ٢٨٢.

(٦) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٣١. والربا، هو من ربا يربو. وأصل الربا الزيادة. يقال: ربا الشيء يربو، إذا زاد. وربا المال يربو: زاد. والزيادة، هي الربا. (انظر: الزحشري: أساس البلاغة، ص ٢١٩، مسلم: الصحيح، ج ٣، ص ١٢٠٨).

(٧) انظر: سورة البقرة: ٢٧٥.

(٨) البخاري: الصحيح، ج ٣، ص ٤٨.

الكتاني: المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٦.

(٩) الكتاني: نفس المكان.

(١٠) انظر: سورة النساء: ٣٢.

(١١) الواقدي: المغازي، ص ٦٦٥ - ٦٦٦ (الطبعة الاولى).

ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ٢٧٨.

(١٢) ابن خياط: الطبقات، ص ٥٧ - ٥٨.

ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ١١٤ - ١١٥.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٨، ج ٣، ص ٥٦٩ - ٧١، ج ٤، ص ٨٩.

(١٣) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٤١، ٣٣٥، ٥٨٦.

(١٤) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٢٨٤، ج ٣، ص ٦٤٣.

سليم، كانوا يجلبون إليها الخيل والابل والغنم والسمن^(١). ويبيعون الابل بالدنانير^(٢). وقد ابتاع النبي (ص)، من رجل من بني فزارة، فرسا بعشر أواق من الفضة^(٣). ومن مجلوبات القبائل لسوق المدينة أيضا، الخمر، قبل أن تحرم^(٤)، واللحوم^(٥)، وهي - في الغالب - من لحوم الصيد، يجلبه أهل البادية معهم^(٦). كما جلبوا معهم الرقيق^(٧)، ينادون عليه في نفس السوق^(٨)، كعادة العرب في أسواقهم، أيام الجاهلية^(٩). أما أهم ما كانت القبائل تمتاز به من سوق المدينة، فهو التمر والبر وبعض الكساء^(١٠).

ب - التبادل التجاري بين المدينة وخارجها

من المستبعد أن يكون النشاط التجاري في المدينة، قد اقتصر على التجارة، داخل أسواقها، دون أن يكون لأهلها اتصالات تجارية خارجية^(١١). خصوصا وأن المدينة كانت واقعة على طريق القوافل، التي تحمل الطيوب بين اليمن والشام^(١٢). ولذلك نجد أن بعضهم، قد أسهم في ذلك المجال، فسلكوا طريق القوافل، بين المدينة، من جهة وفارس والشام من جهة أخرى^(١٣). ويذكر أن سليمان الفارسي، لما جاء إلى النبي (ص)، ليسلم، لم يفهم كلامه، فطلب ترجمانا، فأتى تاجر من اليهود كان يعلم الفارسية والعربية، فترجم كلام سليمان إلى العربية، غير أنه حرف الترجمة، لأن سليمان مدح النبي، صلى الله عليه وسلم، وذم اليهود^(١٤). ومن هذا نستدل على وجود رحلات تجارية

(١) السهمودي: الوفاء، ج ٢، ص ٧٥٤.

(٢) السهمودي: نفس المكان.

(٣) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٨٩.

(٤) البخاري: الصحيح، ج ٣، ص ٧٢.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧ - ١٨، ج ٣، ص ٣٠٩.

(٥) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٤٨٨.

(٦) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٤٨٨.

ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٢٩٩.

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٣٢٣ - ٢٤.

(٨) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٥٤٢.

(٩) ابن بكار: جمهرة الانساب، ص ٣٦٧ - ٦٨.

(١٠) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٧٣.

(١١) الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٧١.

(١٢) حتي: تاريخ العرب، ج ١، ص ١٤٦.

(١٣) مما نستدل به على ركوب أهل المدينة، قبل الاسلام، طريق التجارة بين الشام والمدينة، ما ذكر من قول بشير بن سعد الخزرجي، يمتدح ناقته التي حملته على طريق القوافل إلى يثرب من الشام:

من ذرا الجولان بقل وزاهر
ظلم نعام بالسماوة نافر
سوى انه بل منها المشافر
بيثرب والاعراب باد وحاضر

اباح لها بطريق فارس غائطا
فقربت لها للرجل وهي كأنها
فاوردتها ماء فما شربت به
فباتت سراها ليلة ثم عرست

(انظر: الاصفهاني: الاغاني، ج ١٦، ص ١٤ - ١٥، وانظر عن ترجمة بشير بن سعد: ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٨).

(١٤) مجهول: في سيرة الرسول، ورقة ١١.

من المدينة إلى فارس، كان يقوم بها بعض تجاريثرب. ولذلك أضطر هؤلاء التجار إلى تعلم الفارسية، وكانوا قلة بين الناس. ويسكن اعتبار مشاركة أهل المدينة في الأسواق العربية، في عكاظ وذو المجاز ومجنة، داخله في نطاق رحلاتهم الخارجية للتجارة، شأنهم في ذلك شأن سائر العرب في الجاهلية^(١).

وقد ذكر أن أبا معلق الأنصاري - بعد الهجرة - كان تاجرا يتجرباله ولغيره، ويضرب في الآفاق^(٢). كما أن من كبار الصحابة، رجال لم تصدهم مشاغلهم مع الرسول (ص)، عن طلب الرزق وابتغاء فضل من الله، بمعالجة التجارة الخارجية، حيث ذكر أن أبا بكر الصديق، خرج في تجارة إلى بصرى، قبل موت النبي (ص)، بعام، ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة^(٣).

وكذلك كان يقدم على المدينة، تجار مكة للبيع والشراء^(٤)، أو ليمتاروا تمرا^(٥). كما كان يقدم عليهم تجار الشام^(٦)، وكانوا يحملون الزيت والبر والشعير والتين والقماش وما يكون في الشام^(٧)، مثل الدقيق والسمن والعسل^(٨). كما كان يقدم عليهم تجار النبط^(٩)، وجل تجارتهم الحنطة والزيت^(١٠).

وذكر أن أحد تجار فارس، سمع بذكر رسول الله (ص)، وخروجه، فخرج بتجارة معه حتى قدم المدينة فأسلم^(١١). وهذا يدل على أن لتجار فارس، معرفة بالمدينة واتصال تجاري قديم بها.

وكان أهم ما يأتي المدينة من البضائع الخارجية، أنواع الثياب، مثل البرود والعائم، ومصدرها عدن واليمن^(١٢)،

(١) البخاري: الصحيح، ج ٣، ص ٤٦،

ابن بكار: جمهرة الأنساب، ص ٣٦٧ - ٦٨،
الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٧٢.

(٢) ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ١٨٢،

الكتاني: التراتيب الإدارية، ج ٢، ص ٢٨.

(٣) الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة ٢٠١.

(٤) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٣٠٠.

(٥) ابن عبد البر: الاستيعاب، (هامش كتاب الإصابة، ج ١)، ص ٢١.

(٦) الطبري: جامع البيان، ج ٣، ص ١٥.

(٧) الواقدي: فتوح الشام، ج ١، ص ٩ - ٤.

ابن حجر، الإصابة، ج ٢، ص ١٠٤.

(٨) الكتاني: التراتيب الإدارية، ج ٢، ص ٥٣.

(٩) مالك: الموطأ، ج ١، ص ٢٨١.

(١٠) مالك: نفس المكان.

(١١) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٨٥.

(١٢) ابن سعد: الطبقات، ج ٢، ص ٢٤١، ٢٨٢، ٢٨٣،

ابن حجر: المصدر السابق ج ١، ص ٢٩٩.

والخياض من الشام^(١). كما استوردوا العطر من اليمن^(٢).

وقد ازداد رواج التجارة في المدينة، بعد الهجرة، حيث حول معظم المهاجرين تجارتهم إلى المدينة، واستمروا في مزاولة رحلاتهم التجارية بينها وبين الشام وبصرى^(٣). وكانوا يحملون من الشام إلى المدينة، القناديل والزيت والمقط^(٤). كما استوردوا من الشام، الأواني الفضية^(٥)، واستوردوا أيضا المسك من الهند، عن طريق دارين، وكانت فرضة على الخليج العربي، وهي المنطقة المعروفة - حينذاك - باسم البحرين. وكان في دارين سوق يحمل إليها مسك من ناحية الهند^(٦). ولذلك كان العطار، أي بائع العطر، يعرف بالداري، نسبة إلى دارين^(٧). وقد تميزت قوافلهم بكثرة عدد رجالها. إذ بلغت أحيانا، أربعائة وخمسين رجلا^(٨). مما يدل به على كبر حجم التجارة الخارجية للمدينة، بعد الهجرة. وقد ذكر أن عبد الرحمن بن عوف، لما هاجر إلى المدينة، قال: دلوني على السوق^(٩)، حيث اشتغل بالتجارة، فكثر ماله، حتى قدمت له سبعائة راحلة تحمل البر والدقيق والطعام^(١٠). فأصبحت المدينة بعد هذا الازدهار الكبير، في تجارتها «سوق العرب» تقصد بالبضائع، من الأطراف البعيدة^(١١).

ومن صلات المدينة التجارية بالخارج، على عهد الرسول (ص)، صلاتها بنجد^(١٢). ويذكر أن الرسول (ص)، بعث سعد بن زيد الأنصاري بسبايا من سبايا بني قريظة، إلى نجد، فابتاع لهم بها خيلا وسلاحا^(١٣). وكان يأتي

(١) مالك: المصدر السابق، ج ١، ص ٩٧. والخمصة، كساء رقيق من حرير أو صوف. وقيل ثوب أسود مربع. (انظر: معلوف، لويس: المنجد، ص ١٩٦).

(٢) الواقدي: المغازي، ص ٦٥ (الطبعة الأولى).

(٣) الطبري: جامع البيان، ج ٧، ص ١١٥ - ١٦.

الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١، ص ١٥ - ٢١.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٨، ١٨١.

الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة ٢٠١ - ٢٠٢.

(٤) ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ١٨. والمقط، بضم الميم والقاف، مفردا المقاط، بكسر الميم، وهو الحبل أيا كان. (انظر:

ابن منظور: لسان العرب، ج ٣، ص ٥١٢).

(٥) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٠ - ٤١.

(٦) الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة ٢٠٣.

(٧) الخزاعي: نفس المكان.

دارين: هي اليوم جزيرة صغيرة، قريبة جدا من ساحل مدينة القطيف، على الخليج العربي في المملكة العربية السعودية. وتتصل باليابسة بطريق مرصوف، بعد ردم البحر بكتل كبيرة من الأحجار والتراب، وخاصة الأحجار الجيرية.

(٨) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٤.

(٩) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١، ص ٥٠.

(١٠) الذهبي: نفس المكان.

(١١) الكتاني: التراتيب الإدارية، ج ٢، ص ٥٣.

(١٢) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٧٢٥.

(١٣) ابن اسحاق: نفس المكان.

ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٢٨.

المدينة، التمر من اليامة^(١). كما كانوا يخرجون إلى خيبر يمتارون من التمر^(٢)

وكان للبحر دور يسير في ازدهار تجارة المدينة الخارجية، نظرا لعدم وقوعها على ساحله - كما سبق أن علمنا - وكان أقرب ميناء للمدينة على ساحل البحر الأحمر يصلح لرسو السفن، هو ميناء الجار^(٣)، على ثلاث مراحل منها، على شط البحر^(٤)، وهو - حينذاك - فرضتها الوحيدة^(٥). وكانت ترفأ إلى ميناء الجار، السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند^(٦). وعن طريق الجار، قدم على الرسول (ص)، بالمدينة، بقية أصحابه في أرض الحبشة، حيث أرسوا بهم إلى ساحلها^(٧). وكان ساحل الجار يعرف - حينذاك - بساحل بولا^(٨). وقد، ظل دور الجار كفضة عظيمة للمدينة عهدا كثيرة، يحمل عن طريقها الطعام في البحر إلى المدينة من أمصار الاسلام، كما كان عليه الحال في عهد عمر بن الخطاب^(٩).

جـ أسس التعامل التجاري

١ - العملة: تداول الناس في تعاملهم التجاري في المدينة، بالدرهم والدنانير وأبواوزانها من الفضة والذهب، كعملة أساسية في البيع والشراء، وذلك قبل الهجرة وبعدها^(١٠). ومن ذلك ما ذكر، من أنه لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء. وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة، وكان يبيع القربة منها بالمد. فقال له رسول الله (ص): بعنيها بعين في الجنة. فقال: يا رسول الله ليس لي ولا لعيالي غيرها. فبلغ ذلك عثمان بن عفان، فاشترها بخمسة

(١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٢٣٠.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٢٢.

(٣) الاصطخري: المسالك والممالك، ص ٢٣.

(٤) الاصطخري: نفس المكان.

(٥) الاصطخري: نفس المكان.

(٦) ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٩٢ - ٩٣.

(٧) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢٠٨.

(٨) ابن سعد: نفس المكان.

بولا: بفتح الباء وسكون الواو، اسم قديم للجار. لم يرد له ذكر في أشهر القواميس العربية. ثم عرفت اليوم باسم البريكة، تصغير بركة، لوجود بركة أو بحيرة يفيض إليها ماء وادي الجار، ليليل. أما اسمها المحلي اليوم والمعروف بين جيرانها، فهو: «الزباير»، وهي التلال في عرفهم. (انظر: الانصاري، عبد القدوس: بحث خاص عن اطلال الجار، نشر في مجلة المنهل، ج ٥، السنة السابعة والثلاثون، م ٣٢، عام ١٣٩١ هـ، ص ٤٦٨، ٤٨٧).

(٩) اليعقوبي: تاريخ، ج ٢، ص ١٥٤.

(١٠) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٦٩٤.

ابن سعد: الطبقات، ج ٢، ص ٣٧.

ابن حجر: الاصابة، ج ٤، ص ٦٨ - ٦٩.

الكتاني: التراتيب الادارية، ج ١، ص ٤١٣ - ١٧. وبالنسبة للدينار، فهو عملة ذهبية، نقل العرب اسمه من اليونانية اللاتينية، ديناريوس (Denarius) ويذكر أنه مشتق، عند الروم، من لفظ ديني (Deni) أي عشرة، وهو لفظ لاتيني. والأصل فيه الدلالة على قطعة من الفضة تساوي عشرة أسات والأس، درهم من دراهم الروم. (انظر: زيدان، جرجي: تاريخ التمدن الاسلامي، ج ١، ص ١٤١ «تحقيق د. حسين مؤنس»).

وقد ورد لفظ دينار في القرآن الكريم في قوله تعالى: «ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون». (انظر: سورة آل عمران: ٧٥، وأنظر أيضا: د. كاشف: النقد في العصر العباسي، بحث نشر في سجل الموسم الثقافي الأول بجامعة الكويت، عام ١٩٦٨/٦٧ م، ص ٢٣٣).

وثلاثين ألف درهما^(١). كما ذكر أن أبا رحيمة، حجم الرسول (ص)، فأعطاه درهما^(٢).

أما عن تعاملهم بأوزان الفضة، فمن ذلك ما ذكر، من أن الرسول (ص)، أمر بلالا أن يجيز وفد بني مرة، وهم ثلاثة عشر رجلا، قدموا المدينة سنة تسع من الهجرة، فأجازهم بعشر أواق فضة، وفضل رأسهم، الحارث بن عوف، أعطاه اثني عشر أوقية^(٣). وكذلك ذكر، أن الرسول (ص)، اشترى جملا من أحد الصحابة بأوقية واحدة^(٤).

ومجدر بنا، في هذا الصدد، أن نشير -لما- إلى نوعية تلك النقود التي تعامل بها الناس، على عهد الرسول (ص). والذي نراه أنها لم تكن تختلف كثيرا عن مثيلاتها، سواء التي تعامل الناس بها في مصدرها الأصلي، أم تلك التي كان الناس يتداولونها في صدر الاسلام، وخلال العصر الأموي. وفي هذا يذكر أن الدراهم التي كانت على عهد الرسول (ص)، على نوعين: السوداء الوافية، وزن الدرهم منها ثمانية دنانير، والطبرية العتيقة، وزن الدرهم منها أربعة دنانير. وكانت الصعوبة في تداولها، تنحصر في إخراج الزكاة منها. ولذلك فإن الناس كانوا يزكون بشطرين من الكبار والصغار^(٥). وهذا الاختلاف، في نوعية الدراهم في المدينة، على عهد الرسول (ص)، كان خارجا عن إرادة الناس - حينذاك - إذ كان تبعا لورود تلك الدراهم من بلاد الفرس، حيث كانت مختلفة الأوزان، صغارا وكبارا^(٦).

وبالإضافة إلى تعامل الناس في المدينة بالنقود، فقد تعاملوا، في بيعهم وشرائهم، بطريقة المقايضة^(٧)، أي التبايع بالعروض، كالحنطة والشعير والفواكه، وما أشبه ذلك. وأحيانا كانوا يتعاملون بشيء معلوم من التمريدفع - غالبا - للعامل حين يؤجر نفسه^(٨).

وكما أشرنا آنفا، فإن تلك الدراهم والدنانير لم تكن خاصة بهم حين تعاملوا بها، سواء في الجاهلية أم بعد ظهور الاسلام^(٩). فقد كانت تلك النقود، مجموعات من ضرب فارس والروم، أقر الرسول (ص) - فيما بعد - استعمالها، بشكلها البيزنطي والفارسي المصور، كما أقرها من تلاه من الخلفاء، طوال العهدين الراشدي والأموي، حتى تم تعريبها زمن عبد الملك بن مروان عام ٧٧ هـ^(١٠).

(١) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٥٤٠.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٤، ص ٦٨ - ٦٩.

(٣) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢٩٧ - ٩٨.

(٤) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٦٩٤.

(٥) المقرئ: إغاثة الأمة، ص ٤٨.

الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة ١٧٤.

الكتاني: التراتيب الادارية، ج ١، ص ٤١٣.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٥٧١ (تحقيق د. صلاح المنجد).

(٧) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٦١.

ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٣٦٠ - ٦١.

(٨) الطبري: جامع البيان، ج ١٠، ص ١٩٤ - ٩٥.

(٩) الحسيني (د. محمد باقر): تطور النقود العربية، ص ١٩.

(١٠) الحكيم: الدوحة المشتبه في ضوابط السكه، ص ٤٥، ٤٩.

الحسيني: المرجع السابق، ص ١٩.

وكان الدينار البيزنطي أو الرومي ، عبارة عن قطعة مستديرة من الذهب يحمل على أحد وجهيه صورة الأمبراطور البيزنطي ، الذي عاصر سك هذا النقد^(١) . وقد عاصرت الفترة الإسلامية الأولى ، ما كان يعرف بالدينار الهرقلية وعليها صورة هرقل وحده أو صورته وعلى جانبه ولداه هرقلوناس وقسطنطين ، وقد قبض كل منهم على صليب طويل^(٢) . وكان الذي أطلق على هذه الدينار اسم الهرقلية ، هم العرب^(٣) . ويعد ذهب الدينار الهرقلي من أحسن الذهب ، وكان شكله بديعاً حسناً^(٤) .

ويبدو أن القيمة الشرائية للدينار ، كانت قوية جداً ، ولذلك ذكر أن الرسول (ص) ، اشترى حائطا لبني النجار ، بعشرة دنانير ذهباً ، دفعها أبو بكر^(٥) .

أما بالنسبة للدراهم ، وهي من الفضة ، فكانت تضرب بأرض العراق وأرض المشرق كلها ، وهي فارسية ، عليها صورة كسرى واسمه فيها مكتوب بالفارسية^(٦) . وهذه الدراهم كانت عبارة عن قطع مستديرة أيضاً^(٧) .

على أننا نرجو ألا يفهم مما سبق ، أن العرب لم يتداولوا ، في الجاهلية نقوداً عربية^(٨) . وذلك أن الحفريات الأثرية ، قد أثبتت وجود نقود عربية حميرية مضروبة ومنقوشة^(٩) . وكان تداول هذه النقود العربية ، في نطاق ضيق جداً ، وبشكل محدود أيضاً^(١٠) . وكذلك يذكر أن العرب قد تداولوا فيما بينهم نقوداً عربية أخرى ، من ممالك أطراف الجزيرة العربية ، مثل الانباط والتدمريين ، الذين كانت لهم نقود مضروبة ومنقوشة^(١١) . غير أنها كانت مثل سكة حمير ، محدودة التداول لقلة ما كان يرد العرب منها^(١٢) . أولانعدام ثقة العرب في النقود ، التي تضرب فيما بينهم . وهو - فيما نرى - السبب الرئيسي لقلة تداول النقود العربية بين العرب ، وبالتالي انعدام وجود دور للضرب لديهم ، في الجزيرة العربية ، قبل الإسلام^(١٣) . وقد ظل الأمر كذلك إلى أن أنشأ عمر بن الخطاب ، داراً لضرب الدراهم . وكانت مضروبة على

(١) الحسيني (د. محمد باقر) : تطور النقود العربية ، ص ١٨ .

(٢) الحسيني : نفس المكان .

(٣) الكتاني : التراتيب الإدارية ، ج ١ ، ص ٤١٦ .

(٤) كاشف : النقود العربية ، (بحث نشر في سجل الموسم الأول الثقافي ، جامعة الكويت ، عام ١٩٦٨/٦٧ م) ، ص ٢٣٢ .

(٥) المراغي : تحقيق النصرة ، ص ٤١ .

(٦) الكتاني : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤١٦ . وهناك من يرى أن الدرهم ليس لفظاً فارسياً ، لأن أصله اغريقي ، من لفظة

دراخمة . (انظر : الحكيم : الدوحة المشتبكة في ضوابط السكه ، ص ٤٥ ، الهامش رقم ١ ، نفس المكان) .

(٧) الحسيني : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٨) الحسيني (د. محمد باقر) : العملة الإسلامية في العهد الاتابكي ، ص ١٤ - ١٥ .

(٩) وأقدم النقود العربية ، التي وصلت من اليمن ، كانت زمن الدولة الحميرية ، التي عاشت في الفترة التي ابتدأت منذ سنة ١١٥ ق.م . وهذه النقود الحميرية ، التي عثر عليها ، قد صور على القديم منها ، صورة البومة ، ويظن أنه تقليد للدراخا الأغريقية ، كما رسم تحت

صورة البومة خنجراً ونقش أمام البومة وخلفها اسم الملك ولقبه ، ومدينة الضرب والضرب بالخط المسند ، وعلى الجهة الثانية من النقد ، نقش صورة رأس إنسان . (انظر : الحسيني : تطور النقود العربية ، ص ١٥ - ١٦) .

(١٠) الحسيني : المرجع السابق ، ص ١٤ - ١٥ .

(١١) الحسيني : تطور النقود العربية ، ص ٩ - ١١ .

(١٢) الحسيني : العملة الإسلامية ، ص ١٤ - ١٥ .

(١٣) الشريف : مكة والمدينة ، ص ٣٧٥ .

هيئة نقش الدراهم الفارسية، غير أنه زاد في بعضها كلمة «الحمد لله» وفي بعضها «رسول الله»، وعلى آخر «لا إله إلا الله»، وعلى آخر «عمر». والصورة صورة ملك الفرس^(١).

٢ - الموازين والمكاييل: ومن الأوزان المستعملة في المدينة، على عهد النبي (ص)، المثقال^(٢). ويسمى درهما ودينارا، وذلك لاستعمالهما في الوزن^(٣). ومن أوزان أهل المدينة أيضا، التي كانوا يتعاملون بها واصطلحوا عليها فيما بينهم، وزن الأوقية، والظاهر أنها كانت تساوي أربعين درهما^(٤). كما تعاملوا بأوزان القنطار، وهو عند العرب، المال الكثير، وكان يساوي على عهد النبي (ص)، ألف ومائتا أوقية^(٥). ومن مكاييل أهل المدينة، المد والصاع والفرق والعرق والوسق^(٦).

ثالثا: المهن والحرف العامة

مارس أهل المدينة، إلى جانب اشتغالهم بالزراعة ومعالجة التجارة، عدة أنشطة مهنية وحرفية، تطلبتها ضرورات حياتهم ونمط معيشتهم وتقاليدهم.

ولما كان في المدينة ثروة - لا بأس بها - من الماشية، مثل الغنم والأبل والخيل، لذلك زاول، بعض السكان، مهنة الرعي، لسد حاجاتهم^(٧)، أو لحساب غيرهم، مثل رعي غير الصدقة، أو العير - المعدة للجهاد، ونحو ذلك^(٨). وكان يعرف من يقوم بهذه المهنة، باسم راعي العير^(٩). والرعاة، بصفة عامة، يأخذون - نظير قيامهم بهذه المهنة - أجرا

(١) المقرئزي: إغاثة الأمة، ص ٥١ - ٥٢.

(٢) ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٣٥٤ - ٥٥.

(٣) المقرئزي: المصدر السابق، ص ٤٨.

زيدان، جرجي: تاريخ التمدن الاسلامي، ج ١، ص ١٤ (تحقيق د. مؤنس). والمثقال، اسم لاله ثقل، سواء كبر أو صغر. وغلب عرفه على الصغير. ولذا صار في عرف الناس، اسما للدينار. (انظر: المقرئزي: المصدر السابق، ص ٤٨ - ٤٩، وانظر أيضا هامش رقم ٥، نفس المكان).

(٤) المقرئزي: نفس المكان،

الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة ١٨١.

(٥) الخزاعي: نفس المصدر، ورقة ١٨٢.

(٦) الخزاعي: نفس المكان،

الكتاني: التراتيب الادارية، ج ١، ص ٤٣٩. وكان قدر المدر، أربع حفئات بحفنة الرجل الاوسط، ليست يده بمبسوطة الاصابع ولا بمقبوضها، أما الصاع، فهو أربعة امداد، أما الفرق فكان قدره، ستة عشر رطلا، وكان العرق، وهو الزبيل المضفور، فيعادل ما بين خمسة عشر صاعا إلى عشرين، بينما كان الوسق، يقدر بستين صاعا. (انظر: الخزاعي: المصدر السابق، ورقة ١٨٢ - ٨٤، ابو داود: السنن، ج ٢، ص ١٢٧، الكتاني: المرجع السابق، ج ١، ص ٤٢٨ - ٣٨).

(٧) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٤٨٩.

(٨) ابن خياط: الطبقات، ص ١٠٦.

ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ١٩٧، ٤٨٢.

(٩) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ١٤٨.

معلوماً من صاحب الماشية^(١). أما بالنسبة لركاب الصحابة المربوطة في سبيل الله للجهاد، فالظاهر، أن رعيته كانت نوبا عليهم، لا يأخذون على ذلك أجراً^(٢).

ولقد اقتضى الحال - نتيجة تطور الأمور، في المدينة وكثرة خروج الرجال إلى الغزوات والبعوث - ضرورة تواجد هيئة خاصة للحراسة في المدينة^(٣). وهذه الهيئة كانت تعرف باسم حرس المدينة^(٤). وهم - في الغالب - من الشبان، الذين بلغوا الخامسة عشرة من أعمارهم^(٥). كما تطلبت ضرورات الأمن - في الغزوات - وجود رجال للحراسة في الركاب، مهمتهم القيام فيها - أثناء المعركة - والدود عنها^(٦). وكان للرسول (ص)، عدة رجال، يتناوبون الحراسة، عند بابه، كل ليلة سواء في السلم^(٧)، أم في الحرب^(٨). وقد لقب بعضهم بالحرسى^(٩)، أوبحارس النبي^(١٠)، صلى الله عليه وسلم.

وذكر أن في أهل المدينة، بعض الرجال ممن كانت لهم دراية تامة بطرق وطبيعة بعض المناطق، سواء حول المدينة أم في الجزيرة العربية عامة. وقد أستعين بهم كأدلاء وخبراء عارفين وملمين بأفضل الطرق وأصح المناطق وأنقاها هواء^(١١).

أما مهنة الكتابة، فقد مارسها قلة من الصحابة، وذلك لقلة من كان يعرف صنعتها فيهم، حيث لوحظ أن الكتاب - في الغالب - كانوا من المهاجرين ممن أتقن الكتابة في الجاهلية وزاولها في الاسلام^(١٢). على أن ذلك لا يعني عدم وجود كتاب من الأنصار، كانوا يتقنون الكتابة ويكتبون للنبي (ص)، مثل عبد الله بن رواحة، وأبي بن

(١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٥١٠.

(٢) انظر: الخزاعي: الدلالات السمية، ورقة ١٣٥.

(٣) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٨٠.

(٤) ابن حجر: نفس المكان.

(٥) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٨٠.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٧٣، ج ٣، ص ٢٥.

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٦٤، ١٧٥.

(٨) المقرئ: امتناع الاسماع، ج ١، ص ٢٢٩.

(٩) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩٤.

(١٠) ابن الأثير: أسد الغابة، ج ١، ص ٥٦.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢٨، ج ٢، ص ١٧٨.

(١١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٣٩١، ج ٢، ص ٢١، ج ٣، ص ٤٢٥، ٥٤١.

(١٢) ومن هؤلاء الكتاب نذكر: جهم بن الصلت، من بني عبد المطلب من قریش، تعلم الخط في الجاهلية، وكان هو والزبير بن العوام، يكتبان أموال الصدقة. ومنهم كذلك، العلاء بن عقبة والأرقم. ذكر أنها كانا يكتبان بين الناس المداينات والعهود والمعاملات، ومن هؤلاء الكتاب أيضاً، حنظلة بن الربيع بن صيفي التميمي، وكان يقال له: حنظلة الكاتب. (انظر: ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٢٥٥-٣٦٠، ج ٢، ص ٤٩٨، الاعظمي، محمد مصطفى: كتاب النبي، ص ٣٧، ٤٢، ٥٧، وفي أماكن متفرقة).

كعب^(١)، وغيرهم . وقد كان للنبي (ص)، جماعة من الكتاب مهتهم كتابة الوحي، إلى جانب الكتابة بين الناس في أمور المداينات والعهود والمعاملات^(٢) . وكانوا يكتبون - عادة - على العصب والرقاع والعظام^(٣) .

وهناك وظائف أخرى أو مهن عرفت في المدينة، على عهد الرسول (ص)، مثل وظيفة المستوفي، وهو الرجل يبعثه الامام، يقبض المال من العمال ويستخلصه، ويقدم به على الرسول^(٤)، صلى الله عليه وسلم . كما أن هناك مهنة خازن النقدين، أي صاحب بيت المال^(٥) . وكذلك مهنة الخارص، والخارص هو حرز ما علي النخل من الرطب^(٦) .

ومن الوظائف المتعلقة بالمسجد، عدا وظيفة الامام، وظيفة المؤذن . ومن المؤذنين المشهورين في المدينة على عهد الرسول (ص)، بلال بن رباح، وابن أم مكتوم، وكان رجلا أعمى، وسعد القرظ، مولى الانصار، وكان يؤذن في مسجد قباء^(٧) .

وكان للطب نصيب من اهتمام الناس، في مجتمع المدينة، على عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، ومن مظاهر اهتمامهم، حرص معظمهم على معرفة بعض الأمور الطبية، واجتهدوا في فهمها والامام بأسرارها^(٨) . وكان ممن اشتغل بالطب وامتهنه في المدينة، الحارث بن كلدة الثقفي^(٩) . وقد تعلم الطب في ناحية فارس واليمن، وتقرن هنالك وعرف الدواء^(١٠) . وكان الصحابة يقصدونه في مرضهم، ويسمونه طبيب العرب^(١١) . ويذكر أن أسماء بنت عميس،

(١) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ١٩، ج ٢، ص ٣٠٦،

النووي: تهذيب الأسماء واللغات، ج ١، ص ١٠٨ - ١٠٩، ٢١٠.

(٢) ومن هؤلاء: أبي بن كعب الانصاري، ويعد أول من كتب للنبي . (انظر: النووي: نفس المصدر، ج ١، ص ١٠٨، ١٠٩، ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ١٩) . وكذلك منهم زيد بن ثابت الانصاري، كان يكتب الوحي، ويكتب المراسلات إلى الناس، وكان ألزم الصحابة كتابة الوحي . (انظر: النووي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٠ - ٢٠١، ابن عبد البر: الاستيعاب «هامش كتاب الاصابة، ج ١»، ص ٥١، الأعظمي، محمد مصطفى: المرجع السابق، ص ٦٠ - ٦٣) . ومن كتاب الوحي أيضا، عبد الله بن سعد بن سرح العامري القرشي . (انظر: ابن عبد البر: المصدر السابق، ص ٥١، ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٧) . وكذلك معاوية بن أبي سفيان من بني أمية، أسلم في فتح مكة . (انظر: النووي: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٠٢) .

(٣) ابن عبد البر: المصدر السابق، ص ٥٥١ - ٥٢ . والعصب، واحدها عسيب، وهو جريدة من النخل مستقيمة دقيقة، يكشط خوصها . (انظر ابن سيده: المحكم، ج ١، ص ٣١٣) . والرقاع: واحدها رقعة، من الجلد، وهي قرطاسة، يكتب عليها . (انظر: الزمخشري: أساس البلاغة، ص ٢٤٥) .

(٤) الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة ١٦٨ .

(٥) الخزاعي: نفس المصدر، ورقة ١٦٩ .

(٦) الخزاعي: نفس المصدر، ورقة ١٦٢ .

(٧) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ١٦٥، ج ٢، ص ٢٩،

الخرزاعي: المصدر السابق، ورقة ٣١ - ٣٢ .

(٨) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٦ .

(٩) ابن جليل: طبقات الاطباء والحكماء، ص ٥٤ .

ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨٨ .

(١٠) ابن جليل: المصدر السابق، ص ٥٤ .

(١١) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٢٨٨ .

كانت تمارس مهنة الطب وتصف الدواء للناس^(١)، وقد أصابت علومها الطبية تلك، بأرض الحبشة^(٢).

كما باشرت بعض الصحابييات مهنة التمريض، حيث ذكر في هذا المجال، أن امرأة من أسلم، يقال لها: رفيدة، كان لها خيمة في مسجد الرسول (ص)، تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين^(٣).

وهناك مهن أقل شأنًا ومنزلة بين الناس، مارسها بعضهم في المدينة، على عهد الرسول (ص)، مثل مهنة الحجام^(٤)، ومهنة الخلاق، وهو - في الغالب - حجام^(٥). وكذلك مهنة الجزار^(٦)، ويدعى الجزار أحيانًا، لحامًا^(٧). واللحام بصيغة المبالغة، بائع اللحم^(٨)، وكانوا يبيعون اللحم في السوق^(٩). ومن تلك المهن أيضًا، مهنة الخباز^(١٠). ويذكر أن الرسول (ص)، مر بأحد الخبازين فقال: اياك والخبز المرقق^(١١). كما زاول بعضهم مهنة الطبخ^(١٢)، ومهنة الخياطة^(١٣)، ومهنة حفر القبور^(١٤)، وقد يسمى الحفار نباشا^(١٥). وعرف بين أهل المدينة السقاء، وكان يحمل الماء للناس على ظهره^(١٦)، أو على الابل^(١٧)، وأحيانًا كان يؤجر نفسه، يستخرج الماء من البئر بالدلو، على كل دلو تمرة^(١٨).

(١) ابن سعد: الطبقات، ج ٢، ص ٢٣٦.

(٢) ابن سعد: نفس المكان. وأسما بنت عميس، هي أسما بنت عميس بن سعد بن الحارث بن تيم بن كعب بن مالك الخثعمية. وكانت أخت ميمونة بنت الحارث، زوج النبي (ص)، لأمها. وكانت من المهاجرات إلى أرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب. (انظر: ابن حجر: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٣١).

(٣) ابن اسحاق: السيرة، ج ٣، ص ٧٢٠. وقد ذكر أنه أثناء معركة أحد (ولم يضرب الحجاب، يومئذ خرجت مجموعة من النساء، يحملن الطعام والماء على ظهورهن، يسقين الجرحى ويدوينهم). (انظر: الواقدي: المغازي، ص ١٩٥، ٢٠٦ «الطبعة الأولى»).

(٤) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٠٤، ج ٤، ص ٦٨ - ٦٩.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٤، ٤٤٩.

(٦) ابن اسحاق: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٠٤٢.

الكتاني: التراتيب الادارية، ج ٢، ص ١٠٦.

(٧) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٠٢.

(٨) الكتاني: التراتيب الادارية، ج ٢، ص ١٠٦.

(٩) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٤٨٨.

(١٠) ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٤٠١.

(١١) ابن حجر: نفس المكان.

(١٢) الكتاني: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٠٧.

(١٣) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٣٩١.

الكتاني: المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٠.

(١٤) الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة ٢٢٣.

(١٥) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٧. واطلق لفظ نباش فيما بعد على حفار القبور بغرض السرقة.

(١٦) الكتاني: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٠٤.

(١٧) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٤، ٢٩٧ - ٩٨.

(١٨) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٢٩٧ - ٩٨.

وقد كان لبعض النساء نشاط مهني يتلاءم مع تقاليد المجتمع ويساير طبيعة المرأة واستعدادها، فكان هناك، من النساء، المشاطة، والقبالة، والمرضعة^(١). وقيل: إن من كان يقوم المسجد النبوي، أي يلتقط الخرق والقذى والعيدان منه، امرأة سوداء، أو شابا، اختلف الرواة في ذلك^(٢).

أما النشاط الحرفي أو الصناعي بصفة عامة، فكان جيدا في المدينة ومؤديا مهمته لسد حاجات الناس واكتفائهم، وخاصة تلك الصناعات المعتمدة على انتاج النخيل، مثل صناعة القفاف والحصر ونحوها من الخوص^(٣). وكان صاحب تلك المهنة يدعى بالخواص^(٤). هذا إلى جانب أنهم كانوا يقتلون الحبال من الصوف والليف^(٥). كما أن هناك صناعات قائمة على طرق وإذابة المعادن، لسبك الحلي وصنع الأسلحة، مثل القسي والرماح والسيوف ونحوها^(٦). وربما صنع الصاغة، بعض الأطراف الصناعية للإنسان، مثل الأنف، كانوا يصنعونه من الفضة أو الذهب^(٧).

ولم تحظ حرفة الصياغة، باحترام كبير في المجتمع المدني، لأن الصائغ ربما كثر الكذب والفساد في صنعه، وكان يتعاطاها - في الغالب - أراذل الناس، كاليهود^(٨). بينما كان الحداد يحظى، بشيء من الاعتبار. ولذلك فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يستنكف من دفع ولده إبراهيم - حين احتاج إلى مرضعة له - إلى أم سيف، زوج قين بالمدينة، يقال له: أبو سيف، وهو حداد من الأنصار^(٩)، كان يزاول صنعه في بيته^(١٠).

(١) الخزاعي: المصدر السابق، ورقة ٢١٧، ٢١٨.

(٢) الخزاعي: نفس المصدر، ورقة ٣٥.

(٣) الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة ٢١١،

الكتاني: التراتيب الادارية، ج ٢، ص ٩٢،

الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٧٥ - ٧٦.

(٤) الكتاني: المرجع السابق، ج ٢، ص ٩٢.

(٥) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٩١.

(٦) الواقدي: المغازي، ص ١٣٨ - ٤٠ (الطبعة الاولى)،

الكتاني: المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٣ - ٦٤.

(٧) ابن خياط: الطبقات، ص ٤٤.

(٨) الواقدي: المصدر السابق، ج ١، ص ٧٣ - ٧٥، ١٧٦، ١٧٩،

الكتاني: المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٣ - ٦٤.

(٩) ابن الاثير: أسد الغابة، ج ١، ص ٣٨ - ٣٩،

ابن حجر: الاصابة، ج ٤، ص ٩٨. والقين، هو الحداد. والجمع، القيون. (انظر: الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة

٢٠٩). وقيل القين، العبد، والقينة: الأمة، وهي الجارية. ويقال: تقينت المرأة، أي تزينت. (انظر: الزنجشيري: أساس البلاغة، ص

٥٣١). والقين بصفة عامة، هو الصانع، والقينة هي الأمة، صانعة أو غير صانعة. (انظر: الاسد، د. ناصر الدين: القيان والغناء في

العصر الجاهلي، ص ٢٠ - ٢١).

(١٠) ابن الاثير: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٨ - ٣٩،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٤، ص ٩٨.

والملاحظ أن الذي كان يتولى مهنة الحدادة، جملة من العبيد والموالي^(١)، وكانوا يصنعون السيوف ويصقلونها^(٢). كما كانوا يصنعون الأسلحة، والآلات الزراعية، كالفؤس والمحاريث والمساحي^(٣). وقد كان يضرب بسهام يثرب المثل، لجودة صنعها^(٤).

وقد عرفت المدينة صناعة النسيج، إلا أنها كانت تمارس على نطاق ضيق، وكان يقوم بها بعض النساء في البيوت^(٥). وذكر أنه لم يكن في المدينة حائك، بل كان يقدم عليهم بالأقمشة والثياب من اليمن والشام وغيرها، منسوجة، فيشترونها ويلبسونها^(٦).

ومن جملة الحرف التي عرفت في المدينة، أيضا، حرفة النجارة^(٧). وكانوا يصنعون الكراسي من الخشب، وقوائمها من الحديد^(٨). وكذلك حرفة الدباغة^(٩)، وحرفة البناء^(١٠). وكانت صنعتها تقوم على اتقان عجن الطين،

(١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٢٩، ٤١٦، ج ٤، ص ٩٨.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٤١٣، ج ٣، ص ٤٠١.

(٣) الواقدي: المغازي، ص ١٣٨ - ٤٠ (الطبعة الأولى)،

الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٧٦ - ٧٧.

(٤) قال كثير:

ماء كان الثرية أنصلت بأعقاره دفع الأزاء نزوع

(انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٣٠ - ٣١).

وقالوا:

منعت قياس الماسخية رأسه بسهام يثرب أو سهام بلام

(انظر: ديوان الاعشى، ص ٩٨).

(٥) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٥٤،

البخاري: الصحيح، ج ٣، ص ٥٣،

الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة ٢٠٦،

الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٧٨.

(٦) الكتاني: التراتيب الادارية، ج ٢، ص ٥٩. والحائك، من حاك الثوب حوكا، وحيাকা وحياقة: نسجه، فهو حائك، من

حاكه وحوكه. ونسوة حوائك. والموضع محاكة، بضم الميم وفتح الحاء. (انظر: الفيروز آبادي: القاموس، ج ٣، ص ٣٠٠).

(٧) ويذكر في هذا المجال، أن «ميناء» مولى العباس، عم الرسول (ص)، كان أحد من عمل المنبر في مسجد الرسول (ص). وقيل

أن الذي أخذ في صناعة المنبر هو إبراهيم النجار، وقيل اسمه باقوم، وربما أن هذا لقبه. (انظر: ابن الاثير: أسد الغابة، ج ١، ص ٤٣،

ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ١٦، ج ٣، ص ٤٧١، ابن الحاج: رفع الخفاء، ورقة ٧٠).

(٨) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٤، ص ٧٠،

الخزاعي: المصدر السابق، ورقة ١١٥ - ١٦.

(٩) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٤٩٨،

الكتاني: المرجع السابق، ج ٢، ص ٩٢.

(١٠) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٤، ص ٥٠ - ٥١،

السمهودي: الوفاء، ج ١، ص ٣٣٣ - ٣٤.

وضرب اللبن أو الطوب^(١)، إضافة الى البراعة في التخطيط، ومعرفة القواعد الصحيحة لجعل الأساس، وصف الطوب^(٢).

ومما سبق نجد أن المدينة كانت ذات فعاليات كبيرة، في مجالات الصناعة والعمل، سواء في الفترة التي كانت قبيل الهجرة أم بعدها. وقد تضافرت جهود جميع سكانها، من السادة والموالي والعبيد، على العمل الدؤوب، رغم كل الصعاب أو ما كان يشغلهم في حياتهم، من أمور حربية، اقتضتها ضرورة حماية أنفسهم والبحث عن أفضل السبل للعيش الكريم، ثم تحملهم بعد الهجرة، مهمة نشر الاسلام وما اشتمل عليه من علوم ومبادئ وقيم وعادات راقية وسامية.

(١) السمهودي: الوفاء، ج ١، ص ٣٣٣ - ٣٤.

(٢) الكتاني: التراتيب الادارية، ج ٢، ص ٧٥ - ٧٧.

الفصل الثالث

لمحات عن الطابع العام لمجتمع المدينة خلال العصر النبوي في النواحي العلمية والثقافية

- التعليم ● دور الشعر في نشر الدعوة
- طابع الغناء في المدينة ● رياضة السبق والصيد
- اللباس ● المظهر العام للصحابة
- الاسرة والبيت ● الطعام والشراب

إن اكتمال وحدة الموضوع، لبحثنا هذا، يستوجب علينا إلقاء بعض الضوء على بعض مظاهر النواحي العلمية والثقافية، لما في معرفتها من أهمية عظيمة قد تساعد على فهم طبيعة الحياة في المجتمع المدني. وفي تناولنا لبعض هذه النواحي، سنتوخى الاختصار قدر الامكان، رغبة في حصر الموضوع والتركيز على أهم نقاطه. حتى تعم الفائدة، ويفي بالغرض الذي نريده، وسنحرص - عند تناولنا له - على استعراض لمحات عن الطابع العام، لاهتمام مجتمع أهل المدينة، في النواحي العلمية والثقافية، ومدى استفادته وتأثره بها. وذلك دون التعرض للتفاصيل، التي قد تخرجنا عن صلب موضوعنا. وما ذلك إلا لاياننا العميق، بأن موضوع الحالة العلمية والثقافية في المدينة - على عهد الرسول (ص) - يعد بحد ذاته موضوعاً مهماً يستحق بمفرده دراسة مستفيضة وتخصيصية، نرجو أن تحظى باهتمام الباحثين في هذا المجال قريباً.

١ - التعليم

اهتم الاسلام أول ما اهتم، بالعلم والحث عليه، منذ أوائل نزول القرآن الكريم^(١). وقد حرص الرسول (ص)، حين فشا الاسلام في أهل المدينة، بعد العقبة، على إرسال مصعب بن عمير بن هاشم إليهم، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام، ويفقههم في الدين^(٢). ومما يظهر اهتمام الاسلام بالعلم والتعليم، قول الله تعالى، في معرض ذكر نعمه على خلقه: «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون»^(٣). وقال تعالى، مبيناً منزلة العلماء: «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خير»^(٤).

وقد اقتضى الأمر، رغبة في نشر العلم والقراءة بين الصحابة في المدينة، أن أمر الرسول (ص) بتسليم كل مهاجر جديد، لأحد الصحابة، يموّنه ويعلمه^(٥). وكان الرسول (ص)، المعلم الأول للصحابة، يتكفي في المسجد بين

(١) قال تعالى: «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم». العلق: ١ - ٥. وفي السنة قول الرسول (ص): «من طلب العلم كان كفارة لما مضى». (انظر: ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ١٦).

(٢) ابن اسحاق: السيرة، ج ٢، ص ٢٩٦.

النووي: تهذيب الاسماء واللغات، ج ١، ص ٢١٤، ج ٢، ص ٩٦.

(٣) البقرة: ١٥١.

(٤) المجادلة: ١١.

(٥) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ١٥، ١٩، ج ٣، ص ٣٦ - ٣٧، ٦٣٣.

ظهرا في أصحابه في حلقة، يجيب على أسئلتهم ويعلمهم أمور دينهم^(١). وكان يقول: «من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله بلجام من نار، يوم القيامة»^(٢).

ومن الصحابة، من كان يتولى مهمة تعليم المهاجرين، من تلقاء نفسه وباختياره^(٣).

ومما يجدر ذكره هنا، أنه لم يغفل حق المرأة في تلقي العلم، إذ كان للنساء يوم خاص، يتلقين فيه تعاليم دينهن من رسول الله، صلى الله عليه وسلم^(٤). كما كن يتعلمن في البيوت، على أيدي مجارمهن، بأمر رسول الله^(٥)، صلى الله عليه وسلم. وذكر من المعلمات، اللاتي كن يعلمن النساء الكتابة، الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس العدوية، وأم سليمان بن أبي حثمة^(٦).

ومما سبق نستدل على أن مسؤولية التعليم، كانت مسؤولية عامة، يتحملها جميع المسلمين. وفي هذا يذكر أيضا، أن الرسول (ص)، خطب في الناس مرة، فأثنى على طوائف من المسلمين خيرا، ولم يثن على جماعة منهم في المدينة، لأنهم لم يعلموا، ولم يفقهوا جيرانا لهم من الاعراب نزلوا عليهم^(٧).

وكان أفضل أوقات المسلمين لتلقي العلم من الرسول (ص)، وتدارس القرآن، ما عقد اجتماعه في المسجد^(٨). ولذلك حرصت النساء على حضور صلاة الصبح مع الجماعة، في المسجد النبوي، حتى لا يفوتن تلقي العلم من الرسول، صلى الله عليه وسلم، مغتنيات انسداد ستور الظلام، حيث ينصرفن متلفعات بمروطهن، ما يعرفن من الغلس^(٩).

(١) البخاري: الصحيح، ج ١، ص ١٩ - ٢٠.

(٢) أبوداود: السنن، ج ٣، ص ٤٣٧.

(٣) ابن اسحاق: السيرة، ج ٤، ص ٩٦٦. ويذكر أن عبادة بن الصامت الخزرجي، كان يعلم أهل الصفة القرآن. (انظر الكتاني: التراتيب الادارية، ج ١، ص ٤٠).

(٤) انظر: الكتاني: نفس المرجع، ج ٢، ص ٢٣٥.

(٥) ابن حجر: الاصابة، ج ٤، ص ٢٩٩.

(٦) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٤، ص ٣٤١.

الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة ١٩ - ٢٠.

(٧) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧. ويقال أن المعنيين، جماعة من الاشعرين، كانوا من الفقهاء، ولهم جيران جفاة، من أهل المياه، من الاعراب، نزلوا عليهم ولم يعلموهم. (انظر: الكتاني: التراتيب الادارية، ج ١، ص ٤١).

(٨) مالك: الموطأ، ج ١، ص ٤ - ٥.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٥٧.

(٩) مالك: المصدر السابق، ج ١، ص ٥. واللفاع، هو ثوب يجلب به الجسد كله، كساء كان أو غيره. وتلفع به، أي اشتمل به. والمروط، جمع مرط، هي اكسية من صوف أو حرير رقيقة وخفيفة مربعة، كانت النساء في ذلك الزمان يأتزرن بها ويتلففن. والغلس هنا، ظلمة آخر الليل يخالطها ظلام الفجر. (انظر: مالك: نفس المصدر، ج ١، ص ٤ - ٥، ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، ص ٢٣٥).

وقد بلغ من اهتمام الصحابة، في مجال تلقي العلم، أن أصحاب الأشغال والمهن، ممن لم يكن في استطاعتهم ملازمة الرسول (ص)، كانوا يسألون إخوانهم من الصحابة، الملازمين له، فيحدثونهم عن كل ما تعلموه^(١).

وأساس التعليم، هو القرآن الكريم، لاشتماله على تعاليم الاسلام، التي تنظم حياة المسلمين في أمور الدين والدنيا. ولذلك ذكر أن بعضهم كان يقرأه في ثلاث ليال، وبعضهم كان يختمه في يوم وليلة^(٢). وقد تعاهد الصحابة القرآن، بالدرس والمذاكرة^(٣)، واهتموا بمعرفة قراءاته وتفسيره ومعانيه^(٤). كما جمعه بعضهم على عهد الرسول (ص)، كعبادة بن الصامت الخزرجي، الذي كان أيضا يعلم أهل الصفة القرآن^(٥). وقد كان أحق الناس بالامامة أقرأهم لكتاب الله^(٦).

وقد اشتهر عدة رجال في الصحابة، بغزارة علمهم، كأبي بن كعب النجاري، وكان النبي (ص) يقول له: «ينك العلم أبا المنذر^(٧)». وهو أول من كتب للنبي (ص)، وكان عمر بن الخطاب على علمه يسأل أبا عن النوازل ويحكم إليه في المعضلات^(٨).

ويذكر أن لبعض المسلمين، في المدينة على عهد الرسول (ص)، معرفة جيدة بعلم الأنساب والتاريخ، كأبي بكر الصديق، ويعد أعلم الناس بنسب قريش وسائر العرب، وكذلك عقيل بن أبي طالب كان له نفس الاهتمام^(٩)، وهناك سعد بن مسعود الثقفي وغيرهم^(١٠). وما ذكر في هذا المجال، أن عقيل بن أبي طالب كان عالما بأنساب قريش ومآثرها ومثالبها، وكان الناس يأخذون ذلك عنه بمسجد المدينة^(١١). على أن هذا العلم، لم يكن الاقبال عليه كبيرا. وكان يوصف بأنه علم لا ينفع وجهل لا يضر^(١٢).

وبالإضافة إلى ما ذكر، فإن للمسلمين إهتماما كبيرا بتعلم السباحة والرماية وركوب الخيل^(١٣).

-
- (١) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ١٤٢ - ٤٣.
 - (٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٥٤٤، ج ٢، ص ٣٨.
 - (٣) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٤ - ٤٥.
 - (٤) الطبري: جامع البيان، ج ١، ص ١١ - ٢٩، ٣٥ - ٣٧.
 - (٥) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٦٩.
 - (٦) ابن خياط: الطبقات، ص ١١٩.
 - (٧) النووي: مهذيب الاسماء واللغات، ج ١، ص ٢٠٦.
 - (٨) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠.
 - (٩) ابن حجر: نفس المكان.
 - (١٠) ابن عبد البر: الانباه على قبائل الرواة، ص ٤٣.
 - (١١) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٣٧، ج ٤، ص ٣٥ - ٣٦.
 - (١٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٩٤.
 - (١٣) الكتاني: التراتيب الادارية، ج ٢، ص ٢٣٠.
 - (١٣) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٤.
 - الكتاني: المرجع السابق، ج ٢، ص ٣١٤ - ١٥.

٢ - دور الشعر في نشر الدعوة

وردت لفظة الشعر والشعراء في القرآن الكريم في عدة مواضع، معظمها كان رداً على الاتهامات الباطلة التي روجها الكفار الذين بهرتهم فصاحة القرآن وإعجازه، فاعتبروه نوعاً من الشعر^(١). وقد حدد الإسلام منهاجاً أخلاقياً لدور الشعر والشعراء في الجهاد ضد الظالمين وأعداء المسلمين. وحارب منهج الغاوين ومن تبعهم^(٢)، لما في منهج الغاوين من انفعالات لا ضابط لها، وأحلام مهومة تشغل أصحابها عن تحقيقها^(٣). ويذكر أن الرسول (ص)، قال لمالك بن عمير السلمي، وكان شاعراً: إن كان ولا بد لك من الشعر فشيب بامرأتك وامدح راحلتك^(٤).

وقد كان دور الشعر والشعراء في التصدي لأعداء الدعوة الإسلامية بارزاً وعظيماً، وذلك بعد أن أصبح للمسلمين قوة واجتماع، بعد هجرتهم إلى المدينة^(٥)، مما أضفى - ولا شك - على دور الشعر أهمية سياسية ودينية عظيمة أهلت فئة من شعراء الأنصار أن أصبحوا مقررين جداً إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم^(٦)، ينصرونه بألسنتهم كما نصره سلاحهم^(٧). ويذكر في هذا، أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يضع لحسان بن ثابت الأنصاري، المنبر في المسجد يقوم عليه قائماً يهجو الذين كانوا يهجون النبي^(٨)، صلى الله عليه وسلم، ويفاخر عنه^(٩). وكان يقول له: إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما كافحت عن الله عز وجل وعن رسول الله^(١٠)، صلى الله عليه وسلم.

ومما يدل به على قوة تأثير الشعر وأهميته في تلك الفترة، ما ذكر من أن حسان بن ثابت رمى بأبيات، فبلغ ذلك عبد الله بن الزبيري السهمي، وكان قد هرب إلى نجران بعد فتح مكة فقدم المدينة فأسلم، وكان من أشعر قريش^(١١). وذكر أيضاً، أن أحد زعماء العرب، جاء النبي (ص)، فقال: ابعث معي من يدعو إلى دينك وأنا له جار.

(١) الأنبياء: ٥، يس: ٦٩، الصافات: ٣٦، الطور: ٣٠، الحاقة: ٦٩. وانظر أيضاً: العاني، سامي مكّي: دراسات في الأدب الإسلامي، ص ٢٥ (بغداد، ١٣٩٥ هـ).

(٢) قال تعالى: «والشعراء يتبعهم الغاؤون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون». الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧.

(٣) قطب، سيد: في ظلال القرآن، ج ١٩، ص ١٢٠ (مطبعة الحلبي، ط ١).

(٤) ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٣٥١.

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ١، ص ٣٢٦.

ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ١٠،

الاصفهاني: الاغاني، م ٤، ص ١٥٣ - ٥٤،

العاني: دراسات في الأدب الإسلامي، ص ٥.

(٦) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٦، ج ٢، ص ٣٠٦.

(٧) الاصفهاني: المصدر السابق، م ٤، ص ١٤١ - ٤٢.

(٨) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٣٢٦.

(٩) ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٢، ص ٤.

(١٠) الاصفهاني: الاغاني، م ٤، ص ١٤٧.

(١١) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٨.

فأرسل معه رجلاً من الأنصار فغدرت به عشيرته فقتلوا الأنصاري. فقدم على رسول الله (ص) يعتذر، وكان الرسول (ص)، لا يؤنب أحداً في وجهه. فقال: ادعولي حسان، فدعي له، فلما رأى الرجل، أنشد أبياتاً جعلته يقول: يا محمد أنا عائذ بك من شره، فلومزج البحر بشعره مزجه^(١). ولدور حسان الكبير هذا، في نصرة الدعوة، كان يقال له: «شاعر الرسول^(٢)». ويأتي مع حسان في مكافحته، كعب بن مالك الأنصاري، وكانا يعارضان أعداء الإسلام بمثل قول شعرائهم في الوقائع والأيام، ويذكران مثالبهم^(٣). وكذلك يأتي في صفهما ومنزلتهما المرموقة، عبد الله بن رواحة الأنصاري، إلا أنه اختلف عنهما في طريقة معارضة أعداء الإسلام، فكان يعيرهم بالكفر وعبادة الأصنام^(٤). وذكر أن الرسول (ص)، حين دخل مكة، يوم الفتح، كان عبد الله بن رواحة يمشي بين يديه ينشد الشعر متوعداً المشركين بالعذاب، وقد أغضب ذلك عمر بن الخطاب وعاب عليه قوله الشعر في حرم الله. إلا أن الرسول (ص)، أجابه بقوله: «والذي نفسي بيده، لكلامه هذا أشد عليهم من وقع النبل^(٥)». ويذكر أنهم لما أسلموا وفقهوا، كان قول عبد الله أشد القول عليهم^(٦).

وقد حفلت أشعار المسلمين بروح جديدة، ويمعاني سامية، تحبب إلى الإسلام وتدعوه، وتفتخر برسوله واعتناق دينه^(٧). ولذلك لم يكن من المستغرب أن تلقى أمثال تلك الأشعار في مجلس الرسول^(٨) (ص)، الذي كان يستحسن بعضها ويبيدي إعجابه بها^(٩).

(١) ومما قاله حسان (انظر: شرح ديوان حسان، ص ٢٦٦ - ٢٧٠):

يا جار من يغدر بزمة جاره
منكم فإن محمداً لم يغدر
إن تغدروا فالغدر منكم شيمة
والغدري نبت في أصول السخبر

والسخبر: شجر إذا طال تدلت رؤوسه وانحنت. وفي اللسان يقال ركب فلان السخبر. (انظر الاصفهاني: المصدر السابق، م ٤، ص ١٥٩).

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤،

النووي: تهذيب الاسماء واللغات، ج ١، ص ١٥٦،
ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ٩.

(٣) ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ١٠.

(٤) النووي: تهذيب الاسماء واللغات، ج ١، ص ١٥٧،
ابن قدامة: المصدر السابق، ورقة ١٠.

(٥) ومما قاله عبد الله بن رواحة:

خلوا بني الكفار عن سبيله
خلوا فكل الخير في رسوله
اليوم مضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله

(انظر: ابن قدامة: نفس المصدر، ورقة ٢٢ - ٢٣، باجوده، حسن محمد: ديوان عبد الله بن رواحة، دراسة وتحقيق، ص ٥٢ - ٥٣ «القاهرة، ١٩٧٢ م»).

(٦) ابن الأثير: اسد الغابة، ج ٢، ص ٥.

(٧) ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ١٤١، ج ٣، ص ٤١٩، ج ٤، ص ٩٦ - ٩٧،
باجوده: المرجع السابق، ص ٤٣ وما بعدها.

(٨) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢٤، ٤٨١، ج ٣، ص ٢٩٦.

(٩) الاصفهاني: الأغاني، م ٥، ص ٣ - ١٠.

لم يكن الغناء في المدينة، على عهد الرسول (ص)، شائعاً ومتقبلاً، مثلما كانت عليه الحال قبل الهجرة^(١). فقد كان المعتقد أن بالمدينة - قبل الاسلام - دوراً خاصة بالغناء، وأن القوم قد شغفوا به كثيراً^(٢).

أما على عهد الرسول (ص)، فقد اقتصر الغناء على المناسبات المباحة، مثل الأعياد ومناسبات الزواج، حيث رخص لهم الرسول (ص)، في الغناء وقتها^(٣). ويذكر أن عائشة رضي الله عنها، أهدت عروساً إلى زوجها في قباء، وكان من الأنصار. فسأل الرسول (ص)، عائشة: هل أهديت عروسك؟ قالت: نعم. قال: فأرسلت معها بغناء، فإن الأنصار يحبونه؟ قالت: لا. قال: فأدركيها بأرنب^(٤). وذكر أيضاً أن الرسول (ص)، مر بدار هبار بن الأسود القرشي الأسدي، فسمع غناء، فقال: ما هذا؟ فقيل: تزوج. فجعل يقول: هذا النكاح لا السفاح^(٥).

والظاهر أن بعض الناس من أهل المدينة، قد احترف ممارسة الغناء، واسترزق عن طريقه^(٦). ومحترفو الغناء، هم - في الغالب - من الموالي والجواري^(٧). وقد يصاحب لهوهم بعض الرقصات بالحراش^(٨).

وقد ردد بعض الصحابة شيئاً من الرجز المغنى. حيث ذكر أن البراء بن مالك الأنصاري، كان حسن الصوت، وكان يرجز لرسول الله (ص)، في بعض أسفاره، كما مر بنا^(٩). وكان طابع غناء الصحابة، هو الحدا. واختاروا في

(١) ضيف، د. شوقي: الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، ص ٥٨.

(٢) ضيف، د. شوقي: نفس المكان.

(٣) ابن خياط: الطبقات، ص ١٠٥،

ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ٢٧،

ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٤٢٦،

الكتاني: التراتيب الادارية، ج ٢، ص ١٢١، ١٢٧ - ٢٩.

(٤) وأرنب هذه، امرأة كانت تغني في المدينة. (انظر: ابن حجر: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٢٦). ويظهر أن العروس كانت

جارية لعائشة، «رضي الله عنها».

(٥) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٣، ص ٥٩٨.

(٦) يروي أن عمرو بن قرة، جاء إلى رسول الله (ص) فقال: إن الله قد كتب عليّ الشقوة وما أراني أرزق إلا من دفي بكفي، فأنذن

لي بالغناء من غير فاحشة. فقال: لا آذن لك، ولا كرامة ولا نعمة، ابتغ على نفسك وعيالك حللاً، فإن ذلك جهاد في سبيل الله، واعلم

أن عون الله تعالى مع صالحى التجارة. (انظر: ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ١١).

(٧) الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة ٢٢١،

الكتاني: التراتيب الادارية، ج ٢، ص ١٢١ - ٣٥،

ضيف، د. شوقي: الشعر والغناء في المدينة، ص ٥٨ - ٦٣.

(٨) مسلم: الصحيح، ج ٢، ص ٦١٠.

(٩) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٣.

حدوهم أشعارا إسلامية، تظهر فضل الدين عليهم^(١). ونستدل مما ذكر، أن الغناء على عهد الرسول (ص)، لم يكن - في الغالب - صناعة تحترف، إلا كما ينشد الناس في خلواتهم، ويترنمون به من الأشعار، في شئونهم^(٢).

٤ - رياضة السبق والصيد

استحوذت رياضة سباق الخيل، على اهتمام أهل المدينة، في عصر الرسول (ص). ولذلك أصبح لها تنظيم خاص، دل على الاهتمام الكبير بها. فقد ذكر أن الرسول (ص)، سابق بين الخيل، التي قد أضمرت، من الحفيا، وكان أمدها ثنية الوداع^(٣)، وسابق بين الخيل، التي لم تضمّر، من الثنية إلى مسجد بني زريق^(٤). ويذكر أن الرسول (ص)، راهن على فرس يقال لها «سيحة» فجاءت سابقة، فهش لذلك وأعجبه^(٥). وكان يجيز راكب الفرس ويكرمه^(٦). وكذلك تسابق الصحابة على الابل. ويذكر، أن للرسول (ص)، ناقة تسمى «العضباء»، وكانت لا تسبق^(٧).

ومن الهوايات الرياضية التي مارسها بعض الصحابة، على عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، هواية الصيد، بواسطة الكلاب والطيور، كالبازي، أو باستعمال السهام والرماح والمعارض، وهو خشبة محدودة الطرف قيل في طرفها حديدة، يرمى بها الصيد^(٨). كما استعملوا في صيدهم، الفخاخ والأشراك المستورة والشباك ونحو ذلك^(٩). وما كانوا

(١) ومن ذلك قولهم:

تالله لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

(انظر: العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: كتاب الأوائل، ص ٧٠، المدينة، ١٣٨٥ هـ). والحدو، سوق الابل والغناء لها. (انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ٥٨٩).

(٢) مسلم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٠٧ - ٦٠٨،

الخزاعي: المصدر السابق، ورقة ٢١٩ - ٢٣،

الكتاني: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٢٥.

(٣) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٤٦٧ - ٦٨.

الحفيا: بالفتح ثم السكون وياء والفاء ممدودة: موضع قرب المدينة. ومن الحفيا إلى الثنية، خمسة أميال أوستة، وقيل سبعة. وكانت بظاهر المدينة، خارج السور قرب مسجد الراية بأدنى الغابة شمال غربي المدينة. (انظر العباسي: عمدة الاخبار، ص ٣٠٤).

(٤) مالك: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٦٧ - ٦٨. وكان بين الثنية ومسجد بني زريق ميل أو نحوه. (انظر: الخزاعي: الدلالات

السمعية، ورقة ١١٥).

(٥) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٩٣.

(٦) الخزاعي: المصدر السابق، ورقة ١١٥.

(٧) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩٣.

(٨) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٤٨٢، ج ٢، ص ٤٧٥.

الكتاني: التراتيب الادارية، ج ٢، ص ٩٥ - ٩٧.

(٩) الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة ٢١٣.

يصيدون، الطباء والبقر والحمر الوحشية، ونحو ذلك^(١). وقد رخص لهم في أكل الصيد، بعد ثلاث ليال، إلا أن ينتن^(٢).

٥ - اللباس

امتاز لباس الصحابة - على عهد الرسول (ص) - في المدينة، ببساطته وتكونه من جزئين رئيسيين هما، الازار^(٣)، وكانوا يرخون مقدمة الازار حتى تقع حاشيته على ظهر القدم، ويرفعونه مما وراءهم^(٤)، ويكون تحت السرة، وقد يكون فوقها^(٥). والازار - بصفة عامة - قصير، ويكره عندهم اسباله^(٦). والجزء الثاني من ثيابهم، هو الرداء، ويعرف أيضا بالقميص، ويغطي أعلى الجسم^(٧)، وهو قصير الطول، قصير الكمين، وربما يصل إلى الرسغين^(٨). ويذكر أن طول رداء النبي، صلى الله عليه وسلم، أربع أذرع وعرضه ذراعان^(٩). ويلبس القميص كل من الرجال، كبارهم وصغارهم على حد سواء، إلا أن أقمصة الصبيان قد تكون حمراء اللون^(١٠)؛ بينما نهى الكبار عن لبس اللون الأحمر، فتركوه^(١١). ويذكر أن الرسول (ص)، أمرهم باللباس الأبيض من الثياب، فانها من خير ثيابهم، ولأنها أطهر وأطيب^(١٢).

والذي يبدولنا، أن السر في تفضيلهم للثياب البيض، إنما يرجع إلى خاصيتها المعروفة في إظهار الأقدار بمجرد، أن تعلق بها، مما يستوجب تنظيفها في الحال. ولذلك قيل إنها أطهر وأطيب، خصوصا، وأن لبسها كان ضروريا، في جميع الأوقات، بعكس ما كان عليه الحال في لبس الجلب والبرود، التي لم يكونوا يلبسونها - على الأغلب - إلا أيام

(١) الواقدي: المغازي، ص ١٧ (الطبعة الأولى)،

ابن عبد البر: الاستيعاب (هامش كتاب الاصابة، ج ١)، ص ٥٤٩،

ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٤٨٢،

الكتاني: التراتيب الادارية، ج ٢، ص ٩٦. أما بالنسبة للحمر الوحشية، فإن الوحش، كل شيء من دواب البر، مما لا يستأنس، مؤنث، والجمع وحوش. ويقال حمار وحشي، وثور وحشي، وكل شيء لا يستأنس بالناس وحشي. (انظر: ابن سيده: المحكم، ج ٣، ص ٣٥٩).

(٢) الدولابي: الكني والاسماء، ج ١، ص ٢١.

(٣) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٥٩،

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٠، ٥٣٥ - ٣٦، ج ٣، ص ٢٦.

(٤) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٥٩.

(٥) ابن سعد: نفس المكان.

(٦) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٣٥ - ٣٦، ج ٣، ص ٢٦.

(٧) مالك: الموطأ، ج ١، ص ١٤١.

ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٦٢ - ٦٣.

(٨) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٥٨.

(٩) ابن سعد: نفس المكان.

(١٠) ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٣٢٩.

(١١) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٢٥.

(١٢) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٤٩ - ٥٠.

الجمعة وفي العيدين^(١). ولذلك فإن معظمها، كانت تغلب عليه ألوان الحمرة والخضرة، على شكل خطوط حمراء أو خضراء^(٢). وقد لبس بعض أهل المدينة، البرنس، وهو كل ثوب رأسه منه وملتصق به^(٣). وقد لبس الصحابة أيضا السراويل^(٤). والذي يبدو أنهم ربما استعاضوا بالسروال عن الازار. ويذكر أن النجاشي ملك الحبشة، بعث إلى الرسول (ص)، بكسوة فيها سراويل^(٥). أما لبس العباءة، فالظاهر أنها لم تكن شائعة كثيرا، بين الصحابة في المدينة، على عهد الرسول (ص)، وقد ذكر أبا بكر الصديق كانت عليه عباءة له «فدكية». وكان يحرص على لبسها لا تفارقه حتى عرف بها. ولذلك قال أهل نجد، حين ارتدوا كفارا: نحن نبائع ذا العباءة^(٦). وذلك يدل على تميز أبي بكر بالعباءة عن غيره من الصحابة، الذين لم يعتادوا لبسها.

وكان أغلب لباسهم، ما نسج من القطن وربما لبسوا ما نسج من الصوف والكتان^(٧). ولم يرخص لهم في لبس الحرير، إلا ما ذكر من أن الرسول (ص)، رخص للزبير بن العوام في قميص من حرير^(٨). وكذلك عبد الرحمن بن عوف، رخص له في لبس الحرير من شرى كان به^(٩).

(١) ابن سعد: نفس المصدر، ج ١، ص ٤٥٠ - ٥١. والجلب، مفردا جبة، ضرب من مقطعات الثياب، تلبس. وجمعها جبب، وجباب. والجبة من أسساء الدرع. (انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ٣٩٣). والبرود، مفردا البرد، بضم الباء وسكون الراء، ثوب فيه خطوط، وخص بعضهم به الوشي. (ابن منظور: نفس المصدر، ج ١، ص ١٨٩).

(٢) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٥٠ - ٥٤.

ابن الجوزية: زاد المعاد، ورقة ١٧.

(٣) مسلم: الصحيح، ج ١، ص ٩٧.

مجموعة من المؤلفين: المعجم الوسيط، ج ١، ص ٥٢.

(٤) مالك: الموطأ، ج ١، ص ٣٢٥.

ابن حبيب: المحبر، ص ٧٦. والسراويل، لباس يغطي السرة والركبتين وما بينهما، وهو فارسي معرب. (انظر: مجموعة من

المؤلفين: المرجع السابق، ج ١، ص ٤٣٠).

(٥) ابن حبيب: المصدر السابق، ص ٧٦.

(٦) ابن اسحاق: السيرة، ج ٤، ص ١٠٤١. والعباءة الفدكية، يبدو أنها نسبة إلى بلدة فدك: بالتحريك وآخره كاف، بينها وبين

المدينة يومان وقيل ثلاثة. أفاءها الله على رسوله (ص)، في سنة سبع صلحا، بعد فتح حصون خيبر. (انظر: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٣٨). والعباءة، أو العباية، لغة فيه: ضرب من الأكسية، واسع فيه خطوط سوداء كبار، والجمع عباء، بكسر العين. (انظر: ابن سيده: المحكم، ج ٢، ص ١٨٧).

(٧) ابن الجوزية: زاد المعاد، ورقة ١٧.

(٨) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ١٠٣.

(٩) مسلم: الصحيح، ج ٣، ص ١٦٤٦.

ابن سعد: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣٠. والشري، بثور محر كالدراهم، حكاكة مؤلة. (انظر: مجموعة من المؤلفين:

المعجم الوسيط، ج ١، ص ٤٨٤).

وقد لبس الصحابة العمام لغطاء^(١) الرأس، بينما لبس أهل الكتاب القلانس^(٢). وربما لبس القلانس، بعض الصحابة، فوق عمامهم^(٣). والغالب على القلانس، أنها بيضاء^(٤)، بينما كانت العمامة سوداء، في الغالب^(٥). وقد تكون صفراء^(٦). وللصحابة طريقة خاصة للبس العمامة، وهي أنهم كانوا يرسلونها من الخلف أربع أصابع، ثم يلفونها، أي يعتموا بها^(٧)، مكورة فوق الجبهة^(٨). ويذكر أن الرسول (ص)، كان يلبس عمامة سوداء، يرخيها بين كتفيه^(٩).

أما بالنسبة لنعالهم، فإنها مصنوعة من الجلد وتكون مخصوفة^(١٠). كما لبسوا الأخفاف^(١١).

وبالنسبة للمرأة، فإن لباسها لم يختلف كثيراً عن لباس الرجل في المدينة - على عهد الرسول (ص) - فهي قد لبست السروال^(١٢). كما لبست الدرع، وهو شبيه بالقميص، إلا أنه كان سابغاً يغيب ظهور القدمين^(١٣). ولبست المرأة أيضاً، الخمار، وهو ثوب تغطي به رأسها^(١٤)، كما تلفعت بالمروط، وهي جمع مرط، أكسية من صوف أو حرير - كما مربنا - كان النساء - في ذلك الزمان - يأتزرن بها ويجللن بها الجسد كله^(١٥). ويذكر أن المرأة كانت - حينذاك - تلبس القفازين، تعمل لليدين وتحشى بقطن، تلبسها المرأة للبرد^(١٦).

-
- (١) مالك: الموطأ، ج ١، ص ٣٥. والعمائم، مفرداً عمامة، وهي كل ما يلف على الرأس. (انظر: مجموعة من المؤلفين: المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٣٥).
- (٢) ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٥١٢. والقلانس، مفرداً قلنسوة: لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال. (انظر: مجموعة من المؤلفين، المرجع السابق، ج ٢، ص ٧٦٠).
- (٣) وفي هذا يذكر، أن للرسول عمامة كان يلبسها تحت القلنسوة. (انظر مالك: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٥، ابن الجوزية: زاد المعاد، ورقة ١٦، ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٠٣).
- (٤) ابن حجر: نفس المكان.
- (٥) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٥٦.
- (٦) ابن سعد: نفس المصدر، ج ٣، ص ١٠٣.
- (٧) ابن اسحاق: السيرة، ج ٤، ص ١٠٤٨.
- (٨) البخاري: تاريخ، ج ١، ص ١٧٥.
- (٩) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٥٦.
- (١٠) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٧٨ - ٧٩. والنعل، ما وقيت به القدم من الأرض. (انظر: الفيروز آبادي: القاموس، ج ٤، ص ٥٨).
- (١١) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٨٢.
- (١٢) ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٤١٧، ٤٦٧. والأخفاف: واحداً الخف. والخف في الأرض اغلظ من النعل. (انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ٨٦٨).
- (١٣) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩.
- (١٤) مالك: الموطأ، ج ١، ص ١٤١ - ٤٢. ودرع المرأة، قميصها، والجمع ادراع. (انظر: ابن سيده: المحكم، ج ٢، ص ٧).
- (١٥) مالك: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢ - ٤١.
- (١٦) مالك: نفس المصدر، ج ١، ص ٥ - ٤.
- (١٧) مالك: نفس المصدر، ج ١، ص ٣٢٨.

٦ - المظهر العام للصحابة

من أهم مظاهر اهتمام الصحابة في المدينة، بمظهرهم العام، اعتنائهم بنظافة ثيابهم، حتى أن الصحابي كان يتخذ ثوبين لجمعه^(١)، سوى ثوبي مهنته^(٢). وقد عرف تميم بن أوس الداري، بين الصحابة بأنه صاحب هيئة ولباس، وكان اشترى رداءً بألف درهم، يخرج فيه إلى الصلاة^(٣).

ولم يترك الصحابة الشعر في وجوههم مرسلًا، بل أحفوا شواربهم، أي أزالوا ما طال منها على الشفتين، وأعفوا لحاهم، أي وفروها لتكثر^(٤)، وصبغوها بالحناء^(٥). كما أخذوا من أظفارهم^(٦)، واكتحلوا بالاثمد، واستعملوا السواك، لنظافة أسنانهم^(٧).

وكان لبعض الصحابة حمة، وهي شعر الرأس إذا بلغ المنكبين، وكان الرجل يسرحها وربما دهنها في اليوم مرتين^(٨)، مستعملًا أمشاط العاج^(٩). أما بالنسبة للمرأة، فإنها كانت تضفر شعرها وتجعله ذوائبًا^(١٠)، مستعملة المشط^(١١) أيضًا.

وقد حرص الصحابة، على التطيب بالمسك والعنبر^(١٢)، وهي عادة كانت معروفة بين الناس في المدينة، حتى قبل

(١) مالك: نفس المصدر، ج ١، ص ١١٠.

(٢) مالك: نفس المكان.

(٣) النووي: تهذيب الاسماء واللغات، ج ١، ص ١٣٨ - ٣٩.

(٤) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٩٤٧.

ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٤٩.

(٥) البخاري: الصحيح، ج ٧، ص ١٣٧.

(٦) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٤٣.

ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٣٥٤.

(٧) البخاري: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣ - ٤.

ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٨٤. والاثمد، عنصر فلزي معدني بلوري الشكل قصديري اللون، صلب هش، يوجد في حالة نقية، وغالبًا متحدا مع غيره من العناصر، يكتحل به. (انظر: مجموعة من المؤلفين: المعجم الوسيط، ج ١، ص ١٠٠). والسواك: عود يتخذ من شجر الأراك ونحوه، يستاك به، أي ينظف الفم أو الأسنان به. (انظر: مجموعة من المؤلفين: نفس المرجع، ج ١، ص ٤٦٧).

(٨) مالك: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٤٩.

(٩) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٨٤.

(١٠) البخاري: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٤٠.

مسلم: الصحيح، ج ١، ص ٢٥٩.

(١١) البخاري: تاريخ، ج ١، ص ١٢٩.

(١٢) البخاري: تاريخ، ج ٢، ص ٨٨.

ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٣٩٩.

مالك: الموطأ، ج ١، ص ١١٠.

الاسلام^(١). وقد ذكر أن شعر النبي (ص)، كان أجمرًا من الطيب^(٢). كما ذكر أن الصحابة كانوا يتطيّبون حتى تجد لمعان الطيب في رؤسهم ولحاظهم^(٣).

واستحب بين الصحابة في المدينة، الاختتام بخاتم من حديد^(٤)، أو بخاتم من فضة، يجعلونه في اليد اليسرى^(٥)، وأحيانًا في اليمنى^(٦). وكانوا يختتمون بخواتم الذهب، إلا أنهم نهوا عن ذلك^(٧)، بداعي قطع دابر المباهاة والمفاخرة - ولا ريب - خصوصًا، وأن التدابير التي مرت بنا، كانت تظهر حرص الرسول (ص)، على إزالة كل أسباب الفرقة والمفاخرة بين المسلمين، وتدعو إلى تكريس الجهد، على أن يتجه المسلمون إلى هدفهم الأسمى، وهو نشر الاسلام. أما بالنسبة للمرأة، فقد رخص لها بلبس الذهب^(٨)، وقد لبست أيضًا القلائد والاقراط^(٩).

٧ - الأسرة والبيت

لعل من أبرز سمات المجتمع في المدينة، بالنسبة للأسرة والبيت - على عهد الرسول (ص) - هو الحرص الكبير على أن يكون للرجل زوجة وأولادًا. ويروي في هذا أن أحد الصحابة (عكاف بن وداعة الهلالي، ويقال عكاف بن بشر التميمي) سأل الرسول (ص): ألك زوجة؟ قال: لا. قال: ولا جارية؟ قال: لا. قال: وأنت صحيح موسر؟ قال: نعم والحمد لله. قال: فأنت إذا من إخوان الشياطين. إما أن تكون من رهبان النصارى، فأنت منهم، وإما أن تكون منا، فاصنع كما نصنع، فإن من سنتنا النكاح، شراركم عزابكم^(١٠). فلم يبرح الرجل مجلسه، حتى زوجه الرسول (ص)، إحدى الصحابيات^(١١). ولذلك فقد سهلت مراسم الزواج وخفف عن الخاطب حمل الصداق، بشكل كبير جدًا^(١٢). وكان بعض الصحابة، قد دفع صداقًا لامرأة من قومه، مبلغ مئتي درهما^(١٣)، وساق عبد الرحمن بن عوف إلى

(١) الواقدي: المغازي، ص ١٤٨ (الطبعة الأولى).

(٢) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٣٧.

(٣) البخاري: الصحيح، ج ٧، ص ١٤٠.

(٤) مالك: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٢٦.

(٥) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٧٣ - ٧٥.

(٦) مسلم: الصحيح، ج ٣، ص ١٦٥٨.

(٧) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٧٠ - ٧١.

(٨) مسلم: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٣٥، ١٦٥٤.

(٩) البخاري: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٣٦.

(١٠) ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٤، ص ٣.

ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٤٩٥ - ٩٦.

(١١) ابن حجر: نفس المكان.

(١٢) ذكر أن رجلاً طلب من الرسول (ص)، أن يزوجه امرأة حضرت مجلسه، فقال له: هل عندك من شيء تصدقها إياه؟ فقال: ما عندي إلا أزارى هذا. فقال الرسول (ص): التمس ولو خاتمًا من حديد. فالتمس فلم يجد شيئًا. فقال له: هل معك من القرآن شيئًا؟ فقال: نعم. فقال له الرسول (ص)، قد انكحتكها بما معك من القرآن. (انظر: مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٥٢٦).

(١٣) ابن اسحاق: السيرة، ج ٤، ص ١٠٤٥. ويبدوان دفع مئتي درهما، مهراً، كان عرفاً متبعاً. ولذلك ذكر أن الرسول (ص)، قال: «لو كنتم تعرفونها من بطحان مازدتم». (انظر: الدولابي: الكنى والاسماء، ج ١، ص ٢٥).

أحدهم، زنة نواة من ذهب^(١). ولم يكن يستحب الزيادة على ذلك^(٢).

ومن مظاهر العرس في المدينة، إقامة الوليمة^(٣)، وكانت لازمة من غير إسراف^(٤). وقد شهد الرسول (ص)، أملاك رجل من الأنصار، فزوجه وقال: على الخير والالف والطائر الميمون والسعة في الرزق، دفعوا على رأسه. فجاءوا بالدف، فضرب به، وأقبلت الأطباق عليها الفاكهة وسكر، فثر عليه، فكف الناس أيديهم. فقال: مالكم لا تتهبون؟ قالوا: يارسول الله، نهيتنا عن النهب. فقال: إنها نهيتكم عن نهبه العسكر، فأما العرسان فلا، فجاذبوه^(٥).

وقد قامت العلاقة بين الزوج والزوجة، على اللطف والمودة والبعد عن أسباب الشجار، وما يكدر صفو العيش^(٦). ولم يمنع حصول ذلك اللطف كون الرجل عنده أربع نسوة^(٧)، فإنهن كن يجتهدن في الطيب ابتغاء مرضاته^(٨). كما أن الرجل من جانبه، كان يعبر عن عواطفه نحو امرأته، بما لا يخرج عن الحشمة، كأن يداعبها ويقبلها^(٩). ومع كل ذلك، فإن حياة الأسرة في البيت، كانت بسيطة التكاليف، خالية من البذخ والبهرج. وخير مثال على ذلك، أن رأس الأمة ورسولها، صلى الله عليه وسلم، كان ينام على سرير مرمول بشرط ووسادته من جلد محشوة بليف^(١٠). وقد تأثر عمر بن الخطاب - مرة - حين دخل عليه وقد أثر الشريط بجنبه، فبكى عمر، فقال: وما يكيك؟ قال: يارسول الله ذكرت كسرى وقيصر يجلسون على سرر الذهب ويلبسون السندس والاستبرق، فقال: أما ترضون أن تكون لكم الآخرة ولهم الدنيا^(١١)؟ وإلى جانب ذلك، كانوا يجلسون على الحصر والبسط والفرش المحشوة بالصوف^(١٢).

(١) مالك: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٤٥. والمراد بالنواة هنا، قيل نواة التمر، وقيل اسم للمقدار من الوزن كان عندهم كما هو عند غيرهم. (انظر: الكتاني: التراثبات الادارية، ج ١، ص ٤١٥).

(٢) الدولابي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥.

(٣) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٥٤٥.

الطبري: جامع البيان، ج ٢٢، ص ٢٧. والعرس، بضم العين وسكون الراء، وقيل بضم العين والراء معا: مهنة الاملاك والبناء. وقيل: يقصد به طعام الاملاك والبناء خاصة. (انظر: ابن سيده: المحكم، ج ١، ص ٢٩٧).

(٤) يروي أن عبد الرحمن بن عوف، حين ساق إلى أحدهم، ليتزوجها، قال له الرسول (ص): أولم ولو بشاة. (انظر: مالك: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٤٥).

(٥) ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٤٢٦.

(٦) الطبري: المصدر السابق، ج ١٨، ص ٩٠.

ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٤٢، ٤٥٥.

(٧) ابن حجر: نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٥٥.

(٨) ابن حجر: نفس المكان.

(٩) مالك: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩١ - ٩٢.

(١٠) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٦٦. وقوله مرمول بشرط: من رمل الحصر، نسجه، ورمل السرير، زينه بالجواهر ونحوه.

(انظر: مجموعة من المؤلفين: المعجم الوسيط، ج ١، ص ٣٧٥، معلوف: المنجد، ص ٢٨٠).

(١١) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٦٦.

(١٢) البخاري: الصحيح، ج ١، ص ٧٢.

ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٦٥.

ابن الجوزية: زاد المعاد، ورقة ٢٠.

أما عن إضاءة بيوتهم، فاستعملوا المصابيح بالفتيل والزيت^(١). وقد بردوا ماءهم في الأسقية، التي تصنع من الجلود المدبوغة^(٢)، وهي القرب، يعلقونها على أعواد من جريد، وهو سعف النخل^(٣). هذا بالإضافة إلى تبريدهم للماء في الفخارة^(٤).

وكانت وسيلة الركوب، المعروفة كثيرا في المدينة - على عهد الرسول (ص) - الحمير، وكانوا يطلقون عليها أسماء خاصة، مثل غفير ونحو ذلك^(٥). وقد كانوا يتخذون فوق ظهورها، حين ركوبها، قطيفة أو نحو ذلك^(٦).

وقد شاعت بعض العادات وانتشرت بين أسر الصحابة - على عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم - منها، عادة التحنيك، وهي أنهم كانوا يأتون بأولادهم إذا ولدوا، إلى النبي (ص)، فيحنكهم، أي يمضغ تمرة ثم يضعها في فم المولود، ويدعوله ويسميه^(٧).

وهناك عادة العقيقة عن المولود، وهي أنهم يذبحون شاة عن الذكور والانات، عند ولادتهم، ولم تكن واجبة فهي مستحبة^(٨). وقد عني بعض الصحابة، عن مولده، بفرس، على حياة الرسول، صلى الله عليه وسلم^(٩).

ومن عاداتهم الشائعة أيضا، الختان، وتعتبر بينهم من السنة التي فطر عليها الانسان^(١٠).

(١) مالك: الموطأ، ج ١، ص ١١٧،

ابن سعد: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٩.

(٢) ابن قدامة: الاستبصار، ورقة ٤٤،

ابن حجر: الاصابة، ج ١، ص ٢٧١.

(٣) الخزاعي: الدلالات السمعية، ورقة ٣٩ - ٤٠.

(٤) ابن حجر: المصدر السابق، ج ١، ص ٤١٧.

(٥) مسلم: الصحيح، ج ١، ص ٥٨، ٤٦١.

(٦) ابن الاثير: أسد الغابة، ج ١، ص ٦٥.

(٧) مسلم: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٧،

ابن حجر: الاصابة، ج ٣، ص ٥٨، ٦٩، ٧٤، وفي أماكن متفرقة. والتحنيك، من الحنك، والحنك من الانسان، والدابة: باطن أعلى الفم من داخل. وقيل الأسفل في طرف مقدم اللحيين من أسفلها. والجمع أحنك. وحنك الدابة، ذلك حنكها، وحنك الصبي بالتمر وحنكه، ذلك به حنكه. (انظر: ابن سيده: المحكم، ج ٣، ص ٣١ - ٣٢).

(٨) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٥٠٠ - ٥٠٢. والعقيقة: أصلها الشعر الذي يكون على رأس المولود حين يولد، وسميت الشاة، التي تذبح عنه، عقيقة، لأنه يخلق عنه ذلك الشعر عند الذبح. (انظر: مالك: نفس المكان، وانظر: أيضا الهامش رقم ١، ص ٥٠٠، نفس المكان، ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، ص ٨٤٣).

(٩) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٣.

(١٠) مسلم: الصحيح، ج ١، ص ٢٢١. قال الرسول، صلى الله عليه وسلم: «الفطرة في خمس (أو خمس من الفطرة): الختان، والاستحداد وتقليم الأظفار، ونف الأبط، وقص الشارب». (انظر: مسلم: نفس المكان). والفطرة، السنة وقيل الدين. والاستحداد: حلق العانة، باستعمال الحديدة، وهي الموسي. (انظر: مسلم: نفس المكان، الهامش رقم ١، ص ٢).

لم تكن مسألة الترفع في الطعام والشراب، تستحوذ على اهتمام أهل المدينة كثيراً على عهد الرسول (ص). ولذلك نجد أحياناً أن عامة زادهم التمر^(١)، وخبز الشعير^(٢). وربما أولموا بالوليمة ما فيها خبز ولا لحم^(٣). ومع أن هذا القول ربما كان يصور الحالة المعيشية التي كانت تمر بالمدينة في كثير من الأحيان - كما سبق أن رأينا - إلا أن المعروف عن المسلمين عامة وأهل المدينة، على وجه الخصوص، في تلك الفترة، قلة إقبالهم على الطعام^(٤)، لما روى عن الرسول (ص)، قوله: حسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه^(٥).

ومن أفخر طعامهم الثريد، من الخبز وعراق اللحم^(٦)، وكذلك الخبز المثرود باللبن^(٧)، والثريد من التمر^(٨)، والقديد^(٩). ومن الأطعمة التي يفضلونها أيضاً، الرطب^(١٠) وسائر الحلو والعسل والبطيخ والسفرجل، ونحو ذلك من الفاكهة^(١١). وكذلك أحبوا مرق الدباء (القرع) مع خبز الشعير بالشحم المذاب، ويعرف بالاهالة، وهي الودك^(١٢)، أو كل ما يؤتمد به من الأدهان^(١٣)، وكانوا أيضاً، يأتندمون بالخل^(١٤)؛ وربما أضافوا إلى طعامهم البصل والثوم^(١٥).

(١) ابن اسحاق: السيرة، ج ٤، ص ١٠٤٨،

الواقدي: المغازي، ص ٢٦٢ (الطبعة الأولى).

(٢) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٠٨.

(٣) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٥٤٦.

(٤) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٤١٠.

(٥) ابن سعد: نفس المكان.

(٦) الواقدي: المغازي، ص ٢٥٥ (الطبعة الأولى).

ابن كثير: البداية والنهاية، م ٢، ج ٣، ص ٢٠٢. والعراق: العظم بغير لحم، فإن كان عليه لحم فهو عرق، بفتح العين وسكون الراء، وقيل العرق: الذي أخذ أكثر لحمه. (انظر: ابن سيده: المحكم، ج ١، ص ١١٠). ومن اللحوم التي أكلوها: لحم الأبل، والضأن، والدجاج والحباري ولحم الحمر الوحشية والأرنب، وطعام البحر. (انظر: ابن الجوزية: زاد المعاد، ورقة ١٧).

(٧) ابن كثير: المصدر السابق، م ٢، ج ٣، ص ٢٠٢.

(٨) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٣٩٣.

(٩) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٤١٧. والقديد: من اللحم، ما قطع طولاً وملح وجفف في الهواء والشمس. (انظر: مجموعة

من المؤلفين: المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٧٢٤).

(١٠) الواقدي: المصدر السابق، ص ٢٥٦ (الطبعة الأولى).

(١١) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٩١ - ٩٣.

الدولابي: الكني والاسماء، ج ١، ص ١٠.

(١٢) ابن الجوزية: المصدر السابق، ورقة ١٧.

(١٣) البخاري: الصحيح، ج ٣، ص ٤٩ - ٥٠، الهامش رقم ١، نفس المكان.

(١٤) مسلم: الصحيح، ج ٣، ص ١٦٢٣.

(١٥) ابن سعد: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٩٥.

أما عن الأشربة، فإن اللبن، يعد أكثر يسرا وتفضيلا عند معظم أهل المدينة. وقد روى أن الرسول (ص)، قال: من سقاه الله لبنا، فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه، فإنه ليس شيء يجزى من الطعام والشراب غير اللبن^(١). كما شربوا أيضا العسل بالماء، وشربوا نقيع التمر^(٢)، وسويق اللوز، ويعد شراب المترفين^(٣).

(١) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٣٩٧.

(٢) ابن الجوزية: زاد المعاد، ورقة ١٧.

(٣) روي أن الرسول (ص)، أتى بسويق لوز، فقال لهم: أخروه. هذا شراب المترفين. (انظر: ابن سعد: المصدر السابق، ج ١،

مصادر ومراجع البحث

- أولاً : المخطوطة
- ثانياً : المطبوعة
- ثالثاً : الرسائل الجامعية والدوريات والموسوعات ودواوين الشعر
- رابعاً : الأجنبية

أولا - المخطوطة

ابن الجوزية

: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م).

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد (مخطوط بمكتبة طبقوباستانبول - تركيا - برقم ٤٤٦ تاريخ.

وهي النسخة التي رجعت إليها، لتيسرها أولاً، ورغبة في الاستفادة مما قد، يكون فيها من

شروح على المتن . علماً بأن الكتاب قد طبع في أربعة أجزاء بمجلدين، ط ٣، القاهرة،

١٣٩٢ هـ).

ابن الحاج

: عبد القادر بن الحاج صالح بكتاش البغدادي (كان حياً سنة ١١٨٧ هـ) .

(٢) رفع الخفاء على ذات الشفاء (وهو شرح المنظومة الموسومة بذات الشفاء في سيرة النبي ثم

الخلفاء، لابن الحاج نفسه وقد فرغ من تأليفه في التاسع عشر من شهر محرم سنة ١١٨٧ هـ.

والمخطوط، بمكتبة المتحف العراقي ببغداد، برقم ٢٤٦).

ابن دريد

: أبو بكر محمد بن الحسن ت ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م)

(٣) كتاب الاشتقاق (مخطوط بالمكتبة السليمانية باستانبول - تركيا - برقم ٢٣٥٧ تاريخ).

ابن شبة

: أبو زيد عمر بن شبة بن عبيدة بن ربيعة النمري البصري (ت ٢٦٢ هـ).

(٤) تاريخ المدينة (مخطوط مصور، بقسم المخطوطات - جامعة الرياض - برقم ٤٤ ص . والأصل

محفوظ بمكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت - المدينة المنورة برقم ١٥٧).

ابن فرحون

: برهان الدين أبو الوفاء إبراهيم بن نور الدين أبو الحسن بن علي بن محمد بن أبي الحسن بن محمد

(ت ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م).

(٥) نصيحة المشاور وتعزية المجاور (مخطوط بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة، برقم ٩٠٠

عام، ٥١ خاص).

ابن قدامه

: موفق الدين عبد الله بن محمد بن أحمد، المعروف بالمقدسي (ت ٦٢٠ هـ).

(٦) الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار (مخطوط مصور بقسم المخطوطات - جامعة الرياض - برقم ٣ ص أنساب تاريخ. وهي عن نسخة مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة، رقم ٥٩٧ تاريخ).

أبو القاسم التيمي : الحافظ قوام السنة إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي (ت ٥٣٥ هـ / ١١٤١ م).
(٧) كتاب المبعث والمغازي (مخطوط بمكتبة كوبريلي باستانبول - تركيا - تحت رقم ١١٣٨).

الخنزاعي

: أبو الحسن علي بن ذي الوزارتين محمد بن أحمد بن موسى بن سعود بن موسى بن أبي غفرة (ت ٧٤٧ هـ تقريباً).

(٨) تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من الحرف والصنائع والعمليات الشرعية (مخطوط مصور بمعهد إحياء المخطوطات - جامعة الدول العربية - برقم ١٨٥٣ تاريخ. رقم الميكروفلم ١٥٨).

العجمي

: حسن بن علي المكي الحنفي (كان حياً خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري).
(٩) تاريخ مكة والمدينة والطائف (مخطوط مصور، بقسم المخطوطات - جامعة الرياض - برقم ٤٣ ص تاريخ. وتاريخ النسخ سنة ١٢٦٧ هـ).

العدوي

: أبو البقاء محمد بهاء الدين بن ضياء المكي الحنفي القرشي العمري (كان حياً حتى نهاية النصف الأول للقرن الثاني عشر الهجري).

(١٠) أحوال مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف وغير ذلك (مخطوط مصور، بقسم المخطوطات - جامعة الرياض - برقم ٢٢٦ ص تاريخ. عن النسخة المحفوظة بمكتبة دار الكتب المصرية. والمخطوط في مجلدين. أفرد المجلد الأول وجزءاً من الثاني للحدث عن أحوال مكة وباقي الجزء الثاني مختص بالحدث عن أحوال المدينة المنورة. وتاريخ النسخ سنة ١١٣٠ هـ).

العيني

: أبو محمد محمود (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م).

(١١) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (مخطوط بمكتبة طبقيو باستانبول - تركيا - برقم ٢٦١١ تاريخ. والمخطوط في ٢٨ مجلداً. وقد كتب في آخر صفحة من المجلد الأول: «أنجز الجزء الأول بعون الله وتوفيقه على يد مؤلفه فقير رحمة ربه الغني أبي محمد محمود العيني عامله الله

ووالديه بلطفه الخفي ، نهار يوم الجمعة سلخ شهر الله الحرم عام خمسة وعشرين وثمان مائة من الهجرة .

كبريت

: محمد كبريت بن عبد الله الحسيني المدني الموسوي (ت ١٠٧٠ هـ / ١٦٦٠ م) .
(١٢) الجواهر الثمينة في محاسن المدينة (مخطوط بمكتبة الأوقاف العامة ببغداد ، برقم ١٧٧ تاريخ . وهذه هي النسخة التي رجعت إليها في هذا البحث . ويوجد نسخة أخرى بمكتبة الحرم المكي . برقم ٢٤ تاريخ « القسم الخص بمكتبة دهلوي ») .

مجهول

: (يبدو أنه كان حيا خلال القرن الحادي عشر الهجري . حيث أن المخطوط من مخطوطات تلك الفترة) .
(١٣) في سيرة الرسول وغزواته (مخطوط بمكتبة الأوقاف العامة ببغداد ، برقم ٣٥٨ / ١٣٦٧) .

المرجاني

: أبو عبد الله محمد بن أبي مروان عبد الملك القرشي البكري القرطبي (ت ٧٨١ هـ) .
(١٤) تاريخ هجرة المختار (مخطوط بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ، برقم ٩٠٠ تاريخ عام ، ٤٥ تاريخ خاص) .

ثانيا - المطبوعة

- ابن أبي أصيبعة : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي (ت ٦٦٨ هـ/١٢٦٩ م).
(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت، ١٣٧٧ هـ.
- ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٨ م).
(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة (خسة أجزاء)، المطبعة الوهبية، القاهرة ١٢٨٠ هـ.
(٣) الكامل في التاريخ، القاهرة، ١٣٤٨ هـ.
- ابن اسحاق : أبو عبد الله محمد بن اسحاق بن يسار المظلي - بالولاء - المدني (ت ١٥١ هـ/٧٦٢ م).
(٤) سيرة النبي، صلى الله عليه وسلم (تهذيب عبد الملك ابن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٨ هـ/٨٣٣ م)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٣٨٣ هـ/١٩٦٣ م.
- ابن بكار : الزبير (ت ٢٥٦ هـ).
(٥) جمهرة نسب قریش وأخبارها، ج ١، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة، ١٣٨١ هـ.
- ابن جلدل : أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي (كان حيا سنة ٣٨٤ هـ).
(٦) طبقات الأطباء والحكماء (ألفه سنة ٣٧٧ هـ)، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة، ١٩٥٥ هـ.
- ابن الجوزية : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت ٧٥١ هـ/١٣٥٠ م).
(٧) زاد المعاد في هدى خير العباد (أربعة أجزاء بمجلدين، ط ٣، القاهرة، ١٣٩٢ هـ/١٩٧٣ م).
- ابن حبيب : محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي (ت ٢٤٥ هـ/٨٥٩ م).
(٨) كتاب المحبر، تحقيق المستشرق الأمريكية د. ايلزه ليحتن شتير، حيدرآباد الدكن - الهند - ١٣٨٤ هـ/١٩٤٢ م.
(٩) كتاب المنق في أخبار قریش، تصحيح وتعليق خورشيد أحمد فاروق، ط ١، حيدرآباد الدكن - الهند - ١٣٨٤ هـ/١٩٦٤ م.

ابن حجر : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد الكتاني العسقلاني المصري ثم القاهري الشافعي (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م .
(١٠) كتاب الاصابة في تمييز الصحابة، ط ١ (أربعة أجزاء)، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٨ هـ . (وقد أعادت طبعه بالأوفست، دار صادر بيروت).

ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م).
(١١) جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م.

ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م).
(١٢) المسالك والممالك، طبعة ليدن، ١٨٨٩ م . (وقد أعادت طبعه بالأوفست، مكتبة المثنى ببغداد).

ابن خلدون : عبد الرحمن (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م).
(١٣) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (وهو المعروف باسم تاريخ ابن خلدون). تصحيح علال الفاسي وعبد العزيز بن ادريس، وتعليق الأمير شكيب أرسلان، مطبعة النهضة بمصر، ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م.
وانظر أيضا، طبعة بولاق، القاهرة، ١٢٨٤ هـ.

ابن دريد : أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م).
(١٤) كتاب الاشتقاق، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م.

ابن رسته : أبو علي أحمد بن عمر (كان حيا عام ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م).
(١٥) كتاب الأعلام النفيسة، م ٧، طبعة ليدن، ١٨٩١ م.

ابن سعد : محمد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م).
(١٦) الطبقات الكبرى (في تسعة أجزاء)، طبعة دار صادر، بيروت، (٨٠-١٣٨٨ هـ) / (٦٠-١٩٦٨ م).

ابن سيد الناس : فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى (ت ٧٣٤ هـ/١٣٣٣ م).

(١٧) عيون الأثر في فنون المغازي والشائيل والسير، مطبعة دار الجليل، ط ٢، بيروت، ١٩٧٤ م.

وانظر أيضا طبعة دار الآفاق الجديدة، ط ١، بيروت، ١٩٧٧ م.

ابن سيده : علي بن اسماعيل (ت ٤٥٨ هـ/١٠٦٥ م).

(١٨) المحكم والمحيط الأعظم في اللغة (سنة أجزاء)، ج ١، تحقيق مصطفى السقا، ط ١، القاهرة، ١٣٧٧ هـ/١٩٥٨ م، ج ٢، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط ١، القاهرة، ١٣٧٧ هـ، ج ٦، تحقيق د. مراد كامل، ط ١، القاهرة، ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م.

ابن ظهيرة : جمال الدين محمد جار الله بن محمد نور الدين بن أبي بكر بن علي القرشي المخزومي (كان حيا خلال القرن التاسع الهجري).

(١٩) الجامع اللطيف فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، ط ١، القاهرة، ١٣٤٠ هـ/١٩٢١ م.

ابن عبد البر : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم القرطبي المالكي (ت ٤٦٣ هـ/١٠٧٠ م).

(٢٠) كتاب الاستيعاب في أسماء الأصحاب (وقد رجعت إلى النسخة الملحق بها مش كتاب ابن حجر: الإصابة، ط ١، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٢٨ هـ).

(٢١) الإنباه على قبائل الرواة، القاهرة، ١٣٥٠ هـ.

(٢٢) القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم، النجف، ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦ م.

ابن فضل الله : العمري (ت ٤٧٩ هـ/١٣٤٩ م).

(٢٣) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج ١، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة، ١٣٤٢ هـ/١٩٢٤ م.

ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ/٨٨٩ م).

(٢٤) المعارف، ط ٢، تحقيق د. ثروت عكاشة، القاهرة، ١٩٦٩ م.

- ابن قدامة : موفق الدين عبد الله بن محمد بن أحمد المقدسي (ت ٦٢٠ هـ).
(٢٥) الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار، تحقيق على يوسف نويهض، بيروت، ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م.
- ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ/١٣٧٣ م).
(٢٦) البداية والنهاية في التاريخ، ط ١، القاهرة، ١٣٥١ هـ/١٩٣٢ م.
(٢٧) السيرة النبوية (في جزئين)، تحقيق مصطفى عبد الواحد، بيروت، ١٣٩٦ هـ/١٩٧٦ م.
- ابن الكلبي : أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب بن بشر (المعروف أيضا باسم الكلبي) (ت ٢٠٤ هـ).
(٢٨) كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي، القاهرة، ١٣٨٤ هـ.
- ابن منظور : محمد بن مكرم بن علي، وقيل : رضوان بن أحمد بن أبي القاسم بن حبة بن منظور الأنصاري الأفريقي المصري جمال الدين أبو الفضل (ت ٧١١ هـ/١٣١١ م).
(٢٩) لسان العرب المحيط، طبعة دار صادر، بيروت، ١٣٧٥ هـ/١٩٥٦ م.
وانظر أيضا، طبعة دار لسان العرب، بيروت، ١٣٨٩ هـ/١٩٧٠ م.
- ابن النجار : أبو عبد الله البغدادي محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن (ت ٦٤٧ هـ).
(٣٠) أخبار مدينة الرسول (المعروف باسم الدرة الثمينة في أخبار المدينة)، تحقيق صالح محمد جمال، ط ١، مكة، ١٩٦٦.
- أبو داود : سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ).
(٣١) سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (أربعة أجزاء في مجلدين)، ط ٢، القاهرة، ١٣٦٩ هـ/١٩٥٠ م.
- أرنولد : سير توماس.
(٣٢) الدعوة إلى الاسلام، الترجمة العربية لحسن إبراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين، واسماعيل النحراوي، ط ٢، القاهرة، ١٩٤٧ م.
- الأزرقي : أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٢٥٠ هـ/٨٦٥ م).
(٣٣) أخبار مكة، ط ٣، تحقيق رشدي الصالح ملحس، بيروت، ١٣٨٩ هـ/١٩٦٩ م.

الأسد

: د. ناصر الدين .

(٣٤) القيان والغناء في العصر الجاهلي، بيروت، ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.

أمين

: أحمد (ت ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م).

(٣٥) فجر الاسلام، ط ١٠، بيروت، ١٩٦٩م.

الأصبهاني

: الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران (ت

٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م).

(٣٦) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (في عشرة أجزاء)، ط ١، القاهرة، ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م.

الاصطخري

: أبو القاسم بن إسحاق بن إبراهيم بن محمد الفارسي (توفي في النصف الاول من القرن الرابع الهجري).

(٣٧) المسالك والممالك، تحقيق د. محمد جابر عبد العال، مراجعة محمد شفيق غربال،

القاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

الاصفهاني

: أبو الفرج (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م).

(٣٨) كتاب الأغاني، مراجعة عبد الله العلايلي، موسى سليمان، وأحمد أبوسعيد، ط ٣،

بيروت، ١٩٥٥م.

الأعظمي

: د. محمد مصطفى .

(٣٩) كتاب النبي، صلى الله عليه وسلم، ط ١، بيروت، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

الأنصاري

: عبد القدوس .

(٤٠) آثار المدينة المنورة، ط ٣، بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

بارتولد

: فاسيلي فلاديمير (ت ١٩٢٧م).

(٤١) تاريخ الحضارة الاسلامية، الترجمة العربية لحمزة طاهر، ط ٣، القاهرة، ١٩٥٨م.

باسلامه

: حسين عبدالله .

(٤٢) تاريخ عمارة المسجد الحرام، ط ١، جدة، ١٣٥٤هـ.

- البتنوني : محمد لبيب (ت ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م).
(٤٣) الرحلة الحجازية، ط ٢، القاهرة، ١٣٢٩هـ.
- البخاري : شيخ المحدثين الامام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي (ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م).
(٤٤) الصحيح، تقديم وتحقيق وتعليق محمود النواوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ومحمد خفاجي (تسعة اجزاء في ثلاثة مجلدات)، مطبعة الفجالة، القاهرة، ١٣٧٦هـ.
(٤٥) كتاب التاريخ الكبير (تسعة أجزاء)، منشورات المكتبة الاسلامية، ديار بكر بتركيا.
- بروكلمان : كارل.
(٤٦) تاريخ الشعوب الاسلامية، الترجمة العربية لنبية أمين فارس، ومنير البعلبكي، ط ٥، بيروت، ١٩٦٨م.
- البستاني : المعلم بطرس (ت ١٣٠٠هـ / ١٨٨٣م).
(٤٧) كتاب محيط المحيط، بيروت، ١٢٨٦هـ / ١٨٧٠م.
- البكري : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م).
(٤٨) معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواقع (أربعة أجزاء في مجلدين)، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، (٦٤ - ١٣٦٨هـ) / (٤٥ - ١٩٤٩م).
- البلخي : أبوزيد أحمد بن سهل (ت ٣٢٢هـ / ٩٣٤م).
(٤٩) كتاب البدء والتاريخ، تحقيق المستشرق الفرنسي كلمان هوار (ستة أجزاء في ثلاث مجلدات)، شالون - فرنسا - ١٨٩٩ م. (أعادت نشره بالأوفست، مكتبة خياط، بيروت).
- البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م).
(٥٠) أنساب الأشراف، ج ١، تحقيق د. محمد حميد الله، مطبعة دار المعارف بمصر، ١٩٥٩ م.
(٥١) كتاب فتوح البلدان (قسمين في مجلد واحد)، نشره ووضع ملاحقه وفهارسه د. صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٥٦ - ١٩٥٧م.
وانظر ايضاً، النسخة التي حققها، رضوان محمد رضوان، بيروت، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

- البقري : عبد الله أبو العطا .
(٥٢) الانصار والاسلام، القاهرة، ١٩٦٤ م .
- جاء المولى : محمد بن أحمد، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم .
(٥٣) أيام العرب في الجاهلية، ط ٣، القاهرة، ١٣٦١هـ/١٩٤٢ م .
- الجاسر : حمد .
(٥٤) بلاد ينبع «لمحات تاريخية جغرافية وانطباعات خاصة»، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض .
- حافظ : علي .
(٥٥) فصول من تاريخ المدينة المنورة، منشورات شركة المدينة للطباعة والنشر بجدة .
- حتي : د. فيليب، د. ادورد جرجي، د. جبرائيل جبور .
(٥٦) تاريخ العرب (المطول من جزئين)، ط ٤، بيروت، ١٩٦٥ م .
- الحربي : أبو اسحاق (ت ٢٨٥هـ/٨٩٨م) .
(٥٧) كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، الرياض، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩ م .
- حسن : د. حسن إبراهيم .
(٥٨) تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (صدر منه أربعة أجزاء، ١-٣، ط ٧، القاهرة ٦٤-١٩٦٥ م، ج ٤، ط ١، القاهرة، ١٩٦٨ م) .
- الحسيني : محمد باقر .
(٥٩) تطور النقود العربية الاسلامية، ط ١، بغداد، ١٩٦٩ م .
- الحكيم : أبو الحسن علي بن يوسف (كان موجودا خلال القرن الثامن الهجري) .
(٦٠) الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق وتذييل د. حسين مؤنس، مدريد، ١٣٧٩ هـ .

الحلبي : علي بن إبراهيم بن أحمد (ت ١٠٤٤هـ / ١٦٣٥م).
(٦١) إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (المعروفة بالسيرة الحلبيّة)، القاهرة، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م.

حميد الله : د. محمد.
(٦٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط ٣، بيروت، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.

الحميري : محمد بن عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٥م).
(٦٣) كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٥ م.

الدارمي : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م).
(٦٤) سنن الدارمي (جزآن في مجلد واحد)، نشرته دار إحياء السنة النبوية، بيروت.

الدباغ : مصطفى مراد الدباغ.
(٦٥) الجزيرة العربية «مواطن العرب ومهد الاسلام»، ج ١، ط ١، بيروت، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م.

الدوري : د. عبد العزيز.
(٦٦) مقدمة في تاريخ صدر الاسلام، ط ٢، بيروت، ١٩٦١ م.

الدولابي : أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد (ت ٣١٠هـ / ٩٢٣م).
(٦٧) كتاب الكنى والأسماء، ط ١، حيدرآباد - الهند - ١٣٢٢ هـ.

الديار بكري : حسين بن محمد بن الحسن (ت ٩٦٦هـ / ١٥٥٩م).
(٦٨) تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس (جزآن في مجلد واحد)، طبعة مؤسسة شعبان بيروت، عن الطبعة القديمة بالمطبعة الوهبية، القاهرة، ١٢٨٣ هـ.

الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م).
(٦٩) سير أعلام النبلاء، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٥٥م.
(٧٠) تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام، القاهرة، ١٣٦٧هـ.

(٧١) كتاب تذكرة الحفاظ (أربعة أجزاء في مجلدين)، حيدر آباد - الهند - ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م.

رستم

: د. أسد.

(٧٢) الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب (جزآن)، دار المكشوف،

ط ١، بيروت، ١٩٥٥م.

الزبيدي

: د. محمد حسين.

(٧٣) الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الاول الهجري، بغداد، ١٩٧٠م.

الزبيدي

: أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام (ت

٢٣٦هـ / ٨٥١م).

(٧٤) كتاب نسب قریش، تصحيح وتعليق ا. بروفنسال، القاهرة، ١٩٥١م.

الزنجشري

: أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ / ١١٤٣م).

(٧٥) أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، ١٣٨٥هـ.

(٧٦) الجبال والأمكنة والمياه، تحقيق السيد محمد صادق آل بحر العلوم، النجف، ١٣٨١هـ.

زيدان

: جرجي.

(٧٧) تاريخ التمدن الاسلامي (٥ أجزاء)، طبعة جديدة علق عليها د. حسين مؤنس، القاهرة.

وانظر الطبعة القديمة، القاهرة (١٩٠٢ - ١٩٠٦م).

السخاوي

: شمس الدين أبو الخير وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن القاهري الشافعي (ت

٩٠٢هـ / ١٤٩٧م).

(٧٨) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (٣ أجزاء) القاهرة، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.

السمهودي

: نور الدين علي بن عبد الله بن أحمد (ت ٩١١هـ / ١٥٠٦م).

(٧٩) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى (أربعة أجزاء في مجلدين)، تحقيق محمد محيي الدين عبد

الحמיד، القاهرة، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م.

(٨٠) خلاصة الوفاء بأخبار دار المصطفى، دمشق، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

السهيلي

: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي (ت ٥٨١هـ / ١١٨٥م).

(٨١) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، تعليق طه عبد الرؤف سعد (أربعة أجزاء في مجلدين)، القاهرة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

شافعي

: د. فريد.

(٨٢) العمارة العربية في مصر الاسلامية عصر الولاة، القاهرة، ١٩٧٠ م.

الشريف

: د. أحمد إبراهيم.

(٨٣) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، القاهرة، ١٩٦٥ م.

شليبي

: د. أحمد.

(٨٤) موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، ج ١، ط ٦، القاهرة، ١٩٧٤م.

شنودة

: المحامي زكي.

(٨٥) اليهود «نشأتهم وعقيدتهم ومجتمعهم من واقع نصوص التوراة كتابهم المقدس»، ط ١، القاهرة، ١٩٧٤م.

صالح

: د. عبد العزيز.

(٨٦) الشرق الأدنى القديم. ج ١، (مصر والعراق)، القاهرة، ١٩٦٧ م.

ضيف

: د. شوقي.

(٨٧) الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، ط ٢، بيروت، ١٩٦٧ م.

(٨٨) العصر الجاهلي، ط ٣، القاهرة، ١٩٦٠م.

الطبري

: أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م).

(٨٩) تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (٨ أجزاء)، دار المعارف بمصر، ٦٠ - ١٩٦٦م.

(٩٠) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط ٢، القاهرة، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

طنطاوي

: د. محمد سعيد.

(٩١) بنو اسرائيل في القرآن والسنة (جزآن)، ط ٢، بيروت، ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م.

العامري

: عماد الدين يحيى بن أبي بكر (كان حيا سنة ٨٥٥هـ).

(٩٢) بهجة المحافل وبغية الأمائل في تلخيص المعجزات والسير والشبائل (جزآن)، شرح الأشعر اليماني: جمال الدين محمد (كان حيا سنة ٩٧٥هـ)، مطبعة الجالية، القاهرة، ١٣٣٠ هـ (وقد أعيد نشر الكتاب من قبل مكتبة النمنكاني بالمدينة المنورة).

العاني

: د. سامي مكي.

(٩٣) دراسات في الأدب الاسلامي، بغداد، ١٣٩٥هـ.

العباسي

: أحمد بن عبد الحميد (توفي في القرن العاشر الهجري).

(٩٤) كتاب عمدة الأخبار في مدينة المختار، ط ٥، تصحيح حمد الجاسر، منشورات أسعد درابزوني الحسيني بالمدينة المنورة.

العسكري

: أبو هلال الحسن بن علي بن سعد بن سهل (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م).

(٩٥) كتاب الأوائل، تحقيق محمد الوكيل، المدينة المنورة، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م.

العصامي

: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي (ت ١١١١هـ/١٦٩٩م).

(٩٦) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٧٩هـ.

علي

: د. جواد.

(٩٧) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (١٠ أجزاء، منشورات دار العلم للملايين، بيروت ومكتبة النهضة ببغداد)، بيروت ٦٩ - ١٩٧٦م.

علي

: سيد أمير.

(٩٨) مختصر تاريخ العرب، الترجمة العربية لعفيف البعلبكي، ط ٢، بيروت، ١٩٦٧م.

العياشي

: إبراهيم بن علي.

(٩٩) المدينة بين الماضي والحاضر، منشورات المكتبة العلمية بالمدينة، دمشق، ١٣٩٢هـ.

الغزالي

: محمد.

(١٠٠) فقه السيرة، ط ٧، القاهرة، ١٩٧٦م.

فلهاوزن

: يوليوس (ت ١٩١٨م).

(١٠١) الدولة العربية وسقوطها، الترجمة العربية لمحمد أبوريعة، القاهرة، ١٩٥٨م. وانظر أيضا، الترجمة العربية للدكتور يوسف العث، دمشق، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.

- الفيروز آبادي : مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب (ت ٨٢٣هـ / ١٤١٥م).
 (١٠٢) المغانم المطابة في معالم طابة، تحقيق حمد الجاسر، ط ١، الرياض، ١٣٨٩هـ.
 (١٠٣) القاموس المحيط، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٣٢هـ / ١٩١٣م.
- قطب : سيد.
 (١٠٤) في ظلال القرآن، ط ١، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة.
- القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م).
 (١٠٥) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق علي الخاقاني، بغداد، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م.
- الكتاني : عبد الحي بن شمس الآفاق أبو المكارم عبد الكبير بن الشيخ أبو المفاخر سيدي محمد الحسني الأدرسي القاسي (كان حيا في مطلع عام ١٣٤٧هـ).
 (١٠٦) كتاب التراتيب الادارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الاسلامية في المدينة المنورة العلية (جزآن)، بيروت.
- كحالة : عمر رضا.
 (١٠٧) معجم قبائل العرب القديمة والحديثة (٣ أجزاء)، بيروت، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.
 (١٠٨) جغرافية شبه جزيرة العرب، مراجعة أحمد علي، ط ٢، القاهرة، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
- كستر : بروفيسور م. ج.
 (١٠٩) مكة وتيمم «مظاهر من علاقاتهم»، الترجمة العربية للدكتور يحيى الجبوري، بغداد، ١٩٧٥م.
- الكلاعي : أبو الربيع سليمان بن موسى الأندلسي (ت ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م).
 (١١٠) الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، تحقيق مصطفى عبد الواحد (جزآن)، القاهرة، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م.
- لاندو : روم.
 (١١١) الاسلام والعرب، الترجمة العربية لمنير بعلبكي، بيروت، ١٩٦٢م.
- ماجد : د. عبد المنعم.
 (١١٢) الدولة العربية «عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين» (جزآن)، ط ٤، القاهرة، ١٩٦٧م.
- ماسنيون : لويس.
 (١١٣) خطط الكوفة وشرح خريطتها، الترجمة العربية والتعليق لتقي بن محمد المصعبي، ط ١

- مالك بن أنس : الامام (ت ١٧٩هـ/٧٩٥م).
(١١٤) الموطأ (جزآن)، صححه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م.
- الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب المصري البغدادي (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٧م).
(١١٥) الاحكام السلطانية والولايات الدينية، ط ٢، القاهرة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
- متولي : د. عبد الحميد.
(١١٦) مبادئ نظام الحكم في الاسلام، ط ١، القاهرة، ١٩٦٦م.
- المراغي : أبوبكر بن الحسن بن أبي حفص عمر بن أبي عبد الله ابن محمد بن يونس بن أبي الفخر بن محمد بن عبد الرحمن الأموي العثماني المصري نزيل المدينة المنورة (ت ٨١٦هـ).
(١١٧) تحقيق النصره بتلخيص معالم دار الهجرة، تحقيق محمد عبد الجواد الاصمعي، ط ١، القاهرة، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.
- المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٥هـ/٩٥٦م).
(١١٨) مروج الذهب ومعادن الجوهر (أربعة أجزاء)، دار الاندلس، بيروت، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م.
- مسلم : الامام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ).
(١١٩) صحيح مسلم (٥ أجزاء)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط ١، القاهرة، ١٣٧٤هـ.
- مصطفى : إبراهيم، ومجموعة من المؤلفين هم، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، عبد السلام هارون.
(١٢٠) المعجم الوسيط (جزآن)، منشورات مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- المطري : جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى بن عباس الخزرجي الساعدي المدني الشافعي (ت ٧٤١هـ/١٣٤٠م).
(١٢١) التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة، تحقيق محمد بن عبد المحسن الخيال، منشورات أسعد درابزوني بالمدينة المنورة، ١٣٧٢هـ.

- معلوف : لويس .
(١٢٢) المنجد في اللغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، ط ١، بيروت، ١٩٦٠ م.
- المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م).
(١٢٣) امتاع الاسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، ج ١، تصحيح محمود محمد شاكر، القاهرة، ١٩٤١ م.
(١٢٤) كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (٧ أجزاء)، تحقيق المستشرق ج. ويت، القاهرة، ١٩١٠ م.
(١٢٥) كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق محمد مصطفى زيادة، وجمال الدين الشيال، ط ٢، القاهرة، ١٩٥٧ م.
- المقدسي : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بكر (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م).
(١٢٦) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق م. ج. دي غوج، ط ٢، ليدن، ١٩٠٦ م.
- النوي : أبو زكريا محيي الدين بن شرف (ت ٦٧٦هـ).
(١٢٧) تهذيب الأسماء واللغات (أربعة أجزاء)، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت.
- الواقدي : أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ).
(١٢٨) مغازي رسول الله، ط ١، القاهرة، ١٣٦٧هـ. وقد رجعنا أيضا إلى النسخة المعروفة بطبعة اكسفورد، تحقيق د. مارسدن جونس، لندن، ١٩٦٦ م.
- ولفنسون : د. اسرائيل، المعروف بأبي ذؤيب.
(١٢٩) تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام، مطبعة الاعتقاد، مصر، ١٩٢٧ م.
- الهمداني : لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤هـ/٩٤٦م).
(١٣٠) صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوغ، الرياض، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤ م.
- الهمداني : أبو بكر أحمد بن محمد المعروف بابن الفقيه (ت ٣٦٥هـ/٩٧٦م).
(١٣١) مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢هـ/١٨٨٥ م.

هيكل

: محمد حسين .

(١٣٢) حياة محمد، ط ٩، القاهرة، ١٩٦٥ م.

(١٣٣) في منزل الوحي، ط ٤، القاهرة، ١٩٦٧ م.

ياقوت

: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨ م).

(١٣٤) معجم البلدان (خمسة أجزاء)، بيروت، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧ م.

اليقوي

: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٦ م).

(١٣٥) تاريخ اليقوي (جزآن)، بيروت، ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠ م.

(١٣٦) البلدان، ط ٣، النجف، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧ م.

ثالثا - الرسائل الجامعية والدوريات

والموسوعات ودواوين الشعر

الأنصاري

: د. عبد الرحمن الطيب .

(١) لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية ، بحث نشر في مجلة الدارة،

الرياض، العدد الأول، السنة الأولى، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥ م.

الأنصاري

: عبد القدوس .

(٢) أطلال الجار «ميناء المدينة القديم»، بحث نشر في مجلة المنهل، ج ٥، س ٣٧، م ٣٢،

جمادي الأولى، عام ١٣٩١هـ/ ١٩٧١ م.

الجنابي

: د. كاظم .

(٣) تخطيط مدينة الكوفة عن المصادر التاريخية والاثريّة، ط ١، بغداد، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧ م

(بحث نال به مؤلفه درجة الماجستير في الآثار الإسلامية من جامعة الاسكندرية . ١٩٦٢ م).

: حسان بن ثابت : شاعر الرسول .

(٤) شرح ديوان حسان بن ثابت، تصحيح عبد الرحمن البرقوقي، بيروت،

١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦ م.

الحسيني

: محمد باقر.

(٥) العملة الاسلامية في العهد الأتابكي (رسالة ماجستير من جامعة القاهرة، وقد طبعت في بغداد، ١٣٨٦هـ).

سليمان

: حسين محمد.

(٦) ثقيف من صدر الاسلام حتى سقوط الخلافة الأموية (رسالة لنيل درجة الماجستير من كلية الآداب - جامعة القاهرة - عام ١٩٧٢م).

عبد الله بن رواحه الانصاري: شاعر الرسول.

(٧) ديوان عبد الله بن رواحه، دراسة وتحقيق د. حسن محمد باجودة، القاهرة، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

العلي

: د. صالح أحمد.

(٨) خطط البصرة، بحث نشر في مجلة سومر، م ٨، ج ١، بغداد، سنة ١٩٥٢م.

الغندي

: محمد ثابت، وآخرون وهم، أحمد الشتاوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس (مربون).

(٩) دائرة المعارف الاسلامية (١٥ جزء)، القاهرة، ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م.

كاشف

: د. سيده إسماعيل.

(١٠) النقود العربية في العصر الاسلامي، بحث نشر في السجل الثقافي الأول لجامعة الكويت، عام ١٩٦٨/٦٧م.

كستر

: برفسور م. ج.

(١١) الحيرة وعلاقتها بالجزيرة العربية، الترجمة العربية للدكتور خالد العسلي، بحث نشر في مجلة العرب، ج ١١، س ٧، عام ١٣٩٣هـ.

مدني

: السيد عبيد.

(١٢) أطوم المدينة، بحث نشر في مجلة كلية الآداب - جامعة الرياض - م ٣، س ٣، عام ٩٣ - ١٣٩٤هـ.

: عبد المنعم صالح .

(١٣) الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في الشرق الاسلامي في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك
(رسالة لنيل درجة الماجستير في الآداب، مقدمة لكلية الآداب - جامعة القاهرة - عام
١٩٧٢م).

: د. عبد الله .

الوهبي

(١٤) الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب، بحث نشر في مجلة كلية الآداب - جامعة الرياض -
م ١، س ١، عام ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.

رابعا - الأجنبية

Arnold, sir Thomas S.

The Preaching of Islam, London (1935).

Britannica; Encyclopaedia. vol. 15, London (1957).

Crichton, Andrew.

History of Arabia. vol. 1, Edinburgh (1833).

Dictionary of the Bible; The Interpreter's. vol. 2, Abingdon press, New York.

Holt, P.M., Lambton, A. and Lewis, B.

The Cambridge History of Islam, Cambridge (1970).

Landau, Rom.

Islam and the Arabs, London (1958).

O'Leary, De Lacy.

Arabia before Muhammad, London (1927).

Watt, W. Montgomery.

Muhammad at Medina, Oxford (1977).

الملاحق والفرائط

ملحق رقم (١)

إحصائية تقريبية لعدد المشهورين من الصحابة ، من سائر القبائل في المدينة المنورة - خلال العصر النبوي - ممن نبه ذكره أو روى عن الرسول (ص) ، وذلك طبقا لما ذكره ابن حجر في كتابه الاصابة ، في أماكن متفرقة من نفس الكتاب

القبيلة	عدد الأفراد		ملحوظات
	ذكر	أنثى	
بلى	٤٦	٤	وعدد مقاتلتهم حوالى ألف رجلا
حنيفة وبعض أهل اليامة	٢١	١	
تميم	٨٥	١٥	
الأزد	٢٥	٢	
ذهل بن جشم	٢	-	
بنو عجل	٥	١	
بنو كلب	٦	٣	
بنو ثماله	٣	-	
بنو هلال بن عامر	٨	٦	
بنو كنانة	٥	٢	
هوازن	٣	٢	
خثعم	٨	٥	
مزينة	٦٥	٤	
الليث	٤٩	١٤	
غطفان	٦	-	
بنو ضبة	١٣	١	
بنو غفار	٤٠	٨	
بنو غافق	٢	-	
بنو عقيل	٧	-	
جشم بن سعد	٥	-	
بنو عامر	١٥	٢	
بنو ثعلبة	٥	-	

تابع ملحق رقم (١)

ملحوظات	عدد الأفراد		القبيلة
	أنثى	ذكر	
عدد مقاتلتهم حوالي ٥٠٠ رجلا	-	٣	بنو جعل
	١	٤	مذحج
	١	٣	بكر
	-	٣	أحمس
	-	٥	عنز
	١	٤	قضاة
عدد مقاتلتهم حوالي ٤٠٠ رجلا	٧	١٥	دوس
	١٠	٦٠	أسلم
	١٦	٥٤	خزاعة
	٢	١٦	أشعر
	١	٩	باهلة
	٤	١٣	طيء
	-	١٠	عذرة
	-	٢	بنو مراد
	١	٧	بنو محارب
	٢	١٧	بنو عبد القيس
	١	٣	بنو نهد
	-	٦	بنو جرم
	-	٢	ذبيان
	١	٩	قشير
	١	٥	أنصار
	٢	٤٣	أسد خزيمة
	-	٨	بنو نمير
	١	١٦	بنو جذام
	٥	٢٠	بنو كلاب

ملحوظات	عدد الأفراد		القبيلة
	أنثى	ذكر	
عدد المقاتلة حوالي ٢٠٠ رجلا	-	٣	النخع
	٣	٤	مرة
	-	١١	جعفي
	-	٦	همدان
	٧	٤٠	كندة
	٥	٢٢	هذيل
	٤	١٢	فزارة
	-	٩	سدوس
	١	١٧	ضمرة
	٢	١٥	لخم وتنوخ
	٢	١٠	عبس
عدد المقاتلة حوالي ٧٠٠ رجلا	٩	٤٢	أشجع
	١	١٧	حضر موت
عدد المقاتلة حوالي ١٠٠٠ رجلا	٦	٧٨	جهينة
عدد المقاتلة حوالي ١٠٠٠ رجلا	٦	٨٠	سليم
عدد المقاتلة حوالي ١٠٠٠ رجلا	٣	١١	حمير
	٣	٦	غنو
	٢	٢	بنو قينقاع
	٢	٣	بنو النضير
	١	١٥	بنو قريظة
			سائر قبائل اليهود
	٢	١٩	ممن دخل الاسلام
	٥٢١	١٣٤١	الأوس والخزرج
	١٦٩	٣٥٦	قريش
	١٢	٦٣	ثقيف

تابع ملحق رقم (١)

ملحوظات	عدد الأفراد		القبيلة
	أنثى	ذكر	
المجموع	٦١	١٧٥	الموالي مهاجرون لم تعرف قبائلهم
	٨٤	٦٠٥	
	١٠٣٣	٣٧١٨	

ملحق رقم (٢)

(كتاب النبي (ص)، بين المهاجرين والانصار واليهود

وهو المعروف بالصحيفة أو دستور المدينة)*

«هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش و (أهل) يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . إنهم أمة واحدة من دون الناس . المهاجرون من قريش على ربتهم يتعاقلون بينهم وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عوف على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الحارث (بن الخزرج) على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو ساعدة على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو جشم على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النجار على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عمرو بن عوف على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النبيت على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الأوس على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وأن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل . وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه . وأن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة ظلم ، أو إثما ، أو عدوانا ، أو فسادا بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ، ولو كان ولد أحدهم . ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن . وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم . وأن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم . وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا . وأن المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله . وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه . وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن . وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به ، إلا أن يرضى ولي المقتول (بالعقل) ، وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه . وأنه لا يحل لمؤمن أقربا في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه ، وأن من نصره ، أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبة يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل . وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد .

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين

* انظر : ابن اسحاق : السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٤٨ - ٥١ وانظر أيضا ، النص المحقق لحمد الله : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٩ - ٤٧ .

دينهم ، مواليتهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته . وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف . وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف . وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف . وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف . وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، وإلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته . وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم . وأن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وأن البر دون الاثم . وأن موالي ثعلبة كأنفسهم . وأن بطانة يهود كأنفسهم . وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد . وأنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا . وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم . وأنه لا يأثم امرء بحليفه ، وأن النصر للمظلوم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

وأن يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة . وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم . وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها . وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث ، أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره . وأنه لا تجار قریش ولا من نصرها . وأن بينهم النصر على من دهم يشرب . وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين . على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .

وأن يهود الأوس مواليتهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر دون الاثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره . وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن برواقي ، ومحمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .»

ملحق رقم (٣)

(نموذج لكتب النبي (ص)، للملوك وعظماء العالم، كتابه،

صلى الله عليه وسلم، إلى هرقل عظيم الروم) **

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الاسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين . و يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)» .

الملاحق والخرائط: خريطة تقريبية لخطط القبائل...

خزینة تفریبه بخط اقبال لہاکہ فی الہدیۃ المنورۃ فی العصر النجوى

الهام عثمان ماسق

مقسم صاحب البحث



